فتح الولي الحميد شرح كتاب التوحيد

تأليف

سرحان بن غزاي العتيبي

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

((بسم الله الرحمن الرحيم))

الحمد لله الذي وفقنا لمعرفة الحق بدليله منَّةً منه وكرماً فأرسل إلينا خير رسله وجعله خاتمة الأنبياء والمرسلين وأمته خاتمة الأمم وجعله أشرف الأنبياء والمرسلين وأمته أشرف الأمم كما قال تعالى {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ } (110) سورة آل عمران ثم أنزل علينا خير كتبه وهو القران العظيم جعله ناسخاً لما قبله من الكتب ومهيمناً عليها وجعل فيه البيان والإيضاح لكل شيءٍ كما قال تعالى { وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ} (89) سورة النحل فلله المنَّة والفضل أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً ، له الحمد ملء السماوات وملء الأرض وملء ما بينهما وملء ما شاء من شيءٍ بعد ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً نرجوا بها الفوز بالجنة والنجاة من النار وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وصفيه وخليله بلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح للأمة وجاهد في الله حق جهاده حتى أتاه اليقين فصلوات ربي وسلامه عليه وعلى آله الطاهرين وصحبه الغر الميامين وعلى التابعين وتابعيهم بإحسانٍ إلى يوم الدين أما بعد :

فإنَّ من منن الله التي لا حصر لها على هذه الأمة أن جعل لها مجددين على رأس كل قرن من العلماء الصالحين الربانيين الذين هم ورثة الأنبياء بحق يحيي بهم الله جل وعلا ما اندرس من السنن والشرع ويميت بهم الباطل كما قال تعالى {بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ } (18) سورة الأنبياء قال النبي صلى الله عليه وسلم (إن الله يبعث إلى هذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها) رواه أبو داود والترمذي وغيرهما وصححه الألباني (انظر صحيح الجامع حديث رقم 1874) ومن هؤلاء العلماء المجددين شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب التميمي فقد ظهر في زمنٍ اندرس فيه العلم وظهر الجهل واشتدت فيه غربة الدين وصارت الكلمة فيه للضلَّال والمشركين فعبدت الأوثان وذبح لغير الله القربان وكثر الدجالون والسحرة والمشعوذون والكهان وصار حالهم أشبه ما يكون بحال أهل الجاهلية قبل مبعث من أنزل عليه الفرقان ، فقيض الله لهم هذا الإمام المجدد فدحر به الشرك وأذهب به الباطل ونشر به الدين الحق والتوحيد فلله المنة والفضل 0

((الإمام محمد بن عبد الوهاب))

هو محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن علي التميمي وبني تميم قد وردت الأحاديث بفضلهم فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: ما زلت أحب بني تميم منذ ثلاث، سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فيهم، سمعته يقول: (هم أشد أمتي على الدجال). قال: وجاءت صدقاتهم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (هذه صدقات قومنا). وكانت سبية منهم عند عائشة فقال (أعتقيها فإنها من ولد إسماعيل). رواه البخاري في كتاب العتق باب من ملك من العرب رقيقاً

ولد رحمه الله في بلدة العيينة من أرض نجد عام 1115 هـ شمال غرب مدينة الرياض بينها وبين الرياض مسيرة سبعين كيلو متراً تقريباً وبدأ في طلب العلم من وقتٍ مبكر لما أراد الله له من الخير فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم ((من يرد الله به خيراً يفقه في الدين)) فحفظ القران قبل بلوغه العاشرة من عمره ثم أخذ ينهل من العلم فأخذ عن علماء بلده ثم رحل في طلب العلم إلى الحجاز والعراق والأحساء وغيرها وأخذ عن أكابر علماء عصره كالشيخ محمد حياة السندي المدني وإسماعيل العجلوني والشيخ عبد الله بن إبراهيم وغيرهم فلمَّا تضلع بالعلم صدع في بيان الحق وشمَّر في إزالة الباطل وبدأ بمسقط رأسه العيينة وساعده على ذلك أميرها عثمان بن معمر فأزال ما في تلك الجهة من المباني التي شيدت على قبور الصحابة وغيرهم والتي كانت تعبد من دون الله وتقدم لها القرابين كقبرٍ يزعمون أنه لزيد بن الخطاب رضي الله عنه وكذا أزال الأحجار والأشجار التي كانت تعبد من دون الله وأقام الحدود فغصَّ بذلك المشركون وأرباب المصالح وغيرهم فسعوا في إطفاء دعوته ولكن أبى للنور أن يطفأ قال تعالى {يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ} (8) سورة الصف وكان من جملة من حارب دعوة الشيخ ربما لجهلٍ أو مصالح دنيوية (بن عريعر) أمير الأحساء فأرسل إلى عثمان بن معمر أن أخرج هذا الشيخ الذي عندك وإلا لقطعنا عنك الميرة وهدده بنحوٍ من هذه التهديدات فاستدعى بن معمر الشيخ وأخبره بما قال بن عريعر وأمره بالخروج من العيينة لأنه لا يستطيع على بن عريعر فذكره الشيخ بأن الله قد وعد بنصر أوليائه وأن العاقبة للمتقين وأن الله سينصره على بن عريعر وغيره وسيمكن له في الأرض إن هو أقام دين الله ونصر شرعه كما قال تعالى {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} (55) سورة النور ولكن الأمير أصرَّ على رأيه واختار الله آل سعود ليكونوا أنصاراً لهذه الدعوة المباركة فخرج الشيخ من العيينة وتوجه إلى الدرعية وهناك استقبله أميرها الإمام محمد بن سعود وتعاقدا على نصرة الدين والدفاع عنه وبالفعل وفَّيا بما وعدا فأزال الله بهم الباطل ورفع بهم الحق وأهله فهدمت الأوثان والمشاهد والقباب التي كانت تعبد من دون الله كقبر خديجة بالمعلاة بمكة وقبر بن عباس بالطائف وقبر زيد بن الخطاب بالجبيلة بنجد وقبر ضرار بن الأزور بشعيب غبيراء وشجرةً بنجد بالعفيراء كانت تتمسح بها النساء وتقول يافحل الفحول ارزقني بزوجٍ قبل الحول وكل هذه الأماكن وغيرها تصرف لها أنواع العبادات التي هي محض حق الله جل وعلا فتقدم لها القرابين ويطوف بها الرجال والنساء ويدعون أهلها من دون الله ويستشفعون بهم ، فأزالها الله بدعوة هذا الشيخ المبارك وبمناصرة الدولة السعودية أيدها الله حتى أزيلت تلك الشركيات والبدع وعمَّ التوحيد والعلم ، ولقد راسل الشيخ

العلماء والدعاة والأمراء وبين الحق لهم وبين ما يجب عليهم من بيان الحق وإظهاره فأيده أهل الحق والهدى وعارضه أهل الضلال والعمى فممن أيّده عالم اليمن محمد بن إسماعيل الصنعاني (1099-1182)وقال مادحاً له :

وقـد جاءت الأخبار عنه بأنه   يعيد لنا الشرع الشريف بما يبدِ

وينشر جهراً ما طوى كل جاهلٍ   ومبتدعٍ منه فوافق ما عندِ

ويعمر أركان الشريعة هادماً   مشاهد ضلَّ الناس فيها عن الرشدِ

أعـادوا بها معنى سواعٍ ومثله   يغـوث وودٍ بئس ذلك من ودِ

وقد هتفوا عند الشدائد باسمها   كما يهتف المضطر بالصمد الفردِ

وكم عقروا في سوحها من عقيرة   أهلـت لغير الله جهراً على عمدِ

وكم طائفٍ حول القبور مقبلاً   ومستلم الأركـان منهـن بالأيدِ

وقال الإمام محمد بن علي الشوكاني قاضي صنعاء (1172-1255) :

لقد أشرقت نجد بنور ضيائه   وقام مقامات الهدى بالدلائل

فـما هو إلا قائمٌ في زمانه   مـقـام نبيٍ في إماتة باطل

ومن مناصريه الشيخ حسين بن غنام الأحسائي المتوفى سنة 1225هـ وله كتاب في ذكر سيرة الشيخ وجهوده في الدعوة واسمه (عنوان المجد في تاريخ نجد) وقال يمدح الشيخ :

لـقـد رفع المولى به رتبة الهدى   بوقتٍ به يعلى الضلال ويرفع

سقاه نمير الفهم مولاه فارتوى   وعـام بتيار المعـارف يقطع

فأحيا به التوحيد بعد اندراسه   وأوهى به من مطلع الشرك مهيع

سما ذروة المجد التي ما ارتقى لها   سواه ولا حاذى فناها سميدع

وشـمَّـر في منهاج سنة أحمدٍ   يشيد ويحمي ما تعفى ويرفع

وهناك من عارضه وحارب دعوته وهم إمَّا ضلَّال لا يعرفون الحق وقد وقعوا في الشرك وهم لا يعلمون أو مغررٌ بهم وظنوا أنَّ ما قاله الضلَّال في دعوة الشيخ من الأراجيف والكذب حق ، وإما أصحاب منصبٍ وسلطة ويخافون من زوال مناصبهم وذهاب سلطتهم كابن عريعر وغيره ، وإما دجالون ومشعوذون وسدنة قبورٍ ونحوهم وهؤلاء يخافون زوال ما يأتيهم من الجهال والضلَّال من النذور والقرابين ، وقد لفقوا عليه من الأكاذيب والافتراءات الشيء الكثير حتى قالوا إنه يدعي النبوة وأنه يكفر المسلمين وأنه وأنه من الافتراءات والأكاذيب

التي لا دليل عليها بل كتب الشيخ ورسائله تبين بطلانها وقد تجرد الناصحون للرد على هذه الشبه والافتراءات فألف الشيخ كتاب (مفيد المستفيد في حكم تارك التوحيد) يرد فيها على الشبه التي أوردها أخوه سليمان بن عبد الوهاب على دعوة الشيخ ، وألف الشيخ عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب كتاب (جواب أهل السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والزيدية) وألف الشيخ أحمد بن محمد الكتلاني كتاب (الصيب الهطال في كشف شبه بن كمال) وألف الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن أبو بطين ت1282هـ كتاب (تأسيس التقديس في الرد على داود بن جرجيس) وألف الشيخ محمد بن ناصر الشريف 1283 (إيقاظ الوسنان في بيان الخلل الذي في صلح الإخوان) رداً على كتاب صلح الإخوان لداود بن جرجيس ، وألف الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن ت1292هـ (منهاج التأسيس والتقديس في الرد على داود بن جرجيس) وله كتاب (مصباح الظلام في الرد على من كذب على الشيخ الإمام) رد فيه على بن منصور ، وألف الشيخ محمد بشير السهسواني ت1326هـ كتاب (صيانة الإنسان عن وساوس الشيخ دحلان) وألف الشيخ صالح بن محمد الشثري كتاب (تأييد الملك المنان في نقض ضلالات دحلان) وألف الشيخ محمود شكري الألوسي ت1342هـ كتاب (غاية الأماني في الرد على النبهاني ، وأما الشيخ سليمان بن سحمان (ت 1349هـ) فهو صاحب القلم السيال في الرد على مؤلفات الخصوم ورسائلهم ومما كتبه في الرد على الخصوم كتاب (الأسنة الحداد في الرد على علوي الحداد) وكتاب (كشف غياهب الظلام عن جلاء الأوهام) في الرد على مختار أحمد المؤيد ، وكتاب (الصواعق المرسلة الشهابية في الرد على الشبه الشامية) في الرد على محمد عطا الكسم ، وكتاب (الضياء الشارق في رد شبهات المارق) يعني جميل الزهاوي العراقي ، وكتاب (تبرئة الشيخين الإمامين من تزوير أهل الكذب والمين) في الدفاع عن الشيخ الإمام والأمير الصنعاني لأنهم قد ادعوا أن الصنعاني قد رجع عن قصيدته في مدح الشيخ وألف ما يضادها فبين الشيخ سليمان أن هذا كذب وأن القصيدة الأخيرة مقولةٌ على الصنعاني وليست من مقوله إذ فيها ما يناقض آرائه في كتبه في العقيدة ويرجِّح كون حفيده هو الذي كتبها وحفيده معروفٌ أنه من معارضي الدعوة فسبحان من يخرج الميت من الحي ومن المناصرين لدعوة الإمام الشيخ محمد رشيد رضا المتوفى سنة 1354هـ فقد كتب مدافعاً عنها كثيراً في مجلته المنار وطبع كتب علماء الدعوة وألف كتاب (السنة والشيعة أو الوهابية والرافضة) وكتب الشيخ مسعود الندوي ت1373هـ (محمد بن عبد الوهاب مصلحٌ مظلومٌ ومفترىً عليه) وألف فوزان السابق ت1373هـ (البيان والإشهار لكشف زيغ الملحد الحاج مختار) ردَّ فيه على مختار أحمد المؤيد ، إلى غير ذلك من الكتب والمؤلفات التي بينت عقيدة الإمام وأنه على منهج النبي صلى الله عليه وسلم وصحبه وردَّت على من أراد الصدَّ عن دعوة الحق بالأكاذيب

والإفتراءات التي لا دليل عليها ، ولكن صدق الله وعده ونصر جنده وجعل العاقبة للمتقين فانتصرت دعوة الشيخ وبلغت الآفاق وتأثر بها كل العالم الإسلامي فقامت دعوات الإصلاح في العالم الإسلامي على إثرها ونشط الداعون للحق حتى ظهر وصار لأهله الكلمة فلله الحمد والمنَّة ، ولقد توفي الشيخ عام 1206هـ ودفن بالدرعية فرحمه الله رحمةً واسعةً وأسكنه فسيح جناته

((ثناء العلماء على كتاب التوحيد وحرصهم على تعلمه وتعليمه))

إبتدأ الشيخ تأليف كتاب التوحيد بالبصرة كما ذكر حفيده الشيخ عبد الرحمن بن حسن في الدرر السنية (215/9) في رده على عثمان بن منصور حيث قال : إن جده ألف كتاب التوحيد بالبصرة بينما ذكر غيره أن الشيخ ألفه في حريملاء وذلك بعد رجوعه من العراق والأحساء ويمكن الجمع بينهما بأنه ابتدأ تأليفه في العراق وأتمه بحريملاء أو أنه أتمه بالبصرة ولم يظهره إلا في حريملاء والله تعالى أعلم 0

ولقد أثنى العلماء على كتاب التوحيد لما حوى من علومٍ جمةٍ في التوحيد على صغر حجمه ولكون مؤلفه أعتمد على أدلة الكتاب والسنة وخالف منهج المتكلمين والفلاسفة الذين يقدمون العقل على النقل ولذلك قال الشيخ سليمان بن عبد الله ال الشيخ عن كتاب التوحيد : هو كتابٌ فردٌ في معناه لم يسبق إليه سابق ولا لحقه فيه لا حق ا0هـ وقال الشيخ عبد الرحمن بن حسن : لقد ألف الشيخ بالبصرة كتاب التوحيد الذي شهد بفضله القريب والبعيد ، وقال الشيخ عبد الرحمن بن قاسم : ليس له نظيرٌ في الوجود من ذلك قول الشيخ سليمان بن سحمان شعراً :

قد ألف الشيخ في التوحيد مختصراً ... يكفي أخا اللب إيضاحاً وتبيانا

فيه البيان لتوحيد الإلـه بما ... قـد يفعل العبد للطاعات إيمانا

حباً وخوفاً وتعظيماً له ورجا ... وخشيةً منه للرحمن إذعانا

وغير ذلك مما كان يفعله ... لله من طاعةٍ سراً وإعلانا

وفيه توحيدنا رب العباد بما ... قد يفعل الله إحكاماً وإتقانا

وفيه توحيدنا الرحمن أن له ... صفات مجدٍ وأسماءٌ لمولانا

وفيه تبيان إشراك يناقضه ... بل ما ينافيه من كفران من خانا

أو كان يقدح في التوحيد من بدعٍ ... شنعاء أحدثها من كان فتانا

أو المعاصي التي تزري بفاعلها ... ما ينقص توحيداً وإيمانا

فساق أنواع توحيد الإلـه كما ... قد كان يعرفه من كان يقاظانا

وساق فيه الذي قد كان ينقصه لتعرف الحق بالإضداد إمعانا

مضمناً كل بابٍ من تراجمه من النصوص أحاديثاً وقرآنا

الشيخ ضمنه ما يطمئن له قلب الموحد إيضاحاً وتبيانا

فاشدد يديك بهذا الأصل معتصماً يورثك فيما سواه الله عرفانا

وانظر بقلبك في مبنى تراجمه تلقى هنالك للتحقيق عنوانا

وللمسائل فانظر تلقها حكماً يزداد منهن أهل العلم إتقانا

وقل جزى الله شيخ المسلمين كما قد شاد للملَّة السمحاء أركانا

وقد شرحه جمعٌ من أهل العلم منهم الشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب في كتاب (تيسير العزيز الحميد) وشرحه الشيخ عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب ت1285هـ في كتاب (فتح المجيد) وشرحه الشيخ حمد بن علي بن عتيق في كتاب (إبطال التنديد) وشرحه الشيخ فيصل بن مبارك ت1376هـ وشرحه الشيخ عبد الرحمن السعدي في كتاب (القول السديد) وشرحه الشيخ محمد بن صالح العثيمين ت1421هـ في كتاب (القول المفيد) وشرحه الشيخ صالح بن فوزان الفوزان في كتاب (الملخص على كتاب التوحيد) وشرحه الشيخ علي الخضير في كتاب (الجمع والتجريد على كتاب التوحيد) وشرحه الشيخ عبد الملك بن قاسم في كتاب (الشرح الميسر على كتاب التوحيد) ولجده الشيخ عبد الرحمن بن قاسم حاشية عليه وكذا للشيخ عبد العزيز بن باز تعليقات عليه وغير ذلك من الشروحات والتعليقات والحواشي الكثيرة منها ما هو مكتوبٌ ومنها ما هو مسجل في أشرطةٍ ونحوها مما يدل على عناية العلماء بهذا الكتاب واهتمامهم به حتى جعلوه أحد المتون التي لا بد أن يبتدأ بها طالب علم العقيدة ولذا اعتمدت الحكومة السعودية جزاها الله خيراً تدريس هذا الكتاب في مدارسها وعمَّ نفعه القريب والبعيد وظهرت ثماره يانعةً متجددة فلله الحمد والمنَّة أولاً وآخراً وجزى الله مؤلفه خير الجزاء وأسكنه فسيح جناته وجعل هذا المؤلف العظيم في سجل حسناته إنه جوادٌ كريم وجزى الله من ساعد في نشر هذا المؤلف خيراً سواءً بطبعه وتوزيعه أو بشرحه وتدريسه أو بيان فضله وعلو منزلته 0

بسم الله الرحمن الرحيم

في شرح الشيخ محمد العثيمين القول المفيد وفي شرح الشيخ صالح الفوزان الملخص لا يوجد بسملةٌ في متن كتاب التوحيد عندهم ويوجد في غيرهما ككتاب فتح المجيد وحاشية بن قاسم وغيرهما لكنه في الجميع لا يوجد مقدمةٌ بالحمدلة والصيعلة قال بن قاسم : لعله حمد وتشهد نطقاً عند وضعه للكتاب واقتصر على البسملة لأنها من أبلغ الثناء والذكر وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقتصر عليها في مراسلاته فكأنه أجراه مجرى الرسائل لأهل العلم (حاشية بن قاسم ص9) وقال عبد الرحمن بن حسن : وقع لي نسخةٌ بخطه بدأ فيها بالبسملة وثنى بالحمد والصلاة على النبي وآله (فتح المجيد ص8)

وقد ابتدأ المؤلف بالبسملة إقتداءً بالكتاب العزيز وتأسياً بالنبي صلى الله عليه وسلم في مكاتباته وعملاً بحديث (كل أمرٍ ذي بالٍ لا يبدأ فيه ببسم الله فهو أقطع) أخرجه بن حبان من طريقين وقال بن الصلاح : الحديث حسن (فتح المجيد ص8)

والتقدير / أولف حال كوني مستعيناً بذكر الله متبركاً به 0

وسيأتي الكلام على التبرك الجائز والممنوع مفصلاً إن شاء الله في باب من تبرك بشجرٍ أو حجرٍ ونحوهما وهو الباب السابع من هذا الكتاب المبارك 0

والاسم / مشتقٌ من السمو وهو العلو ، وقيل من الوسم وهو العلامة

والله / مشتقٌ من الإله أي من له الألوهية ، قال بن جرير قال بن عباس (هو الذي يألهه كل شيء ويعبده كل خلق) (فتح المجيد ص10) ومعنى يألهه من الوله وهي العبادة مع المحبة والتعظيم وقرأ بن عباس ((ويذرك وإلاهتك)) قال عبادتك كان يُعبد ولا يَعبُد اهـ ولكن هذا الاسم هو الجامع لمعاني الأسماء الحسنى والصفات العلى فهي راجعةٌ إليه ولذلك قال تعالى {وَلِلّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُواْ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَآئِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} (180) سورة الأعراف ولقد قيل إنه اسم الله الأعظم الذي إذا سأل به أعطى وإذا دعي به أجاب ، وقيل إن الاسم الأعظم هو (الحي القيوم) وقيل (إنه بحسب حال الداعي) وقيل غير ذلك 0

الرحمن / ذو الرحمة العامة لجميع الخلق ، وهذا الاسم خاصٌ بالله جل وعلا والكفار ينكرون اسم الرحمن كما قال تعالى {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا*} (60) سورة الفرقان وقال سهيل بن عمرو قبل إسلامه لما كتب النبي صلى الله عليه وسلم في صلح الحديبية (بسم الله الرحمن الرحيم) قال سهيل : لا نعرف الرحمن ولكن اكتب باسمك اللهم ، وكانوا يقولون محمد يأمرنا أن نفرد الله بالعبادة وهو يدعوا إلهين الله والرحمن فرد عليهم الله تعالى بقوله {قُلِ ادْعُواْ اللّهَ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى } (110) سورة الإسراء وهم في حقيقة أمرهم مقرين به ولكنهم ينكرونه تكبراً وعناداً قال تعالى مخبراً عنهم أنهم

يقولون { وَقَالُوا لَوْ شَاء الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ } (20) سورة الزخرف ويمكن أن يكونوا اعترفوا بذلك لمقام المخاصمة واللجاج والله تعالى أعلم 0

الرحيم / ذو الرحمة الخاصة بالمؤمنين قال تعالى {هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا} (43) سورة الأحزاب والصلاة من الله ثناؤه على عبده في الملأ الأعلى والصلاة من الملائكة الإستغفار ومن الناس الدعاء فإذا رضي الله على عبده وأثنى عليه عند ملائكته واستغفرت له الملائكة كان مآل ذلك العبد الخروج من الظلمات إلى النور وكل ذلك برحمة الله جل وعلا قال في المصباح المنير للمباركفوري ((ليخرجكم من الظلمات إلى النور)) أي بسبب رحمته بكم وثنائه عليكم ودعاء ملائكته لكم يخرجكم من ظلمات الجهل والضلال إلى نور الهدى واليقين ((وكان بالمؤمنين رحيماً)) أي في الدنيا والآخرة أما في الدنيا فإنه هداهم إلى الحق الذي جهله غيرهم وبصرهم الطريق الذي ضل عنه وحاد عنه من سواهم من الدعاة إلى الكفر أو البدعة وأتباعهم من الطغاة ، وأما رحمته بهم في الآخرة فآمنهم من الفزع الأكبر وأمر ملائكته يتلقونهم بالبشارة بالفوز بالجنة والنجاة من النار وما ذاك إلا لمحبته لهم ورأفته بهم ا0هـ وأسماء الله كلها مشتقةٌ تدل على صفات الكمال المطلق وليست أسماء مجردة كما يدعي المعتزلة بل تتضمن صفات الكمال ونعوت الجلال وأهل السنة والجماعة يثبتون لله الأسماء الحسنى والصفات العلى من غير تمثيل ولا تكييف ولا تحريفٍ ولا تأويل في أدلةٍ كثيرةٍ منها قوله تعالى { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ} (11) سورة الشورى وقوله تعالى {فَلاَ تَضْرِبُواْ لِلّهِ الأَمْثَالَ إِنَّ اللّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ} (74) سورة النحل وقوله تعالى {رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا} (65) سورة مريم وغير ذلك ولا يستلزم الإتفاق في الاسم الإتفاق في المسمى فللفيل يد وللنملة يد فإثباتنا أن للنملة يد لا يقتضي أنها مشابهةً ليد الفيل فهذا بين المخلوقات فكيف بين الخالق والمخلوق وقد يطلق على الإنسان حكيم وهو من أحمق الناس وقد يطلق عليه رحيم وهو من أقسى الناس فكيف يشبه الناقص من كل وجه بالكامل من كل وجه وإذا انتفى التمثيل فالتكييف من باب أولى لأن تصوير الشيء على هيئة شيءٍ موجود أقرب إلى العقل من تصويره بالخيال على هيئة شيءٍ غير موجود أو موجود لكنه بعيد كأن يسئل عن يد الجني مثلاً فيقول هي على هيئة حربة لها ثلاث رؤوس أو نحو ذلك من الكيفيات وباب الكيفيات والخيال واسع بخلاف باب التمثيل فإنه يقتصر على مثل قريب كاليد باليد فيقول مثلاً يد الجني مثل يد الإنسان أو مثل يد البعير فهذا أقرب من السابق فإذا نفينا المثل فمن باب أولى أن ننفي الكيف وأما التحريف فهو صرف اللفظ إلى معنىً غير موجودٍ لا شرعاً ولا لغةً ولا عرفاً ، وأما التأويل فهو صرفه إلى لفظٍ موجود إما شرعاً أو لغةً أو عرفاً وهذا يعمل به في مسألةٍ إذا قام الدليل على العمل

به فيها وأما إذا لم يوجد دليلٌ فلا يعمل به فإذا نفينا التأويل عن الأسماء الحسنى والصفات العلا لعدم ورود دليل على جواز التأويل فيها فمن باب أولى أن ننفي التحريف ، وقد بينا منهج أهل السنة والجماعة في الأسماء والصفات في كتاب طريق الناجين 0

ورحمة ربنا لا حدود لها فالله جل في علاه متصفٌ بالرحمة الواسعة كما قال تعالى { وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ} (156) سورة الأعراف وقال تعالى {قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُل لِلّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ } (12) سورة الأنعام وقال تعالى {وَإِذَا جَاءكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} (54) سورة الأنعام وقال تعالى { وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّآلُّونَ} (56) سورة الحجر وقال تعالى {قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنفَاقِ وَكَانَ الإنسَانُ قَتُورًا} (100) سورة الإسراء وقال تعالى {وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلًا} (58) سورة الكهف وقال تعالى {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ } (53) سورة الزمر وقال تعالى {الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ} (7) سورة غافر والآيات في هذا المعنى كثيرة وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم (إن الله خلق يوم خلق السماوات والأرض مائة رحمة. كل رحمة طباق ما بين السماء والأرض فجعل منها في الأرض رحمة. فبها تعطف الوالدة على ولدها. والوحش والطير بعضها على بعض. فإذا كان يوم القيامة أكملها بهذه الرحمة) وفي رواية (جعل الله الرحمة مائة جزء. فأمسك عنده تسعة وتسعين. وأنزل في الأرض جزءا واحداً. فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق. حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها، خشية أن تصيبه)وقال صلى الله عليه وسلم (إن الله عز وجل لما خلق الخلق كتب بيده على نفسه: إن رحمتي تغلب غضبي) وعن عمر بن الخطاب أنه قال قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم بسبي. فإذا امرأة من السبي تبتغي إذ وجدت صبياً في السبي فأخذته فألصقته ببطنها وأرضعته. فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم "أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار؟" قلنا: لا. والله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لله أرحم بعباده من هذه بولدها) وعن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال (أسرف رجل على نفسه. فلما حضره الموت أوصى بنيه فقال: إذا أنا مت فأحرقوني. ثم اسحقوني. ثم اذروني في الريح وفي البحر. فوالله لئن قدر عليَّ ربي ليعذبني عذاباً ما عذبه به أحد. قال ففعلوا ذلك به. فقال للأرض: أدي ما

أخذت. فإذا هو قائم. فقال له: ما حملك على ما صنعت؟ فقال: خشيتك. يا رب أو قال مخافتك. فغفر له بذلك) وعن أبي موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال (إن الله عز وجل يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويبسط يده بالنهارليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها) وقال (إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر) وعن أنس بن مالك قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (قال الله تبارك و تعالى: يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان فيك ولا أبالي. يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي. يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئا لأتيتك بقرابها مغفرة") وقال النبي صلى الله عليه وسلم (لو لم تذنبوا لجاء الله بقوم يذنبون فيغفر لهم) وقال (التائب من الذنب، كمن لا ذنب له) (لله أشد فرحا بتوبة عبده المؤمن من رجل في أرض دوية مهلكة. معه راحلته. عليها طعامه وشرابه. فنام فاستيقظ وقد ذهبت. فطلبها حتى أدركه العطش. ثم قال: أرجع إلى مكاني الذي كنت فيه. فأنام حتى أموت. فوضع رأسه على ساعده ليموت. فاستيقظ وعنده راحلته وعليها زاده طعامه وشرابه. فالله أشد فرحا بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته وزاده) والآيات والأحاديث في هذا الباب كثيرة

ملاحظة / قال بعض الناس في خزنة جهنم إنهم بعدد حروف البسملة في قوله تعالى {عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ } (30) سورة المدثر وهذا القول خاطئٌ من وجوه :

الأول / أن آيات البسملة عشرين وليست تسعة عشر لأن كلمة (الرحمن) سبعة حروف لوجود ألفٍ بعد الميم لم تكتب إقتداءً بالخط العثماني لكنها محسوبة 0

الثاني / أن البسملة تتضمن كلماتها التأله لله والإستعانة والتبرك به وطلب رحمته وبيان سعتها فلا يتناسب ذكرها مع العذاب ولذلك لم تذكر في سورة براءة لنزولها بالسيف وقتل الكفار والبراءة منهم ، ولذلك لا ينبغي أن يقول الداعي (يارحيم يارحمن أهلك الكفار وعذبهم) ولكن يقول (يا شديد العقاب ياذا البطش الشديد ونحو ذلك) ولا يقول (يا شديد العقاب أغفر لوالدي وارحمهما) ولكن يقول (يا غفور يا رحيم) وهكذا فالذين ذكروا أن عدد خزنة جهنم التي هي عذاب الله بعدد حروف البسملة التي فيها ذكر رحمة الله قد جمعوا بين أمرين متعارضين 0

الثالث / أن تفسير البسملة وحروفها بمثل هذا قولٌ لا دليل عليه وهذا تفسيرٌ للقران بمجرد الهوى والرأي وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم (من قال في القران برأيه فأصاب فقد أخطأ) فهذا المصيب فكيف وهم مخطئون ، وقد سمع في الآونة الأخيرة تفسيراتٌ غريبة إنما هي في الحقيقة تلاعبٌ بالنصوص كالذين يفسرون

سقوط برجي التجارة في أمريكا بقوله تعالى {أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىَ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} (109) سورة التوبة وقالوا إن رقم الاية يدل على رقم الشارع ورقم الصفحة يدل على التاريخ و ((جُرُفٍ هَارٍ)) هو اسم الولاية أو الحي ومن هذه الخزعبلات التي اخترعوها وفسروا بها كلام الله فنقول { سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ } (16) سورة النور فالواجب الحذر من مثل هذه التفاسير والإعتماد على الكتب الموثوقة في التفسير كتفسير الطبري والقرطبي وبن كثير وغيرهم من أعلام المسلمين 0

وهناك مسائل كثيرة في البسملة فيها خلافٌ بين أهل العلم مثل مسألة هل البسملة آيةٌ من كل سورة عدا براءة أم هي آيةٌ مستقلة وهل هي آيةٌ من الفاتحة أم هي آيةٌ مستقلة و هل يجب القراءة بها قبل الفاتحة وقبل جميع السور عدا براءة أم لا يجب وهل يجب الجهر بها أم لا يجب وغير ذلك من المسائل وهي مبسوطةٌ في كتب الفقه والتفسير والراجح عندي أن البسملة آيةٌ مستقلة ليست من الفاتحة ولا من غيرها إلا التي في سورة النمل فإنها منها بالإجماع ، والبسملة أُتِيَّ بها للفصل بين السور ، ولا يجب الجهر بها في الصلاة بل الإسرار أفضل وأكثر قراءة النبي صلى الله عليه وسلم بها إسراراً لكن لا ينكر على من جهر بها خلافاً لفعل الحنابلة مع إمام الحرم وكان شافعي المذهب يرى وجوب الجهر بالبسملة فقالوا لا تجهر فأبى إلا الجهر فلمَّا أصروا عليه قال : إذن امسحوها من المصاحف فإني ما دمت أراها في المصاحف فسأقرأ بها جهراً 0 والشافعية رحمهم الله بنوا مذهبهم على أن البسملة آيةٌ من الفاتحة فحكمها حكم باقي الفاتحة مستدلين بقوله تعالى {وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ} (87) سورة الحجر وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أنها الفاتحة والفاتحة بدون البسملة ست آيات كما في المصاحف العثمانية ، والذي رجحه الشيخ بن عثيمين أن آيات الفاتحة سبعٌ بدون البسملة وأن الآية الأخيرة {صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ} أصلها آيتين ((صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ)) آية ((غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ)) آية أخرى لتتناسب آيات السورة في طولها والله تعالى أعلم 0

كتاب التوحيد

كتاب / مصدر كتب يكتب كتاباً وكتابةً ، ومدار مادته على الجمع ومنه سميت الكتيبة وهي المجموعة من الفرسان ، وسمي الكتاب كتاباً لكونه يجمع في داخله حروفاً وكلمات 0

التوحيد / لغةً : مصدر وحد يوحد توحيداً وموحداً إذا أفرد الشيء ولم يجعل معه أحد 0

شرعاً / إفراد الله بما يختص به من الربوبية والألوهية والأسماء والصفات

وأنواع التوحيد ثلاثة :

الأول / توحيد الربوبية / وهو إفراد الله بأفعاله كالخلق والرزق والإحياء والإماتة ونحوها فلا يشرك معه غيره فيها 0

الثاني / توحيد الربوبية / وهو إفراد الله بأفعال العباد كالصلاة والزكاة والحج والصيام والذبح والنذر وغيرها من أنواع العبادات فلا يصرف منها شيءٌ لغيره 0

الثالث / توحيد الأسماء والصفات / وهو إفراد الله بأسمائه وصفاته فلا يجعل له مثيل فيها ولا تكيَّف ولا تعطَّل ولا تحرَّف ولا تأوَّل بلا دليل 0

وبعضهم يختصر أنواع التوحيد في نوعين هما :

الأول / توحيد المعرفة والإثبات وهذا يشمل توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات لأنك إذا عرفت إن الله هو وحده الخالق وما سواه مخلوق فقد أقررت بتوحيد الربوبية ويتضمن ذلك الإقرار باسم الله الخالق وإثبات صفة الخلق له وهذا توحيد الأسماء والصفات 0

الثاني / توحيد الإرادة والقصد والطلب ، وهذا توحيد الألوهية أو العبادة لأن الله تعالى أرادها من العبد فهي مطلوبةٌ منه والعبد يقصد ربه بها أي يتوجه إليه وحده بهذه العبادة 0

قال بن القيم : كل سورةٍ في القران هي متضمنةٌ لنوعي التوحيد شاهدةً به داعية إليه فإن القران إما مخبرٌ عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله وأقواله فهو التوحيد العلمي الخبري وإما دعوةٌ إلى عبادته وحده لا شريك له وخلع ما يعبد من دونه فهو التوحيد الإرادي الطلبي ، وإما أمرٌ ونهي وإلزامٌ بطاعته وأمره ونهيه فهو حقوق التوحيد ومكملاته ، وإما خبرٌ عن إكرام أهل التوحيد وما فعل بهم في الدنيا وما يكرمهم به في الآخرة فهو جزاء

توحيده ، وإما خبرٌ عن أهل الشرك وما فعل بهم في الدنيا من النكال وما يحلُّ بهم في العقبى من العذاب فهو جزاء من خرج عن حكم التوحيد اهـ (نقلته من فتح المجيد ص15-16)

والتوحيد واحدٌ لا يتجزأ فمن خرج من نوعٍ منه فقد خرج منه بالكلية وإنما ذكر العلماء هذا التقسيم للتوحيد لبيان التوحيد وتوضيحه لأن من الناس من جعل أحد هذه الأنواع هو التوحيد كله وأنكر الباقي كالمتكلمين وهم المعتزلة والأشاعرة الذين يجعلون التوحيد هو توحيد الربوبية فقط ولا يجعلون توحيد الألوهية لازماً مع تعطيلهم لتوحيد الأسماء والصفات ولذلك يفسرون كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) بقولهم (لا قادر على الإختراع إلا الله) ويريدون بالاختراع الخلق من العدم ، فلأجل الرد على هؤلاء وأمثالهم الذين يقصرون التوحيد على أحد أنواعه أستخرج العلماء من الكتاب والسنة أنواع التوحيد ووضحوها وبينوها لأجل أن تعرف فلا تترك مع قولهم إنه لا يكفي الإقرار والعمل بأحد هذه الأنواع مع ترك البقية بل لا بد من العمل بها جميعاً وأن من ترك العمل بواحدٍ من هذه الأنواع فهو كمن قال الله فيهم { أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاء مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ} (85) سورة البقرة

وقول الله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: 56] وقوله : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل : 36] . وقوله : ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً ﴾ [الآيات الإسراء : 23] وقوله ﴿ وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً ﴾ [النساء : 36] . وقوله ﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً ﴾ الآيات [الأنعام : 151] .

قال ابن مسعود : من أراد أن ينظر إلى وصية محمد صلى الله عليه وسلم التي عليها خاتمه فليقرأ قوله تعالى ﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾ إلى قوله ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً ... ﴾ الآية [الأنعام : 153] . وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : كنت رديف النبي صلى الله عليه وسلم على حمار فقال لي : « يا معاذ أتدري

ما حق الله على العباد ، وما حق العباد على الله » ؟ فقلت : الله ورسوله أعلم . قال : « حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ، وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً » . فقلت : يا رسول الله أفلا أبشر الناس ؟ قال « لا تبشرهم فيتكلوا » . أخرجاه في الصحيحين .

هذه الآيات والأحاديث تبين لماذا خلق الخلق ؟ ولماذا بعثت الرسل ؟ وتبين أعظم مطلوب وهو التوحيد وتحذر من أعظم محذور وهو الشرك وتبين معنى لا إله إلا الله كلمة التوحيد الخالدة ف (لا إله) نفي عبادة ما سوى الله (إلا الله) إثبات العبادة لله وحده فيكون معناها (لا معبود بحقٍ إلا الله) وليس كما يقوله المتصوفة وأهل الكلام أن معناها (لا قادر على الإختراع إلا الله) لأن هذا توحيد الربوبية وقد أقرت به الأمم ومع ذلك لم ينفعهم لإشراكهم في الألوهية فبعث الله لهم الرسل ليقروا بتوحيد الألوهية وهو توحيد العبادة وهو معنى لا إله إلا الله وكفار قريش والعرب أعرف من هؤلاء بمعنى لا إله إلا الله وأن معناها نفي عبادة ما سوى الله ولذلك لم يقروا بها كما قال تعالى {إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (35) وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ} (36) سورة الصافات وقالوا {أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ} (5) سورة ص مع إقرارهم بتوحيد الربوبية كما قال تعالى {قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (84) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (85) قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (86) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (87) قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (88) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ} (89) سورة المؤمنون وقوله تعالى {قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيَّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللّهُ فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ} (31) سورة يونس وقال تعالى {وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ} (9) سورة الزخرف وقال تعالى {وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ} (87) سورة الزخرف ومع ذلك قاتلهم النبي صلى الله عليه وسلم وعدَّهم مشركين لأنهم أشركوا في توحيد الألوهية وعبدوا مع الله غيره ، وقد قال تعالى {قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (1) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (2) وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ} (3) سورة الكافرون فلو كان المقصود بالعبادة توحيد الربوبية لكانوا عابدين لما يعبد النبي صلى الله عليه وسلم لإقرارهم بتوحيد الربوبية كما تقدم ، و قال تعالى {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ} (25) سورة الأنبياء ، فالإله هو المألوه الذي يستحق العبادة وليس هو بمعنى القادر على الإختراع كما يقوله الذين يجعلون إثبات ذلك هو الغاية في التوحيد فهؤلاء لم يعرفوا حقيقة التوحيد الذي بعث الله به رسله ، ومن فَقِه كتاب الله وسنة نبيه علم أن االأمم التي بعث الله لها رسله كانوا مقرين بتوحيد الربوبية وما جحده أحدٌ منهم إلا عناداً وتكبراً مع إقرارهم بها في قرارة أنفسهم كما قال تعالى عن الفراعنة وأتباعهم

{وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ} (14) سورة النمل ولذلك خاطبه موسى عليه السلام بما يقرُّ به في نفسه فقال له { لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاء إِلاَّ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَونُ مَثْبُورًا} (102) سورة الإسراء وهكذا يقال للشيوعيين الذين ينكرون وجود الله أنهم على طريقة فرعون وكذلك المجوس الذين يجعلون الخالق هو الظلمة والنور ولا يسوون بينهما بل يجعلون النور خير فهو خالق الخير عندهم والظلمة تخلق الشر والنور قديم والظلمة حادثة والنور أكمل في ذاته فهو وجودٌ يضيء والظلمة عدم إلى غير ذلك من الخزعبلات التي اخترعوها وانكروا بها وجود الله وربوبيته عليهم فإنما ذلك منهم عنادٌ وكبر مع إقرارهم بذلك في نفوسهم فالله جل وعلا قد أقرَّ في فطر الناس الإيمان بربوبيته كما قال تعالى {وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ} (172) سورة الأعراف ولذلك ألزمهم الله بعبادته بمقتضى ربوبيته فكما أنكم تقرون أنه ربكم فيلزمكم أن تعبدوه وحده قال تعالى {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} (21) سورة البقرة

والعبادة / لغةً : التذلل والخضوع ومنه طريقٌ معبد أي مذلل يسهل السير عليه 0

اصطلاحاً / اسمٌ جامعٌ لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة

فالظاهرة كالصلاة والصوم والزكاة والحج والجهاد وغيرها والباطنة كالخوف والرجاء والمحبة والخضوع ونحوها 0

ومعنى قوله تعالى ((إلا ليعبدون)) أي ليوحدون ويفردون بالعبادة ،والجن من الستر لأنهم مستورون عنا ومنه سمي الجنة للبستان لأنه مستورٌ بالأشجار والخضرة وجنة الآخرة نعيمها مستورٌ عنا ، والجن عالمٌ غيبيٌ بالنسبة لنا نصدق به لثبوت وجودهم في الكتاب والسنة وهم مخلوقون من نار ومكلفون ومنهم المؤمن ومنهم الكافر وقد نزلت فيهم سورة كاملة هي سورة الجن ، وأما الإنس فسموا بذلك والله أعلم من الإيناس لأنهم يأنسون ببعض وقيل من النسيان لأنهم ينسون والله تعالى أعلم ، فقوله تعالى ((وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون)) أي ما أوجدتهم إلا للعبادة فالآية توضح السبب الذي لأجله خلق الله الجنَّ والإنس ألا وهو العبادة كما قال تعالى {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ} (115) سورة المؤمنون تعالى الله عن العبث بل خلقنا لغايةٍ عظمى وأمرٍ نبيل ألا وهو توحيد الله وتعظيمه وإفراده بالعبادة ولذلك قال تعالى {أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى} (36) سورة القيامة أي لا يؤمر ولا ينهى ، فالتوحيد أعظم مطلوب فلأجله خلق الخلق ، ولأجله بعثت

الرسل كما قال تعالى {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ } (36) سورة النحل وقال تعالى {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ} (25) سورة الأنبياء

والطاغوت من الطغيان وهو مجاوزة الحد فكل ما تجاوز به العبد حده من معبود كالأصنام والأوثان أو متبوعٍ كعلماء السوء أو مطاع كأمراء الفجور فيعبدهم أو يطيعهم في عبادة غير الله وتحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل الله فقد عبد الطاغوت وقد قال تعالى {لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} (256) سورة البقرة

والطواغيت كثيرون ورئيسهم إبليس ثم أعظم أتباعه من عُبِدَ وهو راض ومن دعى الناس إلى عبادة نفسه أو عبادة آخرين غير الله ، والكهان والعرافين والسحرة طواغيت ، ولقد بعث الله رسله أولهم نوح وآخرهم محمد صلى الله عليهم وسلم إلى الناس لأجل هذا الأمر وهو ((أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ)) إفراد الله بالعبادة وترك الشرك لا بل والابتعاد عنه لأن الإجتناب يشمل الترك ويشمل المجانبة والمباعدة فهو أعظم مما لو قال ((واتركوا الطاغوت)) لأن مجرد الترك لا يعني الإبتعاد عن المتروك لكن الاجتناب يقتضي ذلك ومعناه أن تكون أنت في جانب وهو في جانبٍ آخر لست قريباً منه مطلقاً وهذا غاية التحذير من الطواغيت ، فياللعجب ممن يذهبون للسحرة والكهنة بعد هذا التحذير وأعجب منهم من يذهبون للقبور والأولياء يصرفون لهم من أنواع العبادات مع كثرة الآيات والأحاديث التي تحذر من هذا غاية التحذير وتبين أنه الشرك الأكبر الذي لا يغفر لصاحبه وسيأتي إن شاء الله جملةً من هذه الآيات والأحاديث في ثنايا هذا الشرح إضافةً إلى ما ذكره المؤلف فإنه ما ألف هذا الكتاب إلا لأجل التحذير من الشرك والدعوة إلى التوحيد وبيان الحق لمن كان له قلبٌ أو ألقى السمع وهو شهيد 0

والأمة تطلق على أربعة معان :

1-الطائفة من الناس وهم الجماعة وهذا هو المراد في هذه الآية

2-الإمام قال تعالى {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا } (120) سورة النحل

3-الملة كما قال تعالى { وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ} (23) سورة الزخرف أي دين وملة 0

4-الزمن قال تعالى {وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَاْ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ} (45) سورة يوسف

ثم أورد المؤلف الآية الثالثة وهي قوله تعالى ((وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً)) [الإسراء : 23] أي حكم وألزم وأوجب وأمر شرعاً لا قدراً ، فالقضاء نوعان : قدري وشرعي فالشرعي قد جعل الله للعبد

فيه مشيئة وخيَّره بين فعل ما أمر به شرعاً وله الجنة أو تركه وله النار ، وأما القضاء القدري فلا مشيئة للعبد فيه وهو واقعٌ عليه لا محالة رضي أو لم يرضى ، وفي هذه الآية قد أوجب الله على العباد شرعاً أن يعبدوه وحده ولا يشركوا معه في عبادته غيره ، وهذا معنى (لا إله إلا الله) ، والفرق بين القضاء الشرعي والقدري أن القضاء الشرعي مأمورٌ بامتثاله وأما القضاء القدري فلا أمر فيه ، والقضاء الشرعي يحبه الله والقضاء القدري قد يحبه وقد لا يحبه وإنما قضاه عقاباً على قوم كقوله تعالى {وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا} (4) سورة الإسراء والله جل وعلا لا يحب الفساد ولكن قضاه عليهم قدراً عقاباً لهم لعلمه جل وعلا أنهم يسعون في ذلك جاهدين كقوله تعالى {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} (5) سورة الصف وقد يكون المقضي محبوباً لغيره كالفقر والمرض يقضيه الله على عباده لحكم بالغة منها أن يعرفوا قدر نعمة الله عليهم قبل إصابتهم بها فيتوبوا من ذنوبهم ويرجعوا إلى ربهم كما قال تعالى {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} (41) سورة الروم ومنها تمحيص الذنوب ورفعة الدرجات ، ومنها إظهار رحمة الله بشفائهم من مرضهم وإغنائهم من فقرهم ، ومنها إزدياد تضرعهم والتجائهم إلى ربهم لأن من الناس من لو كان مستصحاً غنياً لطغى وتمرد فكان بقاءه على فقره ومرضه خيرٌ له في عاقبة أمره ، إلى غير ذلك من الأسرار التي أودعها ربنا جل وعلا فيما يقضيه على عباده 0

وفي الآية الرابعة يقول تعالى {وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا} (36) سورة النساء وأورد المؤلف الشاهد منها على الأمر بالتوحيد والنهي عن الشرك وهو قوله تعالى ((وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا))

وفي الآية الخامسة وهي قوله تعالى {قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُم مِّنْ إمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} (151) سورة الأنعام ذكر سبحانه الشرك أول المحرمات وذلك لأنه أعظمها فالشرك محبطٌ لجميع الأعمال كما قال تعالى {وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ(65)بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنْ الشَّاكِرِينَ} (66) سورة الزمر وقال تعالى {ذَلِكَ هُدَى اللّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} (88) سورة الأنعام والشرك هو الذنب الذي لا يغفره الله كما قال تعالى {إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء وَمَن يُشْرِكْ

بِاللّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا } (48) سورة النساء وقال ي آية أخرى تأكيداً لهذا الأمر {إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيدًا } (116) سورة النساء والجنة محرمةٌ على المشرك لا يدخلها أبداً كما قال تعالى { وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُواْ اللّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللّهُ عَلَيهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ} (72) سورة المائدة والشرك أعظم الظلم كما قال تعالى {وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ} (13) سورة لقمان لأن فيه تعدٍ على ما هو محض حق الله جل وعلا وهي العبادة أرأيت ولله المثل الأعلى لو أنَّ أحداً تعدى على ما هو خاصٌ بك ألا تغضب وتعتبر ه متعدٍ وظالم فكذلك من أشرك مع الله فهو متعدٍ وظالم وإن كان ضرر ظلمه يعود عليه لا على غيره كما قال تعالى { فَلاَ تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ } (36) سورة التوبة أي بالذنوب والمعاصي لأن ضررها يعود عليكم وذلك ظلمٌ منكم لأنفسكم ، وقوله تعالى ((أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا)) أي وصاكم ألا تشركوا به شيئاً 0 وشيئاً نكرةٌ في سياق النهي فتعم فلا يشرك به شيئ مطلقاً لا ملكٌ مقرب ولا نبيٌ مرسل ولا ولي ولا غيرهم

وفي الحديث الأول وهو حديث بن مسعود وهو أحد أحبار هذه الأمة الذي قال عنه النبي صلى الله عليه وسلم (كنيفٌ ملء علماً) وقال (من سره أن يقرأ القران غضاً كما أنزل فليقرأه على قراءة بن أم عبد) وقال (خذوا القران من أربعة وذكر منهم بن مسعود) ومناقبه كثيرة توفي سنة 32هـ بالمدينة

قال : من أراد أن ينظر إلى وصية محمدٍ صلى الله عليه وسلم التي عليها خاتمه فليقرأ قوله تعالى {قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُم مِّنْ إمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (151) وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللّهِ أَوْفُواْ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (152) وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} (153) سورة الأنعام وهذه يسميها العلماء الوصايا العشر ولم يوصي النبي صلى الله عليه وسلم بوصيةٍ خاصةٍ مكتوبة لكن ابن مسعود رضي الله عنه يرى أن هذه الآيات قد شملت الدين كله فكأنها الوصية التي ختم عليها النبي صلى الله عليه وسلم وأبقاها لأمته لأن النبي صلى الله عليه وسلم يوصي بما أوصى الله به وهذه الآيات وردت بلفظ الوصية من الله فأراد بن مسعود أن ينبه الناس ويحثهم على التزام هذه الوصية وإلا فإن النبي صلى الله عليه وسلم قد أوصى بالقران كله فقال (إني تاركٌ فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا كتاب الله)

وهذه الوصايا العشر أولها الوصية بعدم الشرك وهو الذي فهمه كفار قريش أهل الفصاحة والبيان من الآية ولم يحتجوا بها على وجوب الشرك كما يقوله المتحذلقون المتفيهقون الذين يقولون معنى الآية عدم الشرك محرمٌ عليكم فيجب عليكم أن تشركوا وهذا يدل على جهلهم بلغة العرب فإن قوله في آخر الآية ((ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ)) يبين أن ما تقدم وصايا وأن معنى الآية : وصاكم ألا تشركوا به شيئاً ووصاكم بالوالدين إحسانا ووصاكم بأن لا تقتلوا أولادكم خشية إملاق ووصاكم بألا تقربوا الفواحش ووصاكم ألا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ووصاكم ألا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن ووصاكم بإيفاء الكيل والوزن ووصاكم بالعدل ووصاكم بإيفاء العهد ووصاكم باتباع الصراط المستقيم وترك السبل المتفرقة فهذه هي الوصايا العشر التي ينبغي لمن أراد السلامة في دنياه والفوز والنجاة في أخراه أن يلتزم بها 0 ولو كان المعنى ما ذكره المتحذلقون من أن المراد حرم عليكم ترك الشرك لكان ما بعدها مثلها فيكون حرم عليكم البر بالوالدين وحرم عليكم ترك قتل أولادكم وحرم عليكم ترك قربان الفواحش إلى آخر الوصايا ولا يقول مثل هذا القول إلا زنديق ليس له ذرة من عقل فضلاً عن أن يكون عنده إيمان 0

وعن معاذ بن جبل بن عمرو الخزرجي الأنصاري أعلم الأمة بالحلال والحرام كما قال النبي صلى الله عليه وسلم وقال له النبي صلى الله عليه وسلم (يا معاذ إني أُحبك فلا تدعن دبر كل صلاةٍ أن تقول اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك) شهد المشاهد كلها مع النبي صلى الله عليه وسلم وبعثه قاضياً إلى اليمن ومعلماً لأهلها وتوفي بالشام في طاعون عمواس سنة 18هـ

قال (كنت رديف النبي صلى الله عليه وسلم على حمار) والرديف هو الذي يركب خلف الراكب وهذا الحمار اسمه عفير أهداه للنبي صلى الله عليه وسلم المقوقس حاكم مصر ، والحديث يدل على تواضع النبي صلى الله عليه وسلم في ركوبه للحمار وإردافه عليه ويدل على رقة عيشه رغم أنه أكرم الخلق عند الله ويدل على زهده في الدنيا وإعراضه عنها رغم كثرة الغنائم التي كانت تأتيه والأموال التي تجبى إليه ولو شاء لادخر لنفسه منها ما شاء بلا معارضٍ من البشر ولكنه زهد فيها فكان يقسمها كلها في حينها ويكره أن تبقى عنده بل كان يقسم ماله الخاص ومرة ذبح شاةً وأمر عائشة بقسمتها فقسمتها وتركت الكتف فلما جاء قال ما صنعت بالشاة قالت ذهبت كلها إلا كتفها قال (بل بقيت كلها إلا كتفها) فسبحان من أعطاه قوة اليقين بكرم ربه والثقة بما عنده ، والحديث يدل أيضاً على فقر الصحابة وزهدهم في الدنيا ورضاهم منها بالقليل 0

قال معاذ : فقال لي يعني الرسول صلى الله عليه وسلم (يا معاذ أتدري ما حق الله على العباد وما حق العباد على الله ؟) تشويق للسامع ليشتهي معرفة الإجابة وهو من أنجح أنواع التعليم ليكون قلب السامع متهيأً

لسماع الإجابة والظفر بها فتستقرَّ فيه 0 وهو يدل على حرص تنفيذ النبي صلى الله عليه وسلم لأمر ربه بالبلاغ المبين فإنه كان يبحث عن أنفع الوسائل التي بها يتبين للمدعو الأمر الذي يريد أن يدعوه إليه ، فمرةً يأتي بصيغة السؤال للتشويق ومرةً يكرر الكلام للتنبيه على فضل هذا الشيء أو خطره كحديث قول الزور ، ومرة يلحق القول بالفعل ليؤكده به كقوله (من رأى من امرأةٍ ما يعجبه فليأت أهله) بعد تطبيقه لذلك وكحكايته لرضاع الصبي الذي نطق في المهد بإدخال إصبعه في فمه يحكي صنيع الطفل ، ونشهد أنه قد بلغ غاية البلاغ وبيَّن غاية البيان ونصح للأمة غاية النصح ونشهد أنه قد بلَّغ الرسالة وأدى الأمانة وأوضح معالم الدين وبين الطريق للسالكين بفضل رب العالمين فجزاه الله خير ما جازى نبياً عن أمته وحشرنا في زمرته إنه جوادٌ كريم 0

قال معاذ : فقلت : الله ورسوله أعلم ؟ وفي هذا حسن جواب وهو رد العلم إلى من يعلمه خلافاً للخنفشاريين وهم الذين يجيبون في كل مسألة ولو بلا علم خشية أن يقال لا يعلمون وسبب تسميتهم بالخنفشاريين أن رجلاً كان يدَّعي العلم ولا يسأل عن سؤالٍ إلا ويجيب فقدم إليه ثلاثة من طلبة العلم وشكوا في إجاباته فقالوا لنختبره فليذكر كل واحدٍ منكم حرفين فنجمعها في كلمة ونسأله عنها فقال أحدهم خن وقال الآخر فش وقال الثالث آر فجمعوها فصارت خنفشار فذهبوا إلى الشيخ وقالوا يا شيخ نريد أن نسألك عن الخنفشار هل تعرفه فقال نعم معروف هو نباتٌ يخرج في مكان كذا وكذا وإذا أكلته البهائم انعقد حليبها وصار ثقيلاً وفي ذلك يقول الشاعر :

لقد عقدت محبتكم فؤادي كما عقد الحليب الخنفشاري

فعرفوا أن الرجل صاحب جدل ولسانٍ وضاع فسمي من يفعل فعله بالخنفشاريين

فالمقصود أن الصحابة الكرام كانوا ينسبون العلم إلى الله ورسوله ذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم يعلم مما علمه الله وذلك في حياته وأما بعد موته فيقال : الله أعلم 0 قال بن مسعود : من كان عنده علمٌ فليقل به وإلا فليقل : الله أعلم (حاشية بن قاسم 20)

قال صلى الله عليه وسلم (حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ، وحق العباد على الله ألا يعذب من لا يشرك به شيئاً) فقلت (يا رسول الله أفلا أبشر الناس ؟ قال (لا تبشرهم فيتكلوا) وأخبر به معاذ في آخر حياته تأثماً من كتمان العلم لقول الله تعالى {إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلعَنُهُمُ اللّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ } (159) سورة البقرة وقوله تعالى {وَإِذَ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ

الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ } (187) سورة آل عمران وقال النبي صلى الله عليه وسلم (من كتم علماً ألجمه الله يوم القيامة بلجامٍ من نار)

فقوله (حق الله على العباد) أي ما يجب عليهم تجاه ربهم (أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً) توحيد العبادة لأنه الذي وقع فيه الشرك 0 قال (وحق العباد على الله) أي ما يجب عليه تجاههم وهذا الوجوب منه لنفسه جل وعلا فلا أحد يستطيع أن يوجب على الله شيئاً لكن الله جل وعلا يوجب على نفسه أشياء لعباده تكرماً منه وفضلاً كقوله تعالى {وَإِذَا جَاءكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} (54) سورة الأنعام

ما للعباد عليه حقٌ واجب كلا ولا سعيٌ لديه ضائع

إن عذبوا فبعدله أو نعموا فبفضله وهو الكريم الواسع

وكذلك يحرم الله على نفسه ما يشاء إنعاماً وإفضالاً على عباده كقوله في الحديث القدسي (يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا) فالله جل وعلا أوجب على نفسه في حديث معاذ ألا يعذب من لا يشرك به شيئاً للدلالة على أن الشرك أعظم الذنوب وما دونه قد يغفر ابتداءً أو بعد تمحيصٍ على ما يشاء ربنا فإن أهل السنة يجمعون بين هذا الحديث وما يماثله من أدلة الرجاء وبين أدلة الوعيد ويقولون إن غير المشرك لا يخلد في النار فإما أن يغفر الله له ابتداءً وهو ما تدل عليه أدلة الرجاء أو يعذبه بقدر ذنوبه وهو ما تدل عليه أدلة الوعيد لكن غير المشرك لا يخلد ، وبهذا جمعوا بين النصوص بينما انقسم أهل البدع إلى قسمين قسمٌ أخذوا بأدلة الرجاء وتركوا أدلة الوعيد فهؤلاء المرجئة الذين يقولون لا يضر مع الإيمان ذنب فمهما عملت من كبائر الذنوب فلن تدخل النار ما دمت لم تشرك ، وإيمان أفسق الناس كإيمان جبريل ومحمد عليهم الصلاة والسلام فأبطلوا عمل الصالحات وسمحوا بارتكاب الموبقات بحجة أن غير المشرك مغفورٌ له وما علموا أن عملهم هذا هو شركٌ في اتباع الهوى والشيطان كما قال تعالى {أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ } (23) سورة الجاثية فانظر كيف دخل عليهم الشيطان من هذا الباب ، والطائفة الثانية خالفوهم تماماً كردة فعلٍ في الإتجاه المعاكس وقالوا صاحب الكبيرة مخلدٌ في النار أبد الآبدين لا ينفعه توحيده ولا طاعته وهؤلاء يسمون الوعيدية ، وكلاً من هاتين الطائفتين أخذت ببعض الكتاب وتركت بعض فهم كمن قال الله فيهم { أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاء مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ } (85) سورة البقرة ووفق الله أهل السنة أهل الحق إلى الجمع بين النصوص والإيمان بكل ما في الكتاب حتى صار كتاب الله عندهم يصدق بعضه بعضاً ولا ينقض بعضه بعضاً كصنيع المبتدعة فلله الحمد

والمنة 0 وقوله أخرجاه في الصحيحين أي البخاري وهو محمد بن إسماعيل (194هـ - 256هـ) ومسلم هو بن الحجاج القشيري النيسابوري (204هـ-261هـ) وكتابيهما أصح الكتب بعد كتاب الله

((باب فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب))

هذا بابٌ عظيمٌ ذكره المؤلف لبيان فضل التوحيد ومزاياه وبيان مآل الموحدين ، وذكر الأفضلية لا يدل على جواز الضد كحديث (صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفذ بسبعٍ وعشرين درجة) فهذا لا يدل على أن

صلاة الجماعة غير واجبة لكن للترغيب إلى صلاة الجماعة وبيان مزيتها مع وجوبها ، والتوحيد أعظم ووجوبه أشد وتركه مبطلٌ لكل الأعمال كما قال تعالى { وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} (88) سورة الأنعام

وقوله : وما يكفر من الذنوب / أي ما يكفر التوحيد من الذنوب وقد ذكر أدلةً تؤكد أن التوحيد يكفر كل الذنوب ورحمة ربنا لا حدَّ لها ، لكن منهج أهل السنة الجمع بين النصوص وعدم الإيمان ببعضٍ وترك بعض أو اعتقاد التعارض بينها وقد وردت نصوصٌ تدل على الرجاء وأن الموحد لا يدخل النار ونصوصٌ أخرى تدل على الوعيد وأن مرتكب الكبائر التي دون الشرك يخلد في النار فأخذ المرجئة بأدلة الرجاء ونبذوا أدلة الوعيد خلف ظهورهم وأخذ الوعيدية بأدلة الوعيد ونبذوا أدلة الرجاء خلف ظهورهم وجمع أهل السنة بين النصوص وعملوا بها جميعاً عملاً بقوله تعالى {هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الألْبَابِ} (7) سورة آل عمران

وللتفصيل في المسألة نقول : استدل المرجئة على قولهم (لا يضر من الإيمان ذنب) بهذه الأدلة :

1-قوله تعالى {إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا } (48) سورة النساء وقوله تعالى {إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيدًا } (116) سورة النساء

2-قول النبي صلى الله عليه وسلم (من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، وأن الجنة حق ، والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان من العمل) .

3- قول النبي صلى الله عليه وسلم(فإن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله)

4-قول النبي صلى الله عليه وسلم (يصاح برجل من أمتي يوم القيامة على رؤوس الخلائق. فينشر له تسعة وتسعون سجلاً. كل سجل مد البصر. ثم يقول الله عز وجل: هل تنكر من هذا شيئا؟ فيقول: لا. يا رب! فيقول: أظلمتك كتبتي الحافظون؟فيقول لا ثم يقول: ألك عن ذلك حسنة ؟ فيهاب الرجل، فيقول: لا. فيقول: بلى. إن لك عندنا حسنة. وإنه لا ظلم عليك اليوم. فتخرج له بطاقة فيها: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله. قال فيقول: يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات فيقول: إنك لا تظلم. فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة. فطاشت السجلات وثقلت البطاقة)).

5-قول النبي صلى الله عليه وسلم لمعاذ كما في الباب المتقدم (حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ، وحق العباد على الله ألا يعذب من لا يشرك به شيئاً)

6-قول النبي صلى الله عليه وسلم (ما من أحدٍ يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله صدقاً من قلبه إلا حرمه الله تعالى على النار)

7-قول النبي صلى الله عليه وسلم (من لقي الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة) وقوله (من كان آخر كلامه من الدنيا لا إله إلا الله دخل الجنة)

وقالوا / هذه الأدلة تدلُّ على أن غير المشرك لا يدخل النار مهما عمل من الذنوب 0

واستدل الوعيدية بعدم فائدة التوحيد مع وجود الكبائر التي دونه بهذه الأدلة :

1-قوله تعالى {وَمَن يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ} (14) سورة النساء

2-قوله تعالى {وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا} (93) سورة النساء

3-قوله تعالى { وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (68) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا} (69) سورة الفرقان

4-قول النبي صلى الله عليه وسلم من قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده يتوجأ بها في بطنه في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبدا ومن قتل نفسه بسم فسمه في يده يتحساه في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبدا ومن تردى من جبل فقتل نفسه فهو يتردى في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبدا)

قالوا / فهؤلاء مخلدون في النار وهم غير مشركين

وجمع أهل السنة بين النصوص وقالوا إن نصوص الرجاء تدل على عظم فضل التوحيد وأن الموحدين مآلهم إلى الجنة لكنهم قد يدخلون النار بذنوبهم بدليل نصوص الوعيد لكنهم لا يخلدون فيها كالمشركين ولكنه خلودٌ دون خلود جمعاً بين النصوص فيكون المراد بالخلود للموحدين هو المكث الطويل حتى أن آخرهم يخرج بعد ألف عام وليست أيام الآخرة ولا أعوامها كأيام وأعوام الدنيا قال تعالى { وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ } (47) سورة الحج فإذا كانت السنة 360 يوماً كل يومٍ كألف سنة تكون السنة هناك ثلاثمائة وستين ألف يوم أضربها في ألف عدد السنين التي يمكثها الرجل يكون مدة إقامته في النار 360000000 ثلاثة مليار وستمائة مليون يوم لاشك أننا نعده في الدنيا أشبه بالخلود فذكره الله جل وعلا بلفظ الخلود على ما يقع في أنفسنا حين نعلم أنه سيمكث مثل هذا العدد من الأيام ليكون أشدَّ في التحذير من هذا الذنب ، وقال بعض

أهل العلم إن الذي يفعل هذه الكبائر يكون جزاءه الذي يستحقه الخلود في النار ولكن الله جل وعلا برحمته يخرج الموحدين وهذا أرجح من القول الأول والله تعالى أعلم ، لكن قد أعترض عليه بعضهم بقوله إذن يكون الله قد أخلف وعيده فنقول نعم وإخلاف الوعيد محمدة بخلاف إخلاف الوعد فإنه منقصة والفرق بينهما أن الوعيد هو التهديد بالعقاب والوعد هو بإعطاء الثواب ولو توعدك ملكٌ أو أمير بالقتل أو غيره ثم عفا عنك وأخلف وعيده لقلت إن هذا من كرمه وحسن خلقه ولم تقل إن هذه نقيصة لكونه أخلف وعيده ، ولكن لو وعدك بجائزةٍ إن فعلت عملاً معيناً فلمَّا عملته رجع عن وعده وأخلف فلا شك أنك ستقول إن هذا سيء الخلق كذوب مخلفٌ للميعاد فهناك فرقٌ بين إخلاف الوعد وإخلاف الوعيد ، فالله جل في علاه لا يخلف وعده ولكن يخلف وعيده برحمته ومنته على عبادة وذلك أنَّ رحمته تغلب وتسبق غضبه كما ثبت في الأحاديث وقد استدل أهل السنة على عدم خلود الموحدين بأدلة منها :

1-حديث الشفاعة وفيه (فيقول الله عز وجل: شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون. ولم يبق إلا أرحم الراحمين. فيقبض قبضة من النار فيخرج منها قوماً لم يعملوا خيراً قط. قد عادوا حمماً. فيلقيهم في نهرٍ في أفواه الجنة يقال له نهر الحياة. فيخرجون كما تخرج الحبة في حميل السيل) وفي لفظ (ثم يقول: انظروا من وجدتم في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجوه. فيخرجون منها حمماً قد امتحشوا. فيلقون في نهر الحياة أو الحيا. فينبتون فيه كما تنبت الحبة إلى جانب السيل. ألم تروها كيف تخرج صفراء ملتوية) متفق عليه

2-قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إني لأعلم آخر أهل النار خروجاً منها، وآخر أهل الجنة دخولاً الجنة. رجل يخرج من النار حبواً. فيقول الله تبارك وتعالى له: اذهب فادخل الجنة. فيأتيها فيخيَّل إليه أنها ملأى. فيرجع فيقول: يا رب وجدتها ملأى. فيقول الله تبارك وتعالى له: اذهب فادخل الجنة. قال فيأتيها فيخيل إليه أنها ملأى. فيرجع فيقول: يا رب وجدتها ملأى. فيقول الله له: اذهب فادخل الجنة. فإن لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها. أو إن لك عشرة أمثال الدنيا. قال فيقول: أتسخر بي (أو أتضحك بي) وأنت الملك؟ قال الراوي : لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ضحك حتى بدت نواجذه. 0 وعن ابن مسعود؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:آخر من يدخل الجنة رجل. فهو يمشي مرة ويكبو مرة. وتسفعه النار مرة. فإذا ما جاوزها التفت إليها. فقال: تبارك الذي نجاني منك. لقد أعطاني الله شيئا ما أعطاه أحدا من الأولين والآخرين. فترفع له شجرة. فيقول: أي رب! أدنني من هذه الشجرة فلأستظل بظلها وأشرب من مائها. فيقول الله عز وجل: يا ابن آدم! لعلي إن أعطيتكها سألتني غيرها. فيقول: لا. يا رب! ويعاهده أن لا يسأله غيرها. وربه يعذره. لأنه يرى ما لا صبر له عليه. فيدنيه منها. فيستظل بظلها ويشرب من مائها. ثم ترفع له شجرة

هي أحسن من الأولى. فيقول: أي رب! أدنني من هذه لأشرب من مائها وأستظل بظلها. لا أسألك غيرها. فيقول: يا ابن آدم! ألم تعاهدني أن لا تسألني غيرها؟ فيقول: لعلي إن أدنيتك منها تسألني غيرها؟ فيعاهده أن لا يسأله غيرها. وربه يعذره. لأنه يرى ما لا صبر له عليه فيدنيه منها. فيستظل بظلها ويشرب من مائها. ثم ترفع له شجرة عند باب الجنة هي أحسن من الأوليين. فيقول: أي رب! أدنني من هذه لأستظل بظلها وأشرب من مائها. لا أسألك غيرها. فيقول: يا ابن آدم! ألم تعاهدني أن لا تسألني غيرها؟ قال: بلى. يا رب! هذه لا أسألك غيرها. وربه يعذره لأنه يرى ما لا صبر له عليها. فيدنيه منها. فإذا أدناه منها، فيسمع أصوات أهل الجنة، فيقول: أي رب أدخلنيها. فيقول: يا ابن آدم! ما يصريني منك؟ أيرضيك أن أعطيك الدنيا ومثلها معها؟ قال: يا رب! أتستهزئ مني وأنت رب العالمين".فضحك ابن مسعود فقال: ألا تسألوني مم أضحك؟ فقالوا: مم تضحك؟ قال: هكذا ضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقالوا: مم تضحك يا رسول الله؟ قال "من ضحك رب العالمين حين قال: أتستهزئ مني وأنت رب العالمين؟ فيقول: إني لا أستهزئ منك، ولكني على ما أشاء قادر) رواه مسلم وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:إن أدنى أهل الجنة منزلة رجل صرف الله وجهه عن النار قبل الجنة. ومثل له شجرة ذات ظل. فقال: أي رب! قدمني إلى هذه الشجرة أكون في ظلها . وساق الحديث بنحو حديث ابن مسعود. ولم يذكر "فيقول: يا ابن آدم! ما يصريني منك" إلى آخر الحديث. وزاد فيه "ويذكره الله سل كذا وكذا. فإذا انقطعت به الأماني قال الله: هو لك وعشرة أمثاله" قال "ثم يدخل بيته فتدخل عليه زوجتاه من الحور العين. فتقولان: الحمد لله الذي أحياك لنا وأحيانا لك. قال فيقول: ما أعطيَّ أحدٌ مثل ما أعطيت) الحديث بطرقه رواه مسلم 0 فخروجه من النار يدل على أنه من الموحدين إذ المشركين مخلدين في النار 0

3-قول النبي صلى الله عليه وسلم (يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن شعيرة من خير ، ويخرج من النار من قال لا إله الله وفي قلبه وزن برة من خير ، ويخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن ذرة من خير) رواه البخاري وقوله (إن الله حرم على النار أن تأكل أثر السجود) متفق عليه ونحوها من الأحاديث التي تبين أن الموحدين قد يدخلون النار بذنوبهم ولكنهم لا يخلدون فيها بل يخرجون منها 0

4-أنه لو كان الموحدين الذين يعملون الكبائر لا يدخلون النار فلمن تكون الشفاعة يوم القيامة أتروها يا معاشر المرجئة تكون للمشركين وقد قال الله فيهم {فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ} (48) سورة المدثر وأنتم يا معشر الوعيدية لو كان أهل الكبائر لا يخرجون من النار فلمن تكون الشفاعة أتروها لأهل الصغائر وقد قال تعالى {الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ } (32) سورة النجم وقال تعالى {إِن تَجْتَنِبُواْ

كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيمًا} (31) سورة النساء فأهل الصغائر موعودون بالعفو والمغفرة إبتداءً وقال صلى الله عليه وسلم (الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات ما بينهن إذا اجتنبت الكبائر) بل قد بيَّن النبي صلى الله عليه وسلم أن الشفاعة تكون لأهل الكبائر بقوله (شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي) رواه أبو داود والترمذي وغيرهما وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب حديث رقم (3649) فتبين بهذا أن الموحد قد يدخل النار بمعاصيه لكن لا يخلد فيها أبداً بل يعذب فيها بقدر ذنوبه ثم يخرجه أرحم الراحمين برحمته وقد يعفو عنه ابتداءً فلا يدخله النار وكل ذلك بمقتضى عدل الله ورحمته كما قال الشاعر :

ما للعباد عليه حقٌ واجب كلا ولا سعيٌ لديه ضائع

إن عذبوا فبعدله أو نعموا فبفضله وهو الكريم الواسع

ملاحظة / قال بعض أهل العلم إن النار نارين نارٌ للمشركين والكفار ونارٌ للعصاة فالتي وردت الأحاديث بتحريمها على الموحدين وأن من قال لا إله إلا الله حرمه الله على النار وأنهم لا يدخلونها هي نار الكفار والمشركين ، والحقيقة أنَّ هذا القول لا دليل عليه وأن الجمع بما ذكرنا أولى لأنه لم يرد في النصوص إلا نارٌ واحدة وهي من أمور الغيب التي لا تعرف إلا بنص ولا نصَّ فيما نعلم على أنها نارين وأما كون نار الكفار مغلقة عليهم كما قال تعالى ((إنها عليهم مؤصدة في عمدٍ ممددة) فهذا يكون والله أعلم بعد خروج الموحدين منها فتطبق على الكفار والمشركين ويمكن أن تطبق عليهم جميعاً ثم تفتح ويُخرج أهل التوحيد ثم تغلق على البقية وكل ذلك سهلٌ يسيرٌ على الله ، ويمكن أن يقال إنَّ الموحدين يكونون في أعلى النار لأن النار دركات بحسب جرم أهلها ولا شك أن الموحدين أقلُّ جرماً من الكفار والمشركين فيكونون هم أعلى أهل النار فتكون نارهم خاصةً من هذه الجهه لا أنها نارٌ ثانيةٌ غير جهنم ، بدليل قوله تعالى {هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاء فَيَشْفَعُواْ لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ} (53) سورة الأعراف فلولا أنهم رأوا الناس يشفعون للموحدين لما طلبوا الشفاعة حتى يأسوا وقالوا {فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ (100) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ} (101) سورة الشعراء

وقول الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ ﴾ [الأنعام : 82]

لما نزل قوله تعالى {الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ} (82) سورة الأنعام شقَّ ذلك على أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وقالوا أينا لا يظلم نفسه فقال النبي صلى الله عليه وسلم (إنه ليس الذي تعنون ألم تسمعوا قول العبد الصالح { يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ} (13) سورة لقمان وكان

الصحابة يعتقدون أنها صغائر الذنوب فبين النبي صلى الله عليه وسلم أن المراد الشرك أي لم يخلطوه بشرك لأنه قد يختلط على بعض الناس فيكون مؤمناً ولكن يقع في الشرك وهو لا يعلم لجهله به أو نحو ذلك كما قال تعالى {وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ} (106) سورة يوسف وهذا يدلُّ على خطر الشرك ووجوب معرفته لحذره وكون الشرك ظلم لأن الإنسان لا يرضى أن يشاركه أحدٌ في التصرف في ملكه الخاص ولو تصرف غيره فيه ببيع أو هبةٍ أو نحوها لعدَّ ذلك تعدٍ وظلمٌ له فكذلك الله وله المثل الأعلى لا يرضى أن يشاركه أحدٌ فيما هو من خصائصه فمن أشرك مع الله غيره فقد ظلم ويكون الظلم عائدٌ ضرره على الإنسان لا على الربِّ جل في علاه لأن الله لا تضره معصية ولا تنفعه طاعة إنما ذلك راجعٌ إلى العبد فيكون العبد قد ظلم نفسه بإقحامها في النار بشركه وتركه سبيل النجاة وهو التوحيد، ثم ينبغي أن نعلم أن المعاصي أيضاً ظلم لأن مآلاتها على العاصي وخيمة في الدنيا أو في الآخرة وتتفاوت نسبة الظلم بنسبة الجرم لكن أعظم الظلم الشرك وهو الذنب الذي لا يغفر 0 ومناسبة الآية للباب / أن من فضل التوحيد أن لأهله الأمن في الدنيا والآخرة { الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ } فتراهم وإن قتلوا وعذبوا في الدنيا لا يفارق الأمن النفسي والمعنوي نفوسهم فترى الطمأنينة والرضا ظاهرةً على وجوههم ذلك أنهم يبشرون عند الموت بروحٍ وريحان وربٍ راضٍ غير غضبان فأنى للفزع والخوف أن يسكن قلوبهم ولربما خاف الإنسان خوفاً طبيعياً لكن المؤمنون لا يستقر الخوف في نفوسهم فسرعان ما يزول وكلما قوي الإيمان كلما ضعف الخوف وزاد الأمن والطمأنينة وقوله تعالى ((وهم مهتدون)) هداية توفيقٍ وإرشاد فمن قطع على نفسه ترك الشرك بالله وسعى فيما يرضي الله فسيدله الله على الصراط المستقيم كما قال تعالى {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ} (69) سورة العنكبوت وجعلهم يفرقون بين الحق والباطل كما قال تعالى {يِا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إَن تَتَّقُواْ اللّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً } (29) سورة الأنفال ولا يكون هذا للمتكبرين الذين يسيرون على طريقة آباءهم ورؤسائهم دون نظرٍ هل ما هم عليه هو فيما يرضي الله حقاً أو أنهم قلدوا فيه قوماً أخطأوا الطريق وساروا على المنهج المستقيم فإنما يعرف الحق بالنظر إلى كتاب الله وسنة نبيه لا بالنظر إلى ما عليه الآباء والأشياخ ثم يعرف بالبحث الجاد عنه بعيداً عن التعصب للمذاهب والأفكار مستعيناً بالله مكثراً من دعاءه أن يهديه ربه إلى الحق ولا يقول أنا مقتنعٌ بما عليه أهل مذهبي وطائفتي ثم يحول ذلك بينه وبين اتباع الكتاب والسنة وقد كان أشرف الخلق وأخشاهم لله وأعرفهم بربه وأشدهم تمسكاً بالحق وسيراً عليه يكثر أن يقول (اللهم اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراطٍ مستقيم) بل قد أُمرنا أن نقرأ بفاتحة الكتاب في كل ركعةٍ من صلاتنا وفيها نقول هذا الدعاء ((اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير

المغضوب عليهم ولا الضآلين)) أفترون أنا مأمورون أن نقول هذا الدعاء في كل يومٍ سبعة عشر مرةً إذا أقتصرنا على الفرائض ثم لا يكون لهذا الدعاء حاجة كما يقوله المتعصبون للمذاهب والآباء ، لابد أن نعلم أن هذه الدنيا دار امتحان ولن يتكرر هذا الامتحان بعد الموت إنما هي فرصة واحدة فاسعى إلى خلاص نفسك ولن تستطيع إلا بعون الله فاطلب المدد والعون منه تجده أسرع في الجواب إذا رأى منك الصدق في الطلب وقد قال النبي (إن تصدق الله يصدقك) رواه النسائي في كتاب الجنائز باب الصلاة على الشهداء وصححه الألباني

عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ،

قوله (عن عبادة بن الصامت) هو بن قيس الأنصاري الخزرجي صحابيٌ جليل رضي الله عنه أبو الوليد أحد النقباء بدريٌ مناقبه لا تعد مات بالرملة سنة 34هـ وله 72عاماً

(من شهد أن لا إله إلا الله) قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن : أي من تكلم بها عارفاً لمعناها عاملاً بمقتضاها باطناً وظاهراً فلا بد في الشهادتين من العلم واليقين والعمل بمدلولها كما قال تعالى {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ } (19) سورة محمد وقوله تعالى{ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} (86) سورة الزخرف أما النطق بها من غير معرفةٍ لمعناها ولا يقين ولا عمل بما تقتضيه من البراءة من الشرك وإخلاص القول والعمل قول القلب واللسان وعمل القلب والجوارح فغير نافع بالإجماع إلى أن قال : وفي الحديث ما يدل على هذا وهو قوله (من شهد) فإن الشهادة لا تصح إلا إذا كانت عن علمٍ ويقينٍ وإخلاصٍ وصدق اهـ (فتح المجيد ص40)

(لا إله إلا الله) أي لا معبود بحقٍ إلا الله فالمعبودات كثيرة لكنها باطلة سوى الله فهو المعبود بحق وهذه الكلمة تتضمن نفياً وإثباتاً ف (لا إله) نفي جميع الآلهة (إلا الله) إثبات الألوهية لله ، فالمراد بها توحيد العبادة لأن (الإله) كما قال الطيبي : فعالٌ بمعنى فعول كالكتاب بمعنى المكتوب من ألُه إلهةً أي عبد عبادةً (

نقله في فتح المجيد) فالإله هو الذي تألهه القلوب أي تحبه وتعظمه وتخافه وترجوه فتعبده ، وقوله (وحده) تأكيدٌ للإثبات وقوله (لا شريك له) تأكيدٌ للنفي فتضمنت هذه الكلمة إثبات الألوهية والعبادة لله وحده ومنعها عن من سواه لكونها لا يستحقها إذ لا يوجد إلهٌ حق غير الله وما سواه من الآلهة فهي باطلة يجب تركها وصرف العبادة لله وحده ، وهذا المعنى فهمه المشركون المتقدمون ولذلك لما قال هودٌ لقومه { يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ } (65) سورة الأعراف {قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ } (70) سورة الأعراف وقال تعالى عن كفار قريش{إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (35) وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ} (36) سورة الصافات فعلموا أن مقتضاها ترك الهتهم التي يعبدونها من دون الله فلم يقولوها ولم يقبلوها وقالوا {أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ} (5) سورة ص ولكن لما قلَّ الفقه لمعاني الشرع واللغة صار كثيرٌ ممن يدَّعون الإسلام يقولونها من غير وعيٍ لمعناها ولا عملٍ بمقتضاها بل يأتون بما يناقضها فيشركون مع الله غيره في العبادة فتراهم يدعون الأولياء والصالحين ويطوفون بقبورهم ويتبركون بها ويذبحون لهم وذلك منهم إما جهلاً في ماهية العبادات فلا يميزون بين ما يكون عبادةً فلا يجوز صرفه لغير الله وبين ما لا يكون عبادة ، فإذا قلت لهم إن الذبح لغير الله شرك قالوا أولست تذبح لضيفك فجعلوا ذبح التقرب الذي هو عبادة كالذبح للضيف الذي هو عادة عند أهل الكرم وهكذا في سائر العبادات كالاستعانة والاستغاثة والخوف ونحوها فهذه الطائفة وقعت في الشرك لجهلها بماهية العبادة ، وطائفة أخرى عرفت ماهية العبادة لكن قالوا إن صرفها لغير الله ليس بشرك وقالوا إن معنى لا إله إلا الله أي لا قادر على الإختراع إلا الله فصرفوا معنى كلمة التوحيد التي يراد بها توحيد الألوهية والعبادة إلى معنى توحيد الربوبية وجوزوا بناءً على ذلك صرف شيءٍ من العبودية لغير الله فانظر كيف كان المشركين المتقدمين أفقه بمعنى لا إله إلا الله من المشركين المتأخرين وقد نص المؤلف رحمه الله على هذه المسألة في كشف الشبهات وقال إن شرك المتأخرين أعظم من شرك المتقدمين لأمرين الأول ما ذكرناه من جهل المتأخرين لمعنى لا إله إلا الله فهم يقولونها ثم يأتون بما يناقضها ويعملون بضدها بينما لم يقلها المشركون المتقدمون لمعرفتهم لمعناها ، والأمر الثاني أن شرك المتقدمين إنما هو في الرخاء فإذا جاءت الشدة أخلصوا لله كما قال تعالى {فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ} (65) سورة العنكبوت وأما المتأخرين فيزداد شركهم في الشدة ويلهجون بنداء ودعاء معبوداتهم 0 وهؤلاء خطرهم أعظم على المسلمين لكونهم يدَّعون الإسلام وينطقون الشهادتين فلربما اغتر بهم ضعاف العلم والإيمان فقلدوهم 0

وأن محمداً عبده ورسوله ،

هو نبي الله محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم وهاشم من قريش وقريشٌ من العرب والعرب من ذرية إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم ولد عام الفيل سنة 53 قبل الهجرة عاش يتيماً فقد مات والده وهو في بطن أمه ثم ماتت أمه وله ست سنين فكفله جده عبد المطلب ثم مات وله ثمان سنين فكفله عمه أبو طالب وعمل في التجارة وكان قبلها يرعى الغنم لقريشٍ على قراريط فعلمته هذه الصنعة كيف يرعى الأمم وفي الحديث (ما من نبي إلا وقد رعى الغنم) فلله في ذلك الحكمة البالغة ، تزوج بخديجة فأنجبت له كل أولاده عدا إبراهيم وكلهم ماتوا في حياته عدا فاطمة الزهراء ماتت بعده بستة أشهر ، بعثه الله بالرسالة إلى كافة الناس بل إلى الجن والإنس عموماً حين أكتمل له أربعين سنة فكان أول من آمن به من الرجال أبو بكرٍ الصديق ومن الصغار علي بن أبي طالب ومن الموالي زيد بن حارثة ومن النساء خديجة بنت خويلد ثم تتابع الناس في الدخول في دين الله فلمَّا رأت قريش أن أمر النبي قد عظم صارت تضطهد أتباعه وتتفنن في صنوف التعذيب لهم فأذن الله لهم بالهجرة فهاجروا إلى الحبشة ثم إلى المدينة فكونوا دولة الإسلام هناك ثم قاتلوا أعدائهم حتى نصرهم الله وأظهر دينه وأعلى كلمته فلله الحمد والمنَّة ثم توفي النبي صلى الله عليه وسلم سنة 11 للهجرة وله 63 سنة بعد أن بلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح للأمة وجاهد في الله حق جهاده فصلوات ربي وسلامه عليه إلى يوم الدين 0

قوله (وأن محمداً عبده ورسوله) أي شهد بذلك عن صدقٍ ويقينٍ وعلم ولذلك لما قال المنافقون {نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ} رد الله عليهم بقوله { وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ } (1) سورة المنافقون أي في دعواهم أنهم مؤمنون برسالة النبي صلى الله عليه وسلم فلم ينفعهم قولهم باللسان مع عدم تصديق القلب ، ومقتضى شهادة أن محمداً رسول الله : طاعته فيما أمر وتصديقه فيما أخبر واجتناب ما نهى عنه وزجر وألا يعبد الله إلا بما شرع ، فلا يكون صادقاً في دعواه من حرَّم ما أحل النبي أو أحلَّ ما حرم أو كذبه في خبره أو شرع ديناً غير دينه فلا تنفعه شهادته حينئذٍ بخلاف ما لو ارتكب ما حرم أو امتنع عما أحل لشهوةٍ وهوى مع إقراره بذنبه فهنا يكون إيمانه ناقصاً لا منفياً وكذا لو ابتدع أمراً لا يخرجه من الدين كعيد المولد ونحو ذلك فلا ينتفي عنه الإيمان بالكلية لكنه يكون ناقصاً بقدر بدعته وذنبه ، وفي هذه الشهادة إثبات بشرية النبي وأنه عبدٌ من عبيد

الله لا يملك من خصائص الألوهية شيئاً ولذا أمره ربه أن يقول {قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا} (21) سورة الجن وأن يقول {قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ } (110) سورة الكهف وأن يقول {قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَاْ إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} (188) سورة الأعراف وقال النبي صلى الله عليه وسلم (لا تطروني كما أطرت النصارى بن مريم إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله) وكل هذا لئلا يغلوا فيه الناس كما غلوا في الأنبياء والصالحين من قبله فإذا كان هذا حال سيد البشر وإمام الرسل والمتقين فكيف بمن هو دونه من الأولياء والصالحين فسبحان من أعمى قلوب أهل الشرك عن رؤية الحق والتوحيد مع اتضاحه في آيات الكتاب والسنة حتى قال أحد غلاتهم يمدح النبي شعراً :

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به سواك عند حصول الحادث العمم

إن لم تكن آخذاً يوم المعاد يدي فضلاً وإلا فقل يا زلة القدم

فإن من جودك الدنيا وضرتها ومن علومك علم اللوح والقلم

فانظر إلى هذا الغلو الفاحش كيف جعل الإلتياذ عند حصول المصائب العامة بالنبي لا بالله حتى ولو قيل إنه أراد الشفاعة فإن الشفاعة لا تطلب من النبي وإنما من الله كما قال تعالى {قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا } (44) سورة الزمر فيقول : يا رب شفع فيَّ نبيك محمد صلى الله عليه وسلم ثم ما علاج البيت الأخير وقد جعل الدنيا والآخرة من جود النبي صلى الله عليه وسلم أي من عطاءه ومنته فما أبقى لله وقد قال تعالى{لِلّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} (120) سورة المائدة وقال تعالى{ذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ} (102) سورة الأنعام وقال تعالى {هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} (29) سورة البقرةوقال تعالى {أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ} (107) سورة البقرة وقال تعالى {وَلِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِلَى اللّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ } (109) سورة آل عمران فالحاصل أن هؤلاء الصوفية ومن نحا نحوهم غلوا في النبي صلى الله عليه وسلم حتى جعلوه نداً لله وسيأتي في هذا الكتاب بيان شدة نهي النبي صلى الله عليه وسلم عن الغلو فيه وإنكاره على من شرَّك بينه وبين الله في الألفاظ فكيف بمن سلب الله محض حقه وأعطاه للنبي لا شك أن غلوه أعظم وشركه أكبر فنسأل الله السلامة من الشرك صغيره وكبيره 0

ملاحظة / قال الشيخ بن عثيمين : اتباع أئمة البدع على قسمين :

القسم الأول / الذين جهلوا الحق فلم يعلموا عنه شيئاً ولم يحصل منهم تقصيرٌ في طلبه حيث ظنوا أن ما هم عليه هو الحق فهؤلاء معذورون 0

القسم الثاني / الذين علموا الحق ولكن ردوه تعصباً لأئمتهم فهؤلاء لا يعذرون (القول المفيد71/1)

وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه

هو المسيح عيسى بن مريم عليه السلام وقد جاء بمعجزةٍ إلهية وكرامةٍ ربانية من أمٍ بلا أب وذلك سهلٌ يسيرٌ على الله قال تعالى { وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (16) فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (17)قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَن مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا (18) قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا (19) قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (20) قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا } (21) سورة مريم وقد خلق الله قبله

آدم بلا أمٍ ولا أب وإنما من طين وخلق حواء من أبٍ بلا أم حيث خلقت من ضلع آدم وخلق عيسى من أمٍ بلا أب بنفخة ملك فسبحان القادر على كل شيء قال تعالى {إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثِمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ} (59) سورة آل عمران وقال تعالى {إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ} (40) سورة النحل

وقد ضلَّ فيه طائفتين طائفة الغلاة وهم النصارى الذين جعلوه هو الله أو ابن الله أو ثالث ثلاثة كما قال تعالى {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُواْ اللّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللّهُ عَلَيهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ} (72) سورة المائدة وقال تعالى {لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} (73) سورة المائدة وقال تعالى {وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللّهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِؤُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ} (30) سورة التوبة وطائفة الجفاة وهم اليهود الذين زعموا أنه ابن بغي كما قال تعالى {وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا} (156) سورة النساء وسعوا في قتله كعادتهم في قتل الأنبياء فنجاه الله منهم ورفعه إليه فادعوا كذباً أنهم قتلوه قال تعالى {وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (157) بَل رَّفَعَهُ اللّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا } (158) سورة النساء وسينزل آخر الزمان كما قال تعالى {وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ} (61) سورة الزخرف وقال تعالى {وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا} (159) سورة النساء وقد تواترت النصوص بنزول المسيح في آخر الزمان وأنه سيقتل الدجال ويضع الجزية ولا يقبل إلا الإسلام 0

ففي شهادة أن (عيسى عبد الله ورسوله) ردٌ على هاتين الطائفتين فكونه عبد الله ردٌ على النصارى الذين رفعوه فوق منزلة العبودية إلى منزلة الألوهية وكونه رسوله ردٌ على اليهود الذين وصفوه بوصفٍ لا يليق بمقام الرسل 0

وقول المؤمن (وأن عيسى عبد الله ورسوله) أي وشهد بذلك كشهادته برسالة محمد غير أنه لا يلزمه اتباع شريعته إذا خالفت شريعة محمد لأن شرع من قبلنا ليس شرعاً لنا إذا خالف شرعنا وإذا نزل المسيح عليه السلام في آخر الزمان فسيعمل بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم فيجب اتباعه حينئذٍ لأنه الأعلم بشريعة محمدٍ صلى الله عليه وسلم وكونه يضع الجزية ولا يقبل إلا الإسلام فهذا من شرع محمدٍ صلى الله عليه وسلم حيث أمر بقبول أخذ الجزية إلى وقت نزول المسيح عليه السلام فينتهي وقت قبولها كالتوبة فإن الله يقبلها إلى غرغرة الروح بالموت أو طلوع الشمس من مغربها وحينئذٍ ينتهي وقت قبولها فالجزية من الأحكام المؤقتة التي

يكون لها وقت انتهاء وهو نزول المسيح عليه السلام ، وأما إذا كان شرع من قبلنا لا يخالف شرعنا فيعمل به لقوله تعالى {أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ } (90) سورة الأنعام فالعقيدة الصحيحة في المسيح عليه السلام أن لا نغلوا فيه بل نعتقد أنه من عباد الله ليس له من خصائص الله شيء ، ولا نجفوا فيه بل نعتقد أنه نبيٌّ كريم وأنه من رسل الله أولي العزم ونعتقد أن أمه صديقة طاهرة مطهرة 0

قوله (وكلمته) أي تكوَّن بكلمة الله وهي (كن) كما قال تعالى {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} (82) سورة يس وقال تعالى {إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثِمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ} (59) سورة آل عمران وقال تعالى {مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ} (35) سورة مريم فعيسى عليه السلام خلق بكلمة الله كن كما قال تعالى {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقِّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُواْ ثَلاَثَةٌ انتَهُواْ خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَات وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللّهِ وَكِيلاً} (171) سورة النساء

قوله (وروحٌ منه) إضافة تشريف وإلا فالأرواح كلها من الله ولكن الله أختصَّ المسيح بأن يقال له : روح الله تشريفاً وتكريماً له عليه السلام ، والله جل وعلا يضيف إلى نفسه ما يشاء من مخلوقاته تكريماً كما يقال للمسجد الحرام بيت الله رغم أن المساجد كلها بيوت الله ويقال لناقة صالح ناقة الله رغم أن النياق كلها لله وما ذاك إلا تشريفاً لمن أختص بالإضافة ، وقد يضيف الله لنفسه ما لا يقوم بنفسه كالسمع والبصر والمعية ونحوها فهذه إضافة صفةٍ إلى متصفٍ بها فإذا أضافها الله لنفسه فهي من صفاته وبهذا نعرف المخلوق وغير المخلوق مما يضاف إلى الله فإن كان المضاف عيناً قائمةً بذاتها كعيسى والناقة والبيت الحرام فهذه مخلوقات وإضافتها إلى الله للتشريف والتكريم وأما ما ليس بعين قائمةٍ بذاتها ولا تقوم في مخلوقات فهذه إذا أضافها الله لنفسه فهي من صفاته غير مخلوقة وهذا للرد على المعطلة الذين يقولون بخلق القران وأن كلام الله مخلوق كما أن عيسى روح الله مخلوق وهذه من شبهاتهم والرد عليها ما تقدم ، وهكذا النصارى قاتلهم الله يحتجون باختصاص عيسى عليه السلام بكونه يقال له روح الله وكلمته أنَّ له من خصائص الألوهية والربوبية حتى جعلوه الإله أو ابن الإله أو ثالث ثلاثة وقالوا إن من في قوله تعالى ((وروحٌ منه)) للتبعيض فقالوا إن عيسى جزءٌ من الإله بدلالة هذه الآية والرد عليهم واضح وهو أن من في هذه الآية ليس للنبعيض بل لابتداء الغاية كما يقال سافرت من الرياض إلى مكة فابتداء سفري من الرياض فكذلك عيسى ابتدأ الله خلق روحه فنفخها الملك في مريم فحملت فأنجبت عيسى عليه السلام فروح عيسى صادرة من الأرواح التي خلقها الله فمبدأ خلق الأرواح من الله وهذا

كقوله تعالى {وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لَّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} (13) سورة الجاثية فهل يقول عاقل إن ما يوجد في السماوات والأرض من الأشياء التي سخرها الله لنا كالكواكب والبحار والطيور والصيد ونحوها هي جزءٌ من الله لا شك أن هذا باطل وإنما المراد أن الله ابتدأ خلقها وتكوينها ، ثم لو كان عيسى عليه السلام جزءاً من الإله فهل يصح أن يموت جزء الإله وجزءه حي لأن النصارى يزعمون أن عيسى ميت وأنه مصلوب وهل يصح أن يكون جزء الإله يأكل ويشرب ويجوع ويعطش وينام كما هو حال عيسى بينما جزءه الآخر ليس كذلك فهذا لا يقول به من كان عنده ذرةٌ من العقل وإنما أوردناه لمن أراد أن يحاجج النصارى لأنهم يقولون هو من الإله فنسبوا لله الصاحبة والولد فصاروا يسمون الله تعالى الآب ويسمون مريم الأم وعيسى الابن فهذا قولهم { إِنَّ اللّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ } فرد الله عليهم بقوله { وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} (73) سورة المائدة وقال بعضهم إن الثلاثة هم (الآب والأم وروح القدس) وقال آخرون بل هم (الآب وعيسى وروح القدس) وهؤلاء الثلاثة هم إلهٌ واحد ولذلك إذا سئلوا قالوا لا نعبد إلى إلهاً واحداً وإذا قيل لهم من هو هذا الواحد الذي تعبدونه قالوا (الله وعيسى وروح القدس) فكيف صار الثلاثة واحداً هذا ما لم يستطيعوا ولن يستطيعوا له جواباً وقد أفحمهم به الشيخ أحمد ديدات وغيره من المناظرين للنصارى وقد أمهلهم أياماً وشهوراً وسنوات فلم يجد جواباً 0 ولما ذهب إليهم الإمام الباقلاني ورأى رهبانهم مجتمعين وهم منزهين عند النصارى من الزوجة والولد قال : كيف حالكم وكيف حال أولادكم وأهليكم فطار به الحاضرين وقالوا أما تعلم أن هؤلاء منزهين عن الزوجة والولد قال : ويحكم تنزهون بشراً مثلكم عن الصاحبة والولد ثم تنسبون ذلك لله أين عقولكم {فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَانقَلَبُواْ صَاغِرِينَ} (119) سورة الأعراف وقد بيَّن الله جل وعلا عقيدة المسيح في قوله تعالى {وَإِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ (116) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} (117) سورة المائدة

وأن الجنة حق ، والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان من العمل » . أخرجاه .

الجنة هي ما أعده الله للمتقين في الآخرة من النعيم الذي لا يستطيع وصفه الواصفون من البشر ولا تبلغه عقول المتخيلون كما قال تعالى {فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} (17) سورة السجدة وفي الحديث القدسي (أعددت لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر) وقد بيّن لنا الله جل في علاه شيئاً من نعيمها لتشتاق نفوس الراغبين فيما عند الله المشمرين لجنات الخلود ومن ذلك يقول الله تعالى {مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاء غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ } (15) سورة محمد وقال تعالى {مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وِظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ} (35) سورة الرعد وقال تعالى {إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ (55)هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِؤُونَ} (56) سورة يس روي عن ابن عباسٍ أنه قال شغلهم إفتضاض الأبكار على شواطئ الأنهار ، ويقول النبي الكريم صلى الله عليه وسلم (أول زمرةٍ يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر ثم الذين يلونهم على أشد كوكبٍ دري في السماء إضاءة لا يبولون ولا يتغوطون ولا يتفلون ولا يمتخطون ، أمشاطهم الذهب ورشحهم المسك ومجامرهم الألوة ، أزواجهم الحور العين على خلق رجلٍ واحد على صورة أبيهم آدم ستون ذراعا في السماء) وفي رواية (آنيتهم فيها الذهب ورشحهم المسك ولكل واحد منهم زوجتان يرى مخ سوقهما من وراء اللحم من الحسن لا اختلاف بينهم ولا تباغض قلوبهم قلب واحد يسبحون الله بكرة وعشيا ، وقال تعالى ((إن الله يدخل الذين امنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور الذي أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب)) يكفيها كرامة أن الله سواها بيده

اعمل لدارٍ غداً رضوان خازنها   الجار أحمد والرحمن بانيها

قصورها ذهب والمسك طينتها   والزعفران حشيش نا بت فيها

سأل الصحابة رضي الله عنهم النبي صلى الله عليه وسلم عن بناء الجنة فقال : لبنةٌ من ذهب ولبنةٌ من فضة ملاطها المسك وحصباؤها الؤلؤ والياقوت وترابها الزعفران من يدخلها ينعم فلا ييأس ويخلد ولا يموت لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه) وقال عليه الصلاة والسلام (إن للمؤمن في الجنة خيمة من لؤلؤة مجوفة طولها في السماء

ستون ميلاً للمؤمن فيها أهلون يطوف عليهم المؤمن فلا يرى بعضهم بعضاً) أي لطولها وسعتها ، وثمار الجنة لا تشبه ثمار الدنيا إلا في الاسم وتختلف في الطعم والمذاق والشكل وقيل يشبهه في الشكل لقوله تعالى ((كلما رزقوا منها من ثمرةٍ رزقا قالوا هذا الذي رزقنا من قبل وأتوا به متشابها)) وقيل إن ذلك في الجنة إذا أتي لهم به مرةً بعد مرة رأوه متشابهاً في الشكل لاكن الطعم مختلف والله اعلم ، وفي الجنة زوجاتٌ من الحور العين قيل سمين بذلك لأن العين تحتار في حسنهن وجمالهن ولو اطلعت إحداهن على أهل الدنيا لأذهب نورها ضوء الشمس ولملئت الأرض ريحاً وطيبا ولخمارها على رأسها خيرٌ من الدنيا وما فيها ((عرباً أترابا)) فالعروب هي التي تحب زوجها قبل أن يحبها والأتراب أي في سنٍ واحدة قال الله عز وجل في وصفهن ((كأنهن الياقوت والمرجان)) وقال تعالى ((لم يطمثهن إنسٌ قبلهم ولا جان)) مطهراتٌ من الحيض والنفاس وسائر الأدناس لا يفنى شبابهن ولا تبلى ثيابهن كل يومٍ يزددن حسنا وجمالا وكذلك أزواجهن من أهل الجنة يزدادون حسنا وجمالا مرداً مكحلين أبناء ثلاثٍ وثلاثين ولهم خدم كما قال تعالى ((ويطوف عليهم ولدانٌ مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثورا)) فهؤلاء الخدم فكيف بالمخدومين وقال تعالى ((إن للمتقين مفازا حدائق وأعنابا وكواعب أترابا وكأساً دهاقا لا يسمعون فيها لغوا ولا كذابا جزاء من ربك عطاء حسابا)) ويقول تعالى ((وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبةً في جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم)) التوبة 72 وللجنة درجات متفاوتة فأعلاها الفردوس وسقفه عرش الرحمن ومنه تتفجر أنهار الجنة وقد أمرنا النبي صلى الله عليه وسلم إذا سألنا الله عز وجل أن نسأله الفردوس الأعلى فنسأله جل وعلا الفردوس الأعلى ، ثم من تحته درجات كثيرة وأقلُّ أهل الجنة منزلة من ينظر في ملكه مسيرة ألفي سنة قال تعالى ((انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجاتٍ وأكبر تفضيلا)) الاسراء 21) وقال عليه الصلاة والسلام (إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم كما تتراءون الكوكب الدري ، لكن سبب رفعتهم حسن العمل لله والإخلاص فيه والبعد عن المعاصي ، وأكرم وأفضل نعيمٍ يحصل عليه أهل الجنة هو رؤيتهم للملك الجبار جل جلاله قال تعالى ((وجوه يومئذٍ ناضرة إلى ربها ناظرة)) وعن جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فنظر إلى القمر ليلة البدر وقال (إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته) فيا عباد الله جدوا في تحصيل هذا النعيم فإن هذا النعيم لا يحصل بالنوم عن الصلوات والغفلة عن الطاعات وارتكاب المحرمات والأماني الكاذبات قال تعالى {لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللّهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا} (123) سورة النساء من يقتحم الذنوب غير مبال بعواقبها ثم يقول الله غفور رحيم ، نعم الله غفور رحيم لكنه أيضا شديد

العقاب وذو البأس الشديد ((وما ربك بظلامٍ للعبيد)) فهل يستوي من كان قائماً بالطاعات مجتنباً للمحرمات مع من كان مفرطاً في الطاعات مواقعاً للمحرمات لايستون ((إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون)) تلاعب بهم الشيطان فأصبحوا عبيداً له وهم لا يشعرون وسلك بعضهم مسلك اليهود في ادعاء مغفرة الله على ماهم عليه من العصيان والكفر والشرك فقالوا ((لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة)) فرد الله عليهم بقوله ((قل اتخذتم عند الله عهداً فلن يخلف الله عهده أم تقولون على الله ما لا تعلمون بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون)) وقال تعالى في آية أخرى عنهم ((وغرهم في دينهم ما كانوا يفترون)) يعني من المغفرة وهم على ما هم عليه من الطغيان ، فياللعجب ممن تقلد مذهب اليهود وهو لا يعلم ، يرجوا مغفرة الله ورحمته وجنته وهو مقيم على معاصيه متبعٌ لشهواته وأمانيه يقول النبي صلى الله عليه وسلم (الكيس من دان نفسه (أي أمسك بزمامها) وعمل لما بعد الموت والعاجز من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني)) فمن أراد الجنة ونعيمها فليتعب في الدنيا وليحبس نفسه عن شهواتها المحرمة فإن سلعة الله غالية وقد حجبت بالمكاره قال بن القيم

ياسلعة الرحمن لست رخيصةً بل أنت غاليةٌ على الكسلان

يا سلعة الرحمن ليس ينالها في الألف إلا واحداً لا اثنان

يا سلعة الرحمن أين المشتري فلقد عرضت بأيسر الأثمان

يا سلعة الرحمن هل من خاطب فالمهر قبل الموت ذو إمكان

يا سلعة الرحمن لولا أنها حجبت بكل مكاره الإنسان

ما كان عنها قط من متخلف وتعطلت دار الجزاء الثاني

لكنها حجبت بكل كريهة لِيُصد عنها المبطل المتواني

وتنالها الهمم التي تسموا إلى ذرر العلى بمشيئة الرحمن

وفي الطرف المقابل النار وهي دار الكافرين وبئست الدار على ساكنيها فأهلها في غاية الذلة والمهانة وحياتهم فيها في غاية الشقاء والتعاسة يتقلبون فيها بين أصناف العذاب الذي لا ينقطع عنهم قال تعالى {فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُواْ فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ (106) خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ } (107) سورة هود وحياتهم نارٌ في نار كما قال تعالى {لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ} (16) سورة الزمر وقال تعالى {تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ} (104) سورة المؤمنون قال تعالى {سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمْ النَّارُ} (50) سورة إبراهيم وحتى الماء يمنعون منه كما قال

تعالى {وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ الْمَاء أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ} (50) سورة الأعراف فتراهم يندبون حضهم ويصيحون بالويل والثبور قال تعالى {وَلَوْ تَرَىَ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى النَّارِ فَقَالُواْ يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} (27) سورة الأنعام ولن تنفعهم الحسرات والتندم على ما فات ولا يخرجون أبداً كما قال تعالى {يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ} (37) سورة المائدة فالحذر الحذر يا عباد الله من المعاصي والموبقات وأعظمها الشرك فصاحبه مخلدٌ في النار أبد الآبدين ومثلها سائر المعاصي التي توجب الكفر كدعوى علم الغيب في الكهانة والسحر وترك الصلاة ونحوها ثم الحذر من سائر المعاصي فإن الأجساد لن تقوى على عذاب الله ولو لمدةٍ قليلة فنسأل الله العفو والمغفرة إنه جواد كريم 0

والجنة والنار مخلوقتان الآن لأن الله تعالى قال عن الجنة ((أعدت للمتقين)) وللنار ((أعدت للكافرين)) أي قد جهزت لهم وتم إعدادها وقد صرحت الآيات والأحاديث الكثيرة بذلك ، وكذلك فإنهما لا تفنيان أبداً وقيل إن النار تفنى والراجح الأول 0

وقوله (أدخله الله الجنة على ما كان من العمل) أي مآل الموحد إليها مهما تعاظم ذنبه وكان دون الكفر والشرك فإما إن يغفر الله له ابتداءً فلا يدخله النار وإما أن يدخله النار بقدر ذنوبه ثم يخرجه ويدخله الجنة فمآل الموحدين الجنة ولو عذبوا في النار ، وقيل إن معنى الحديث : أي أنزله الله في الجنة على حسب أعماله فإن كانت أعماله الصالحة عظيمة كان في أعلى الجنة وإن كانت ضعيفة ففي أسفلها وهكذا على حسب عمله لأن أهل الجنة تتفاوت منازلهم كما قال تعالى {انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً } (21) سورة الإسراء

قوله أخرجاه أي البخاري ومسلم فقد رواه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء باب قوله تعالى ((يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم) ورواه مسلم في كتاب الإيمان باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة

ولهما في حديث عتبان (فإن الله حرم على النار من قال : لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله)

وقوله (ولهما) أي من روايتهما فقد رواه البخاري في كتاب الصلاة باب المساجد في البيوت ومسلم في كتاب المساجد باب الرخصة في التخلف عن الجماعة بعذر 0

عتبان هو بن مالك بن عمر بن العجلان الأنصاري من بني سالم بن عوف صحابي جليل مات في خلافة معاوية رضي الله عنهم أجمعين ، وحديث عتبان هذا له قصة فإن عتبان لما كبر سنه ضعف بصره فطلب من النبي صلى الله عليه وسلم أن يأتيه فيصلي في مكانٍ في بيته ليتخذه مصلى فخرج إليه النبي صلى الله عليه وسلم ومعه طائفةٌ من أصحابه فلمَّا دخل البيت قال أين تريد أن أصلي فأشار إلى ناحيةٍ من بيته فصلى فيه النبي ثم جلس على طعامٍ صُنِعَ له فجعل أصحابه يتذاكرون فذكروا رجلاً يقال له مالك بن الدخشم فقال بعضهم هو منافق فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لا تقل هكذا أليس قال لا إله إلا الله يريد بذلك وجه الله فإن الله حرَّم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله) الحديث يدلُّ على فضل التوحيد وأنه يجب الإخلاص فيه وذلك أن النيَّة هي التي تجعل العمل مقبولاً أو مردوداً فمن صدق في نيته بما يقوله وكان موافقاً للشرع كان مقبولاً وإن كان كاذباً لم يقبل منه وكان عمله مردوداً فشرطي العمل الإخلاص لله والمتابعة لرسوله صلى الله عليه وسلم فإن صلى على وفق ما جاء عن النبي لكن أراد بصلاته وجه الناس لم تنفعه صلاته وكانت مردودة وكذلك لو صلى يبتغي وجه الله لكن على صفةٍ اخترعها لم يرد بها الشرع فهي مردودةٌ غير مقبولة فلا بد من اجتماع الشرطين قال الفضيل بن عياض رحمه الله في قول الله تبارك وتعالى ((لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)) [هود:7]، قال: أصوبه وأخلصه 0 هذا في سائر العبادات 0

وأما كلمة التوحيد فلجلالة قدرها وعظيم منزلتها كان لها ثمانية شروط وهي :

الأول / العلم وضده الجهل ، والمراد : العلم بمدلولها من نفي الإلهية عما سوى الله تعالى وإثباتها لله وحده جل وعلا وأنه لا يستحق أحد العبادة إلا هو سبحانه وتعالى ، قال تعالى {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ } (19) سورة محمد فأمره بالعلم بذلك وقال تعالى {وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} (86) سورة الزخرف أي لا يشفع الشافعون يوم القيامة إلا لمن شهد شهادة الحق عالماً بمعناها وقد قيل إن سبب نزولها أن المشركين قالوا إنا نعبد الملائكة وسيشفعون لنا فبين الله جل وعلا أن الملائكة لا تملك الشفاعة وأن الشفاعة لا تكون إلا للموحدين ذكره القرطبي في تفسيره وبين أن الاستثناء منقطع وأن (إلا) هنا بمعنى لكن وقال عليه الصلاة والسلام (من مات وهو يعلم ألا إله إلا الله دخل الجنة) رواه مسلم فاشترط العلم بذلك . فلا تعتبر إلا لمن تكلم بها عارفاً لمعناها عاملاً بمقتضاها باطناً وظاهراً فلا بد في الشهادتين من العلم والعمل بمدلولهما 0

الثاني / الإخلاص وضده الشرك ، وهو أن يقولها خالصًا من قلبه مجتنبًا ما يضادها مطلقًا وهو الشرك الأكبر أو ما ينقص كمالها الواجب وهو الشرك الأصغر ، قال تعالى { فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ} (2) سورة الزمر وقال تعالى {قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ} (11) سورة الزمر وقال تعالى {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ} (5) سورة البينة وقال عليه الصلاة والسلام (فإن الله قد حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله) متفق عليه وقال (أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه أو نفسه) رواه البخاري

الثالث / اليقين وضده الشك ، وهو أن يقولها وهو معتقد لمدلولها بلا شك ولا ريب قال تعالى{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا} (15) سورة الحجرات وقال عليه الصلاة والسلام (أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أني رسول الله لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيهما فيحجب عن الجنة) رواه مسلم وقال لأبي هريرة رضي الله عنه وأعطاه نعليه (اذهب بنعلي هاتين فمن لقيت وراء هذا الحائط يشهد ألا إله إلا الله مستيقنًا بها قلبه فبشره بالجنة) رواه مسلم

الرابع / الصدق وضده الكذب ، أي لابد أن يتوافق قول الباطن مع القول الظاهر فيكون قلبه مصدقًا بمدلول هذه الكلمة لا كالمنافقين قال تعالى{وَالَّذِي جَاء بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ} (33) سورة الزمر وعن

أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم ومعاذ رديفه على الرحل قال يا معاذ بن جبل قال لبيك يا رسول الله وسعديك قال يا معاذ قال لبيك يا رسول الله وسعديك ثلاثاً قال (ما من أحدٍ يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله صدقاً من قلبه إلا حرمه الله على النار قال يا رسول الله أفلا أخبر به الناس فيستبشروا قال إذاً يتكلوا وأخبر بها معاذ عند موته تأثماً) متفق عليه

الخامس / المحبة وضدها الكره والبغض ، ومعناه : أن يقولها محبًا لها ولمدلولها ومحبًا لله ورسوله صلى الله عليه وسلم ومحبًا لما يحبه الله ورسوله ، قال تعالى {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلّهِ } (165) سورة البقرة وقال تعالى {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ} (9) سورة محمد .وقال عليه الصلاة والسلام (ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار) متفق عليه وقال (لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين) متفق عليه ولذلك فإن من النواقض لهذه الكلمة بغض شيء مما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم .

السادس / القبول وضده الرد ، ومعناه : أن يقبل ما دلت عليه هذه الكلمة من النفي والإثبات قال تعالى {إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (35) وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ} (36) سورة الصافات

السابع / الانقياد ، وهو العمل بما تقتضيه هذه الكلمة قال تعالى {وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ} (22) سورة لقمان وقال تعالى {بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ} (112) سورة البقرة وقال تعالى {وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا } (125) سورة النساء وقال عليه الصلاة والسلام (لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به) رواه في شرح السنة وضعفه الألباني في مشكاة المصابيح حديث رقم (167)

والفرق بين القبول والانقياد / هو أن القبول عمل القلب فهو واجب الباطن ، وأما الانقياد فهو عمل الجوارح فهو واجب الظاهر ، والانقياد علامة القبول وكلما ازداد القبول في القلب تحقق كمال الانقياد في الظاهر 0

الثامن / الكفر بالطاغوت قال تعالى { فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} (256) سورة البقرة وقال تعالى {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ } (36) سورة النحل وقال تعالى{وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ} (17) سورة الزمر وقال عليه الصلاة والسلام (من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه وحسابه على الله)) رواه مسلم . ويجمعها لك قول الناظم :

وشروطها سرد إليك بيانها العلم والإخـلاص للرحمن

وكذا المحبة واليقين قبولها والصدق والتسليم يا إخـواني

ويزاد كفرك بالطواغيت التي عمت بها البلواء في الأوطان

وقال آخر / علمٌ يقينٌ وإخلاصٌ وصدقكَ مع محبةٍ وانقيادٍ والقبولِ لها

ولم يذكر الكفر بالطواغيت لكونه داخلاً في العلم بمعناها مع العمل بمقتضاها 0

فهذه الشروط الثمانية لا بد من اجتماعها فمن أنقص شرطاً منها لم تقبل منه كلمة التوحيد وقد قيل لوهب بن منبه أليس لا إله إلا الله مفتاح الجنة ؟ قال بلى ولكن المفتاح لا بد له من أسنان فمن أتى بمفتاحٍ لا أسنان له لم يفتح الباب اهـ فأسنانه هي هذه الشروط 0

فتبين بهذا أنه ليس كلُّ من قال لا إله إلا الله أنه من أهل التوحيد أو من أهل الجنة وكم من قائلٍ بها وهو في الدرك الأسفل من النار كالمنافقين فإنهم يقولونها لكن لم تنفعهم إذ لم يأتوا بشروط لا إله إلا الله ولم تؤاطئ قلوبهم ألسنتهم وهكذا عباد القبور والأولياء لم يفقهوا معناها ولم يعملوا بمدلولها وأتوا بما يناقضها فلا تنفعهم عند الله وبهذا نعلم لماذا أمر الله نبيه بقوله {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ } (19) سورة محمد وذلك لعظيم خطر الجهل بها وليس كلُّ جاهلٍ معذور فإنَّ من الجهل ما لا يعذر صاحبه فأولئك الذين يعيشون بين المسلمين أو يمكنهم الوصول إليهم ومعرفة ما هم عليه ولو بوسائل الإتصالات ويمكنهم معرفة الحق ولكن أعرضوا ولم يريدوا معرفته فهؤلاء لا يعذرون وكفرهم حينئذٍ يكون كفر إعراض كما قال تعالى { وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ} (3) سورة الأحقاف قال الشيخ عبد العزيز بن باز / الأمور قسمان قسم يعذر فيه بالجهل وقسم لا يعذر فيه بالجهل فإذا كان من أتى ذلك بين المسلمين وأتى الشرك بالله وعبد غير الله فإنه لا يعذر لأنه مقصر لم يسأل ولم يتبصر في دينه فيكون غير معذور في عبادته غير الله من أموات أو أشجار أو أحجار أو أصنام إعراضه وغفلته عن دينه كما قال الله سبحانه ((والذين كفروا عما أنذروا معرضون)) ولأن النبي صلى الله عليه وسلم لما استأذن ربه أن يستغفر لأمه لأنها ماتت في الجاهلية لم يؤذن له ليستغفر لها لأنها ماتت على دين قومها عباد الأوثان

ولأنه قال لشخصٍ سأل عن أبيه قال : هو في النار فلما رأى ما في وجهه قال : إن أبي وأباك في النار لأنه مات على الشرك بالله وعلى عبادة غير الله فكيف بالذي بين المسلمين وهو يعبد البدوي أو يعبد الحسين أو يعبد الشيخ عبد القادر الجيلاني أو يعبد الرسول محمداً أو يعبد علياً أو يعبد غيرهم فهؤلاء وأشباههم لا يعذرون من باب أولى لأنهم أتوا الشرك الأكبر وهم بين المسلمين والقران بين أيديهم ...وهكذا سنة رسول الله موجودة بينهم ولكنهم عن ذلك معرضون ، والقسم الثاني : من يعذر بالجهل كالذي ينشأ في بلاد بعيدة عن الإسلام في أطراف الدنيا أو لأسباب أخرى كأهل الفترة ونحوهم ممن لم تبلغهم الرسالة فهؤلاء معذورون بجهلهم وأمرهم إلى الله عز وجل والصحيح أنهم يمتحنون يوم القيامة فيؤمرون فإن أجابوا دخلوا الجنة وإن عصوا دخلوا النار لقوله جل وعلا ((وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً)) ولأحاديث صحيحة وردت في ذلك وقد بسط العلامة ابن القيم الكلام في هذه المسألة في آخر كتابه (طريق الهجرتين) لما ذكر طبقات المكلفين فليراجع هناك لعظم فائدته ا0 هـ نقلا من الآلى الحسان وذكر أنه نقله من مجلة البحوث الإسلامية العدد 25

قال الشيخ ناصر العقل / إذا لبَّس عليه علماء الشرك فصار مغطى عليه، ولا يبصر الحق من تلبيس علماء السوء، الذين يلبسون عليه، ويحسنون له الشرك. قال بعض العلماء: إنه يعذر في هذه الحالة، ولكن يعامل في الدنيا معاملة المشركين، لا يغسل، ولا يصلى عليه، ولا يدفن مع المسلمين في مقابرهم، وفي الآخرة أمره إلى الله، حكمه حكم أهل الفترات، وهذا هو الذي ذهب إليه الشيخ محمد بن عبد الوهاب قال: لا نكفر أحداً حتى تقوم عليه الحجة، وقال آخرون من أهل العلم: إنه لا يعذر أحدا بعد بعثة النبي صلى الله عليه وسلم لأن الله بعث الرسول، وأنزل القرآن، والقرآن يتلى والنصوص واضحة في بيان الشرك والتحذير منه، فلا يعذرون وهما قولان لأهل العلم، ذكرهما شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره، وعلى كل حال من يقول إنه يعذر، يقول: في الدنيا يعامل معاملة المشركين لا يغسل، ولا يصلى عليه، ولا يدفن مع المسلمين في مقابرهم، ولا يتصدق عنه، ولا يحج عنه، ولا يدعى له بالمغفرة والرحمة، أما في الآخرة فأمره إلى الله.

وقال الشيخ عبد العزيز الراجحي / مسألة العذر بالجهل بيَّنها العلماء رحمهم الله وفصَّلها ابن القيِّم في طريق الهجرتين وفي (الكافية الشافية) وذكرها أئمة الدعوة كالشيخ عبدالله أبابطين وغيرهم وذكر ابن أبي العز شيئاً منها في (شرح الطحاوية) وخلاصة القول في هذا : أن الجاهل فيه تفصيل : فالجاهل الذي يمكنه أن يسأل ويصل إلى العلم ليس بمعذور فلابد أن يتعلم ولابد أن يبحث ويسأل ، والجاهل الذي يريد الحق غير الجاهل الذي لا يريد الحق ، فالجاهل قسمان : الأول : جاهل يريد الحق .

والثاني : جاهل لا يريد الحق ؛ فالذي لا يريد الحق غير معذور حتى ولو لم يستطع أن يصل إلى العلم ؛ لأنه لا يريد الحق ، أما الذي يريد أن يعلم الحق فهذا إذا بحث عن الحق ولم يصل إليه فهو معذور ، والمقصود أن الجاهل الذي يمكنه أن يسأل ولا يسأل أو يمكنه أن يتعلم ولا يتعلم فهو غير معذور؛ أما الجاهل الذي لا يمكنه أن يتعلم فهو إما جاهل لا يريد الحق فهو غير معذور وإما جاهل يريد الحق ثم بحث عنه ولم يحصل عليه فهذا معذور ، والله أعلم .

والجهل الذي يعذر فيه الجاهل لا يعذر في الأشياء الواضحة ؛ إنما الجاهل الذي يُعذر يُعذر في الأشياء التي تخفى على مثله ، فلو كان هناك إنسان يعيش بين المسلمين ثم فعل الزنا فلما عوقب قال : إني جاهل ؛ فلا يقبل منه لأن هذا أمرٌ واضح ؛ أو تعامل بالربا وهو يعيش بين المسلمين لا يقبل منه أو عبد الصنم وهو يعيش بين المسلمين في مجتمع موحِّد لا يقبل منه ؛ لأن هذا أمر واضح ، لكن لو أسلم كافر في مجتمع يتعامل بالربا ويرى الناس يتعاملون بالمعاملات الربوية ثم تعامل بالربا وقال إنه جاهل ؛ فهذا مثله يجهل هذا الشيء ، أو نشأ في بلاد بعيدة ولم يسمع بالإسلام وليس عنده وسائل هذا معذور ، أما الإنسان الذي يفعل أمراً معلوماً واضحاً وهو بين المسلمين فهذا لا يُعذر ، فلابد أن تكون المسألة التي يُعذر فيها دقيقة خفية تخفى على مثله ومن ذلك ما ثبت في الصحيحين في قصة الرجل الذي أمر أهله أن يحرقوه وجمع أهله حينما حضرته الوفاة وقد كان مسرفاً على نفسه فجمع أولاده عند وفاته وقال : أي أبٍ كنت لكم ؟ فأثنوا خيراً ، فقال لهم :إنه لم يفعل خيراً قط وإن الله إن بعثه ليعذبنه عذاباً شديداً فأخذ المواثيق على بنيه أنه إذا مات أن يحرقوه ثم يسحقوه ثم يذروه في البر ؛ وفي بعض الروايات يذرُّوا نصفه في البر ونصفه في البحر وقال : لئن قدر الله عليَّ ليعذبني عذاباً شديداً ففعلوا به ذلك ؛ وفي الحديث أن الله أمر كلاً من البر والبحر أن يجمع ما فيه وقال الله له : قم فإذا هو إنسانٌ قائم فقال له : ما حملك على ذلك ؟ قال : خشيتك يا رب ؛ فرحمه الله ، وهذا الحديث فيه كلام لأهل العلم فبعض العلماء يقول : هذا في شرع من قبلنا ، وأُجيب بأجوبة ولكن أصح ما قيل فيه ما قرَّره شيخ الإسلام ابن تيمية : أن هذا الرجل إنما فعل ذلك عن جهل وأنه ظن أنه يفوت الله إذا وصل لهذه الحالة ، فالرجل غير منكر للبعث وغير منكر لقدرة الله وهو يعلم أنه لو تُرِك ولم يُحرق ولم يُسحق فإن الله يبعثه ؛ يعتقد هذا ، لكنه أنكر كمال تفاصيل القدرة وظن أنه إذا وصل لهذه الحالة وأُحرق وسُحق وذُرّ أنه يفوت على الله ولا يدخل تحت القدرة ، والذي حمله على ذلك ليس هو العناد ولا التكذيب وإنما الجهل مع الخوف العظيم فغفر الله له ، فلو كان عالماً ولم يكن جاهلاً لم يُعذر ولو كان معانداً لم يُعذر ولكنه

ليس معانداً ولا عالماً فاجتمع فيه الجهل والخوف العظيم ؛ فرحمه الله وغفر له ؛ فهذه مسألة خفية دقيقة بالنسبة إليه 0 ا0هـ

وقال الشيخ صالح الفوزان : من بلغه القرآن والسنة على وجه يستطيع أن يفهمه لو أراد ثم لم يعمل به ولم يقبله فإنه قد قامت عليه الحجة ، ولا يعذر بالجهل لأنه بلغته الحجة ، والله جل وعلا يقول: (وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ) سواء كان يعيش مع المسلمين أو يعيش مع غير المسلمين .. فكل من بلغه القرآن على وجه يفهمه لو أراد الفهم ثم لم يعمل به فإنه لا يكون مسلماً ولا يعذر بالجهل ، إذا بلغه الدليل من القرآن أو من السنة على وجه يفهمه لو أراد .. أي بلغه بلغته ، وعلى وجه يفهمه ، ثم لم يلتفت إليه ولم يعمل به فهذا لا يعذر بالجهل لأنه مفرِّط ا 0هـ

ويمكن تلخيص كلام العلماء في أنه لا يعذر المشرك بالجهل إلا إذا نشأ في بلادٍ بعيدة عن المسلمين وعن أهل العلم ولم يستطع الوصول إليهم لضيق ذات اليد أو لغير ذلك من الأسباب وهو يريد الحق ويسعى جاهداً في تحصيله ، أو يلبس عليه علماء السوء بالشبه ثم لا يجد من يبين له الحق مع طلبه له جاهداً فهذا يعذر لقوله تعالى ((وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً)) ويمتحن في الآخرة فإن أجاب دخل الجنة وإلا دخل النار ، وأما إن كان لا يريد الحق ولا يسعى في البحث عنه فهذا لا يعذر ولو لم يكن مستطيعاً للوصول إليه لأنه لا يريده وقد أعرض عنه وقد قال تعالى ((والذين كفروا عما أنذروا معرضون)) فلا شك أنه إن كان قادراً على الوصول للحق فأباه أن جرمه أعظم ، فالمسألة خطيرةٌ يا عباد الله وهذه الدنيا إنما هي دار ابتلاءٍ وعمل فليحرص الإنسان على تعلم معنى لا إله إلا الله حتى يعمل بها عن علم وتكون سبباً في خلاصه يوم القيامة من الخلود في النار 0

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (قال موسى : يا رب ، علمني شيئاً أذكرك وأدعوك به . قال : قل يا موسى : لا إله إلا الله . قال : كل عبادك يقولون هذا . قال : يا موسى ، لو أن السماوات السبع وعامرهن غيري ، والأرضين السبع في كفة ، ولا إله إلا الله في كفة ، مالت بهن لا إله إلا الله) [رواه ابن حبان ، والحاكم وصححه] . وللترمذي وحسنه عن أنس : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (قال الله تعالى : يا ابن آدم لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة)

هذان الحديثان يدلان على فضل لا إله إلا الله وأنه لا يعدلها شيء وأنها أثقل شيءٍ في الميزان وأنها سببٌ لتكفير الذنوب والخطايا لمن صلحت نيته واستقام أمره عليها وخلصها من الشرك وعمل بمقتضاها وقد ورد في فضائل كلمة التوحيد نصوصٌ كثيرة كقوله تعالى { شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } (18) سورة آل عمران وقال عليه الصلاة والسلام (من مات وهو يعلم ألا إله إلا الله دخل الجنة) رواه مسلم وقال (ما من عبدٍ قال لا إله إلا الله ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة وإن زنى وإن سرق – ثلاثًا –) متفق عليه وقال (أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال لا إله إلا الله خالصًا من قلبه) رواه البخاري وقال (أشهد ألا إله إلا الله وأني رسول الله لا يلقى الله بهما عبدٌ غير شاك فيهما فيحجب عن الجنة) متفق عليه وقال (يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن شعيرة من خير ، ويخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن برة من خير ، ويخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن ذرة من خير) رواه البخاري وقال (من كان آخر كلامه من الدنيا لا إله إلا الله دخل الجنة) رواه أبو داود وصححه الألباني في مشكاة المصابيح حديث رقم (1621) وقال (أفضل الذكر لا إله إلا الله) رواه الترمذي وبن ماجة وحسنه الألباني في المشكاة حديث رقم (2306) ومنها حديث البطاقة وورد أنها مفتاح الجنة

وأبو سعيد الخدري هو سعد بن مالك بن سنان الخزرجي الأنصاري ردَّ عن أحدٍ لصغره وشهد ما بعدها وتوفي سنة 74 هـ

وأنس هو بن مالك بن النضر خادم رسول الله دعى له النبي صلى الله عليه وسلم فقال (اللهم أكثر مله وولده وأطل عمره) فكثر ماله وولده وطال عمره حتى جاوز المائة وتوفي سنة 93هـ وقد رأى من ولده وولد ولده قرابة الستمائة نفس

وحديث أنس حديثٌ قدسي أي من كلام الله عز وجل والفرق بينه وبين القران أن الحديث القدسي تجوز روايته بالمعنى وأما القران فلا ، وتجوز قراءته للجنب بخلاف القران ، ويجوز مسه للمحدث بخلاف المصحف ،

وفيه الصحيح والضعيف بخلاف القران فكله صحيحٌ متواتر ، ولا يقرأ الحديث القدسي في الصلاة بخلاف القران 0

وقوله (بقراب الأرض) أي بملئها أو بمثل حجمها 0 قال في لسان العرب عند كلمة مدد : قوله (بقراب الأرض) بهامش نسخة من النهاية يوثق بها يجوز فيه ضم القاف وكسرها فمن ضمه جعله بمنزلة قريب يقال قريب وقراب كما يقال كثير وكثار ومن كسر جعله مصدراً من قولك قاربت الشيء مقاربة وقراباً فيكون معناه مثل ما يقارب الأرض ا0هـ قلت : والفرق أن قريب الشيء أقرب إليه من قريب ما يماثله ولذلك رجح العلماء الضم قال النووي في شرح مسلم : هُوَ بِضَمِّ الْقَاف عَلَى الْمَشْهُور ، وَهُوَ مَا يُقَارِب مِلْأَهَا وَحُكِيَ كَسْر الْقَاف ، نَقَلَهُ الْقَاضِي وَغَيْره ا0هـ

وقال في فيض القدير شرح الجامع الصغير : قراب بضم القاف ويقال بكسرها والضم كما في الرياض أفصح وأشهر أي بقريب ملئها أو مثلها وهو أشبه إذ الكلام سيق للمبالغة وقال القاضي : هو مأخوذ من القرب أي ما يقاربها في المقدار والقراب شبه جراب يضع فيها المسافر زاده وقراب السيف غمده (خطايا) قال الطيبي : تمييز من الإضافة نحو قولك ملأ الإناء عسلا (ثم لقيتني) أي مت حال كونك (لا تشرك بي شيئا) لاعتقادك لتوحيدي وتصديق رسلي وما جاؤوا به قال الطيبي : وثم للتراخي في الأخبار (لأتيتك بقرابها مغفرة) ما دمت تائباً عنها مستغفراً منها مستقبلاً إياها وعبر به للمشاكلة وإلا فمغفرته أبلغ وأوسع من ذلك ، فهو بيان لكثرة مغفرته لئلا ييأس المذنبون عنها لكثرة الخطايا ولا يجوز الاغترار بهذا وإكثار المعاصي لأن الله عقوبة شديدة.ا0هـ 0

(باب من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب)

وقول الله تعالى ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل: 120]

علاقة هذا الباب بما قبله / إذا عرف المسلم فضل التوحيد سعى إلى ما يكمله ويصفيه ويخلصه من شوائب الشرك والبدع والمعاصي فإذا فعل ذلك دخل الجنة وهذا مبتغى كل مؤمن ولذلك ذكر المؤلف في هذا الباب

الأدلة التي تبين أجر من خلَّص توحيده من كل شائبةٍ ولو صغرت وأنه ربما كان من الذين يدخلون الجنة بلا حسابٍ ولا عذاب

وذكر الآية الأولى والتي امتدح الله عز وجل فيها خليله عليه السلام بأنه كان إماماً لأن الأمة ترد بعدة معان منها الطائفة من الناس كقوله تعالى {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ } (36) سورة النحل وتأتي بمعنى الزمن كقوله تعالى {وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَاْ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ} (45) سورة يوسف وتأتي بمعنى الملة كقوله تعالى {وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ} (23) سورة الزخرف وتأتي بمعنى الإمام كما في هذه الآية وهو الذي يقتدى به والأصل أن تطلق على من يقتدى به في الخير لكن قد تطلق على من يقتدى به في الشر بقرينة كقوله تعالى {وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ} (41) سورة القصص وفي هذه الآية امتدح الله خليله بالإمامة في الدين وهي مطلبٌ عظيم وشرفٌ نبيل يسعى إليه عباد الله الصالحين فيدعون قائلين { رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا} (74) سورة الفرقان ولكونه مطلبٌ عظيم فيشترط لنواله شرطين الصبر واليقين كما قيل بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين قال تعالى {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ} (24) سورة السجدة فصبروا على طاعة الله بفعل الفرائض والنوافل وطلب العلم وترك التكاسل وصبروا عن معاصي الله وصبروا على أقدار الله مع يقينهم بالله وما جاء من عنده ولذلك امتدح الله خليله بأنه كان ((قانتاً لله)) مستمراً على الطاعة مداوماً عليها ((حنيفاً) أي مائلاً عن الشرك إلى التوحيد ولذلك أكده بقوله ((ولم يك من المشركين)) لأن مشركي العرب كانوا يدَّعون أنهم على دين إبراهيم فبرأه الله منهم وبيَّن عقيدته وأنه من الموحدين لا من المشركين وأنه على الإسلام لا على غيره من الأديان كما قال تعالى {مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} (67) سورة آل عمران والمؤلف رحمه الله ساق هذه الآية ليبين مزية التوحيد وأنه دين إبراهيم الخليل وأن الله جعله إماماً وأمر بالإقتداء به لكونه على التوحيد ويبرأ من الشرك كما قال تعالى {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاء مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاء أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ} (4) سورة الممتحنة فأمرنا ربنا جل وعلا بالإقتداء بإبراهيم عليه السلام واتخاذه أسوةً أي قدوة في دعوته إلى التوحيد وبراءته من الشرك وأهله لكن لا نقتدي به في إستغفاره لأبيه المشرك آزر وكان الخليل يدعوا له حتى نهي عن ذلك فانتهى كما قال تعالى {وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ

أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ } (114) سورة التوبة وهذا يبين خطر الشرك وأنه لا يجوز الإستغفار للمشرك ولو كان أبو الخليل فكيف بغيره فلا بد من تخليص التوحيد من كل شائبة شرك حتى يكون مقبولاً عند الله وحتى يصح الإستغفار له ويدخل في المؤمنين والمؤمنات الذين يستغفر لهم الناس ولو بعد موتهم 0

وقال : ﴿ وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ ﴾ [المؤمنون :59] . عن حصين بن عبد الرحمن قال : كنت عند سعيد بن جبير فقال : أيكم رأى الكوكب الذي انقض البارحة ؟ فقلت : أنا ، ثم قلت : أما إني لم أكن في صلاة ، ولكني لُدِغت ، قال : فما صنعت ؟ قلت : ارتقيت قال : فما حملك على ذلك ؟ قلت : حديث حدثناه الشعبي ، قال وما حدثكم ؟ قلت : حدثنا عن بريدة بن الحصيب أنه قال : لا رقية إلا من عين أو حمة . قال : قد أحسن من انتهى إلى ما سمع . ولكن حدثنا ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « عرضت علي الأمم ، فرأيت النبي ومعه الرهط ، والنبي ومعه الرجل والرجلان ، والنبي وليس معه أحد ، إذ رفع لي سواد عظيم ، فظننت أنهم أمتي ، فقيل لي : هذا موسى وقومه ، فنظرت فإذا سواد عظيم ، فقيل لي : هذه أمتك ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب ، ثم نهض فدخل منزله . فخاض الناس في أولئك ، فقال بعضهم : فلعلهم الذين صحبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال بعضهم : فلعلهم الذين ولدوا في الإسلام فلم يشركوا بالله شيئاً ، وذكروا أشياء ، فخرج عليهم رسول الله صلى الله عليه فأخبروه ، فقال : « هم الذين لا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون » . فقام عكاشة بن محصن فقال : ادع الله أن يجعلني منهم .

قال : « أنت منهم » . ثم قام رجل آخر فقال : ادع الله أن يجعلني منهم . فقال : « سبقك بها عكاشة » .

قوله تعالى {وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ} (59) سورة المؤمنون امتدح الله عباده المؤمنين بهذه الصفة وهي عدم الشرك سواءً الأكبر أو الأصغر وذلك لعظيم خطر الشرك ولو صغر فالواجب الحذر منه وتخليص التوحيد منه حتى يدخل العبد في هذه الآية

وعن حصين بن عبد الرحمن السلمي من التابعين أو أتباع التابعين توفي سنة 136هـ وله 93هـ قال كنت عند سعيد بن جبير الإمام العلم المعروف من أكابر تلاميذ بن عباس قتله الحجاج سنة 95 هـ ولم يكمل الخمسين عاماً فقال أي سعيد بن جبير لطلابه أو جلسائه (أيكم رأى الكوكب الذي انقض البارحة) أي سقط قال ثعلب من علماء اللغة : يقال قبل الزوال رأيت الليلة ويقال بعد الزوال رأيت البارحة ، وهي مشتقةٌ من برح إذا زال (فقلت) أي حصين (أنا ، ثم قلت : أما إني لم أكن في صلاة ولكني لدغت) هذا يدلُّ على حرص السلف على الإخلاص وعدم المراءاة وعدم محبة الثناء بما لم يعمل وهذا من كمال توحيدهم وصفاء نياتهم وقوله (لدغت) أي لسعتني أو عضتني ذات سم كالعقرب والحية ونحوهما (قال) أي سعيد له (فما صنعت) قال (ارتقيت) وعند مسلم (استرقيت) أي طلبت الرقية وقد تكون هي أقرب لأن قوله (ارتقيت) قد يحمل على أنه ارتقى بنفسه فقرأ على نفسه وهذا لا يخرج من السبعين كما سيأتي بخلاف قوله (استرقيت) أي طلبت الرقية من غيري ولذلك بيَّن له سعيد كما سيأتي أن ذلك من نواقص التوحيد (قال) أي سعيد (فما حملك على ذلك) قال : أي حصين (حديثٌ حدثناه الشعبي) والشعبي هو عامر بن شراحيل الهمداني من كبار علماء التابعين قال عن نفسه : ما كتبت سوداء في بيضاء وأقل ما أحفظ الشعر ولو شئت لأنشدتكم شهراً لا أعيد بيتاً ذكرته 0 وهذا أيضاً يدل على حرص السلف على التعلم وعدم العمل بلا علم فإن حصيناً ما ارتقى حتى حدثه الشعبي بجواز الرقية وإلا لم يرتقي وهذا قد خالف فيه أهل عصرنا فترى التجار يبيعون ويشترون بطرقٍ وأنواعٍ متنوعة دون سؤالٍ عن ما يجوز منها وما لا يجوز ولربما وقعوا في الربا وهم لا يشعرون وهكذا الأطباء وغيرهم فلا بد أن يتعلم المسلم قبل أن يقدم على أي عملٍ خشية الوقوع في الحرام (قال) أي سعيد (وما حدثكم) قال أي حصين (حدثنا) أي الشعبي (عن بريدة بن الحصيب) بن عبد الله بن الحارث الأسلمي صحابيٌّ جليل توفى سنة 62هـ أنه قال (لا رقية إلا من عينٍ أو حمة) هكذا رواه مسلم موقوفاً على بريدة ورواه أحمد وبن ماجة عن بريدة مرفوعاً ورواه أيضاً أحمد وأبو داود والترمذي عن عمران

بن حصين مرفوعاً وصحح الألباني رفعه ولا شك أنه حكمٌ لا يقال مثله بالرأي فله حكم الرفع عند من لا يثبت رفعه ورفعه ثابت كما تقدم

والرقية / هي التداوي بالقراءة والنفث وسيأتي تفصيل الكلام عنها في باب الرقى

والعين / هي نظرةٌ من حاسد نفسه خبيثة تتكيف بكيفيةٍ خاصة فينبعث منها ما يؤثر على المصاب (هذا تعريف العثيمين انظر القول المفيد 98/1) وقد يعين الإنسان نفسه أو ولده أو ماله أو زوجه أو غير ذلك غبطةً وحسداً لنفسه 0

والحمة / هي لدغ ذوات السموم كالعقرب ونحوها

والرقية نوعان :

جائزة / وهي التي تكون بكلام الله أو بالأوراد الثابتة عن رسول الله وتكون بلغة القران وألا يعتقد فيها نفعاً بذاتها بل بتقدير الله 0

شركية / وهي التي خلت مما تقدم وكانت بتمتمات شركية أو غير معروفة وبعقد سحرية ونحو ذلك 0

وقوله (لا رقية إلا من عينٍ أو حمة) قصر بعض العلماء الرقية على هذين النوعين من الأمراض وقال آخرون بل هي جائزةٌ في كل الأمراض وأما الحديث فمعناه : لا رقية أشفى وأنفع وأولى من رقية العين والحمة (حاشية بن قاسم41) وهذا لا يعني منعها مما عداها

قال أي سعيد (قد أحسن من انتهى إلى ما سمع) أي لم يعمل إلا بدليل خلافاً لمن يعمل بجهل مع تيسر سبل العلم له (ولكن حدثنا ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال (عرضت عليَّ الأمم فرأيت النبي ومعه الرهط والنبي ومعه الرجل والرجلان والنبي وليس معه أحد) وهذا يدلُّ على قلة الناجين يوم القيامة قال تعالى {وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ} (116) سورة الأنعام وقال تعالى {وَمَا وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ } (102) سورة الأعراف وقال تعالى {لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ} (7) سورة يس وغيرها من الآيات التي تبين أن أكثر الأمم غير موحدين وفي الحديث أنه يقال لآدم (أخرج بعث النار من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون للنار وواحد للجنة) والحديث سلوةٌ للدعاة الذين لم يجدوا آذاناً صاغيةً وقلوباً واعية فهؤلاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يأتون ومعهم القلة من الناس بل قد يأتون وليس معهم أحد وليس ذلك عن قصورٍ في دعوتهم أو عدم معرفةٍ بأساليب الدعوة حاشا وكلا بل هم مصطفين اختارهم الله جل وعلا لعلمه سبحانه أنهم أتقى الناس وأخشاهم له جل وعلا وأعرفهم بطرق الدعوة وأحرصهم عليها وأذكاهم وأحسنهم أخلاقاً وقد جمع الله فيهم كل خيرٍ وعصمهم من كل شر ومع هذا لم يقبل دعوتهم أحد ولم تنقص منزلتهم عند الله لعدم وجود تبعٍ لهم بل سيجازيهم الله

على صبرهم على الدعوة وتحملهم مشاقها أجراً عظيماً فلا ييأس الداعي فإنه مأجور سواءً وجد له تبعٌ أو لم يوجد له 0 ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم (إذ رفع لي سوادٌ عظيم فظننت أنهم أمتي فقيل لي هذا موسى وقومه فنظرت) وفي صحيح مسلم (ولكن انظر إلى الأفق فنظرت ، فإذا سوادٌ عظيم فقيل لي هذه أمتك ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حسابٍ ولا عذاب) ثم نهض فدخل منزله فخاض الناس في أولئك فقال بعضهم فلعلهم الذين صحبوا رسول الله) وهذا يدلُّ على أنهم يعلمون أن للصحبة مزية عظيمة وهو كذلك فإن الله اصطفاهم لصحبة نبيه صلى الله عليه وسلم وجعلهم المبلغين لدينه فمن طريقهم عرفنا الكتاب والسنة فهم الذين نقلوها إلينا ولذا أراد أعداء الإسلام هدم الإسلام عن طريق الطعن في نقلته فإذا قيل إن نقلت الدين غير عدول فمعناه أن المنقول إلينا باطل فيكون الإسلام باطلاً وقد نجح اليهود والمجوس في إدخال هذه الفكرة الخبيثة في نفوس ضعاف العلم والإيمان حتى انبثق مذهبٌ يدَّعي الإسلام يطعن في عدالة نقلته ويرميهم بأبشع الجرائم فسبحان من أعمى بصائرهم عن النظر في نصوص الكتاب والسنة التي تثني عليهم وتذكر جميل فضائلهم وكريم محاسنهم وأنهم مذكورون بذلك في كتب الأولين كالتوراة والإنجيل كما قال تعالى {مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا} (29) سورة الفتح وقال تعالى {وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} (100) سورة التوبة وقال النبي صلى الله عليه وسلم (لا تسبوا أصحابي فو الذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحدٍ ذهباً ما بلغ مدَّ أحدهم ولا نصيفه) والآيات والأحاديث في فضل الصحابة والنهي عن الطعن فيهم كثيرةٌ ، ويكفي أنهم نصروا النبي صلى الله عليه وسلم وجاهدوا معه وبلَّغوا دينه من بعده فجزاهم الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء ، ولو قيل لأحد هؤلاء الطاعنين فيهم إن أصحاب أبيك أو أصحابك خبثاء وفيهم وفيهم لأرعد وأزبد وثار وغضب فهل أنت وأبوك أحسن في اختيار الأصحاب من النبي صلى الله عليه وسلم ولا شك أن المرء على دين خليله وأنه يقاس بصاحبه فمن كان ذا خلقٌ حسن فسيصحب ذا الخلق الحسن ومن كان على خلقٍ سيء فسيصحب من كان مثله فالطعن في الصحابة طعنٌ في النبي صلى الله عليه وسلم من عدة وجوه :

الأول / أنه مثلهم فيما يرتكبونه من جرائم لأن المرء على دين خليله 0

الثاني / أنه لا يعرف أن يختار الأصحاب وهذا لا يقع إلا من الأغبياء والحمقى 0

الثالث / أنه قد فشل في دعوته وأن الله لم ينصره وسلط على دينه المرتدين والكفار وهذا في الحقيقة إتهامٌ لله جل وعلا وتكذيبٌ لقوله تعالى {إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ} (51) سورة غافر وقوله تعالى {مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاء ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ} (15) سورة الحج وقوله تعالى {وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ} (173) سورة الصافات وفيه سوء ظنٍ بالله جل وعلا وأن الباطل قد علا والحق قد اندحر وفي هذا تكذيبٌ للنصوص المتكاثرة في علو الحق واندحار الباطل ، فلا شك أن القائلين بهذه المقالات الساقطة إنما هم أعداء للحق غاظهم ظهوره وانتصاره وعلوه فأرادوا أن يُلبِّسوا على أهله ببعض الشبه ليردوهم عن الحق إلى الباطل وأنى لهم ذلك فالحق منصورٌ والعاقبة للمتقين 0

(وقال بعضهم فلعلهم الذين ولدوا في الإسلام فلم يشركوا بالله شيئاً) وهذا لعلمهم أن الشرك ذنبٌ عظيم وجريمة كبرى لا تغتفر في الآخرة فظنوا أنَّ من لم يتلبس بها مطلقاً خيرٌ ممن وقع فيها ثم تاب منها ، وهذا يقع في ظن الناس كثيراً فيظنون مثلاً أن من لم يزن مطلقاً خيرٌ ممن زنى وتاب أو شرب الخمر وتاب لعظم هذه المعاصي في نظرهم ولا شك أن الصحابة وأهل العلم يدركون أن الشرك أعظم من الزنى وشرب الخمر فالواقع فيه أعظم من الواقع في الزنى وشرب الخمر فإذا تاب الإنسان من هذه الذنوب فتبقى وصمة عارها قد لا تزول عن المرء بالكلية يعني عند الناس فيظنون أن من لم يقع فيها خيرٌ ممن وقع وتاب ، وهذا في الحقيقة ليس وارداً عند الله جل وعلا وإنما يحسب له عمله بعد التوبة وما قبلها تحسب له الصالحات ولا تحسب له السيئات وإنما تمحى عنه مطلقاً لحديث (التائب من الذنب كمن لا ذنب له) بل تبدل إلى حسنات قال تعالى{إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا} (70) سورة الفرقان فانظر إلى عظيم فضل الله ورحمته كيف محيت السيئات وبدلت إلى حسنات وحسبت له حسناته قبل التوبة وبعدها فهل بعد هذا الكرم من كرم ، والمقصود أن الله جل وعلا لا ينظر إلى ما تقدم من الذنوب قبل التوبة وإنما ينظر إلى ما خلص من عملٍ بعدها وكمن من تائبٍ عمل أعمالاً في سنةٍ بعد توبته لم يعملها مستقيم حياته كلها فلا يقارن به ، والصحابة رضي الله عنهم أغلبهم كان على الشرك ثم تاب والتابعون ومن بعدهم على التوحيد حياتهم كلها ومع هذا فالصحابة أفضل بلا شك فليس ما في ظنون الناس موافقاً لما عند الله جل وعلا من الخير والكرم والرحمة الواسعة 0

قال (وذكروا أشياء) لم يذكرها إما نسياناً وإما اختصاراً وإما لكونها بعيدة وما تقدم أقرب للشك منها قال (فخرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبروه فقال (هم الذين لا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيرون

وعلى ربهم يتوكلون) هذه أربعة أوصاف اتصف بها أولئك السبعون ألفاً الذين يدخلون الجنة بلا حسابٍ ولا عذابٍ وقد ورد في رواية مسلم بزيادة (ولا يرقون) قال شيخ الإسلام : هذه الزيادة وهمٌ من الراوي لم يقل النبي صلى الله عليه وسلم (ولا يرقون) وقد سئل صلى الله عليه وسلم عن الرقى فقال (من استطاع منكم أن ينفع أخاه فليفعل) وقال (لا بأس بالرقى إذا لم تكن شركاً) وقد رقى جبريل النبي صلى الله عليه وسلم ورقى النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه ، والفرق بين الراقي والمسترقي أن المسترقي سائلٌ مستعط ملتفت إلى غير الله بقلبه والراقي محسن وإنما المراد وصف السبعين ألفاً بتمام التوكل فلا يسألون غيرهم أن يرقيهم (حاشية بن قاسم45) ولأن الصحابة كان يرقي بعضهم بعضاً كقصة جوع أبي هريرة رضي الله عنه ويرقون غيرهم كقصة أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مع سيد الحي الذي لدغ ولم ينكر عليهم النبي صلى الله عليه وسلم بل قال (وما يدريك أنها رقية) كالمتعجب من فطنته وذكاءه وقوله (ولا يكتوون) أي ولا يسألون غيرهم أن يكويهم أي بالنار للدواء ونحوه ، وليس المراد تحريم التداوي بالرقية والإكتواء فهي أمورٌ جائزة قد دلت النصوص على جوازهما بشروطٍ معروفة ككونهما يقعان من خبيرٍ لا من متلاعبٍ مدعي علم المداواة بهما فيسبب ضرراً على المداوى وقد حرِّم الضرر ، وأن لا يقع فيهما أمور شركية كاعتقاد النفع بذواتهما لا كونهما أسباب ، وأن تكون الرقية من الكتاب والسنة وصحيح الأدعية وبلسانٍ عربي ، فإذا اكتملت هذه الشروط فيهما جازتا مع كراهة الإكتواء ، لكن تركهما توكلاً أفضل بدلالة هذا الحديث قال بن القيم كأن النبي صلى الله عليه وسلم يقول : هم الذين أخلصوا أعمالهم وتركوا ما لا بأس به حذراً مما به البأس0 (حاشية بن قاسم46) يريد أن الرقية والكي منها ما هو ممنوع ومنها ماهو جائز فهو يترك ما جاز منها خشية أن يجره ذلك إلى الوقوع فيما حرم منها ويتوكل على الله في طلب الشفاء فيكون ذلك أكمل في توحيده وأبعد عن كل ريبة فجازاه الله جل وعلا بأن يدخله الجنة بلا حساب ولا عذاب لبعده عن الريَّبْ وتمام توكله على ربه وصدقه في توحيده ، والأدلة على جواز الكي كثيرة منها أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث إلى أبي بن كعب طبيباً فقطع له عرقاً وكواه ، وعند البخاري أن أنس كوى من ذات الجنب والنبي حي ، وكوى النبي صلى الله عليه وسلم أسعد بن زرارة من الشوكة ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم (الشفاء في ثلاث شربة عسل وشرطة محجم وكية نار وأنهى أمتي عن الكي) وفي لفظ (وما أحب أن أكتوي) متفق عليه قال بن القيم : تضمنت أحاديث الكي أربعة أنواع أحدها فعله والثاني عدم محبته والثالث الثناء على من تركه والرابع النهي عنه ولا تعارض بينها فإن فعله له يدل على جوازه وعدم محبته لا يدل على المنع منه وأما الثناء على تاركه فيدل على أن تركه أولى وأفضل وأكمل وأما النهي عنه فعلى سبيل الإختيار والكراهة ا0هـ(حاشية بن قاسم 46)

قال في النهاية : ذات الجنب/ هي الدمل الكبيرة التي تظهر في باطن الجنب وتنفجر إلى داخل وقلما يسلم صاحبها ، والشوكة / هي حمرةٌ تعلو الوجه والجسد 0

وليس في الحديث نهيٌ عن بذل الأسباب كما يعتقد الجهلة بل ترك الأسباب يقدح في التوحيد فإن الله جل وعلا خلق الأسباب ومسبباتها ولم يخلقها عبثاً فمن تركها فقد اتهم ربه بالعبث في خلقه وأنه خلق أموراً عبثاً لا فائدة منها ، وإنما حث الشارع على ترك الإسترقاء والإكتواء لأن فيه تذللاً لغير الله لأن المريض أضعف ما يكون حين مرضه فقد يعلق قلبه بهذا الراقي وبهذا الكاوي ويظن أنه هو المشافي فلأجل ذلك حثَّ الشارع على تركه والإكتفاء بالتوكل دون بذل الأسباب في هذا الأمر خاصة ، والله تعالى أعلم

والحقيقة أن العلماء أختلفوا في معنى هذا الحديث على أقوالٍ عدة :

القول الأول / أنهم هجروا الأسباب مع حاجتهم إليها لتمام توكلهم على ربهم وهذا قول الخطابي والنووي وبن الأثير 0

واعترض / بأن النبي صلى الله عليه وسلم أستعمل الرقى والكي وسائر الأسباب وأمر بها وهو إمام المتوكلين مما يدل على أنه لا ينافي فعلها التوكل 0

القول الثاني / أن هؤلاء السبعين لا يعرفون الأدوية من الكي والرقى وغيرها لعدم حرصهم على تعاطيها وكونهم يعلِّقون أمورهم على ربهم ويتوكلون عليه في كل شيء وهذا قول الحليمي 0

واعترض / بأن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه مع شدة تعلقهم بالله جل وعلا إلا أنهم يتعلمون مباشرة الأسباب النافعة ويطلبونها ولذا أقرَّ النبي صلى الله عليه وسلم حفر الخندق رغم أنه كان مجهولاً عند العرب وكان يتداوى عليه الصلاة والسلام ويعلم أصحابه بعض الأدوية 0

القول الثالث / أنهم لا يطلبون ذلك قبل نزول الداء تحرزاً منه وأما بعد نزوله فلا حرج في الإسترقاء والإكتواء ، وهذا قول الداودي وبن قتيبة ورجحه بن عبد البر 0

واعترض / بأن النبي صلى الله عليه وسلم وصحبه ومن اقتدى بهم كانوا يحافظون على أذكار الصباح والمساء والنوم والأكل وغيرها وكل هذه تحرزات قبل وقوع البلاء ولم يُنقِص ذلك توكلهم بل كان دليلاً على اعتمادهم على ربهم وتعليقهم أمورهم به وهذه مزية لا مثلبة يمنعون بسببها من أن يكونوا من السبعين ألف 0

القول الرابع / أنهم لا يكتوون إلا عند الضرورة ولا يسترقون بغير الكتاب والسنة ويبتعدون عن الرقى الشركية وأمور الجاهلية ويعتقدون أن الله هو الشافي دون هذه الأسباب وهذا قول الكرماني 00

واعترض / بأن هذا يجب من كل مسلم ولا مزية للسبعين ألف حينئذٍ 0

القول الخامس / أن الرقى والكي مكروهةٌ من بين سائر الأدوية وذلك لأن البرء بهما موهوم بخلاف ما عداهما كالأكل والشرب فإنه محقق ، نقله القرطبي وأبطله وقال إنه فاسدٌ من وجهين :

الأول : أن أكثر أبواب الطب البرء بها موهوم 0

الثاني : أن الرقى بأسماء الله تعالى تقتضي التوكل عليه والإلتجاء إليه والرغبة فيما عنده والتبرك بأسمائه فلو كان قادحاً في التوكل لقدح الدعاء إذ لا فرق بين الذكر والدعاء وقد رقى النبي ورقي وفعله السلف والخلف فلو كان مانعاً من اللحاق بالسبعين أو قادحاً في التوكل لم يقع من هؤلاء وفيهم من هو أعلم وأفضل ممن عداهم ا0هـ

القول السادس/ أن المراد الطالب بنفسه دون من تقدم له غيره فرقاه أو كواه ولو باستئذان لكن بغير طلبٍ منه وذلك لأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يمنع عائشة من أن ترقيه وهو أكمل الخلق توكلاً وثقةً بربه جل وعلا ولو كان ينافي التوكل أو ينقصه لما سمح لها بأن ترقيه وأما الذي يطلب من غيره أن يرقيه أو يكويه فهو في موقف التذلل لهذا الراقي والكاوي وقد يجره ذلك إلى التعلق به أو اعتقاد أن الشفاء عنده وكل ذلك ينافي التوكل ولذلك مُنِعَ منه وأما من يحتج بأن جبريل عليه السلام رقى النبي صلى الله عليه وسلم فنقول إن النبي لم يطلب من جبريل أن يرقيه بل هو الذي تقدم ورقاه بغير طلبٍ منه ، ثم إن الذين يقولون إن النبي صلى الله عليه وسلم وصحبه قد باشروا هذه الأسباب وهم أفضل الأمة على الإطلاق ، فهذا قد بنى قوله على أن السبعين ألفاً هم أفضل الأمة وليس كذلك وإنما خصوا بهذه المزية وهي عدم الحساب والعذاب للعمل الذي ألتزموا به ولا يمنع أن يكون غيرهم ممن يحاسب أرفع منزلةً عند الله منهم وقد روى الإمام أحمد وصححه بن خزيمة وبن حبان أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه (وعدني ربي أن يدخل الجنة من أمتي سبعين ألفاً بغير حساب وإني لأرجوا أن لا يدخلوها حتى تبؤوا أنتم ومن صلح من أزواجكم وذرياتكم مساكن في الجنة) وهذا القول هو قول شيخ الإسلام وبن القيم وجماعة من أهل العلم وهو الراجح 0

واعترض / بأنه قد جاء الحديث عند مسلم بلفظ (ولا يرقون) فكيف خصصتموه بمن يطلب الرقية دون الراقي 0

وأجيب / بأن هذه اللفظة وهمٌ من الراوي لأن الراقي محسن وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لما سئل عن الرقية (من استطاع منكم أن ينفع أخاه فليفعل) فكيف يحسن إلى أخيه بأمر النبي صلى الله عليه وسلم ثم يكون محروماً من أن يكون من السبعين وقد رقى جبريل عليه السلام النبي صلى الله عليه وسلم ورقى النبي صلى الله عليه وسلم غيره ولذلك حكمنا على هذه اللفظة بالشذوذ والخطأ ، وأما المسترقي فإنه تميل نفسه إلى الراقي ويتذلل إليه وهذا يخالف حال المتعلقين بالله المتوكلين عليه فحرم من مرافقة السبعين ألف لهذه العلة وهكذا طالب الكي بخلاف الذي يكوي أو يُكوى بغير طلب 0

واعترض / بأن الزيادة من الثقة مقبولة وسعيد بن منصور حافظ وقد اعتمده البخاري ومسلم واعتمد مسلم على روايته هذه ، ثم إن تغليط الراوي مع إمكان تصحيح الزيادة لا يصار إليه والمعنى الذي حملكم على التغليط موجود في المرقي بغير طلب لأن اعتلالكم بأن الذي لا يطلب من غيره أن يرقيه تام التوكل فكذا يقال : والذي يرقيه غيره بغير طلب ينبغي أن لا يمكنه منه لأجل أن يكون تام التوكل وليس في وقوع ذلك من جبريل دلالة على المدعى ولا في فعل النبي صلى الله عليه وسلم له أيضاً دلالة لأنه في مقام التشريع وتبيين الاحكام ويمكن أن يقال إنما ترك المذكورون الرقى والاسترقاء حسماً للمادة لأن فاعل ذلك لا يأمن أن يكل نفسه إليه وإلا فالرقية في ذاتها ليست ممنوعة وإنما منع منها ما كان شركاً أو احتمله ومن ثم قال صلى الله عليه وسلم (اعرضوا علي رقاكم ولا بأس بالرقى ما لم يكن شرك) ففيه إشارة إلى علة النهى 0

وأجيب / بأن هذه الزيادة لا يمكن تصحيحها إلا بحملها على وجوه لا يصح حملها عليها كقول بعضهم المراد لا يرقون بما كان شركا أو احتمل الشرك فإنه ليس في الحديث ما يدل على هذا أصلاً وأيضا فعلى هذا لا يكون للسبعين مزية على غيرهم فإن جملة المؤمنين لا يرقون بما كان شركا ، وأما قياسكم : المرقي بالمسترقي فلا يصح هذا القياس فإنه قياسٌ فاسد إذ كيف يقاس من سأل وطلب على من لم يسأل مع أنه قياس مع وجود الفارق الشرعي فهو فاسد الاعتبار لأنه تسوية بين ما فرق الشارع بينهما قال النبي صلى الله عليه وسلم (من اكتوى أو استرقى فقد برىء من التوكل) رواه أحمد وابن ماجه والترمذي وصححه وصححه ابن حبان والحاكم أيضاً وكيف يجعل ترك الإحسان إلى الخلق سببا للسبق إلى الجنان وهذا بخلاف من رقى أو رُقِيَ من غير سؤال

فقد رقى جبريل النبي صلى الله عليه و سلم ولا يجوز أن يقال إنه عليه السلام لم يكن متوكلاً في تلك الحال ، وأما قولكم : ليس في وقوع ذلك من جبريل عليه السلام الخ كلام غير صحيح بل هما سيدا المتوكلين فإذا وقع ذلك منهما دل على أنه لا ينافي التوكل ، بخلاف المسترقي فتبين أن المراد أنهم لا يسألون غيرهم أن يكويهم ولا يرقيهم استسلاماً للقضاء وتلذذا بالبلاء وهذا أعلى مقامات التوكل 0(تيسير العزيز الحميد)

ملاحظة / قالت الصوفية : لا يكون متوكلاً حقاً إلا من قطع العمل بالأسباب وتوكل على رب الأرباب فلا يخاف من غيره حتى لو هجم عليه أسد فلا ينزعج ، ولا يسعى في طلب رزقٍ ولا غيره لكونه مكتوباً له وقد تكفّل له به 0

والصحيح / أن هذا باطل وأن بذل الأسباب لا ينافي التوكل وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم وصحبه وهم سادات المتوكلين يبذلون الأسباب من إعداد العدة للقتال وحفر الخنادق ولبس الدروع ويسعون في طلب الرزق مع تمام توكلهم على ربهم واعتقادهم أنه لن يأتيهم إلا ما كتب لهم وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم (لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدوا خماصاً وتروح بطاناً) فهذه الطير لم تجلس في أعشاشها حتى يأتيها الرزق وإنما كانت تغدو وتروح وهكذا العبد يسعى في طلب الرزق وبذل الأسباب النافعة دون اعتمادٍ عليها ويتوكل في ذلك على الله ، ثم قد تقدم ما ذكره بن القيم من أن تعطيل الأسباب قدحٌ في الرب جل وعلا لأنه هو الذي خلق الأسباب وأوجد منها مسبباتها فالذي يعطلها بالكلية كأنه يقول إن الله خلقها عبثاً وحاشاه أن يخلق شيئاً عبثاً بل خلقها ليعمل بها من غير إعتمادٍ كلي فخلقت للعمل وللإبتلاء فغلى فيها قومٌ حتى علقوا أمورهم بها واعتقدوا أنها نافعة بذاتها بلا تقديرٍ من الله وجفا آخرون وتركوها بالكلية معتقدين أنه لا فائدة منها مطلقاً وتوسط أهل الحق أهل السنة بين الطرفين فعملوا بالأسباب مع أعتقادهم أنها لا تنفع إلا بأمر الله وقدره 0

قوله (ولا يتطيرون) أي لا يتشاءمون بالطيور ونحوها وهذا أمرٌ محرمٌ مطلقاً لحديث (الطيرة شرك) وسيأتي تفصيل الكلام عنها في باب الطيرة من هذا الكتاب

قوله (وعلى ربهم يتوكلون) أي لا يتوكلون على غيره وهذا من ذكر العام بعد الخاص فإنهم تركوا الإسترقاء والإكتواء والطيرة لأنهم على ربهم يتوكلون ولا يتوكلون على الأسباب المادية بل من قلة إعتمادهم على الأسباب هجروا الأسباب المكروهة ولو كانت جائزةً شرعاً لكن لما أجيزت مع الكراهة هجروها فكأنهم يقولون : هذه

الأسباب كلها لا تنفع إلا بتقدير الله فإذا كرهها الشارع دلَّ على أن النفع بها أضعف والخطر بها أعظم فما كرهها الشارع إلا لأجل ذلك فنحن نتركها بالكلية ونتوكل على ربنا 0

ملاحظة / قال بعض أهل العلم الحديث يدل على أن الكي سواءً بطلبٍ أو بدون طلب وسواء كان هو الكاوي أو المكوي كله مكروه والأولى تجنبه لأنه ذكر بدون سين الطلب بخلاف قوله (ولا يسترقون) فإن السين فيه دالةٌ على الطلب فالمكروه منه ما كان عن طلب وأما في الإكتواء فقال (ولا يكتوون) فدلَّ على أنه مكروهٌ كله ويدل لذلك حديث (وأنا أنهى أمتي عن الكي) وهو عام ويدلُّ على تحريم الإكتواء لكن وجدت قرائن صرفته من التحريم إلى الكراهة وهو أن النبي صلى الله عليه وسلم كوى سعد بن زرارة رضي الله عنه وكوى أنس رضي الله عنه والنبي صلى الله عليه وسلم حي فلم ينكر عليه فهذه صرفت النهي من التحريم إلى الكراهة كالشرب واقفاً فإن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عنه وأمر من شرب واقفاً أن يستقيء ثم شرب واقفاً في حجة الوداع فدل على رفع النهي إلى الكراهة ، وليس فيه دليل على رفع الكراهة لأن النبي صلى الله عليه وسلم يفعل أشياء وهو لا يرغب في فعلها لكن ليبين لأمته جوازها ولو مع الكراهة رفعاً للحرج عنهم ، ولو أراد رفع التحريم إلى الإباحة بلا كراهة لصرح بذلك وما اكتفى بالفعل كقوله صلى الله عليه وسلم (نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها ونهيتكم عن لحوم الأضاحي فوق ثلاث فأمسكوا ما بدا لكم ونهيتكم عن النبيذ إلا في سقاء فاشربوا في الأسقية كلها ولا تشربوا مسكراً) رواه مسلم

قوله (فقام عكاشة بن محصن) من بني أسد بن خزيمة من السابقين إلى الإسلام شهد بدراً فقاتل قتالاً شديداً حتى انكسر سيفه فأتى النبي صلى الله عليه وسلم يسأله سيفاً فأعطاه جزلاً من حطب فقال قاتل به فقاتل به فصار في يده سيفاً طويلاً شديد المتن أبيضاً وبقي معه حتى استشهد في حروب الردة سنة 12 هـ رضي الله عنه وأرضاه

(فقال ادع الله أن يجعلني منهم قال أنت منهم) وعند البخاري (اللهم اجعله منهم) (ثم قام رجلٌ آخر فقال ادع الله أن أكون منهم فقال سبقك بها عكاشة) وفي هذا سدٌ لباب الطلب إذ لو قال أنت منهم لقام ثالثٌ ورابع حتى يقوم كل الحاضرين فسدَّ هذا الباب بإسلوبٍ لبقٍ حكيم يدلُّ على ذكاءٍ عظيم وخلقٍ حسن رفيع كيف لا وقد امتدحه ربه بذلك فقال {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ} (4) سورة القلم وأما قول من قال إن الرجل كان منافقاً فلا دليل عليه والأصل في الصحابة العدالة إلا بدليل يدلُّ على أن صحبته كانت نفاقاً ولا دليل هنا ، وقوله (أنت منهم) يدل على سرعة الوحي وأنه لا يمكن مقارنة أمور الغيب بأمور الحاضر فلا نثبت

أو ننفي بعقولنا أمراً غيبياً ثابتاً عندنا لكون عقولنا لا تحتمله كالذين ينكرون عذاب القبر ونعيمه ويقولون إن العقل ينكره إذ كيف يدخل عليه ملكان ويجلسانه والقبر لا يكاد يتسع لواحد ثم لو فتحنا القبر بعد يومٍ أو يومين لوجدنا القبر على هيئته لا نعيم ولا عذاب فنقول صدق الله ورسوله وكذبت عقولكم ومن قال لكم أن أمر الغيب كأمر الحاضر حتى تقيسوه على المشاهد المحسوس ولابن تيمية كتاب اسمه درء تعارض العقل والنقل بيّن فيه أن العقل السليم لا يتعارض مع ما ورد به الشرع وذكر الأدلة العقلية على نعيم القبر وعذابه ومن ذلك لو كنت في مكانٍ وفيه رجلين نائمين وهذان الرجلان أحدهما يحلم أنه وجد كنزاً فيه مال عظيم فاشترى بستاناً عظيماً وقصراً منيفاً واشترى من الجواري والخدم وتزوج من أجمل النساء وصار يتنعم بما لذ وطاب من المطاعم والمناكح وغيرها والآخر يحلم أنه يلاحقة قاطع طريقٍ يريد أن يقتله أو سبعٌ ضاري فالأول يعيش في نعيم والآخر في عذاب في منامه فهل يشعر الذي يجلس بجانبهما بما هما فيه من العذاب والنعيم فهذا وهما حيين فكيف بالموتى وذكر أدلةً عقليةً أخرى تبين أن المعارضين للنصوص بالعقل إنما هم جهلة ويكفي المؤمن أن ذلك النص جاء بالوحي من عند الله جل وعلا فيؤمن ويصدق ولو لم يبلغه عقله 0

وقد وردت أحاديث تدل على زيادة العدد / فقد روى أحمد والبيهقي عن أبي هريرة مرفوعاً قال (فاستزدت ربي فزادني مع كل ألف سبعين ألفاً) .قال الحافظ وسنده جيد وذكر أنه جاء من طرق يقوي بعضها بعضا.وأخرج الترمذي وحسنه وابن حبان في صحيحه من حديث أبي أمامة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال (وعدني ربي أن يدخل الجنة من أمتي سبعين ألفاً مع كل ألف سبعين ألفاً لاحساب عليهم ولا عذاب وثلاث حثيّات من حثيّات ربي) صححه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم (7111)

((باب الخوف من الشرك))

وقول الله تعالى ﴿ إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾ [النساء : 48] . وقال الخليل عليه السلام : ﴿ وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ ﴾ [إبراهيم : 35] .

وفي حديث (أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر) فسئل عنه فقال (الرياء) وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (من مات وهو يدعو من دون الله نداً دخل النار) رواه البخاري ولمسلم عن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (من لقي الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة ، ومن لقيه يشرك به شيئاً دخل النار)

مناسبة الباب لما قبله / لما ذكر المصنف فضل التوحيد وبيان ما يحققه عقَّب بهذا الباب وهو الخوف من الشرك لأنَّ من الناس من يظنُّ أنه من الموحدين وهو واقعٌ في الشرك الأصغر أو حتى الأكبر وهو لا يعلم فأراد المؤلف أن يبين خطر الشرك ليحذره كل مسلم فبدأ بالإستدلال بالكتاب وقوله تعالى ﴿ إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾ وهذه الآية تبين خطر الشرك وعظيم أمره وأنه لا يغفر لصاحبه إن مات عليه ، ذلك أن الشرك فيه تسوية الخالق بالمخلوق وفيه صرفٌ لما هو محض حق الخالق وهي العبادة إلى مخلوق مثلهم وهذا غاية في الظلم ولذا قال العبد الصالح { يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ} (13) سورة لقمان

والشرك يناقض المقصود من خلق الثقلين وهو إفراد الله بالعبادة كما قال تعالى {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} (56) سورة الذاريات لذلك كان أعظم الذنوب وأخطرها وصاحبه خالدٌ مخلدٌ في النار أبد الآبدين ، ثم ذكر المؤلف الآية الثانية التي ذكر الله فيها أن خليله إبراهيم عليه السلام دعاء فقال ﴿ وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ ﴾ فإذا كان خليل الرحمن يخاف الشرك ويخاف عبادة الأصنام وهو الذي كسَّرها بيده فكيف بمن دونه ولذا قال إبراهيم التيمي : من يأمن البلاء بعد إبراهيم عليه السلام 0 وهذا لأن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يكثر من قول (يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك) فإذا كان هذا حال الأنبياء بل خليلي الرحمن فكيف بمن دونهم لا شك أن الأمر خطير والواجب الحذر مما يوجب سخط الإله والسعي في مرضاته وسؤاله العفو والمسامحة وسؤاله الهداية إلى الصراط المستقيم وتثبيت القلب عليه إلى الممات { فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ} (115) سورة هود ولا كن إذا سخط على العبد بتوالي معاصيه وعدم حذره من ربه فقد يحول قلبه إلى الشرك والكفر كما قال تعالى عن بني إسرائيل{ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} (5) سورة الصف وقال تعالى {فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ } (13) سورة المائدة فعاقبهم بأن جعل قلوبهم قاسية بل وجعلهم يحرفون كلام الله عن مواضعه أي الكتاب المنزل عليهم وهي التوراة وتحريف كلام الله عن عمدٍ كفرا وقال تعالى {قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللّهِ مَن لَّعَنَهُ اللّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُوْلَئِكَ شَرٌّ مَّكَاناً وَأَضَلُّ عَن سَوَاء السَّبِيلِ} (60) سورة المائدة فعاقبهم بأن جعل منهم قردةً وخنازير وعاقب آخرين وهو أشد بأن يجعلهم يعبدون الطاغوت فالحذر الحذر يا عباد الله من موجبات سخط الله 0

قوله (واجنبني) أي اجعلني في جانب والأصنام في جانبٍ آخر وهذا في غاية التحرز فإن كون المسلم بعيداً عن مواقع الشر آمن له مما لو كانت قريبةً منه فإنه قد تزل قدمه أو تطلب نفسه ما تراه عينه لكن مع البعد لا يقع شيءٌ من ذلك ولذا قال النبي صلى الله عليه وسلم (أنا بريءٌ من كل مسلمٍ يقيم بين أظهر المشركين) وقال (من سمع بالدجال فلينأ عنه) أي ليبعد ، وكل ذلك تحذيراً من مقاربة الشر والفتن ، ولا يأمن من الوقوع في الفتن والشرك والكفر إلا من هو جاهلٌ قليل العلم والبصيرة قال بن أبي مليكة : أدركت ثلاثين من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كلهم يخاف النفاق على نفسه ا0هـ وكان عمر يقول لحذيفة : أسألك بالله هل عدني رسول الله مع المنافقين فقال لا ولا أزكي أحداً بعدك ، والأمن من ذلك هو الذي أوقع طوائف من هذه الأمة في الشرك الأكبر وصرفوا أنواعاً من العبادات لغير الله كالذبح والنذر والدعاء وغيرها ووقع ما

أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم بقوله (لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضبٍ لدخلتموه) فشيدت المساجد والمشاهد والقباب على القبور وعبد الصالحون من دون الله وتُرك إنكار المنكر عليهم بل ربما أيدهم قليلي العلم والإيمان وروجوا لهم الشبه والضلالات ولذا قال الخليل بعد هذه الآية (رب إنهن أضللن كثيراً من الناس) حيث سلكوا مسلك الضلال فنسأل الله السلامة وأن يحيينا على التوحيد ويميتنا عليه إنه جوادٌ كريم 0

(الأصنام) جمع صنم قال بن جرير قال مجاهد الصنم ما كان منحوتاً على صورة والوثن ما كان موضوعاً على غير ذلك ا0هـ 0 وقيل الوثن أعم من الصنم فكل صنمٍ وثن وليس كل وثنٍ صنم فالقبور التي تعبد من دون الله أوثان وليست أصنام ولذا قال النبي صلى الله عليه وسلم (اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد) وقال الخليل عن قومه وكان بعضهم يعبد الأصنام وبعضهم يعبد الكواكب {إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} (17) سورة العنكبوت وفي آيةٍ أخرى {وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ} (25) سورة العنكبوت وهؤلاء الذين يعبدون الأصنام والأوثان أرادوا الهدى فسلكوا طريق الضلالة وقالوا { مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى } (3) سورة الزمر وتركوا طريق الهدى الواضح أمامهم وهو إفراد الله بالعبادة ولذا قال الخليل {رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ } (36) سورة إبراهيم بعبادتها وتركهم عبادة الله وحده وهذا عين الضلالة والشرك ولو زعموا أنهم يريدون القربى من الله فهذه الدعوى باطلة ولو كانوا يريدون القربى من الله لأخلصوا له العبادة ولذا قال تعالى {أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ} (3) سورة الزمر فوصفهم بالكذب وحكم عليهم بالكفر فلم تنفعهم تلك الالهة التي عبدوها من دون الله وكانت سبباً لضلالهم وخسرانهم ولهذا نسب الخليل الإضلال لها وإن كانت هي في الحقيقة قد تكون غافلةً عن عابديها ولم تشعر بهم بل إن أصل الأصنام رجالٌ صالحون ولا يرضون أن يعبدوا من دون الله ، وإنما نسب الإضلال لها من جهة عابديها حين غلوا فيها وصرفوا لها ما هو محض حق الله عز وجل من الألوهية والعظمة 0

قوله : وفي الحديث : أي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال (أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر) فسئل عنه فقال (الرياء) الخطاب للمؤمنين إذ الكافرين والمنافقين واقعين فيما هو أكبر من الشرك الأصغر وهو الشرك الأكبر وقد غطى ضرره على ضرر الشرك الأصغر ، وأما المؤمنين فلأنهم سلموا من الشرك الأكبر

فسيضرهم الشرك الأصغر لو وقعوا فيه وذلك لأنه أكبر من الكبائر التي دون الكفر والشرك حتى قال بعض أهل العلم إن الله لا يغفره ابتداءً حتى يمحص صاحبه في النار إذ هو داخلٌ في قوله تعالى ﴿ إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾ [النساء : 48] .ولا كن هناك فروقٌ بين الشرك الأكبر والأصغر منها :

أولاً / أن المشرك شركاً أكبر مخلدٌ في النار بخلاف المشرك شركاً أصغر فإنه لا يخلد في النار وإنما إن دخلها فإنه يمحص فيها ثم يخرج منها 0

ثانياً / أن الشرك الأكبر لا يغفره الله وأما الشرك الأصغر ففيه خلاف والراجح أنه ككبائر الذنوب التي دون الكفر والشرك إما يغفر الله لهم ابتداءً أو يعذبهم بقدر ذنوبهم ومآلهم الجنة برحمة الله 0

ثالثاً / أن الشرك الأكبر يبطل جميع الأعمال وأما الأصغر فيبطل العبادة التي وقع فيها

ثم فسر النبي صلى الله عليه وسلم الشرك الأصغر بأنه (الرياء) وهو الشرك الخفي الذي فسره النبي صلى الله عليه وسلم بقوله (أن يقوم الرجل يصلي فيزين صلاته لما يرى من نظر رجلٍ إليه) فأصل العبادة لله لكنه زينها ليمدح في حسن عبادته لله ونحو ذلك 0 والرياء قسمان :

الأول / مبطلٌ لتلك العبادة التي وقع فيها بالكلية وذلك إذا ابتدأها للرياء فما قام يصلي إلا ليرى فيمدح وما تصدق إلا لأجل ذلك وهكذا سائر العبادات وفي الحديث القدسي يقول تعالى (أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه) رواه مسلم في كتاب الزهد باب من أشرك في عمله غير الله

الثاني / أن يطرأ في أثناء العبادة كأن يصلي مخلصاً وفي أثناء الصلاة دخل رجل فزين صلاته ليمدحه ذلك الرجل أو كثّر صدقته لذلك فهذا على قسمين :

1-أن يدافعه ولا يسترسل معه فهذا لا يضره 0

2-أن يسترسل معه فهنا إن كانت العبادة يتعلق بعضها ببعض كالصلاة والصوم فإنها تبطل وإن لم يتعلق بعضها ببعض كأن يتصدق بعشرة ريالات ثم يرى رجلاً فيتصدق بعشرةٍ أخرى ليمدحه ذلك الرجل فهنا تبطل العشرة الثانية دون الأولى 0

قال في فتح المجيد ص85: الحديث أورده المصنف مختصراً غير معزو وقد رواه الإمام أحمد والطبراني والبيهقي وهذا لفظ أحمد (حدثنا يونس حدثنا ليث عن يزيد عن عمرو عن محمود بن لبيد أن رسول الله قال (إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر) قالوا : وما الشرك الأصغر يا رسول الله ؟ قال (الرياء يقول الله تعالى يوم القيامة إذا جازى الناس بأعمالهم اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم

جزاء) قال المنذري : محمود بن لبيد رأى النبي صلى الله عليه وسلم ولم يصح له منه سماع فيما أرى ، وذكر بن أبي حاتم أن البخاري قال : له صحبة ورجحه بن عبد البر والحافظ وقد رواه الطبراني بأسانيد جيدة عن محمود بن لبيد عن رافع بن خديج وقد مات محمود سنة 96هـ وقيل 97هـ وله 99 سنة ا0هـ 0

وقول النبي صلى الله عليه وسلم (أخوف ما أخاف عليكم) يدل على عظيم حرص النبي على أمته وشفقته بهم فلا خير إلا دلهم عليه ولا شر إلا حذرهم منه فجزاه الله خير ما جازى نبياً عن أمته ، ويدلُّ على أن من أنواع الشر ما هو خفيٌ قد لا يدرك إلا بالمراقبة كالرياء فإن النفس مجبولة على حب المدح وقد يجرها ذلك إلى أن تحب المدح حتى في العبادة وهذا هو الرياء وهو من أنواع الشرك الخفي قال النبي صلى الله عليه وسلم (ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال ؟ قالوا بلى يا رسول الله قال (الشرك الخفي يقوم الرجل فيصلي فيزين صلاته لما يرى من نظر رجل) رواه بن ماجة والبيهقي وحسنه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم (2607) وقد يخفى حتى على صاحبه الذي هو واقعٌ فيه فقد ورد في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتي به فعرفه نعمته فعرفها قال فما عملت فيها قال قاتلت فيك حتى استشهدت قال كذبت ولكنك قاتلت لأن يقال هو جريء فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأالقرآن فأتي به فعرفه نعمه فعرفها قال فما عملت فيها قال تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن قال كذبت ولكنك تعلمت ليقال عالم وقرأت القرآن ليقال هو قارىء فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال فأتي به فعرفه نعمه فعرفها قال فما عملت فيها قال ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك قال كذبت ولكنك فعلت ليقال هو جواد فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار) رواه مسلم

فهؤلاء الثلاثة خفي الرياء حتى عليهم أنفسهم فلم يظنوا أنهم مرائين ولذلك أكدوا على صلاح عملهم وهم يعلمون أن الله يطلع على ما في الخفايا ولو كانوا يعلمون أنهم مرائين لتعذروا بأعذارٍ أخرى ولما تجرؤا على أن يكذبوا على الله وهم مسلمين يعلمون أن الله يعلم خفايا الأمور وبواطنها لكنهم ظنوا أنهم فعلوا تلك الأعمال خالصة وخفي عليهم أنهم كانوا مرائين لذلك فقد وصف النبي صلى الله عليه وسلم الشرك الخفي بأنه (أخفى من دبيب النملة السوداء على الصفاة السوداء في الليلة الظلماء) فهل يستطيع أحدٌ منكم أن يرى أثر النملة في ذلك الموقف فكذلك الشرك الخفي قد لا يدركه الإنسان وهو واقعٌ فيه ولذلك وجب أخذ الحيطة والحذر من الشرك ما صغر منه فضلاً عن ما كبر ولا يتأتى ذلك إلا بالعلم به كما قال الشاعر

عرفت الشر لا للشر لكن لتوقيه ومن لا يعرف الشر خطيراً أن يقع فيه

مع تحري تجنبه وسؤال الله ذلك وكان من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم (اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك شيئاً وأنا أعلم وأستغفرك من الذنب الذي لا أعلم) وأما من ظنَّ أن الشرك هو عبادة غير الله ودعاء غيره فقط فقد أخطأ فقد روى أبو يعلى وبن المنذر أن أبا بكر قال يا رسول الله وهل الشرك إلا ما عبد من دون الله أو ما دعي من دون الله قال (ثكلتك أمك الشرك فيكم أخفى من دبيب النمل)

قال المصنف : وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (من مات وهو يدعو من دون الله نداً دخل النار) رواه البخاري في كتاب التفسير باب قوله تعالى ((ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً))

الند / الشبيه والمثيل قال تعالى { فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ } (22) سورة البقرة وقوله (يدعو) الدعاء ينقسم إلى قسمين :

دعاء مسألة / وهو سؤال الله عز وجل بلسان المقال من خيري الدنيا والآخرة أو أحدهما 0

ودعاء عبادة / فإن المصلى والصائم والحاج والمعتمر والعامل بغيرها من العبادات إنما فعلها يرجوا رضى الله وجنته ويهرب من سخطه وناره فكأنه يدعوا وهو في تلك العبادة اللهم أجرني من نارك وأدخلني جنتك فسميت العبادة دعاءً لأجل ذلك ، فإذا ورد الدعاء في النصوص الشرعية فإنها تدل على الأمرين جميعاً إلا بقرينةٍ صارفة إلى أحدهما دون الآخر فقوله تعالى عن المشركين {إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَانًا مَّرِيدًا} (117) سورة النساء أي يعبدون ويسألون وهكذا قوله تعالى { فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ مِن شَيْءٍ لِّمَّا جَاء أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ } (101) سورة هود وغيرها من الآيات وهذا أمرٌ في غاية الأهمية لئلا يأتي قومٌ يقصرون الشرك على دعاء المسألة ، علماً أن دعاء المسألة لا يكون شركاً إلا إذا دعاه فيما لا يقدر عليه إلا الله كإنزال الغيث وشفاء المريض ونحو ذلك وأما إن سأله من ماله أو مساعدته فيما يقدر عليه البشر فهذا جائزٌ وليس بشرك ، بخلاف دعاء العبادة فكله شرك ، وبذلك نعلم أنَّ من دعى غير الله وذبح لغير الله وصلى لغير الله فقد اتخذ هذا المدعو وهذا المذبوح له وهذا المصلى له نداً لله أي شبيهاً لله فيما يجب له وحده من حقوق ، وهذا هو الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله 0

قال بن القيم :

والشرك فاحذره فشركٌ ظاهر ذا القسم ليس بقابل الغفران

وهو اتخاذ النِّد للرحمن أياً كان من حجرٍ ومن إنسان

يدعوه أو يرجوه ثم يخافه ويحبه كمحبة الديّان

وقد يكون التنديد من الشرك الأصغر كما ورد أن رجلاً قال للنبي صلى الله عليه وسلم (ما شاء الله وشئت) فقال له النبي صلى الله عليه وسلم (أجعلتني لله نداً ، بل ما شاء الله وحده) ثم قال المصنف : ولمسلم عن جابر ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (من لقي الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة ، ومن لقيه يشرك به شيئاً دخل النار).أي وروى الإمام مسلم (في كتب الإيمان باب من مات وهو لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة) عن جابر بن عبد الله بن حرام الأنصاري هو وأبوه صحابيين وأبوه مع الذين بايعوا في العقبة وجعله النبي صلى الله عليه وسلم نقيب بني سلمة حضر بدراً وأحداً واستشهد فيها وأما جابر فمات بالمدينة سنة 70هـ وله 94سنة وقد كف بصره في آخر عمره وكان عالماً معلماً رضي الله عنهما وأرضاهما ثم ساق الحديث وفيه عظم خطر الشرك وأنه سببٌ للمنع من دخول الجنة وأكبر سبب لدخول النار كما قال تعالى { إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللّهُ عَلَيهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ} (72) سورة المائدة وقوله (شيئاً) نكرة في سياق الشرط فيعم كل شيء ولو كان ملكاً مقرباً أو نبياً مرسلا أو ولياً صالحاً فكل من أشرك مع الله غيره كائناً من كان فهذا مصيره ، والحديث أيضاً يبين فضل التوحيد وأن الموحد مصيره الجنة 0 وقد ورد عن أبي ذر رضي الله عنه قال أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وعليه ثوب أبيض وهو نائم ثم أتيته وقد استيقظ فقال (ما من عبد قال لا إله إلا الله ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة) قلت وإن زنى وإن سرق قال وإن زنى وإن سرق قلت وإن زنى وإن سرق قال وإن زنى وإن سرق قلت وإن زنى وإن سرق قال وإن زنى وإن سرق على رغم أنف أبي ذر وكان أبو ذر إذا حدث بهذا قال وإن رغم أنف أبي ذر 0 متفق عليه

(((باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله)))

وقوله الله تعالى ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ ﴾ الآية [يوسف : 108] .

مناسبة الباب لما تقدمه / لما ذكر المصنف فضل التوحيد وحذر من الشرك أراد أن يبين أنَّ على من وفقه الله فعلم التوحيد وعمل به وعلم الشرك وفرَّ منه أن يدعوا غيره إلى طريقه فإنه الطريق الصحيح وهو معنى شهادة أن لا إله إلا الله لأن معناها إفراد الله بالعبادة ونفيها عمن سواه فهي تدعوا إلى العمل بالتوحيد وترك الشرك وما أرسل الله الرسل إلا لأجل ذلك كما قال تعالى {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ} (25) سورة الأنبياء فهذه طريقة الأنبياء والمرسلين ولذلك أمر الله نبيه أن يبين أن هذه هي منهجه وطريقته التي يدعوا إليها عالماً بها غير ضالٍ عن الطريق الصحيح ولا منحرفٍ عنه فقال تعالى ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ ﴾ الآية [يوسف : 108] . قال بن جرير : (قل) يا محمد (هذه) الدعوة التي أدعوا إليها والطريقة التي أنا عليها من الدعاء إلى توحيد الله وإخلاص العبادة له دون الآلهة والأوثان والانتهاء إلى طاعته وترك معصيته (سبيلي) طريقتي ودعوتي (أدعوا إلى الله) تعالى وحده لا شريك له (على بصيرة) بذلك ويقين علمٍ مني به (أنا و) يدعوا إليه على بصيرةٍ أيضاً (من اتبعني) وصدقني وآمن بي (وسبحان الله) وقل تنزيهاً لله تعالى وتعظيماً له من أن يكون له شريكٌ في ملكه أو معبودٌ سواه في سلطانه (وما أنا من المشركين) وأنا بريءٌ من أهل الشرك به لست منهم ولا هم مني ا0هـ فالدعوة إلى الله هي وظيفة الرسل والصالحين من عباد الله وقد امتدح الله عز وجل الدعاة في كتابه فقال {وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ} (33) سورة فصلت قال الحسن البصري لما تلا هذه الآية : هذا حبيب الله هذا ولي الله هذا صفوة الله هذا خيرة الله هذا أحب أهل الأرض إلى الله أجاب الله في دعوته ودعا الناس إلى ما أجاب الله فيه من دعوته وعمل صالحاً في إجابته وقال إنني من المسلمين هذا خليفة الله ا0هـ (نقلته من فتح المجيد ص90 وذكر بن قاسم في حاشيته أنه في تفسير بن كثير) وقال النبي صلى الله عليه وسلم لعليٍ لما بعثه إلى خيبر (فو الله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من حمر النعم) وينبغي على الداعية أن يكون عالماً بأحكام الشرع عالماً بأحوال المدعوين لأن من الناس من تنفعهم الدعوة بالرفق واللين وبعضهم لا يجدي معهم إلا القسوة والشدة وبعضهم بالجدال

والمحاورة وهكذا ولذا قال النبي صلى الله عليه وسلم لمعاذ رضي الله عنه كما في الحديث الآتي (إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب) ليتهيأ لدعوتهم بالأسلوب المناسب لهم وهو الجدال بالحسنى كما قال تعالى {وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} (46) سورة العنكبوت وقد بين الله عز وجل مراتب المدعوين في قوله تعالى {ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} (125) سورة النحل وقال تعالى {وَقَاتِلُواْ الْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ} (36) سورة التوبة وهذه المراتب هي :

1-الدعوة بالحكمة / وذلك لمن إذا عرف الحق قبله فما يمنعه منه إلا جهله به 0

2-الموعظة الحسنة / وذلك لمن يتردد في قبول الحق بعد معرفته وذلك خوفاً من سلطانٍ أو قبيلةٍ أو أهل أو غيرهم أو طمعاً في نوالهم فهذا يوعظ بذكر النار وأهوالها ويخوف منها ويرغب في الجنة ونعيمها ولا مانع من ترهيبه وترغيبه بأمورٍ دنيوية لأنه إذا أستقر الحق في قلبه عمل به ولو لم يحصل من الدنيا على شيء 0

3-المجادلة بالتي هي أحسن / ويكون لصاحب علمٍ في دينٍ باطل كعلماء أهل الكتاب ومن عنده شبه من عوامهم وكذا أهل البدع وغيرهم ممن لو كشفت لهم الحقيقة وزالت عنهم الشبه وعلموا الحق اتبعوه وعملوا به 0

4-استخدام الغلظة والشدة والقتال / ويكون لمن لم تنفع معه الأساليب المتقدمة وكان صاحب جاهٍ ومنزلة أو صاحب كبرٍ وغرور فإن هزيمةً تكسر كبر وغروره وتذهب بجاهه ومنصبه تجعله أسهل وألين لقبول الحق 0

قال بن عثيمين رحمه الله : ينبغي للداعي أن يكون داعياً إلى الله لا داعٍ إلى نفسه أو إلى غيره كرئيسٍ ونحوه ، ويعرف ذلك بغضبه إذا لم يفعل الناس ما أمرهم به ولا يغضب إذا ارتكبوا نهياً أعظم منه ، وذلك لأنه يدعوا لأجل أن يُعظَّمَ بين الناس ويحترم لا لأجل أن يقيم دين الله وشرائعه (القول المفيد 129/1)

وإذا لم يتبع الداعي أحد فلا ييأس ويظنُّ أنه قد فشل بل هو ناجحٌ تمام النجاح وذلك لأنه لو لم يدعوا وينكر وسكت عن الباطل لاعتقد الناس مع تقادم الزمن أن هذا الباطل حقاً فكونه بيَّن أنه باطل كافٍ في كون دعوته ناجحة وقد تقدم أن النبي يأت وليس معه أحد ولا يعني ذلك تقصيره أو فشله حاشا وكلا فإن أجره تامٌ عند الله وقد أقام الحجة على الناس وبرئت ذمته من تبعاتهم 0

وعن ابن عباس رضي الله عنهما ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لما بعث معاذاً إلى اليمن قال له : « إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله – وفي رواية : إلى أن يوحدوا الله – فإن هم أطاعوك لذلك ، فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة ، فإن هم أطاعوك لذلك : فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم ، فإن هم أطاعوك لذلك فإياك وكرائم أموالهم ، واتق دعوة المظلوم ، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب » . أخرجاه

وعن بن عباس / هو حبر الأمة وترجمان القران عبد الله بن عباس بن عبد المطلب الهاشمي القرشي ابن عمِّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد دعى له النبي صلى الله عليه وسلم فقال (اللهم فقه في الدين وعلمه التأويل) فكان من أكابر فقهاء المسلمين ومن أعلمهم بتأويل القران روى كثيراً من الأحاديث وتوفي بالطائف سنة 68هـ

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، لما بعث معاذاً إلى اليمن / معاذ بن جبل بن عمرو الأنصاري الخزرجي صحابيٌّ جليل شهد المشاهد كلها وكان النبي صلى الله عليه وسلم يحبه وذكر ذلك له وقال عنه (أعلم أمتي بالحلال والحرام معاذ بن جبل) ، وقد بعثه النبي صلى الله عليه وسلم إلى اليمن إلى صنعاء وما حولها وبعث معه أبو موسى الأشعري إلى عدن وما حولها وقال (يسرا ولا تعسرا وبشرا ولا تنفرا) رواه البخاري وكان ذاك في ربيع الأول سنة عشرٍ من الهجرة وبقي معاذٌ بها حتى توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم فرجع في خلافة أبي بكر الصديق إلى المدينة ثم انتقل إلى الشام وبها توفي بطاعون عمواس سنة 18هـ وله 38سنة رضي الله عنه وأرضاه وجعل جنة الفردوس مأواه 0

قال له (إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب) ليعرف حال المدعوين وكيفية التعامل معهم

فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله) وفي رواية (إلى أن يوحدوا الله) فجعل التوحيد هو المقدم إذ لا يقبل مع الشرك طاعة ولأنه إذا أستقرَّ التوحيد في النفس انساقت النفس إلى الطاعات ولذلك كان هو أول دعوة الرسل واتباعهم وقد مكث النبي في مكة ثلاثة عشرة سنةً يدعوا إلى التوحيد ولم يفرض عليه إلا الصلاة في السنة العاشرة من البعثة وما عداها من الفرائض كانت في المدينة بعد الهجرة ، ولذلك قال له :

(فإن هم أطاعوك لذلك ، فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة فإن هم أطاعوك لذلك : فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم ، فإن هم أطاعوك لذلك فإياك وكرائم أموالهم ، واتق دعوة المظلوم ، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب » . أخرجاه البخاري في كتاب المغازي باب بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن ومسلم كتاب الإيمان باب الدعاء إلى الشهادتين)

أي فإن قبلوا التوحيد فأرشدهم إلى ما بعده من الفرائض وأخبرهم بفريضتين الأولى صلةٌ بين العبد وربه والثانية صلةٌ بين الناس بعضهم مع بعض وهي الصدقة الواجبة التي هي الزكاة ، وكونها تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم يجعل ذلك أكثر قبولاً عندهم أن أموالهم لم تذهب لغيرهم وإنما ردت على أهل بلدهم الذين هم قراباتهم وجماعتهم فلم يخسروا شيئاً ، وكذلك تحذير النبي صلى الله عليه وسلم لمعاذ من أن يأخذ من نفائس أموالهم وما له كرامة عندهم مما يحبونه ، يفرح قلوبهم ويرضيهم أنه لم يتسلط على ما يحبونه من مالهم وإنما يخرجون من أواسط أموالهم مما لا تتعلق نفوسهم به ولذلك حذرَّ النبي معاذاً من الظلم ومنه أخذ نفائس أموالهم بالقوة وذلك لأن دعوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب ، وهذا من النبي صلى الله عليه وسلم تعليمٌ لمعاذ ولغير معاذ بل غيره أولى أن يحذروا من ذلك فمعاذٌ من أفاضل الصحابة وأتقاهم لله وأبعدهم عن الظلم وإنما ليكون درساً للأمة لمن ولاه الله سلطةً على الناس ، وليس في الحديث قصر مصرف الزكاة على الفقراء بل تصرف في مصارفها الثمانية التي ذكر الله وإنما أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يخبرهم بذلك ترغيباً في دخول الدين لأن الناس قد ينفرون منه شحاً في المال فإذا علموا أن أموالهم تذهب لفقرائهم ارتاحت نفوسهم وعلموا أن الزكاة ليست ضرائب قهرية وإنما هي تكافلٌ اجتماعي وترابطٌ بين أصناف المجتمع ومواساةٌ للفقراء وبركةٌ للأغنياء ، وقوله (وإياك وكرائم أموالهم) أي أنفسها وأثمنها عند أهلها من أي الأصناف كانت فإن أخرجها صاحبها عن طيب نفسٍ منه كان ذلك أكثر لأجره وأعظم عند الله ، وعدم ذكر بقية الفرائض في الحديث فقيل لأنها لم تفرض بعد وهذا لا يصح لأن إرسال معاذ كان في السنة العاشرة بعدما فرضت جميع الفرائض ، وقيل أختصروها الرواة فلم يذكروها وهذا طعنٌ في الرواة فلا يصح وقيل لأن الصلاة والزكاة يقاتل تاركهما بخلاف الصيام والحج وذلك لأن الصلاة والزكاة عبادتين ظاهرتين والحج والصيام عبادتين خفيتين فالحج مرةً في العمر والصيام سر بين العبد وربه 0

وبالمناسبة فإن أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى يقرون أو أكثرهم بأن لا إله إلا الله وإن لم يقولوها بألسنتهم ولا كن لا يعملون بمقتضاها فيأتون بما يناقضها من عبادة المسيح وعزير ويتخذون الأحبار والرهبان أرباباً من دون الله 0 ولذلك قال المصنف في مسائل الباب : المسألة العاشرة / أن الإنسان قد يكون من أهل الكتاب وهو لا يعرفها (أي كلمة التوحيد) أو يعرفها ولا يعمل بها ا0هـ قلت والأخير هو الظاهر من أحوال المتقدمين منهم زمن النبي صلى الله عليه وسلم فقد كانوا يدَّعون أنهم لا يعبدون غير الله وقد أتوا بفظائع الكفريات ككفرهم بنبينا محمدٍ صلى الله عليه وسلم مع وجود صفته واضحةً جليةً في كتبهم حتى أنهم يعرفونه كما يعرفون أبنائهم ولكن كذبوا بما في كتبهم وقاموا بتحريفها عناداً واستكباراً وقد سبقت منهم جرائم في حق الأنبياء

والصالحين من عباد الله فكانوا يسعون في قتل الأنبياء وربما باشروا قتلهم بأيديهم واتهموا المسيح بأنه ابن زانية وسعوا في قتله كما قتلوا زكريا وابنه يحي وغيرهم من الأنبياء بل تجرؤا على ما هو أعظم من ذلك على الله رب العالمين فقالوا ((إن الله فقيرٌ ونحن أغنياء)) وقالوا ((يد الله مغلولة)) وقالوا : إن الله أصابه التعب لما خلق السماوات والأرض فاستراح يوم السبت وهكذا النصارى نسبوا لله الصاحبة والولد ، ومع هذا يأمر الله نبيه أن يجادلهم بالحسنى فسبحان الله ما أحلمه وما أعز جوده وما أكرمه قال تعالى {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} (64) سورة آل عمران أي مستسلمون لله منقادون له خاضعين إليه كافرين بما يعبد من دونه ذلك هو مقتضى شهادة أن لا إله إلا الله الكلمة التي تقرون بها كما نقرُّ بها فتعالوا فلنعمل بمقتضاها ((ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله)) فنشرّع ما لم يشرِّعه الله فنحلُّ ما حرم الله ونحرم ما أحل الله أو نقبل ذلك ممن قاله وفعله سواءً كان منا أو منكم ، وهذا غاية الملاطفة وجمع القلوب على ما تقرُّ به وبيان أن ما ندعوا إليه قد أقرت به نفوسكم لكن غلب عليها الهوى فاطردوه وارجعوا إلى الحق ((فإن تولوا)) وأبوا قبول الحق بعد معرفتهم إياه ((فقولوا أشهدوا بأنا مسلمون)) متمسكون بالحق الذي عرفناه وعملنا بمقتضاه ، وهذا لعلهم يرجعون ويقولون مثل قولكم ويندمون على تركهم القيام بمقتضى لا إله إلا الله بعد معرفتهم إياها ،قال بن جرير : حدثني المثنى, قال: حدثنا إسحاق, قال: حدثنا ابن أبي جعفر, عن أبيه, عن الربيع, قال: قال أبو العالية: كلمة السواء: لا إلَه إلا الله.ا0هـ

قال بن كثير: هذا الخطاب يعم أهل الكتاب من اليهود والنصارى ومن جرى مجراهم {قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة} والكلمة تطلق على الجملة المفيدة كما قال ههنا، ثم وصفها بقوله {سواء بيننا وبينكم} أي عدل ونَصَف نستوي نحن وأنتم فيها، ثم فسرها بقوله {أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً} لا وثناً ولا صليباً ولا صنماً ولا طاغوتاً ولا ناراً ولا شيئاً، بل نفرد العبادة لله وحده لا شريك له، وهذه دعوة جميع الرسل قال الله تعالى {وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون} وقال تعالى {ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت}، ثم قال تعالى{ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله} قال ابن جريج يعني يطيع بعضنا بعضاً في معصية الله، وقال عكرمة: يسجد بعضنا لبعض {فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون} أي فإن تولوا عن هذا النصف وهذه الدعوة فاشهدوا أنتم على استمراركم على الإسلام الذي شرعه الله لكم ا0هـ وقال الجزائري في أيسر التفاسير : قال تعالى لرسوله قل لهم يا أهل الكتاب من يهود ونصارى تعالوا ارتفعوا من وهدة الباطل التي أنتم واقعون فيها إلى كلمة سواء كلمة عدل نصف بيننا

وهي أن نعبد الله وحده لا نشرك به سواه وأن لا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فيفرض طاعته على غيره ويلزمه بالسجود تعظيماً وتقديساً فإن أبوا عليك ذلك وتولوا عنه فقولوا أيها المؤمنون: اشهدوا أيها المتولون عن الحق بأنا مسلمون. وفي هذا تعريض بل تصريح بأن غيرهم ليسوا مسلمين ا0هـ

ولهما عن سهل بن سعد رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوم خيبر (لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله ، يفتح الله على يديه) فبات الناس يدوكون ليلتهم أيهم يعطاها . فلما أصبحوا غدوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم كلهم يرجو أن يعطاها . فقال (أين علي بن أبي طالب) ؟ فقيل : هو يشتكي عينيه ، فأرسلوا إليه ، فأتى به فبصق في عينيه ، ودعا له ، فبرأ كأن لم يكن به وجع ، فأعطاه الراية فقال (انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ، ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه ، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً ، خير لك من حمر النعم). يدوكون : أي يخوضون .

قوله : ولهما : أي صاحبي الصحيحين فقد رواه البخاري في كتاب المغازي باب غزوة خيبر ومسلم كتاب فضائل الصحابة باب من فضائل علي

عن سهل بن سعد بن مالك بن خالد الأنصاري الخزرجي الساعدي هو وأبو صحابيان مات سنة 88هـ وقد جاوز المائة (فتح المجيد ص99 أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوم خيبر أي يوم معركة خيبر وكانت ضد اليهود الذين كانوا يسكنون خيبر وكانت تلك الغزوة في السنة السابعة من الهجرة (لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله ، يفتح الله على يديه) وهذا وصفٌ عظيم لهذا الرجل الذي سوف يعطى الراية وليست الميزة أنه يحب الله ورسوله فكل مؤمنٍ يحب الله ورسوله ولكن الميزة العظمى أن الله ورسوله يحبانه فأي كرامةٍ بعد هذه الكرامة ولذلك قال الراوي فبات الناس يدوكون ليلتهم أيهم يعطاها . فلما أصبحوا غدوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم كلهم يرجو أن يعطاها وفسر المصنف يدوكون أي يخوضون أي بالكلام فيقولون مثلاً يا ترى من هو صاحب الحظ السعيد لعله فلان أو فلان ، ثم بكروا بالمجيء كلٌ يريد أن يكون هو صاحب اللواء في ذلك اليوم حتى قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو من هو : ما أحببت الإمارة إلا يومئذ رواه مسلم والغريب أن النبي صلى الله عليه وسلم اختار رجلاً لم يكونوا يتوقعونه لأنه كان مريضاً به رمد ولعله لم يحضر القتال فيما سبق من الأيام في تلك المعركة لذلك المرض ذلك هو البطل المقدام والفارس المغوار والصحابي الجليل أبو الحسن علي بن أبي طالبٍ رضي الله عنه فإن النبي صلى الله عليه وسلم لما أصبح قال (أين علي بن أبي طالب) ؟ فقيل : هو يشتكي عينيه ، فأرسلوا إليه ، فأتى به فبصق في عينيه ، ودعا له ، فبرأ كأن لم

يكن به وجع ، فأعطاه الراية) وفي الصحيحين أيضاً عن سلمة بن الأكوع قال : كان عليٌ رضي الله عنه قد تخلف عن النبي صلى الله عليه وسلم في خيبر وكان أرمد فقال : أنا أتخلف عن رسول الله فخرج فلحق بالنبي صلى الله عليه وسلم فلمَّا كان مساء الليلة التي فتحها الله عز وجل في صباحها قال النبي صلى الله عليه وسلم (لأعطين الراية غداً رجل يحبه الله ورسوله أو قال يحب الله ورسوله يفتح الله على يديه) فإذا نحن بعليٍ وما نرجوه فقالوا هذا علي فأعطاه الراية ففتح الله عليه)(نقلته من فتح المجيد ص100) وقوله بصق في عينيه أي نفث فيهما بريقه ودعا له فبرأ بإذن الله ولا يستدل بهذا الحديث على أن النبي صلى الله عليه وسلم ينفع أو يضر فإن النافع الضار هو الله جل وعلا ولذلك أمر الله نبيه أن يقول للناس {قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا} (21) سورة الجن وإنما شافى الله علياً برقية النبي صلى الله عليه وسلم ودعائه وبالمناسبة فإنه كلما زاد صلاح الراقي والمرقي كانت الرقية أقرب إلى النفع وذلك من حكمة الله ليجتهد الناس في التقرب إلى الله ليكونوا نافعين منفوعين فكيف إذا كان الراقي هو رسول الله صلى الله عليه وسلم وجمع معها الدعاء أيضاً ولذلك برئ عليٌ مكانه كأن لم يكن به وجع ، والنبي صلى الله عليه وسلم مبارك وريقه مبارك وما انفصل منه كشعرٍ ونحوه وقد كان الصحابة يقتتلون على فضل وضوءه ويتسابقون على الأخذ من شعر رأسه حين يحلقه وكانوا يضعونه في ماءٍ ويداوون به مرضاهم وهذا خاصٌ بالنبي صلى الله عليه وسلم لا يلحق به أحدٌ من الأمة فلم يكن الصحابة يفعلون ذلك مع الخلفاء الراشدين ولا غيرهم فدل على خصوصية ذلك بالنبي صلى الله عليه وسلم والبركة من الله فهو الذي جعل في جسد نبيه البركة وخصه بها إكراماً له فتطلب من الله وسيأتي إن شاء الله تفصيل الكلام على التبرك الجائز والمحذور في بابه 0

فقال (انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم)

أي أخرج إليهم وليكن خروجك بتمهل وعدم عجلة حتى تنزل بالقرب منهم وذلك حتى لا يتفكك الجيش من العجلة ولئلا يكون هناك كمائن فتحذرها إذا مشيت بتؤدة وغير ذلك من الحكم ، ثم أرشده إلى الهدف من الجهاد والقتال وهو إدخال الناس في الدين وليس الهدف هو سفك الدماء وإزهاق الأنفس كما يدعيه أعداء الإسلام عن الإسلام بأنه دين الإرهاب والقتل ، بل هو دين الرحمة وعرف ذلك المنصفون من مؤرخي الغرب فسموا المسلمين الأوائل الفاتحين الرحماء وذلك لأنهم لا يفعلون كما يفعل غيرهم من يحتلون البلاد فيقتلون العباد ويهلكون الحرث والنسل كما فعل بختنصر والتتار المغول والصليبيين وغيرهم على مر التاريخ ، بل كان المسلمون رحمةً على البلد الذي يفتحونها فلا يجبرون أحداً على الدخول في الدين ولا ينقضون العهد والذمة ولا يخونون ولا يظلمون ، ولا يهدمون الكنائس والبيع وغيرها إلا أن يهدمها أهلها فيجعلون لأهلها

الحرية خلاف ما يزعمه ساسة الغرب اليوم من قولهم نريد أن نحرر الشعوب ونجعلهم يتمتعون بالديمقراطية وحقيقة قولهم : نريد أن نبيد الشعوب ونسفك الدماء ونهتك الأعراض ونتمتع بخيرات بلادهم وعليهم أن يشكرونا لأننا قلنا لهم نريد أن نحرركم 0 فالمقصود أن المجاهدين المسلمين منذ العصر الأول هدفهم تحرير العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد وكانوا يقاتلون ويتمنون وهم يقاتلون أن يسلم أعدائهم ليسلموا من العذاب الأليم ويدخلوا جنة النعيم ولذا قال النبي صلى الله عليه وسلم لعلي (ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه ، فو الله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم).

أي الإبل وكانت نفائس أموال العرب في ذلك العصر وهذا لو أسلم واحد فكيف لو كان مجموعة منهم أو كلهم لا شك أن الأجر أعظم وهذا يقال للدعاة إلى الإسلام حتى ينشطوا في الدعوة ويعلموا أن أجرها عظيم عند الله 0

(باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله)

مناسبة الباب لما تقدم / بعد أن ذكر المصنف فضل التوحيد وعظيم أجر الموحد وبيَّن خطر الشرك وعظيم عذاب المشرك أراد أن يبيِّن معنى التوحيد إذ النفوس قد اشرأبت إلى معرفته لتنال أجره وتحذر من ضده لتأمن من وزره فذكره هنا 0

التفسير / هو الكشف والإيضاح

قوله (التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله) أراد أن يبين أن توحيد الطلب هو معنى شهادة أن لا إله إلا الله لأن من الناس من يقول لا إله إلا الله وهو آتٍ بما يناقضها فهو غير موحد وإن زعم أنه موحد ، فيقول أنا أقرُّ بأن الله هو الخالق الرازق المدبر للكون فأنا موحد وأقول لا إله إلا الله ويرى أن معناها لا قادر على الإختراع إلا الله وكل هذا من توحيد الإثبات فأين توحيد الطلب وأين معنى الإله وهو المعبود في قولكم لا قادر على الإختراع إلا الله ، فهم قصروا التوحيد على أحد أنواعه وهو توحيد الربوبية وأنكروا توحيد الألوهية والعبادة فتراهم يصرفون لغير الله أنواعاً من العبادات كالذبح والنذر وغير ذلك وما علموا أن فعلهم هذا هو نفس فعل

المشركين الذين قاتلهم النبي صلى الله عليه وسلم واستباح دمائهم وأموالهم وأعراضهم فقد كانوا يقرون بأن الله هو الخالق الرازق المدبر للكون وأنه لا قادر على الإختراع إلا الله كما قال تعالى {قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (84) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (85) قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (86) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (87) قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (88) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ (89)} سورة المؤمنون وقال تعالى {قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيَّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللّهُ فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ} (31) سورة يونس وإنما الفرق بينهم وبين هؤلاء أن أولئك أذكى من هؤلاء فإنهم فقهوا معنى لا إله إلا الله وأن المراد بها توحيد الألوهية وهو إفراد الله بالعبادة وترك عبادة من سواه فلم يقولوها كما قال تعالى {إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (35) وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ} (36) سورة الصافات وقالوا {أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ} (5) سورة ص بينما مشركي زماننا يقولون لا إله إلا الله ثم يأتون بما يناقضها وهم أهون من مشركي زماننا من ناحيةٍ أخرى وهي أن شركهم في الرخاء وأما في الشدة فيخلصون العبادة لله كما قال تعالى {فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ} (65) سورة العنكبوت وأما مشركي زماننا فإذا اشتد بهم الكرب نادوا يا ولي الله يافلان أدركنا فأيهم أعظم شركاً 0

ولقد دلت النصوص المتكاثرة على أنه لا يجوز صرف شيءٍ من العبادة لغير الله وأن ذلك هو الشرك الأكبر الذي يخلد صاحبه في النار قال تعالى {وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ} (23) سورة الإسراء وقال تعالى {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ} (5) سورة البينة وقال تعالى {هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} (65) سورة غافر وقال تعالى {أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ} (3) سورة الزمر وقال تعالى {قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ} (64) سورة الزمر وقال تعالى {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلاَ أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} (104) سورة يونس وقال تعالى {قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ قُل لاَّ أَتَّبِعُ أَهْوَاءكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُهْتَدِينَ} (56) سورة الأنعام والآيات والأحاديث الدالة على وجوب إفراد اله بالعبادة ونفيها عمن سواه أكثر من أن تحصر ولكن صدق الله القائل {وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ} (106) سورة يوسف روى الطبري عن عكرمة ومجاهد وعامر أنهم قالوا : ليس أحدٌ إلا

وهو يعلم أن الله خلقه وخلق السماوات والأرض فهذا إيمانهم 0 وعن عكرمة : تسألهم من خلق السماوات والأرض فيقولون الله فذلك إيمانهم وهم يعبدون غيره (حاشية فتح المجيد ص94)

وقول الله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ ﴾ الآية [الإسراء : 57] .وقوله : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاء مِّمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي ﴾ الآية [الزخرف : 26، 27] . وقوله : ﴿ اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ ﴾ الآية [التوبة :31]. وقوله : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ ﴾ الآية [البقرة : 165] .

في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال (من قال : لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه ، وحسابه على الله عز وجل » .وشرح هذا الترجمة : ما بعدها من الأبواب

ساق المصنف الأدلة التي تبين أن صرف شيءٍ من العبادة لغير الله شرك أكبر ففي الآية الأولى يقول تعالى ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ ﴾ الآية [الإسراء : 57] ولم يذكر المصنف الآية التي قبلها وهي قوله تعالى {قُلِ ادْعُواْ الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلاَ يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلاَ تَحْوِيلاً} (56) ثم قال {أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا} (57) سورة الإسراء يأمر الله تعالى نبيه أن يبين للمشركين أن الذين يدعونهم من دون الله دعاء عبادة ودعاء مسألة لا يملكون ولا يستطيعون أن يكشفوا ويرفعوا عنهم الضر الذي نزل بهم ولا يستطيعون تحويلهم من المرض إلى الصحة ومن الفقر إلى الغنى إذ هم عاجزون تماماً عن ذلك ليس لهم من ملك ذلك شيء ، ثم أخبر جل وعلا أن هؤلاء المدعوين كانوا قبل موتهم رجالاً صالحين يطلبون من ربهم أن يدلهم على الوسائل المقربة منه ويسعون جادين في العمل بها رجاء رحمة ربهم وخوف عذابه ذلك أن عذاب ربك يحذره أصحاب القلوب السليمة التي تعرف مصلحتها في الدنيا والآخرة ، والمراد تبيين أنه كيف يكون هذا العابد الذليل إلى ربه الفقير إلى رحمته وعفوه إلهاً يعبد من دون الله ويصرف له أنواعاً من العبادات التي هي محض حق الله جل وعلا كالدعاء وغيره وقد قال تعالى {وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا} (18) سورة الجن وتعجبون لو علمتم أن المشركين المتأخرين من عباد القبور والأولياء اتخذوا هذه الآية حجةً لهم وقالوا إن الوسيلة هي التوسل بالصالحين

فسبحان الله كيف يطبع الله على قلوب أعداءه فيجعلهم يقلبون معاني النصوص إلى ما يوافق أهوائهم وهذا من الزيغ كما قال تعالى { فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ } (5) سورة الصف ولا شك أن معنى الآيات واضحٌ لصاحب القلب السليم أنه في التحذير من صرف العبادة والدعاء لغير الله وأن هذا المدعو إنما هو عبدٌ لله كان في حياته رجلاً صالحاً متقرباً لله بأنواع العبادات فاقتدوا به ولا تعبدوه ، كما قال تعالى {وَلاَ يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ الْمَلاَئِكَةَ وَالنِّبِيِّيْنَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ } (80) سورة آل عمران وقال تعالى {وَإِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـهَيْنِ مِن دُونِ اللّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ (116) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ } (117) سورة المائدة ونحن نسأل هؤلاء إذا كانت الوسيلة هي سؤال الله بذوات أو بجاه الصالحين فالصالحين الأوائل كيف لهم أن يحصلوا على هذه الوسيلة ثم ألا تقرئون القران ألا تعلمون أن نوحاً عليه السلام بعثه الله لدعوة قومٍ كانوا يتوسلون بالصالحين أمثال ودٍ وسواع ويغوث ويعوق ونسرا كما قال بن عباس أن هؤلاء رجالٌ صالحون فلما ماتوا صوروا لهم صوراً ثم عبدوهم تقرباً إلى الله وهكذا سائر الأنبياء إنما بعثوا لمحاربة قومٍ كانوا يتوسلون بالصالحين حتى أن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بعثه الله إلى قوم يعظمون اللات وهو رجلٌ صالح كان يلت السويق للحجاج يطعمهم به قال تعالى {أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ } (3) سورة الزمر وقال تعالى { وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللّهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ } (18) سورة يونس فوصفه الله بأنه شرك ونزه نفسه عنه فالحمد لله على اتضاح الحق وبيانه 0

وفي الآية الثانية يقول تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاء مِّمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴾ [الزخرف : 26 ، 27]

في هذه الآية معنى لا إله إلا الله لأنها تضمنت نفياً وإثباتاً فقول الخليل (لأبيه وقومه إنني براءٌ مما تعبدون) فيه معنى لا إله وقوله (إلا الذي فطرني) فيه معنى إلا الله ، فقد نفى عبادة ما سوى الله وأثبتها لله وحده

وهذا هو معنى لا إله إلا الله ، وقوله (إلا الذي فطرني) أي خلقني وهذه لفتةٌ جميلةٌ من الخليل عليه السلام لقومه لأنهم يقرون أن الله هو الذي خلقهم فكأنه يقول لهم عجباً لكم تقرون أن الله هو الذي خلقكم ثم تعبدون غيره أما أنا فلا أعبد إلا الذي خلقني كقوله لهم في آية أخرى ((قال أفرءيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون فإنهم عدوٌ لي إلا رب العالمين الذي خلقني فهو يهدين والذي هو يطعمني ويسقين وإذا مرضت فهو يشفين والذي يميتني ثم يحيين)) (75-81) الشعراء فأراد أن يبين لهم أن إقراركم بتوحيد الربوبية يستلزم أن تقروا بتوحيد الألوهية إذ كيف تعبدون غير من أنعم عليكم بالخلق والرزق والصحة والإحياء والإماتة ، ثم أظهر لهم تبرأه من آلهتهم ليبين لهم أن هذه الآلهة لا تستطيع ضره وأنها لا تملك شيئاً وهي عاجزة ، بل حتى لا تستطيع دفع الضر عن نفسها فقد حطَّمها الخليل فلم تستطع منعه وكل ذلك ليبين لهم عجز الآلهة وأن الملك والقوة بيد الله وأنه لا يتم الإيمان بالله إلا بالكفر بما يعبد من دونه كما قال تعالى { فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} (256) سورة البقرة ولقد حاول خليل الرحمن معهم بكل الأساليب والطرق لعلهم يرجعون عن غيهم ويتوبون إلى ربهم فلم تنفعهم المواعظ ولم تزجرهم القوارع فما كان منه إلا أن أعلن براءته منهم ومن معبوداتهم التي يعبدونها من دون الله كما قال تعالى {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاء مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاء أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ } (4) سورة الممتحنة وترك أرضهم وهاجر إلى الأرض المباركة فلسطين الحبيبة كما قال تعالى {فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} (26) سورة العنكبوت وهكذا أمرنا ربنا أن نقتدي بالخليل في براءته من الآلهة التي تعبد من دون الله والبراءة من عابديها بل وهجرهم والبعد عنهم إذا لم تنفع معهم المواعظ والنصائح وهكذا فعل نبينا صلى الله عليه وسلم فقد هاجر إلى المدينة عندما لم يجد آذاناً صاغيةً ولا قلوباً واعيةً في أهل مكة ورأى من إصرارهم على معبوداتهم فما كان منه إلا أن انتقل عنهم إلى أرضٍ يقبل أهلها بدعوة الحق حتى كون دولة الإسلام ثم عاد إلى مكة فاتحاً 0

وفي الآية الثالثة يقول تعالى {اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ} (31) سورة التوبة وقد ورد أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأها فسمعه عدي بن حاتم وكان قبل إسلامه نصرانياً فقال يا رسول الله إنا لسنا نعبدهم فقال عليه الصلاة والسلام (أليس يحلون لكم ما حرم الله فتحلونه ويحرمون عليكم ما أحل الله فتحرمونه) قال : بلى قال (فتلك عبادتهم) وهذا يسميه العلماء شرك الطاعة وهو أن تطيع العلماء والأمراء في تحليل الحرام وتحريم الحلال قال الشيخ

عبد الرحمن بن حسن : الآية دلت على أن من أطاع غير الله ورسوله وأعرض عن الأخذ بالكتاب والسنة في تحليل ما حرم الله أو تحريم ما أحل الله وأطاعه في معصية الله واتبعه فيما لم يأذن به الله فقد اتخذه رباً ومعبوداً وجعله لله شريكاً وذلك ينافي التوحيد الذي هو دين الله الذي دلت عليه كلمة الإخلاص (لا إله إلا الله) فإن الإله هو المعبود ، وقد سمى الله طاعتهم عبادة لهم وسماهم أرباباً كما قال تعالى {وَلاَ يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ الْمَلاَئِكَةَ وَالنِّبِيِّيْنَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ} (80) سورة آل عمران وهذا هو الشرك فكل معبودٍ رب وكل مطاعٍ ومتبع على غير ما شرعه الله ورسوله فقد اتخذه المطيع المتبع رباً ومعبوداً كما قال تعالى { وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ} (121) سورة الأنعام وهذا هو وجه مطابقة الآية للترجمة ويشبه هذه الآية في المعنى قوله تعالى {أَمْ لَهُمْ شُرَكَاء شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} (21) سورة الشورى (فتح المجيد ص118)

وهؤلاء المتبعين للرؤساء والعلماء على ثلاثة أصناف :

الأول / قومٌ جهلوا الحق واعتقدوا أن هذا الأمر والنهي غير مخالفٍ لشرع الله وليس عندهم من يبين لهم الحق مع اجتهادهم في معرفة الحق والعمل به فهؤلاء يعذرون بالجهل0

الثاني / قومٌ علموا الحق وعرفوا أن ما أمروا به ونهوا عنه مخالفٌ للحق ولكن اتبعوهم لهوىً في نفوسهم أو رغبةً أو رهبة مع التزامهم إعتقاداً بشرع الله فلم يجحدوه ولا يحلون ما حرم ولا يحرمون ما أحل وإنما يرتكبون الحرام وهم مقرين بأنه حرام وأنهم عاصين مذنبين فهؤلاء عصاةٌ كسائر العصاة لا يكفرون إلا بما كان فعله أو تركه كفر كفعل الشرك والسحر أو ترك الصلاة 0

الثالث / أن يعتقد تحريم ما أحل الله وتحليل ما أحل طاعةً لهؤلاء الرؤساء والعلماء فهذا يكفر وهو الذي تنطبق عليه هذه الآيات 0

وأما هذا المطاع في تحريم الحلال وتحليل الحرام فإن كان فعل ذلك اجتهاداً وهو من أهل الإجتهاد وكان يعتقد أن ما قاله هو الموافق لقول الله ورسوله بعد نظره في الأدلة فهذا يعتبر مخطئ لكنه مأجورٌ غير مأزور لقول النبي صلى الله عليه وسلم (إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران وإن أخطأ فله أجر واحد) وإن كان يعلم أن قوله مخالف لقول لله ورسوله ولم يكره عليه فالظاهر أنه يكفر مطلقاً سواءً اعتقده أو قاله رغبةً أو رهبةً دون الإكراه مع إقراره بعصيانه لأنه جعل نفسه مشرعاً مع الله ، والله تعالى أعلم0

مسألة / من كان قادراً على النظر والإستدلال في مسألةٍ شرعية فلا يجوز له التقليد فيها فإن قلَّد مع علمه بخطأ إمامه كان له نصيبٌ من هذه الآية ، وإن شك في خطأه أو صوابه وترك النظر في الأدلة لثقته بشيخه فهذا يأثم لتركه ما وجب عليه من إتباع الدليل دون الرجال ، وإن كان عاجزاً عن النظر والإستدلال فيقلد من يثق به من أهل العلم ولا يأثم حينئذٍ إلا إذا تعمد ترك الحق بعد معرفته إياه كما تقدم 0

وفي الآية الرابعة يقول تعالى {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلّهِ } (165) سورة البقرة النّد / الشبيه والمثيل والنظير

وقوله تعالى (يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ) يحتمل أمرين إما إنهم يسوون معبوداتهم في المحبة والتعظيم بالله ، وإما أنهم يحبون معبوداتهم كما يحب المؤمنين ربهم لكن هذا يتنافى مع تمام الآية وهي قوله تعالى (وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلّهِ) مما يدل على أنه ليست محبة المشركين لمعبوداتهم مساويةً لمحبة المؤمنين لربهم ولذلك فالمعنى الصحيح الأول ، وقد عابهم الله وعدهم ظالمين بتسويتهم المخلوق بالخالق وتوعدهم بالعذاب فقال في تمام الآية { وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ} (165) سورة البقرة فما باالك بقومٍ يدَّعون الإسلام يحبون معبوداتهم أكثر من حبهم لله ولو قلت لأحدهم احلف بالله لحلف وهو كاذب غير متردد ولو قيل له احلف بالولي الفلاني لرأيته يتلعثم وتبدوا عليه الرحضاء من الخوف المقرونة بالمحبة ، وتراهم يضربون أكباد الإبل إلى مسافات شآقة لأجل زيارة قبر الولي الفلاني وهم لم يحجوا في حياتهم ولم يزوروا البيت العتيق وإن زاروه مرةً أخذوا يمنون على الله بتلك الزيارة بينما تراهم يترددون على قبور الأئمة والأولياء دون كللٍ ولا ملل ويرون أن لصاحب القبر الفضل عليهم إذ سمح لهم بزيارته ، وإذا جاء أحدهم عند قبر الولي رأيت عليه من الإستكانة والخضوع والخشوع ما لم تراها عليه إذا وقف بين يدي ربه في الصلاة ، فهل هؤلاء يحبون الله

كمحبة معبوداتهم تالله إنهم عظموا معبوداتهم وأحبوها أكثر من تعظيمهم ومحبتهم لله فأي إسلامٍ هذا الذي يدَّعون 0

والمحبة على ثلاثة أنواع /

النوع الأول / المحبة الشركية : وهي محبة المعبودات والمخلوقات كمحبة الله أو أكثر بحيث إذا تعارضت محبة الله ومحبة ذلك المعبود قدَّم محبة ذلك المخلوق 0

النوع الثاني / المحبة الطبيعية : وهي محبة الآباء والأبناء والأهل والأموال ونحو ذلك فهذه جائزة ما لم تؤدي إلى حرام كمن يزداد حب المال عنده حتى يسعى في الحصول عليه من غير الطرق المشروعة أو يزداد حب الولد عنده حتى يترك من أجله ما أوجب الله فهنا تحرم هذه المحبة 0

النوع الثالث / المحبة الشرعية : وهي المحبة في الله لا تحبُّ هذا الرجل إلا لكونه مطيعاً لله صالحاً ولا تحب هذا الشيء إلا لكونه يقرب إلى الله فهذه محبة مشروعة يأجر صاحبها 0

قوله : وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال (من قال : لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه ، وحسابه على الله عز وجل » .

يريد صحيح مسلم فقد رواه في كتاب الإيمان باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، والحديث يدل على أن القول وحده لا يكفي حتى يقرنه بالفعل فيكفر بما يعبد من دون الله أما مجرد التلفظ بكلمة التوحيد مع الوقوع في عبادة غير الله كما هو الحاصل من كثيرٍ من المنتسبين للإسلام من عباد القبور والأولياء فهذه لا تنفعهم لأن الدعاوى إذا لم يقيموا عليها بيناتٍ فأصحابها أدعياء فلا بد من فهم معنى كلمة التوحيد ثم العمل بمقتضاها واستيفاء شروطها 0

قوله / وشرح هذا الترجمة : ما بعدها من الأبواب 0 أي أنه سيذكر أبواباً تبين ماهية الكفر بالطاغوت والإيمان بالله 0

باب من الشرك لبس الحلقة والخيط
ونحوهما لرفع البلاء أو دفعه

شرع المؤلف رحمه الله في ذكر أنواعٍ من الشرك فقال (بابٌ من الشرك) أي من أنواعه وقد أطلق لفظ الشرك فلم يقيده بالشرك الأكبر أو الأصغر لأن هذا النوع يكون شركاً أكبر أو أصغر بحسب اعتقاد صاحبه فإن اعتقد أن هذه الأشياء تؤثر بذاتها فهو شركٌ أكبر وإن اعتقد أنها سبب والنافع الضار هو الله كان شركاً أصغر لأنه جعل سبباً ما لم يجعله الله فشارك الله في الحكم على شيءٍ بالسببية ، وذلك لأن الأسباب إما تعرف عن طريق النص مثل كون العسل والحبة السوداء شفاء أو تعرف عن طريق التجربة الحسية لا النفسية فما جرب حساً فنفع ككيٍ في موضعٍ ما ينفع لمرضٍ معين ونحو ذلك فيعتبر سبباً شرعياً وأما ما جرب نفسياً فنفع فلا يعتبر لأن الإنفعال النفسي قد يؤثر فإذا لبس الشخص الحلقة أو الخيط أو غيرهما فقد يزول مرضه لا لأنها نافعة ولكن لما كان يعتقد أنها نافعة تأثر بالإيحاء النفسي لأن بعض الناس يوحي إلى نفسه أنه مريض وما مرضه إلا إيحاء فإذا قيل له إن هذا الدواء نافعٌ مائة بالمائة وأنه مجرب وأنه كذا وكذا فبمجرد أن يأخذه يشفى ولو كان هذا الدواء لا يوافق المرض الذي فيه لاطمئنان نفسه إليه ، فهكذا لبس الحلقة والخيط ونحوهما فلا تعتقدوا أن المشركين استمروا على لبسها جميعاً ولم ينكرها منهم أحد رغم أنها لم تنفع أحداً منهم لا بد أنهم رأوا شخصاً مريضاً لبسها فشفي فاعتقدوا أنها هي النافعة وما علموا أن ذلك مجرد إيحاءاتٍ نفسيةٍ زالت عنه بلبسه إياها لما يعتقده فيها فجاء الإسلام فأبطل هذه الخيالات حتى لا يعيش المسلمون في توهماتٍ وخيالاتٍ لا حقيقة لها إنما هي مجرد أوهام نفسية وأباح الأدوية الحسية النافعة بإذن الله كالتداوي بالأعشاب والكي والحجامة ونحو ذلك كالعقاقير الطبية المستخلصة من الأعشاب وغيرها ونهى عن التداوي بالمحرمات كالخمر وغيرها ولما سئل أحد الصحابة النبي صلى الله عليه وسلم عن التداوي بالخمر نهاه وقال (إنها داء وليست بدواء) وقال في حديثٍ آخر (إن الله لم يجعل شفاء أمتي فيما حرم عليها) وقال (تداووا عباد الله ولا

تتداووا بحرام) فأجاز التداوي بالأدوية الحسية النافعة وحرم التداوي بالأدوية الحسية المحرمة ومنع من التداوي بالخيالات والأوهام وكل هذا يدل على أن الإسلام دين الفطرة السوية لا دين الخرافات فأبطل التوهمات ولم يبطل الأسباب الحقيقية بل شرع للناس طلبها ولكن لم يجعل الإعتماد عليها فلا تنفع بذاتها بل بتقدير الله جل وعلا 0

قول المؤلف (من الشرك لبس الحلقة والخيط ونحوهما لرفع البلاء أو دفعه)

الحلقة / هي ما يلبس أو يوضع على الجسد بشكلٍ دائري أو شبه دائري كالأساور والخواتم والقلائد ونحوها من أي شيٍ كان سواءً كان من ذهب أو فضة أو حديد أو غيرها بقصد جلب النفع أو دفع الضر فإن أعتقد أنه يجلب النفع ويدفع الضر بذاته كان شركاً أكبر وإن أعتقد أنه سبب والنافع الضار هو الله كان شركاً أصغر وإن لبسه لمجرد الزينة فيجوز سوى الذهب للرجال وما فيه تشبهٌ بالجنس الآخر أو بالكفار فيحرم

الخيط / هو الخيط المعروف يجعلون منه حلقةً أو نحوها فيعتقدون فيها مثل ما تقدم في الحلق الأخرى فهو نوعٌ من الحلق 0

قوله ونحوهما / كتعليق جلد الذئب لطرد الجآن وغير ذلك

وقوله : لرفع البلاء أو دفعه / الدفع قبل نزول الداء والبلاء والرفع بعده 0

وقول الله تعالى : ﴿ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ ﴾ الآية [الزمر : 38] .

قال تعالى {وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ} (38) سورة الزمر يخبر جل وعلا في هذه الآية عن إقرار المشركين بأن الله هو خالق السماوات والأرض ، ثم أمر نبيه أن يسألهم هذا السؤال الذي يتبين به الحق ((قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ)) قال مقاتل : فسألهم فلم يجيبوا لأنهم لا يعتقدون فيها هذا الإعتقاد وإنما كانوا يدعونها على أنها وسائط بينهم وبين الله عز وجل لا على أنهم يكشفون الضر ويجيبون دعاء المضطر فهم يعلمون أن ذلك لله وحده كما قال تعالى { وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ (53)ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ } (54) سورة النحل اهـ (نقلته من فتح المجيد ص130) قلت : وقد يعتقد بعضهم فيها نفعاً أو ضراً لكن يرى أنها سبباً وأن النافع الضارَّ حقاً هو الله ولذلك لا

تستطيع هذه الآلهة أن تدفع الضرَّ الذي يكتبه الله على العبد ولا أن تمنع عنه الرحمة ولذا ورد السؤال بهذه الصيغة التي يقرون بها ، ولذلك أورد المؤلف هذه الآية في هذا الباب الذي ملخصه أن من الشرك جعل ما ليس سبباً شرعياً ولا حسياً سبباً فهذه الأصنام والمعبودات ليست سبباً حقيقياً للنفع والضر بل هو سببٌ باطل فهكذا الحلقة والخيط والودعة والناب وغيرها كلها أسبابٌ باطلة لا دليل عليها فيكون العمل بها شركاً إما أكبر إن اعتقد أنها تنفع وتضر بذاتها أو أصغر إن أعتقد أنها سبب ، وكون عبَّاد الأصنام مشركين شركاً أكبر لكونهم صرفوا لها أنواعاً من العبادات لا لكونهم أعتقدوا أنها سبباً للنفع والضر فإن هذا شركٌ أصغر كما بينا 0

ثم أمر الله نبيه أن يبين للناس الحق الذي لا بطلان فيه فقال تعالى ((قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ))
أي هو الذي يكفيني ويكفي من توكل عليه في جلب النفع ودفع الضر فإنه هو المتفرد بذلك حقاً 0

وعن عمران بن حصين أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى رجلاً في يده حلقة من صفر ، فقال (ما هذه)؟ قال : من الواهنة . فقال النبي صلى الله عليه وسلم (انزعها فإنها لا تزيدك إلا وهناً ، فإنك لو مت وهي عليك ، ما أفلحت أبداً) . رواه الإمام أحمد بسند لا بأس به . وله عن عقبة بن عامر رضي الله عنه مرفوعاً (من تعلق تميمة فلا أتم الله له ، ومن تعلق ودعة فلا ودع الله له) . وفي رواية (من تعلق تميمة فقد أشرك) ولابن أبي حاتم عن حذيفة رضي الله عنه أنه رأى رجلاً في يده خيط من الحمى فقطعه ، وتلا قوله تعالى ﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ﴾ [يوسف : 106] .

وعن عمران بن حصين بن عبيد بن خلف الخزاعي هو وأبو صحابيان أسلم عمران عام خيبر ومات سنة 52هـ بالبصرة أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى رجلاً في يده حلقة من صفر، وقد ورد في روايةٍ أخرى أنه عمران نفسه فقد روى الحاكم عنه أنه قال : دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي عضدي حلقة صفر فقال : ما هذه ..الحديث 0 والصفر النحاس 0 فقال : « ما هذه » ؟ إما للإنكار لكونه يعلم سبب لبسها وأنها تلبس لدفع البلاء أو رفعه وإما سؤالٌ عن سبب اللبس حتى يتبين فلعله لبسها لغير هذا القصد ، قال : من الواهنة والواهنة / عرقٌ يأخذ في المنكب وقد يسير في اليد كلها قاله بن الأثير فقال النبي صلى الله عليه وسلم(انزعها فإنها لا تزيدك إلا وهناً) فأنكر عليه النبي صلى الله عليه وسلم وأمره بنزعها والنزع هو الجذب بقوة مما يدلُّ على شدة الإنكار وفي هذا إستعجال إزالة المنكر ثم بيّن له أنها لا تنفع بل تزيده وهناً أي ضعفاً لكونه تعلق على غير الله ومن تعلق بشيءٍ وكله الله إليه فأصبح في غاية الضعف والوهن فهذا ولو

تعلق بشيءٍ ينفع حساً فكيف وقد تعلق بشيءٍ وهمي لا حقيقة له فأي ضعفٍ ووهنٍ بعد أشدُّ من هذا ثم قال له (فإنك لو مت وهي عليك ، ما أفلحت أبداً) أي في الآخرة لكونك وقعت في الشرك والظاهر أنه كان يعتقد أنها تنفع وتضر بذاتها وهذا من الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله ولا يفلح صاحبه أبداً فهو خالدٌ مخلدٌ في النار . رواه الإمام أحمد بسند لا بأس به وله (أي وروى الإمام أحمد أيضاً) عن عقبة بن عامر رضي الله عنه مرفوعاً (من تعلق تميمة فلا أتم الله له ، ومن تعلق ودعة فلا ودع الله له). التميمة / قلائد من خرزٍ وغيره تعلق على الأولاد وغيرهم بقصد جلب النفع ودفع الضر ، وقيل سميت تميمة من التمام لأنهم يعلقونها لأجل أن يتم الشيء ويكتمل فعوقبوا بنقيض قصدهم فإن قول النبي صلى الله عليه وسلم (فلا أتم الله له) يحتمل أنه دعاءٌ عليه ودعاء النبي مستجاب ويحتمل أنه من باب الخبر أي أن هذه التميمة ليست سبباً في أن يتم الله لأحدٍ أمراً من أجلها ، والودعة هي قلائد وحلق تعمل من الأصداف المستخرجة من البحر بقصد النفع ودفع الضر وقيل إنها سميت ودعة لأنهم يلبسونها لأجل الدعة والراحة وطمأنينة البال وقول النبي (فلا ودع الله له) يقال فيه مثل ما قيل في التميمة إما من باب الدعاء أو الخبر 0 وفي رواية (من تعلق تميمة فقد أشرك) إما شركاً أصغر أو أكبر بحسب اعتقاده فيها كما تقدم 0

ولابن أبي حاتم عن حذيفة رضي الله عنه حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما صاحب سر رسول الله صلى الله عليه وسلم مات سنة 36هـ أنه رأى رجلاً في يده خيط من الحمى فقطعه ، وتلا قوله تعالى ﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ﴾ [يوسف : 106]. أي لبسه لرفع الحمى أو دفعها فقطعه حذيفة وقرأ الآية مما يدلُّ على أنه قد عرف من نصوص الوحيين أن هذا الأمر شرك وأنه لا يجوز فأنكره بيده وهو أعلى مراتب الإنكار مما يدل على حرص السلف رضي الله عنهم على إنكار المنكرات وخاصةً ما يتعلق بالعقيدة والتشديد فيها 0

((باب ما جاء في الرقى والتمائم))

في (الصحيح) عن أبي بشير الأنصاري رضي الله عنه أنه كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض أسفاره ، فأرسل رسولاً أن لا يبقين في رقبة بعير قلادة من وتر أو قلادة إلا قطعت . وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (إن الرقى والتمائم والتولة شرك) رواه أحمد وأبو داود وعن عبد الله بن عُكَيْم مرفوعاً (من تعلق شيئاً وكل إليه) رواه أحمد والترمذي .

التمائم : شيء يعلق على الأولاد يتقون به العين ، لكن إذا كان المعلق من القرآن ، فرخص فيه بعض السلف ، وبعضهم لم يرخص فيه ، ويجعله من المنهي عنه ، منهم ابن مسعود رضي الله عنه . والرقى : هي التي تسمى العزائم ، وخص منه الدليل ما خلا من الشرك ، فقد رخص فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم من العين والحمة .

والتولة : هي شيء يصنعونه يزعمون أنه يحبب المرأة إلى زوجها ، والرجل إلى امرأته .

وروى أحمد عن رويفع قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم (يا رويفع لعل الحياة ستطول بك ، فأخبر الناس أن من عقد لحيته ، أو تقلد وتراً ، أو استنجى برجيع دابة أو عظم ، فإن محمداً بريء منه) وعن سعيد بن جبير قال (من قطع تميمة من إنسان كان كعدل رقبة) رواه وكيع . وله عن إبراهيم قال : كانوا يكرهون التمائم كلها ، من القرآن وغير القرآن **0**

لم يقل المصنف (باب من الشرك الرقى والتمائم لرفع البلاء أو دفعه) كما قال في الباب المتقدم (باب من الشرك لبس الحلقة والخيط) وذلك لأن من الرقى ما هو جائز ومن التمائم ما هو مختلفٌ فيه ، بخلاف الحلقة والخيط فكلها شركٌ إذا قصد منها رفع البلاء أو دفعه 0

وقد فسر المصنف التمائم والرقى فقال : التمائم : شيء يعلق على الأولاد يتقون به العين ا0هـ ويكون من خرزات وعظام ونحوهما وهذا مجمعٌ على تحريمه وقد تكون بآياتٍ وأحاديث وهذه فيها خلافٌ بين أهل العلم ولذا قال المؤلف : لكن إذا كان المعلق من القرآن فرخص فيه بعض السلف ، وبعضهم لم يرخص فيه ويجعله من المنهي عنه ، منهم ابن مسعود رضي الله عنه .

قلت قد اختلف أهل العلم في التمائم إذا كانت من القران وصحيح السنة على قولين :

الأول / الجواز وهو مرويٌ عن عبد الله بن عمرو بن العاص وعائشة وبه قال أبو جعفر الباقر والإمام أحمد في رواية وحملوا الحديث على التمائم التي فيها شرك 0

الثاني / عدم الجواز وهو قول بن مسعود وبن عباس وحذيفة وعقبة بن عامر وبه قال أحمد في رواية اختارها كثيرٌ من أصحابه 0

والراجح / عدم الجواز إذ لا مخصص للنهي ، ولأن فيه سد لذريعة تعليق التمائم الشركية ، ولأن في تعليقه في رقاب الصبيان إهانة له فيسيل عليه لعابه وربما تلوث بالنجاسات وربما دخل به الحمامات والأماكن القذرة وفي ذلك إهانة لكلام الله عز وجل ولكلام رسوله صلى الله عليه وسلم 0

وقال / « الرقى » : هي التي تسمى العزائم أي في زمنه وهي تعوذات وأدعية تقرأ على المريض فإن كانت بالقران والسنة فهي جائزة ولذا قال المصنف : وخص منه الدليل ما خلا من الشرك ، فقد رخص فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم من العين والحمة .ظاهر كلام المصنف أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يرخص في الرقية إلا من العين والحمة وهي لدغ ذوات السموم وليس بصحيح بل الصحيح أن الرقية عامةٌ في كل شيء حتى مما لم يقع ومن ذلك أذكار الصباح والمساء والنوم وغيرها فهي رقى وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أوى إلى فراشه جمع كفيه فقرأ فيهما بالمعوذات والإخلاص ونفث فيهما ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده ، وقد رقاه جبريل من السحر ، وأمر حفصة أن تتعلم رقية النملة وهي نوعٌ من الأمراض ، وكل هذه غير العين والحمة فدلَّ على أنها لا تختص بهما وأما حديث (لا رقية إلا من عينٍ أو حمة) فالمراد لا رقية أفضل وأنفع من الرقية فيهما وليس المراد تخصيص الرقية فيهما 0

قال السيوطي أجمع العلماء على جواز الرقى عند اجتماع ثلاثة شروط :

1-أن تكون بكلام الله أو بأسمائه وصفاته (وبالأدعية المشروعة من الكتاب والسنة)

2-أن تكون بلسانٍ عربي أو ما يفهم معناه (خلافاً لرقى المشعوذين ونحوهم التي تعتمد على الطلاسم والرموز وحقيقتها أنها توسلاتٌ بالشياطين وشركٌ برب العالمين) 0

3-أن يعتقد أن الرقية لا تؤثر بذاتها بل بتقدير الله تعالى (نقلته من فتح المجيد ص142 وزدت مابين الأقواس)

ثم ساق المصنف الأحاديث الواردة فيهما فقال (في الصحيح) يريد في الصحيحين أي أنه في الكتب الصحيحة أو أنه لم يطلع عليه إلا في أحدهما أو يريد أن يقول إن الحديث صحيح ، وعلى كلٍ فقد روى الحديث البخاري في كتاب الجهاد باب ما قيل في الجرس ونحوه في أعناق الإبل ورواه مسلم في كتاب اللباس باب كراهة الكلب والجرس في السفر (عن أبي بشير الأنصاري رضي الله عنه) اسمه قيس بن عبيد من أفاضل الصحابة شهد الخندق وغيرها وتوفي بعد الستين (فتح المجيد ص139) (أنه كان مع النبي في بعض أسفاره) السفر معروف وأصله من الظهور والوضوح ومنه السافرات لأنهن أظهرن المخفي وسمي السفر سفراً لأنه حين يخرج من بلده ويفارق البنيان يتضح للرائي أو لأنه يسفر عن أخلاق الرجال أي يكشفها ويبينها (فأرسل رسولاً) هو زيد بن حارثة رضي الله عنه قاله الحافظ (أن لا يبقين في رقبة بعيرٍ قلادةً من وترٍ أو قلادةً إلا قطعت) الشك من الراوي هل الأمر بقطع القلائد مطلقاً أو القلادة المصنوعة من الوتر وسبب شكه أن أهل الجاهلية كانوا إذا أخلولق عندهم الوتر أبدلوه بغيره وجعلوا القديم قلادةً يضعونها في رقبة الدابة إعتقاداً منهم أنها تدفع عنها العين ، فتبين بهذا أن المقصود الإعتقاد بغض النظر عن كون القلادة من وترٍ أو غيره فمن اعتقد في قلادةٍ معينة من أي شيءٍ كانت نفعاً أو ضراً فهذا أعتقادٌ شركي يلزم منه قطع القلادة وإتلافها وذلك مثل ما يعلقه بعض الناس في بيوتهم كجلود الذئاب وأنياب الفيلة ونحوها إعتقاداً منهم أنها تطرد الجان والشياطين فهذه إعتقاداتٌ باطلة ، وبعض الناس يعلق الآيات والأحاديث للزينة أو التبرك وكل هذا غير جائز وإنما البركة في التحصن وقراءتها ، والزينة إذا عمرت بها القلوب والألسن (وعن بن مسعود رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (إن الرقى والتمائم والتولة شرك) تقدم حكم الرقى والتمائم والمقصود في الحديث ما يحتوي على الشرك ، وأما التولة فقال المصنف : هي شيء يصنعونه يزعمون أنه يحبب المرأة إلى زوجها ، والرجل إلى امرأته 0 وقد روى الحاكم وبن حبان أن بن مسعودٍ رضي الله عنه فسره بأنه شيءٌ يصنعه النساء يتحببن به إلى أزواجهن و.قال الحافظ : هو ضربٌ من السحر وهو من الشرك لما يراد به من دفع المضار وجلب المنافع من غير الله تعالى (نقلته من فتح المجيد ص 144) وهي شركٌ أصغر إن اعتقدوا أنها سببٌ في جلب المحبة والفاعل هو الله ، وأما إن إعتقدوا أنها تجلب المحبة بذاتها فهذا شركٌ أكبر 0 (القول المفيد للعثيمين 182/1) وسيأتي تفصيل الكلام عن أحكام السحر والسحرة في باب ما جاء في السحر وباب بيان شيءٍ من أنواع السحر 0 والحديث

رواه أحمد وأبو داود في الطب باب في تعليق التمائم وبن ماجة كذلك والحاكم في الرقى والتمائم وصحح إسناده ووافقه الذهبي (حاشية القول المفيد182/1) وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب حديث رقم (3457)

وعن عبد الله بن عُكَيْم مرفوعاً (من تعلق شيئاً وكل إليه) رواه أحمد والترمذي أي من اعتمد على شيءٍ وجعله همه (وكِلَ إليه) أي وكله الله عز وجل إلى ما تعلق به وقوله (شيئاً) نكرة في سياق الشرط فتعم كل شيء فليكن تعلقك بالله وكل أمرك إليه فهو سبحانه حسبنا ونعم الوكيل قال تعالى(ومن يتوكل على الله فهو حسبه)الطلاق 3، ومن وكله الله إلى غيره ذلَّ وانخذل وكان عاقبة أمره الخسران ، وسبب ذكر المصنف لهذا الحديث في هذا الباب ليبين أن الذي يعتمد على التمائم والرقى الشركية يوكل إليها وحينئذٍ يخسر دنياه وأخراه لأنه توكل على غير الله 0

(وروى أحمد عن رويفع) بن ثابت (قال : قال لي رسول الله (يا رويفع لعل الحياة ستطول بك) وقد طالت به الحياة وتوفي سنة 56هـ (فأخبر الناس) أي بلغهم وهذا من تمام التحريض عليه في البلاغ لأهمية هذه المسألة وإلا فإن الناس مطالبون بتبليغ العلم (أن من عقد لحيته) كما كان يفعل أهل الجاهلية فكانوا يعقدون لحاهم إما تكبراً وعجباً وإما خوف العين لئلا تكون حسنةً فتصيبه العين ، وإما تقليداً للكفار المتقدمين 0 قال العثيمين : كانت العرب لا تحلق ولا تقص لحاها ولكن يعقدونها لأسباب منها : الإفتخار والعظمة فتجد أحدهم يعقد أطرافها أو يعقدها من الوسط عقدةً واحدةً ليُعلم أنه رجلٌ عظيم وأنه سيدٌ في قومه ، ومنها الخوف من العين لأنها إذا كانت حسنة وجميلة ثم عقدت أصبحت قبيحة (القول المفيد 188/1) وقال عبد الرحمن بن حسن : قال الخطابي : أما نهيه عن عقد اللحية فيفسر على وجهين : أحدهما ما كان يفعلونه في الحرب كانوا يعقدون لحاهم وذلك من زي بعض الأعاجم يفتلونها ويعقدونها قال أبو السعادات : تكبراً وعجباً 0 والثاني : أن معناه معالجة الشعر ليتعقد ويتجعد وذلك من فعل أهل التأنيث (فتح المجيد ص147 وفي حاشية الصفحة) ويشبه هذا ما يفعله الكثير من فتل أطراف الشارب وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم (من لم يأخذ من شاربه فليس منا) (أو تقلد وتراً) وهو الشاهد من الحديث قال العثيمين : وأصل الوتر سلكٌ من العصب يؤخذ من الشاة ويتخذ للأقواس ا0هـ وتقدم أنه إذا اخلولق وصار قديماً غير نافعٍ في الرمي أبدلوه بغيره وجعلوا القديم قلادةً يضعونها في رقابهم ورقاب بهائمهم لدفع العين بزعمهم 0 قال عبد الرحمن بن حسن : فإذا كان هذا فيمن تقلد وتراً فكيف بمن تعلق بالأموات وسألهم قضاء الحاجات وتفريج الكربات الذي جاء النهي عنه وتغليظه في الآيات المحكمات (فتح المجيد148) (أو استنجى) الإستنجاء تنظيف مخرج الغائط والبول ولا يكون إلا بطاهرٍ منقي غير مؤذي ولا محترم ولا يجوز (برجيع دابةٍ) أي روثها وذلك لأنه طعام بهائم الجن (أو عظم) وقد ورد أنه طعام الجن يجدونه أوفر ما يكون لحماً (فإن محمداً بريءٌ منه) فدلَّ على أن هذه الأعمال من كبائر الذنوب وذلك لأن كبائر الذنوب كما قال العلماء هي / كل ما فيه حد في الدنيا أو وعيد في الآخرة بالنار والعذاب أو ترتب

عليه لعنة أو غضب أو نفي إيمان أو برئ منه النبي صلى الله عليه وسلم كقوله (من غشنا فليس منا) وكهذا الحديث الذي معنا 0

وعن سعيد بن جبير قال : من قطع تميمة من إنسان كان كعدل رقبة. مثل هذا الحديث لا يقال بالرأي فله حكم الرفع لكنه يعتبر مرسل تابعي 0 قال العثيمين : وجه المشابهة بين قطع التميمة وعتق الرقبة أنه إذا قطع التميمة من إنسان فكأنه أعتقه من الشرك ففكه من النار لكن ينبغي أن يقطعها بالتي هي أحسن لأن العنف يؤدي إلى المشاحنة والشقاق إلا إذا كان له شأنٌ كالأمير والقاضي ونحوه ممن له سلطة فله أن يقطعها مباشرة (القول المفيد1/189) [رواه وكيع] بن الجراح توفي سنة 197هـ وهو الذي قال فيه الشافعي قصيدته المشهورة :

شكوت إلى وكيعٍ سوء حفظي فأرشدني إلى ترك المعاصي

وقال اعلم بأن العلم نورٌ ونور الله لا يهدى لعاصي

وله (أي لوكيع) عن إبراهيم (بن يزيد النخعي المتوفى سنة 96هـ) قال : كانوا يكرهون التمائم كلها ، من القرآن وغير القرآن 0 وهو من تلاميذ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه فهو على مذهبه في عدم جواز التمائم من القران وتقدم الكلام عليها 0

(باب من تبرك بشجرة أو حجر ونحوهما)

التبرك : معناه طلب البركة ورجاؤها واعتقادها.

والبركة لغة / النماء والزيادة 0

اصطلاحاً / كثرة الخير وثبوته ودوامه 0

وينبغي أن يعلم أن البركة كلها من الله، كما أن الرزق، والنصر، والعافية من الله فلا تطلب إلا من الله، وطلبها من غيره شرك .

وأما ما ورد شرعاً أن فيه بركة من الأعيان، والأقوال، والأفعال إنما هو سبب للبركة وليس مصدرها ، والله جل وعلا يصطفي من مخلوقاته ما يشاء فيجعل فيها بركة كما قال تعالى {قَالُواْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ رَحْمَتُ اللّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ} (73) سورة هود وقوله تعالى {قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلاَمٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ} (48) سورة هود وقوله تعالى عن إبراهيم عليه السلام {وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَقَ } (113) سورة الصافات وليس لأحدٍ من المخلوقات أن يدعي في شيءٍ من المخلوقات بركة لم يذكرها الله فيها قال تعالى {وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاء وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} (68) سورة القصص

ملاحظة / لا يطلق تبارك إلا على الله وقد اختلف في معناه فقيل أي تعالى وتعاظم وقيل تقدس وقيل جعل البركة في غيره وقيل تفاعل من البركة التي هي كثرة الخير أي أن خير الله قد كثر وعمَّ وثبت ودام وهو الذي رجحه بن القيم وأنكر أن يكون معناه جعل البركة في غيره لأن اللفظة لازمة وهذا متعد وقال الأقرب أنها للوصف لا للفعل كقول (تعالى) أي تفاعل من العلو ولهذا يقرن بين هذين اللفظين فيقال (تباركت وتعاليت) (التبرك أنواعه وأحكامه لناصر الجديع ص35) قلت : لا وجه لإنكار بن القيم فإن أهل العلم قد قالوا تحمل الآية على كل المعاني التي تحتملها ولا خلاف بين المسلمين أن الله عز وجل هو الذي جعل من مخلوقاته أشياء مباركة 0 فيكون معنى تبارك والله أعلم : أي الذي كثر خيره وعمَّ وانتشر حتى جعل من مخلوقاته من يخرج منه الخير وذلك من كمال جوده وكرمه 0

والتبرك نوعان :

الأول / تبرك مشروع: وهو ما توفرت فيه الشروط التالية:

1- ورود الدليل الشرعي على أن هذه الأعيان والأوصاف مباركة. لأن هذا أمر توقيفي. متوقف على ثبوت الدليل من الكتاب والسنة .

2- اعتقاد أن البركة من الله تبارك وتعالى، وأن هذه الأعيان والأوصاف إنما هي أسباب للبركة، فقد يتحقَّق المسبب عند وجود سببه، وقد يتخلف لحكمة يعلمها الله تعالى .

الثاني / تبرك ممنوع، وهو ما افتقد الشرطين السابقين أو أحدهما مثل اعتقاد البركة في بعض القبور والمغارات والغيران والأحجار والأشجار وبعض الأماكن والأشخاص كالتبرك بذوات العلماء والصالحين، فإن هذا لا يجوز، وإنما تلتمس البركة بأخذ العلم عنهم، وبالاستفادة من سمتهم وهديهم 0

والتبرك المشروع بالأشخاص نوعان:

الأول / التبرك بذواتهم وما انفصل منهم كريقٍ وشعرٍ وفضل وضوءٍ ونحو ذلك وهذا النوع خاص بالأنبياء

والمرسلين لا يشركهم فيه غيرهم ولذلك لم يكن الصحابة أو التابعين يتبركون بغير النبي صلى الله عليه وسلم مع وجود أكابر أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم 0

والأدلة على صحة هذا النوع من التبرك :

1- حديث نفث عائشة رضي الله عنها في يد النبي صلى الله عليه وسلم ومسحه بها رجاء بركتها.

2- حديث حلاقة النبي صلى الله عليه وسلم، وتوزيع شعره صلى الله عليه وسلم على الصحابة.

3- حديث أم سليم، ووضعها عَرَق النبي صلى الله عليه وسلم في قارورة 0

4- حديث غمس يده صلى الله عليه وسلم في آنية أهل المدينة والأطعمة ...إلخ. وقد روى البخاري عن بن مسعود أن الصحابة كانوا مع النبي صلى الله عليه وسلم في سفر قال فأدخل النبي صلى الله عليه وسلم يده في إناءٍ فيه ماء قليل ثم قال (حي على الطهور المبارك والبركة من الله فنبع الماء من بين أصابعه) البخاري كتاب الأشربة باب شرب البركة وهذا النوع قد انقطع بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم، إلا ما كان من أجزاء عينية باقية بيقين بعد موته عند أحد، وقد ذهب ذلك المتيقن مع انقراض القرون الفاضلة ، وما يدَّعى أنه من آثار النبي في هذا العصر فهو مشكوكٌ فيه والأقرب عدم صحته وذلك لأسباب :

1-أن الصحابة كانوا يدفنون ما وجد معهم من آثار النبي صلى الله عليه وسلم معهم في قبورهم تبركاً بها كما أوصى أحدهم أن تكون بردة النبي صلى الله عليه وسلم كفنه وكما أوصى أنيس أن تدفن معه العصا التي أهداها له النبي صلى الله عليه وسلم حين قتل السفياني وأخبره أنه يتوكأ بها في الجنة وغير ذلك 0

2-أنه قد فقد كثيرٌ من آثار النبي صلى الله عليه وسلم التي كانت عند خلفاء بني العباس كالبردة وغيرها حين قدم التتار وأحرقوا عاصمة الخلافة العباسية بما فيها من آثار 0

3-تقادم العصور وكثرة الفتن والقلاقل التي حدثت في البلاد الإسلامية وانتقال الملك من قومٍ إلى آخرين وكل فريقٍ يحقد على الآخر ولا شك أنه سيزيل ما لديه من ممتلكات لئلا يمتلكها الآخر 0

4-وجود الكذب في أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم فكيف بآثاره 0

ولا تنتقل هذه البركة إلى الآثار الأرضية التي مرّ بها النبي صلى الله عليه وسلم، أو صلى أو جلس عليها ونحو ذلك لأن هذا النوع من التبرك لم يكن في عهده صلى الله عليه وسلم، فلم ينقل عن أحد أنه تبرك في زمانه بأثر له أرضي أو لغيره من الأنبياء قبله، وإذا لم ينقل مع توافر الدواعي علم أنه لم يكن في زمانه صلى الله عليه وسلم هذا النوع من التبرك 0 وأما ما ورد عن ابن عمر رضي الله عنه أن كان يتحرى النزول في المواقع التي نزل

فيها النبي صلى الله عليه وسلم، والصلاة في المواقع التي صلى فيها، فهذا من ابن عمر من باب تمام الاقتداء والتأسي والاتباع بالنبي صلى الله عليه وسلم، لا من باب التبرك بأماكن النبي صلى الله عليه وسلم، ثم إن هذا اجتهاد من ابن عمر رضي الله عنه ومعلوم أن شرط العمل بقول الصحابي أو فعله عدم المخالف من الصحابة، وقد خولف ابن عمر من أبيه وهو أفضل منه ، بل لم يسايره أحد من الصحابة في مثل هذا الصنيع .

وأما طلب عتبان بن مالك من النبي صلى الله عليه وسلم أن يصلي له في بيته ليتخذه مسجداً عند تعذر الصلاة مع النبي صلى الله عليه وسلم عند مسيل الوادي ونزول الأمطار فليس مقصودة التبرك بمكان صلاة النبي صلى الله عليه وسلم في تلك البقعة، وإلا لبقيت تلك البقعة يتبرك بها من جاء بعده من أهله ولم يحصل فعلم أنه إنما أراد إقراره بالصلاة بجماعته في هذا المكان عند تعذر الصلاة مع النبي صلى الله عليه وسلم ، ولقد كان الصحابة ومن بعدهم ينكرون على من تتبع الآثار الأرضية للتبرك بها ، فعن المعرور بن سويد قال: خرجت مع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه من مكة إلى المدينة، فلما أصبحنا صلى بنا الغداة، ثم رأى الناس يذهبون مذهباً، فقال: أين يذهب هؤلاء؟ قيل: يا أمير المؤمنين مسجد صلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم هم يأتون يصلون فيه فقال: إنما هلك من كان قبلكم بمثل هذا، يتبعون آثار أنبيائهم وصالحيهم فيتخذونها كنائس وبيعاً– يعني أماكن للصلاة– من أدركته الصلاة في هذه المساجد فليصل فيها وإلا فلا يتعمدها."وروى ابن سعد في الطبقات عن نافع قال: كان الناس يأتون الشجرة التي يقال لها شجرة الرضوان فيصلون عندها. قال نافع: فبلغ ذلك عمر بن الخطاب فأوعدهم فيها، وأمر بقطعها فقطعت ، ولم يعرف لعمر مخالف ولا منكر على فعله من الصحابة فعدّ ذلك منهم إجماعاً. بل إن ابن عمر الذي يستندون إلى فعله يقول –كما في البخاري –عن قطع أبيه الشجرة: رجعنا من العام المقبل فما اجتمع منا اثنان على الشجرة التي بايعنا تحتها كانت رحمة من الله . يعني عدم معرفتهم مكانها الذي افتتن به الناس، وأنكر بصرة بن أبي بصرة الغفاري على أبي هريرة لما عاد راجعاً من الطور الذي كلم الله فيه موسى وقال (لو أدركتك قبل أن تخرج إليه ما خرجت سمعت رسول الله يقول (لا تعمل المطيُّ إلا إلى ثلاثة مساجد) رواه مالك في الموطأ ولذلك كان مالك وغيره من علماء المدينة يكرهون إتيان تلك المساجد وتلك الآثار للنبي صلى الله عليه وسلم ما عدا قباءً وأحداً لثبوت النص في زيارة النبي صلى الله عليه وسلم لهما، فتبين بهذا أن بركة ذوات الأنبياء والمرسلين لا تتعدى إلى الأمكنة الأرضية، وإلا لزم أن يكون كل أرض وطئوها أو جلسوا عليها أو طريق مروا بها تطلب بركتها ويتبرك بها، وهذا لم يقل به أحد بل هو خلاف سنة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، والأنبياء

قبله، فلم يتحروا الآثار الأرضية للأنبياء قبلهم، ولا أمروا بتحريها، وكل ما كان خلاف ذلك فهو سنة الجاهليين 0

وهناك شبهٌ يستدل بها بعض قليلي العلم على جواز التبرك بالنبي بعد موته ومنها :

الشبهة الأولى/ أنه حيٌ في قبره فيصح التبرك به والاستشفاع كما يصح في حياته 0

الجواب /

1-لا تقاس الحياة البرزخية بالحياة الدنيوية فلكلٍ منها خصائص وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن إتخاذ قبره عيداً ولو جاز التبرك به لاجتمع الناس عنده طلباً للبركة فأصبح عيداً 0

2-أن الصحابة والتابعين وهم خير القرون لم يرد عن أحدٍ منهم أنه تبرك بقبر النبي صلى الله عليه وسلم أو جاء عنده مستشفعاً بل روي عن علي بن الحسين أنه رأى رجلا يجيء إلى فرجة كانت عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم فيدخل فيها فيدعو فنهاه وقال ألا أحدثكم حديثا سمعته من أبي عن جدي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (لا تتخذوا قبري عيدا ولا بيوتكم قبورا فإن تسليمكم يبلغني أين كنتم) رواه الضياء في المختارة وأبو يعلى وقال سعيد بن منصور في سننه : حدثنا عبد العزيز بن محمد أخبرني سهل بن سهيل قال رآني الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عند القبر فناداني وهو في بيت فاطمة يتعشى فقال هلم إلى العشاء ، فقلت لا أريده ، فقال ما لي رأيتك عند القبر ؟ فقلت سلمت على النبي صلى الله عليه وسلم فقال إذا دخلت المسجد فسلم ثم قال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (لا تتخذوا قبري عيداً ولا تتخذوا بيوتكم مقابر وصلوا علي فإن صلاتكم تبلغني حيث ما كنتم ، لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) ما أنتم ومن بالأندلس إلا سواء ا0هـ 0

3-أنه ليس هناك دليل على جواز طلبها منه بعد وفاته بل الأدلة على تحريم إتخاذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد وأعياد 0

الشبهة الثانية / تفسيرهم قوله تعالى{ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا} (64) سورة النساء بأن هذا هو طلب الشفاعة منه في حياته وبعد موته 0

الجواب /

1-أن المقصود بالآية في حياة النبي صلى الله عليه وسلم لأن الآية نزلت في شأن المنافقين الذين يريدون التحاكم إلى الطاغوت فيأمرهم الله عز وجل بالتوبة والرجوع تائبين مستغفرين ويعرضوا توبتهم على الرسول صلى الله عليه وسلم لعله يستغفر لهم لأن دعاءه أقرب إلى الإجابة وذلك في حال حياته إذ بعد موته لا يمكن أن يستغفر لأحد 0

2-أن أهل القرون الفاضلة وبالأخص الصحابة وهم أعلم الأمة بعد نبيها بتفسير كلام الله لم ينقل عن أحدٍ منهم أنه جاء إلى قبر النبي صلى الله عليه وسلم يطلب منه أن يستغفر الله له ولو كان هذا هو المراد بالآية لكانوا أحرص الناس على تطبيقه 0

3-أنه لو كان مشروعاً لكل من أذنب أن يأتي إلى قبر النبي صلى الله عليه وسلم تائباً مستغفراً طالباً من النبي صلى الله عليه وسلم أن يستغفر له لكان قبر النبي عيداً يجتمع فيه الفئام من الناس وهذا مخالفٌ لنهيه عن اتخاذ قبره عيدا0

الشبهة الثالثة / ما رواه الدارمي أن أهل المدينة أصابهم قحطٌ شديد فشكوا ذلك إلى عائشة رضي الله عنها فقالت : انظروا إلى قبر النبي صلى الله عليه وسلم فاجعلوا منه كوةً إلى السماء حتى لا يكون بينه وبين السماء سقف ففعلوا فمطروا حتى نبت العشب وسمنت الإبل حتى تفتقت من الشحم فسمي عام الفتق 0

والجواب / أن هذا الحديث قد ضعفه جمعٌ من أهل العلم كابن تيمية والألباني وغيرهم

الشبهة الرابعة / أن عمر طلب أن يدفن بجانب قبر النبي صلى الله عليه وسلم تبركاً 0

الجواب / أن عمر أراد أن يكون قريباً من صاحبيه لشدة حبه لهم وليس في كلامه حين طلب ذلك ما يدل على إرادته التبرك 0

الشبهة الخامسة / أن الله أمرنا باتخاذ مقام إبراهيم مصلى فيقاس عليه غيره من الأنبياء بجواز اتخاذ آثارهم مصلى0

الجواب / أن هذا خاصٌ بمقام إبراهيم لورود النص عليه بخلاف بقية آثار الأنبياء فتبقى على التحريم لما تقدم 0

الشبهة السادسة / ورد في الصحيحين أن سلمة بن الأكوع كان يتحرى الصلاة عند الإسطوانة التي عند المصحف فسأل فقال : رأيت الرسول صلى الله عليه وسلم يتحرى الصلاة عندها 0

الجواب / ما قصده النبي صلى الله عليه وسلم من الأماكن والأزمان وتردد على العبادة فيه فيشرع التأسي به في ذلك بلا خلاف كقصد صيام الاثنين والخميس وقصد تقبيل الحجر الأسود ونحو ذلك ، وأما ما فعله لا على وجه التحري والقصد وإنما صادف أن حضر وقت عبادة فصام أو صلى أو جلس في ذلك المكان على طريق سفرٍ أو نحوه فهذا هو الذي لا يجوز تتبعه فيه إذ لم يُرِدْ ذلك جزماً وإلا لبينه أو تردد عليه إذ العبادات مبناها على التوقيف والمنع ولم يرد أن الصحابة فعلوا ذلك مع ترددهم بين مكة والمدينة إلا ما رويَ عن بن عمر وتقدم بيان أنه قد خولف ممن هو أعلم منه وقد جاءت الشريعة بسد الذرائع الموصلة للمحرم ولا شك أن تتبع مثل هذا يؤدي إلى الغلو كما فعل أهل الكتاب ، ثم إن الأزمان والأمكنة التي قصدها النبي صلى الله عليه وسلم وتردد عليها للصلاة أو الصيام أو الدعاء لم يكن الصحابة يتمسحون بها رجاء بركة أو غيرها وإنما يفعلون كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يفعل والخير في اتباع السلف وترك ابتداعات الخلف ، ولقد أحدث المبتدعة من هذه الأمة أموراً يتبين للناظر فيها الحكمة من تحريم تتبع آثار الأنبياء فمن ذلك زعمهم أنه يوجد آثار مواطئ للنبي صلى الله عليه وسلم على صخرات فهم يتبركون بها فصخرةٌ في مصر وأخرى في العراق وثالثةٌ في تركيا وأخرى هنا وهناك ولقد زارها أحد العلماء فوجد أن لكل صخرةٍ مواطئ أقدامٍ تختلف عن الصخرة الأخرى فتيقن أنها من صنع البشر الذين يستغلون حماقة المغفلين في ابتزاز أموالهم باسم التبرك ونحو ذلك ، ومن البدع إحداث أعياد المولد وتحديد مكان ولادة النبي صلى الله عليه وسلم وأن من زارها في ذلك اليوم حصل له كذا وكذا من الخرافات التي لا دليل عليها ولم تكن معروفةً في القرون المفضلة ومن ذلك شد الرحال لزيارة القبور والتبرك بأهلها وربما عبادتهم وكل ذلك مما نهى عنه الشرع وأمر النبي صلى الله عليه وسلم ألا تشد الرحال (أي للعبادة والقربى) إلا إلى ثلاثة مساجد ونهى عن اتخاذ قبره عيدا وقبور غيره من باب أولى فخالفوا النهي وارتكبوا المحظور بحجة التبرك بل زادوا على مجرد التبرك بالذبح والنذر والطواف وصرف أنواعٍ من العبادة لأهل هذه القبور ، فتبين السبب للنهي عن تتبع آثار الأنبياء والصالحين 0

ولا يجوز قياس غير النبيين صلى الله عليهم وسلم بهم في جواز التبرك بآثارهم وأجزائهم وذلك لما يلي :

1-عدم المقاربة فضلاً عن المساواة بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين غيره، فهو قياس مع الفارق فلا يجوز 0

2-عدم تحقيق الصلاح لمن دون النبي صلى الله عليه وسلم لمن لم يشهد لهم النبي صلى الله عليه وسلم بذلك لأنه لا يتحقق الصلاح إلا بصلاح القلب، وهذا أمر لا يمكن الاطلاع عليه إلا بنص ، وعلى فرض تحقق الصلاح، فلا يدرى بما يختم للعبد، والأعمال بخواتيمها، فلا يكون أهلاً للتبرك به .

3-أن الصحابة لم يكونوا يفعلون ذلك بغير النبي صلى الله عليه وسلم، مع أن منهم من شهد له النبي صلى الله عليه وسلم بالجنة، ولم يفعله التابعون بأحد من الصحابة رضي الله عنهم فهو إجماع منهم على عدم جواز ذلك إذ لو جاز لفعله ولو قلةً منهم 0

4-أن فعل هذا بغير النبي صلى الله عليه وسلم لا يؤمن على المفعول به أن يصيبه العجب والغرور وفي ذلك هلاكه.

وهناك شبهات يستدل بها بعض القائلين بجواز التبرك بذوات الأشخاص من الصالحين غير الأنبياء ومنها :
1-ما روي أن الإمام الشافعي بعث الربيع بن سليمان إلى الإمام أحمد ليبشره أنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم في المنام وأنه أمره أن يبشر الإمام أحمد بأنه سيمتحن في القول بخلق القران وأن الله سيرفع له بذلك علماً إلى يوم القيامة فدفع أحمد إلى الربيع أحد ثوبيه بشارة فلما رجع الربيع إلى مصر تبرك الشافعي بغسالة ثوب الإمام أحمد0

والجواب / أن هذه القصة غير صحيحة فقد انكرها الذهبي في سير أعلام النبلاء عند ترجمته للربيع وفي اسنادها أبا عبد الرحمن محمد بن الحسين السلمي قال عنه الذهبي ليس بالقوي وفي تصانيفه أحاديث وحكايات مكذوبة ، ثم إن الشافعي قد لقي من هو خيرٌ من الإمام أحمد كمالك وسفيان بن عيينة وغيرهم فلم يرد أنه تبرك بهم ، وعلى فرض صحتها فهي زلة عالمٍ أخطأ فلا يتابع 0

2-تحنيك الأطفال وقالوا : من الأفضل أن يقوم بعملية التحنيك وهو : مضغ تمر، أو عسل، أو شيء حلو، وتدليك حَنَك الطفل به من يتصف بالتقوى والصلاح تبركاً به وتيمنا بصلاح المولود وتقواه 0

والجواب / الصحيح أن المحنّك (يدْعُو للْمَوْلودِ بِالبَرَكَةِ)كما في البخاري من حديث أبي موسى الأشعري ، وعند مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها (يُبَرِّكُ عَلَيْهِم) أي: يدعو لهم بالبركة 0وكونه من أهل الصلاح ليكون أقرب إلى إجابة دعاءه لا لانتقال بركته 0

تنبيه / زعم غلاة الرافضة ومن تبعهم إن البركة الذاتية تنتقل بالنطفة وهذا زعمٌ باطل فإن بن نوح كان كافراً فلم تنتقل إليه بركة أبيه ولو كان ما قالوا صحيحاً لكان الناس جميعاً فيهم بركةٌ ذاتية لأنهم أبناء آدم وهو نبي ثم أولاد نوح كما قال تعالى {وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمْ الْبَاقِينَ} (77) سورة الصافات ولكان اليهود والنصارى مباركين لأنهم أولاد يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام وهذا غير صحيح فتبين بطلان هذا القول 0

الثاني من التبرك بالأشخاص / التبرك بأعمالهم

وهي عامة لكل من وافق عمله السنة وهذه لكل مسلم، ولكنها تختلف بحسب اتباعه وموافقته لأمر الله ونهيه، ولهذا جاء في الحديث الذي رواه البخاري في صحيحه (وإن من الشجر –يعني النخلة– لما بركته كبركة المسلم) فالمسلم مبارك بالنص وبركته بسبب عمله الصالح وتقواه ولذا قال أسيد بن حضير في سبب مشروعية التيمم : ما هي بأول بركتكم يا آل أبي بكر0 ومعلوم أنه ما كان أسيد ولا غيره يبتغي من أبي بكر أو آله بركة ذات كما كانوا يفعلونه مع النبي صلى الله عليه وسلم من التبرك بشعره وسؤره وفضل وضوئه ونحو ذلك ، فتبين أنه أراد ما أنزل الله من خيرٍ بسبببهم 0 فبركة الأعمال من هذه الجهة فكل مسلم بركته على قدر عمله فمن الناس من لو أقسم على الله لأبره فهذه بركةٌ جعلها الله فيه وهكذا منهم من لو دعا بالغيث ونحوه استجيب له فهذه بركة لكن هذا النوع من البركة لا يتعدى بمعنى أنه لا يُتبرك بذاته بل بدعائه ، ويمكن أن يُتبرك بعلمه ودعوته إلى الخير، وبركته هي انتفاع الناس بعلمه ودعوته 0

ومن التبرك المشروع / التبرك بأمرٍ شرعي

مثل التبرك بالقران قال الله تعالى {كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ} (29) سورة ص

ومِن بركته:

1. أنَّ مَن أخذ به حصل له الفوز والنجاة يوم القيامة 0
2. أنَّ الحرف الواحد بعشر حسنات 0
3. أنَّه يقدَّم صاحبُه على الناس في الإمامة ويقدَّم حافظهُ على غيره في اللحد 0
4. أن الله تعالى جعل في قراءته شفاءً للمؤمنين ، سواءً مِن الأمراض الحسيَّةِ، أو المعنويةِ قال تعالى {وَنُنَزِّلُ مِنْ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ} [الإسراء /82] وغير ذلك كثير.

ومن التبرك المشروع / التبرك ببعض الأمكنة التي ورد النص ببركتها كمكة والمدينة والشام واليمن وتحصل البركة لمن سكنها إذا قام بحقوق الله فيها وترك ما حرم الله عليه وأما التمسح بأحجارها وأشجارها وتربتها لقصد البركة فهذا ضلال وفاعله مأزورٌ غير مأجور بل هو مشرك لأنه طلب النفع والبركة مما لم يجعله الله كذلك ولم يرد عن النبي صلى الله عليه وسلم ولا أصحابه أنهم تبركوا بتربتها أو شجرها أو حجرها فتبين أن المراد ببركتها إقامة شرع الله فيها ولذا لم يدعوا النبي صلى الله عليه وسلم للعراق لكونه مصدر الفتن التي هي خلاف إقامة شرع الله 0
ومن الأماكن المباركة المساجد الثلاثة قال تعالى {إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ} (96) سورة آل عمران وقد دعا النبي صلى الله عليه وسلم بالبركة للمدينة وقال تعالى {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ } (1) سورة الإسراء وهكذا سائر المساجد والتبرك بها يكون كما ورد بالصلاة والدعاء فيها وحضور حلق العلم فيها من محاضراتٍ ودروس وليس بالتمسح بالجدران والأبواب والشبابيك والتبرك بالكعبة يكون بالإتجاه إليها عند الصلاة والطواف حولها واستلام الحجر الأسود ومسح الركن اليماني طاعةً لله ورسوله وليس بالتمسح بجدرانها وأخذ شيءٍ من كسوتها 0
ومن الأماكن المباركة ما جاء في قصة موسى كما قال تعالى {فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِي مِن شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} (30) سورة القصص
وأما قياس عباد الحجر والشجر جواز التبرك بها على الحجر الأسود والركنين والملتزم فنقول إن تقبيل الحجر الأسود واستلام الركنين والملتزم ليس للتبرك وإنما تعبداً لله بذلك ولذا قال عمر حين قبل الحجر الأسود : والله إني لأعلم أنك حجرٌ لا تضر ولا تنفع ولولا أني رأيت رسول الله يقبلك ما قبلتك 0 وقد انكر بن عباس على معاوية رضي الله عنهم مسحه لبقية أركان البيت وأمره ألا يمسح إلا اليمانيين اقتداءً بالنبي صلى الله عليه وسلم

قال شيخ الإسلام بن تيمية : لا نزاع بين الأئمة الأربعة ونحوهم من أئمة العلم أنه لا يقبل الركنيين الشاميين ولا شيئاً من جوانب البيت فإن النبي صلى الله عليه وسلم لم يستلم إلا الركنين اليمانيين وعلى هذا عامة السلف 0 وقال أيضاً : اتفق العلماء على ما مضت به السنة من أنه لا يشرع الإستلام والتقبيل لمقام إبراهيم ا0هـ وقال قتادة : إنما أمروا أن يصلوا عنده ولم يؤمروا بمسحه 0 وقال النووي : لا يقبل مقام إبراهيم ولا يستلمه فإنه بدعة 0 وقال بن باز : التمسح بالمقام أو بجدران الكعبة أو بالكسوة كل هذا أمرٌ لا يجوز ولا أصل له في الشريعة ولم يفعله النبي صلى الله عليه وسلم وإنما قبل الحجر الأسود واستلمه واستلم جدران الكعبة من الداخل لما دخل الكعبة ألصق صدره وذراعيه وخده في جدارها وكبر في نواحيها ودعا ، وأما في الخارج فلم يفعل شيئاً من ذلك فيما ثبت عنه وإن كانت هناك رواية أنه التزم الملتزم بين الركن والباب لكن في إسناده نظر وفعله بعض الصحابة والملتزم لا بأس به وهكذا تقبيل الحجر سنة أما كونه يتعلق بكسوة الكعبة أو جدرانها أو يلتصق بها فهذا شيءٌ لا أصل له ولا ينبغي فعله لعدم نقله عن النبي صلى الله عليه وسلم ولا عن الصحابة رضي الله عنهم وكذلك التمسح بمقام إبراهيم أو تقبيله كل هذا لا أصل له ولا يجوز فعله لأنه من البدع التي أحدثها الناس أما سؤال الكعبة أو دعاءها أو طلب البركة منها فهذا لا يجوز وهو دعاء لغير الله فالذي يطلب من الكعبة أن تشفي مريضه أو يتمسح بالمقام يرجوا الشفاء منه فهذا لا يجوز بل هو شرك نسأل الله السلامة (فتاوى اسلامية 243/1)(نقلت هذه النقولات من التبرك أنواعه وأحكامه للجديع ص427) فإذا كان هذا في الكعبة التي هي بيت الله فكيف بمن يرتجي البركة من شجر أو حجر أو عين ماءٍ أو غير ذلك لا شك أن جرمه أعظم وضلاله أبين ، ولما قال الصحابة لرسول الله صلى الله عليه وسلم اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط وهي شجرةٌ كان الكفار يتبركون بها قال النبي صلى الله عليه وسلم (قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنوا إسرائيل لموسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة) فجعل التبرك بالشجرة عبادةً لها 0

ومن التبرك المشروع / التبرك ببعض الأزمنة التي ورد النص ببركتها مثل رمضان وليلة القدر قال تعالى {إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ} (3) سورة الدخان ويوم عرفة وثلث الليل الأخير0

ومن التبرك المشروع / التبرك ببعض الأطعمة كاللبن قال النبي صلى الله عليه وسلم (من أطعمه الله طعاماً فليقل اللهم بارك لنا فيه وارزقنا خيراً منه ، ومن سقاه الله لبناً فليقل اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه فإني لا أعلم ما يجزئ من الطعام والشراب إلا اللبن) والزيت قال صلى الله عليه وسلم (كُلُوا الزَّيْتَ وَادَّهِنُوا بِهِ فَإِنَّهُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ) قال تعالى{ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونِةٍ } (35) سورة النور والحبَّةُ السوداء، قال صلى الله عليه وسلم

(الحَبَّةُ السَّوْداءُ شِفَاءٌ مِنْ كُلِّ دَاءٍ إِلاَّ السَّام) رواه البخاري ومسلم والسام: الموت.
وماء زمزم قال صلى الله عليه وسلم (إِنَّهَا مُبَارَكَةٌ، إِنَّهَا طَعَامُ طُعْمٍ وشفاء سقم) والعجوة والعسل وماء المطر قال تعالى {وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاء مَاء مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ} (9) سورة ق وكان النبي صلى الله عليه وسلم يتعرض لماء المطر إذا نزل ليصيبه منه ويقول (إنه حديث عهدٍ بربه) 0

ومن التبرك المشروع / التبرك بهيئةٍ شرعيَّةٍ مثل الاجتماع على الطعام، والأكل مِن جوانب القصعة، ولعق الأصابع قال صلى الله عليه وسلم (اجْتَمِعُوا عَلى طَعَامِكُم وَاذْكُروا اسْمَ اللهِ عَلَيْهِ يُبَارَكْ لَكُمْ فِيهِ) وقال (البَرَكَةُ تَنْزِلُ في وَسَطِ الطَّعَامِ، فَكُلُوا مِنْ حَافَّتَيْهِ، وَلاَ تَأْكُلُوا مِنْ وَسَطِهِ) وأمر بلعق الأصابع وقال (فإِنَّهُ لاَ يَدْرِي في أَيَّتِهِنَّ البَرَكَةُ)
والضابط في ذلك ثبوت النص الشرعي على بركة تلك الأشياء والتزام الطريقة الشرعية في التبرك بها كما كان يفعل النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه 0

وأعظم سبب للبركات هو الإيمان والتقوى كما قال تعالى ((وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ)) الأعراف:96

((التبرك الممنوع))
من التبرك الممنوع التبرك بذوات الصالحين وتقدم والتبرك بالقبور والأدلة على عدم جواز التبرك بالقبور أكثر من أن تحصر فمنها :
1-أن الأصل تحريم التبرك إلا بما ورد الدليل بجواز التبرك به ولا دليل على جواز التبرك بالقبور مطلقاً 0
2-أن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وأهل القرون الفاضلة لم يكونوا يتبركون بالقبور أو يفعلون شيئاً مما يفعله المبتدعة في العصور المتأخرة والخير في الاتباع وترك الابتداع 0
3-أن هذا يورث الغلو وربما التعلق بالميت والإشراك بالله واعتقاد النفع في هذا الميت وقد جاء الدين بسد الذرائع الموصلة للحرام فضلاً عن الشرك 0
4-مشابهة اليهود والنصارى وغيرهم من الكفار وقد نهينا عن التشبه بهم 0
5-الإسراف وصرف النفقات الباهظة على بناء القباب وتعلية القبور وإسراجها مع تحريم ذلك كله 0

6-إهدار الوقت والطاقة فيما لا ينفع والتعلق بالخيالات والتكاسل عما ينفع كتعلم الطب والتداوي به بحجة أن بركة صاحب القبر تكفي ونحو ذلك من التخدير الذي يمارس ضد الجهلاء 0

7-إتخاذ القبور أعياداً ومزارات وقد نهينا عن اتخاذ القبور أعياداً ويحدث في هذه الإجتماعات من المنكرات ما الله به عليم 0

وهناك بعض الشبه التي يوردها الجهال في ذلك ومنها :

الشبهة الأولى / إستدلالهم على جواز ذلك بقصة أصحاب الكهف { قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا} (21) سورة الكهف إذ ذكر الله فعلهم ولم ينكره 0

الجواب /

قد اختلف أهل العلم هل كانوا مسلمين أم كفار ؟ وعلى القول بأنهم مسلمين فلا دليل على أن شرعهم يبيح لهم ذلك ألا يجوز أنهم اجتهدوا فأخطأوا وليس في الآية أكثر من حكاية قولهم فليس فيها تأييدٌ لهم ولا مدح ولا حثٌ على التأسي بهم بل لا يمكن أن يكون اتخاذ المساجد على القبور من شرائع الله المتقدمة وقد لعن النبي صلى الله عليه وسلم اليهود والنصارى لكونهم فعلوا ذلك أي فعلوا ما هو محرمٌ في شريعتهم من اتخاذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد ولعل هؤلاء منهم ، ثم لو سلمنا أن ذلك شرع من قبلنا فلا نعمل به إذا خالف شرعنا وقد جاء في شرعنا النهى عن مثل هذا العمل ، وقولهم إن الله ذكره ولم ينكره فغير صحيح إذ جاء الإنكار على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلامه وحيٌ من الله كما قال تعالى {وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى (3) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى} (4) سورة النجم

الشبهة الثانية / قالوا وجود قبر النبي صلى الله عليه وسلم وصاحبيه في المسجد النبوي وبناء القبة عليه يدل على جواز ذلك 0

الجواب /

أن النبي صلى الله عليه وسلم وصاحبيه دفنوا في حجرة عائشة وكانت خارج المسجد واستمر الأمر كذلك زمن الصحابة وفي زمن التابعين قام الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك بتوسعة المسجد النبوي وأدخل الحجرة فيه فأنكر عليه بعض التابعين كسعيد بن المسيب وغيره فبنى على القبر حيطاناً مرتفعة ثم بنى جداراً من ركني القبر الشماليين وحرفهما حتى التقتا حتى لا يتمكن أحدٌ من استقبال القبر (ذكر ذلك النووي في شرحه لصحيح

مسلم) وأما بناء القبة فقد كان زمن المنصور قلاوون ملك مصر عام 678هـ وقد أنكر عليه علماء ذلك العصر ومن بعدهم ، ثم تركت بعد ذلك خوف الفتنة والشر (التبرك أنواعه وأحكامه للجديع ص412)

الشبهة الثالثة / ما روي عن الشافعي أنه كان يزور قبر أبي حنيفة يرجوا بركة الدعاء عنده وأنه كان يقول : إذا نزلت بي شدة أجيء فادعوا عند قبر أبي حنيفة فأجاب 0

الجواب / أن هذا لا يصح لوجوه :

1-أن الشافعي قد مرَّ بقبور الأنبياء والصالحين ومنهم أفضل من أبي حنيفة آلاف المرات ولم يذكر أنه فعل مثل هذا ولا يمكن أن يترك قبور الأنبياء والصحابة والصالحين ويعمد إلى قبر أبي حنيفة دون غيره 0

2-أن الشافعي لما قدم بغداد لم تكن بها قبور تنتاب للتبرك أو الدعاء أو غيره وإنما حدث ذلك بعد زمن الشافعي بدهور 0

3-أن الشافعي قد نص في كتبه على كراهة تعظيم القبور خشية الفتنة والضلال ومراده بتعظيمها الصلاة أو الدعاء عندها إذ لم يوجد في زمنه عباد قبور فيكون مراده ما هم عليه 0

4-أن العلماء المتقدمين زمن الشافعي وقبله وبعده قد صنفوا في أوقات الدعاء وأمكنته ولم يذكروا منها القبور فدل على أن هذا لا أصل له 0

وقول الله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى ﴾ الآيات [النجم : 19] .

قرأ بن عباس وبن الزبير ومجاهد ((اللات) بتشديد التاء على أنه رجلٌ كان يلت السويق للحجاج فلما مات عكفوا على قبره ، وقرأ الجمهور بتخفيف التاء على أنه مشتقٌ من اسم الإله إذ كانوا يشتقون لمعبوداتهم أسماء من أسماء الله فالعزى من العزيز ومناة من المنان واللات من الله أو من الإله ونحو ذلك قال بن كثير : كانت اللات صخرةً بيضاء منقوشة وعليها بيت بالطائف له أستارٌ وسدنة وحولها فناءٌ معظم عند أهل الطائف وهم ثقيف ومن تبعها يفتخرون بها على من عداهم من أحياء العرب ا0هـ وقال بن هشام : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم المغيرة بن شعبة الثقفي فهدمها وحرقها بالنار ا0هـ وأما العزى فكانت شجرة عليها بناء وأستار بنخلة بين الطائف ومكة وكانت قريش تعظمها حتى قال أبو سفيان يوم أحد : لنا العزى ولا عزى لكم 0 فكان جواب الرسول والمؤمنين (الله مولانا ولا مولى لكم) وروى النسائي عن أبي الطفيل لما فتح رسول الله مكة بعث خالد بن الوليد إلى نخلة وكانت بها العزى وكانت على ثلاث سمرات فقطع خالد السمرات وهدم

البيت الذي كان عليها ثم أتى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره فقال ارجع فإنك لم تصنع شيئاً فرجع خالد فلما أبصرته السدنة أمعنوا في الجبل وهم يقولون يا عزى يا عزى فأتاها خالد فإذا امرأةٌ عريانة ناشرةً شعرها تحفن التراب على رأسها فعمها بالسيف فقتلها ثم رجع إلى رسول الله فأخبره فقال (تلك العزى) ، وأما مناة كانت بالمشلل عند قديد بين مكة والمدينة وهي لهذيل وخزاعة وكانت الأوس والخزرج يعظمونها ويهلون منها للحج وأصل اشتقاقها قيل من اسم الله المنان وقيل من المنى لكثرة ما يمنى عندها من الدماء أي يراق للتبرك والتعبد فبعث النبي صلى الله عليه وسلم علياً عام الفتح فهدمها 0 وقوله تعالى ((الثالثة الأخرى)) أي المتأخرة الذميمة الحقيرة 0 ومناسبة الآية للترجمة / أن عباد هذه الأوثان كانوا يعتقدون حصول البركة منها بتعظيمها ودعائها والاستغاثة بها فيرجون نفعها بعبادتهم لها وهكذا عباد القبور والأولياء في الأزمنة المتأخرة فعلوا مثل فعل المشركين المتقدمين فأولئك تبركوا باللات لكونه رجلاً صالحاً وهؤلاء تبركوا بفلانٍ وعلان لكونهم صالحين ، وأولئك عبدوا شجرة وهي التي كانت عند اللات وحجراً وهي مناة لأنها صنم فهكذا من يتبرك بالأشجار والأحجار فقد صنع صنيعهم 0 ويشهد له ما يلي :

عن أبي واقد الليثي ، قال : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حنين ونحن حدثاء عهد بكفر ، وللمشركين سدرة يعكفون عندها وينوطون بها أسلحتهم ، يقال لها : ذات أنواط ، فمررنا بسدرة فقلنا : يا رسول الله أجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الله أكبر! إنها السنن ، قلتم – والذي نفسي بيده – كما قالت بنو إسرائيل لموسى : ﴿ اجْعَل لَّنَا إِلَـهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ [الأعراف 138] ﴾ لتركبن سنن من كان قبلكم » . [رواه الترمذي وصححه]
.

توفي أبو واقد الليثي رضي الله عنه سنة 68هـ وله 85 سنة وغزوة حنين بعد فتح مكة مباشرة ولذلك قال ونحن حدثاء عهدٍ بكفر أي قريبٌ عهدنا به لم نعرف الإسلام حق المعرفة كما ينبغي وهذا بيان لسبب وقوعهم في الخطأ وهو من باب الإعتذار قال (وللمشركين سدرة) نوع من الشجر (يعكفون عندها) أي يلازمونها ويطيلون المكث عندها تبركاً وتعبداً ولذلك قال (وينوطون بها أسلحتهم) أي يعلقونها تبركاً لينتصروا على أعدائهم بزعمهم (يقال لها ذات أنواط) تسمى بذلك الإسم ليوافق ما لديهم من معتقدٍ فيها وأنها محل البركة لمن ينوط بها سلاحه قال (فمررنا بسدرة فقلنا يا رسول الله أجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط) أي لنتبرك بها كما يتبركون بها ظناً منهم أن ذلك جائزٌ في الإسلام فقال النبي صلى الله عليه وسلم (الله أكبر) وكان عليه الصلاة والسلام

يستعمل التكبير والتسبيح في حال التعجب تنزيهاً وتعظيماً لله ثم قال (إنها السنن) أي الطرق يريد أن يبين أن هذا هو منهج وطريق المنحرفين المتقدمين لئلا يسلكوه ولذلك قال (قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى ﴿ اجْعَل لَّنَا إِلَـهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ [الأعراف 138] وذلك لأن المعنى واحد وإن اختلف اللفظ فأولئك طلبوا الآلهة ليتبركوا بها لما رأو المشركين يتبركون بآلهتهم وأنتم طلبتم بركة شجرة لما رأيتم المشركين يتبركون بمثلها فأولئك طلبوا بركة حجر وأنتم طلبتم بركة شجر فلا فرق بين الطلبين وإن اختلف اللفظ فكلا الأمرين تأليةٌ لغير الله ورجا النفع والبركة من غيره ثم ختم الحديث ببيان أمرٍ غيبي مستقبلي ألا وهو قوله (لتركبن سنن من كان قبلكم) أي طرائقهم البدعية والشركية وجاء في الصحيحين (لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضبٍ لدخلتموه قالوا يا رسول الله اليهود والنصارى قال فمن) أي من غيرهم وقد وقع مصداق ما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم فهاهي القبور قد شيدت وعظمت وبني عليها المساجد وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم (لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) فاتبعوهم فيما لعنوا بفعله ناهيك عن اتباعهم في الملبس والمأكل والمشرب وغيره فالله المستعان 0

ويتلخص حكم التبرك أنه إن اعتقد أن البركة تنبع من هذا الشيء ذاتياً فهو شرك أكبر وإن أعتقد أنه سبب للبركة والبركة من الله فهو شركٌ أصغر إلا إذا قام دليلٌ شرعيٌ على أن هذا الشيء سبب للبركة فيجوز حينئذٍ إعتقاد البركة فيه من الله ويتبرك به على وفق شرع الله فالعالم العابد الناصح رجل مبارك فنعتقد أنه كذلك ونتبرك بعلمه ودعاءه لا بذاته لأن هذا هو الموافق لشرع الله في التبرك به كما تقدم 0

((باب ما جاء في الذبح لغير الله))

وقول الله تعالى ﴿ قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لاَ شَرِيكَ لَهُ ﴾ الآية [الأنعام : 162 ، 163] . وقوله : ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾ [الكوثر : 2] .

معنى هذا الباب / أي باب ما جاء في الذبح لغير الله تقرباً من الوعيد الشديد والتحريم الأكيد في الكتاب والسنة ثم ساق الأدلة 0

والذبح أنواع /

الأول / الذبح تقرباً إلى الله كذبح الأضاحي والهدايا والفدايا والعقائق ونحوها فهذا الذبح من العبادات الكريمة التي يؤجر عليها العبد 0

الثاني / الذبح لغير الله تقرباً وتعظيماً فهذا شركٌ أكبر والغالب أنهم لا يأكلون من هذه الذبيحة بل يذبحونها ويتركونها0

الثالث / الذبح للأكل إكراماً للضيف أو إطعاماً للأهل والجيران فهذه جائزة 0

الرابع / الذبح رياءً وسمعة حتى يقال ما أكرمه وما أجوده فهذا شركٌ أصغر 0

قوله تعالى (قل) أي يا محمد ومن سار على منهجك وكنت قدوته (إن صلاتي) الصلاة في اللغة الدعاء وفي الشرع أقوال وأفعال مخصوصة تفتتح بالتكبير وتختتم بالتسليم (ونسكي) النسك في اللغة العبادة يقال تنسك الرجل أي تعبد وتفرغ للعبادة وفي الشرع ذبح القرابين قاله مجاهد وسعيد بن جبير والضحاك فيما نقله عنهم بن كثير ولم يخالفهم أحدٌ من السلف فيما نعلم وقد روى ابن أبي حاتم والحاكم عن جابر بن عبد الله قال : ضحى رسول الله صلى الله عليه وسلم في يوم عيد النحر بكبشين وقال حين ذبحهما (وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين) قوله (ومحياي ومماتي) أي كل أقوالي وأفعالي وحركاتي وسكناتي وكل أمرٍ يقع عليَّ في الحياة ووقت وفاتي وسببه وما يقع عليَّ فيه وبعده كل ذلك أقوله وأفعله واعتقده (لله رب العالمين) كل ما سوى الله عالم وهو ربهم ثم لا أشرك معه غيره في شيءٍ من ذلك ، وفي مختصر تفسير البغوي للدكتور عبد الله الزيد (محياي ومماتي) أي حياتي ووفاتي (لله رب العالمين) أي هو الذي يحييني ويميتني ، وقيل : محياي بالعمل الصالح ومماتي إذا مت على الإيمان لله رب العالمين ، وقيل : طاعتي في حياتي لله وجزائي بعد مماتي من الله رب العالمين ا0هـ 0 وهذا أمرٌ من الله لنبيه أن يبين للناس عقيدته ليكون قدوةً لمن أراد العقيدة السليمة ، والواجب حمل كلام الشارع على المعنى الشرعي إلا إذا أمكن الجمع بين المعنى الشرعي والمعنى اللغوي فالجمع أولى وهنا يمكن الجمع فيقال (إن صلاتي) أي دعاءي وصلاتي المعروفة (ونسكي) أي عبادتي وذبحي كل ذلك أصرفه لله وحده (لا شريك له) أي لا أصرفها لغيره كائناً من كان 0

وقد تضمنت هذه الآية أنواع التوحيد الثلاثة فتوحيد الألوهية في عدم صرف العبادة لغير الله وبيان أنها له وحده جل في علاه ، وتوحيد الربوبية في الإقرار بأنه المدبر والمصرف للأمور كلها ، وتوحيد الأسماء والصفات في قوله تعالى ((لله رب العالمين)) ثم نفت إشراك أحدٍ معه في ذلك كله فلا شريك له في ألوهيته ولا شريك له في ربوبيته ولا شريك له في أسمائه وصفاته فانظر كيف جمعت الآية على قصرها هذه المعاني العظام والشاهد

منها على الباب قوله (ونسكي) أي ذبحي ثم قوله بعد ذلك (لله رب العالمين لا شريك له) فتبين أنه لا يجوز الذبح لغير الله تقرباً وتعظيماً وأنه شرك 0

ثم ساق المؤلف دليلاً آخر يؤيد ما تقدم وهو قوله تعالى ((فصل لربك وانحر)) أي اجعل صلاتك ونحرك وهو الذبح خالصاً لله فلا تصل لغيره ولا تنحر لغيره فقرن في الموضعين الذبح بالصلاة التي هي آكد أركان الإسلام بعد الشهادتين ليبين عظم عبادة الذبح وأن مثلها مثل الصلاة التي هي صلةٌ بين العبد وربه فتبين أن الذبح تقرباً لله عبادة عظيمة يحبها الله وهي تشمل الأضاحي والهدي والفدي والعقيقة وكل ذبح يراد به التقرب إلى الله وما دام الذبح عبادة فلا يجوز صرف العبادة لغير الله لقوله تعالى {وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ } (23) سورة الإسراء وقوله تعالى {وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتْ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ } (21) سورة الأحقاف وقوله تعالى {مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ} (40) سورة يوسف والأدلة في هذا كثيرة وتقدم كثيرٌ منها

عن علي رضي الله عنه قال : حدثني رسول الله صلى الله عليه وسلم بأربع كلمات (لعن الله من ذبح لغير الله ، لعن الله من لعن والديه . لعن الله من آوى محدثاً ، لعن الله من غير منار الأرض) رواه مسلم وعن طارق بن شهاب ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (دخل الجنة رجل في ذباب ، ودخل النار رجل في ذباب) . قالوا : وكيف ذلك يا رسول الله ؟ قال (مر رجلان على قوم لهم صنم لا يجوزه أحد حتى يقرب له شيئاً ، فقالوا لأحدهما قرب قال : ليس عندي شيء أقرب قالوا له : قرب ولو ذباباً ، فقرب ذباباً ، فخلوا سبيله ، فدخل النار ، وقالوا للآخر : قرب ، فقال : ما كنت لأقرب لأحد شيئاً دون الله عز وجل ، فضربوا عنقه فدخل الجنة) [رواه أحمد] .

قوله (وعن علي) هو بن أبي طالب بن عبد المطلب الهاشمي القرشي بن عم رسول الله وزوج ابنته وأحد العشرة المبشرين بالجنة ورابع الخلفاء الراشدين مناقبه لا تكاد تحصر قتله بن ملجم الخارجي وهو خارجٌ لصلاة الفجر سنة 40هـ فقال عمران بن حطان الخارجي :

يا ضربةً من تقيٍ ما أراد بها   إلا ليبلغ من ذي العرش رضوانا

إني لأذكره يوماً فأحسبه   أوفى البرية عند الله ميزانا

فقيل رداً عليه :

يا ضربةً من شقيٍ ما أراد بها   إلا ليبلغ من ذي العرش كفرانا

إني لأذكره يوماً فألعنه لعناً وألعن عمران بن حطانا

وقيل إن عمران بن حطان رجع وتاب والله تعالى أعلم 0

قال (حدثني رسول الله بأربع كلمات) الكلمة في لغة العرب هي الجملة المفيدة فيقال عن (لا إله إلا الله) كلمة التوحيد وهكذا

(لعن الله من ذبح لغير الله) وهو الشاهد من الحديث واللعن هو الطرد والإبعاد عن رحمة الله وقد قال أهل العلم كل أمرٍ ورد فيه لعنٌ أو غضب أو سخط أو وعيدٌ بالنار أو الخلود فيها أو نفي عن صاحبه الإيمان أو قيل فيه ليس منا فإنه من كبائر الذنوب ثم الكبائر منها ما يخرج عن الدين كالشرك وعمل الكفر ومنها ما لا يخرج عن الدين 0

ويقرب من هذا الحديث قوله تعالى {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِالأَزْلاَمِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} (3) سورة المائدة ففي هذه الآية فصَّل المولى جل وعلا ما يحرم من الذبائح فأولها الميتة وهي التي ماتت بغير تذكيةٍ شرعية وما يلحق بها كسهم صياد وجارحة أو كلبٍ معلم ويستثنى من ذلك ميتة البحر فإنها حلال لحديث (هو الطهور ماءه الحل ميتته) والدم ويستثنى من ذلك الكبد والطحال لحديث (أحل لنا ميتتان ودمان فأما الميتتان فالجراد والحوت وأما الدمان فالكبد والطحال) ولحم الخنزير ويشمل الوحشي والإنسي والمراد جميع أجزاءه خلافاً لمن خصه بالهبر دون الشحم ونحوه (وما أهل لغير الله به) أي ذكر اسم غير الله عند ذبحها فقال باسم المسيح أو باسم السيد البدوي والولي الفلاني ونحو ذلك فلا يحل أكلها حينئذٍ قال في المصباح المنير : أوجب الله تعالى أن تذبح مخلوقاته على اسمه العظيم فمتى عدل بها عن ذلك وذكر عليها اسم غيره من صنم أو طاغوت أو وثنٍ أو غير ذلك من سائر المخلوقات فإنها حرامٌ بالإجماع (والمنخنقة) بحبلٍ أو غيره (والموقوذة) المضروبة بغير محدد حتى ماتت (والمتردية) التي سقطت من علوٍ فماتت (والنطيحة) هي التي تموت بسبب نطح غيرها لها ولو جرحها القرن وخرج منها الدم ولو من مذبحها (وما أكل السبع) أي التي عدا عليها ذو ناب (إلا ما ذكيتم) أي ما أدركتم وفيه حياة مستقرة مما تقدم فذكيتموها فتحل (وما ذبح على النصب) وهو الشاهد من الآية والنصب هي الأصنام أو الأوثان التي تنصب للعبادة وعلى هنا بمعنى اللام ذكره البغوي في تفسيره عن قطرب أي ما ذبح لأجل النصب وروي عن مجاهد وقتادة أنه كانت حول البيت ثلاثمائة وستون حجراً منصوبة كان

أهل الجاهلية يعبدونها ويعظمونها ويذبحون لها (وأن تستقسموا بالإزلام) أي ومما يحرم عليكم الإستقسام بالأزلام هي أقداحٌ ثلاث مكتوب على أحدها أفعل وعلى الثاني لا تفعل والثالث غفل ليس عليه شيء فإذا أراد أحدهم أمراً ضرب هذه الأقداح فإن وقعت على أفعل فعل وإن وقعت على لا تفعل لم يفعل وإن وقعت على الغفل أعاد وفيها عدم توكلٍ على الله ورضاً بما تقدره الأحجار (ذالكم فسق) أي فعلكم لشيءٍ مما تقدم مما نهى الله عنه فسق أي خروجٌ عن طاعة الله واستثنى من ذلك حال الإضطرار وقت المخمصة أي المجاعة (غير متجانفٍ لإثم) غير متعمدٍ ارتكاب الإثم وإنما اضطر إلى فعله اضطراراً بسبب الجوع الذي أصابه وخشي على نفسه منه الهلكة إن لم يأكل من هذه الأنواع ، وهذا يدل على أن الضرورات تبيح المحظورات 0

وعلى هذا فمن ذبح لغير الله فهو مشرك ولا يحل الأكل من ذبيحته سواءً أهلَّ باسم الولي أو الصالح المذبوح له أو سكت أو حتى لو ذكر اسم الله عليها عند الذبح ، إلا ذبائح أهل الكتاب فمتى لم نجزم بأنهم ذكروا غير اسم الله عليها فيحل الأكل منها إذا ذبحت بالطريقة الشرعية لقوله تعالى {الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلُّ لَّهُمْ } (5) سورة المائدة وأصل الإهلال رفع الصوت فيقول هذه الذبيحة للولي الفلاني أو باسم الفلاني فهذا كله من الشرك والنية كافية في ذلك ولو لم يهل أو يرفع صوته للإهلال وإنما سيقت الآية لبيان حال المشركين في عهد النبي صلى الله عليه وسلم أنهم كانوا يهلون لمعبوداتهم ، ويلحق بما ذبح لغير الله ما يذبح عند عتبة الباب للجن خوفاً منهم أو خوفاً من أعينهم ونحو ذلك 0

ثم قال في تتمة الحديث (لعن الله من لعن والديه) وفي حديثٍ آخر أن الصحابة تعجبوا وسألوا النبي صلى الله عليه وسلم : كيف يلعن الرجل والديه فقال (يسب أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه فيسب أمه) وقد وجد من يلعن والديه صراحةً ورأيت ذلك بعيني فنسأل الله العفو والعافية 0

ثم قال (لعن الله من آوى محدثاً) أي حماه ودافع عنه والمحدث يشمل الإحداث في الدنيا كآخذ مالٍ بغصبٍ أو سرقةٍ أو غيرها وكقاتل ومهرب مخدرات ونحو ذلك ويشمل الإحداث في الدين كداعية بدعة أو كفرٍ أو نحو ذلك فلا يجوز إيواء المحدث ولا التستر عليه بل يجب الإبلاغ عنه وتسليمه للسلطة الحاكمة بالشرع ليلقى عقابه الشرعي 0

ثم قال (لعن الله من غير منار الأرض) أي علاماتها وحدودها فيقدم ويؤخر ليقتطع حق امريءٍ مسلمٍ بغير حق وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم (من ظلم قيد شبرٍ طوقه يوم القيامة من سبع أراضين)

الحديث الثاني عن طارق بن شهاب وقد قال العثيمين رحمه الله : للحديث علتين :

الأولى / أن طارق بن شهاب قد اتفق أهل العلم على أنه لم يسمع من النبي صلى الله عليه وسلم واختلفوا في صحبته والأكثرون على أنه صحابي وحينئذٍ لا يضر عدم سماعه من النبي لأن مرسل الصحابي حجة ومرسل غير الصحابي ليس بحجة 0

الثاني / أن الأعمش قد دلس وهو من المعنعنين 0

ثم قال وللحديث علةٌ ثالثة / وهي أن الإمام أحمد رواه عن طارق عن سلمان موقوفاً من قوله وكذا أبو نعيم وابن أبي شيبة فيحتمل أن سلمان أخذه عن بني إسرائيل 0(القول المفيد 224/1)

قلت : إن الله لا ينظر إلى المذبوح ما هو وإنما لقلب الذابح هل ذبح له أو لغيره فإن ذبح لغيره كان مشركاً ولو كان المذبوح ذباباً أو دونه أو فوقه وإن كان الذبح لله نجى وسلم ، ولذا قال في قرة العيون : إذا كان هذا فيمن قرَّب للصنم ذباباً فكيف بمن يستسمن الإبل والبقر والغنم ليتقرب بنحرها وذبحها لمن كان يعبده من دون الله من ميتٍ أو غائبٍ أو طاغوتٍ أو مشهدٍ أو شجرٍ أو حجر أو غير ذلك 0(حاشية فتح المجيد ص167)

وقد أنكر العثيمين رحمه الله المسألة التاسعة للمؤلف رحمه الله وهي كون ذلك الشخص ذبح بقصد التخلص من شرِّ أولئك وقال : لو كان قصده ذلك لم يكفر لأنه مكره لكنه دخل النار لأنه ذبح تقرباً لا تخلصاً وقصد التقرب بذبحه (القول المفيد 227/1)

قلت : لعل الأمم السابقة لم يؤذن لهم في الاستجابة في قول أو فعل الكفر حال الإكراه ويشهد لذلك أنهم كانوا ينشَّرون بالمناشير من مفرق رؤوسهم فلا يرجعون عن دينهم ولا يعتذرون بالإكراه فدلَّ والله أعلم على أن الاستجابة لقول أو فعل الكفر حال الإكراه خاصٌ بهذه الأمة 0

((باب لا يذبح لله بمكان يذبح فيه لغير الله))

وقول الله تعالى : ﴿ لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ﴾ الآية [التوبة : 108] .

عن ثابت بن الضحاك رضي الله عنه ، قال : نذر رجل أن ينحر إبلاً ببوانة ، فسأل النبي صلى الله عليه وسلم فقال (هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يعبد)؟ قالوا : لا . قال (فهل كان فيها عيد من أعيادهم) ؟ قالوا : لا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (أوف بنذرك ، فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله ، ولا فيما لا يملك ابن آدم) رواه أبو داود ، وإسناده على شرطهما .

علاقة الباب بما قبله / بعد أن ذكر المصنف حكم الذبح لغير الله عقبه بذكر حكم الذبح لله بمكانٍ يذبح فيه لغير الله وأنه لا يجوز سداً للذريعة الموصلة للمحرم ولأن فيه موافقةً للمشركين في الظاهر وهو الذبح في مكان ذبحهم وقد جاءت الشريعة بمخالفة الكفار والمشركين لأن موافقتهم قد تورث محبتهم أو محبة فعلهم أو الإغترار بهم 0

بدأ المؤلف رحمه الله بقوله تعالى في مسجد الضرار ((لا تقم فيه أبداً)) وقصة مسجد الضرار أن أبا عمرٍ ويدعى الفاسق ذهب إلى هرقل بعد غزوة أحد يستعديه على رسول الله صلى الله عليه وسلم فوعده هرقل ومناه بالنصرة فأرسل إلى جماعةٍ من قومه من أهل النفاق يعدهم أنه سيأتي بجيشٍ يقاتل به النبي صلى الله عليه وسلم ويغلبه ، وأمرهم أن يتخذوا له معقلاً لمن يقدم عليهم من عنده بكتبه ويكون مرصداً له إذا قدم ولأجل أن يجتمع فيه المنافقون للتخطيط للكيد للإسلام والمسلمين فبنوا مسجداً لئلا يفطن لاجتماعاتهم المسلمون فيفتضح أمرهم ولا يؤمنون بأن الله مطلعٌ عليهم لنفاقهم وكفرهم ثم أتوا النبي صلى الله عليه وسلم يستأذنوه في أن يصلي لهم في ذلك المسجد ليحكموا تغطية أمرهم وذكروا أنهم بنوه للضعفاء وأهل العلل في الليالي الشاتية ونحو ذلك فوعدهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يصلي فيه بعد عودته من سفرةٍ له فأنزل الله عليه وحياً يخبره بقصة المسجد قال تعالى {وَالَّذِينَ اتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفَنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَى وَاللّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (107) لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ} (108) سورة التوبة

فبعث النبي صلى الله عليه وسلم مالك بن الدخشم ومعن بن عدي فهدماه وأحرقاه ، وذِكْرُ المصنف رحمه الله لهذه الآية في هذا الباب من فقهه ودقة علمه فكما نهى الله نبيه عن الصلاة في المكان الذي أعدَّ للمعصية ولو كان في الظاهر محل عبادة فمن باب أولى أن يتجنب الذبح لله في الأماكن التي يعصى الله فيها بالذبح لغيره وهذا أعظم ذنب لأنه من الشرك الذي لا يغفره الله فترك الذبح في المكان الذي يذبح فيه لغيره أولى من ترك الصلاة في المسجد الذي أعدَّ للمعصية 0

قال العثيمين : يقرب من هذا النهي عن الصلاة عند طلوع الشمس وعند غروبها لأنهما وقتان يسجد فيهما الكفار للشمس فهذا باعتبار الزمن والوقت والحديث الذي ذكره المؤلف باعتبار المكان (القول المفيد 235/1) يريد أن النهي عن الصلاة عند طلوع الشمس وعند غروبها لأنه وقت صلاة الكفار وسجودهم للشمس فنهي المسلمون عن الصلاة في ذلك الوقت لئلا يشابهوهم في الظاهر وأن كان أولئك يصلون للشمس والمسلمون يصلون لله فكذلك الذبح في مكان ذبح الكفار ينهى عنه لأجل ذلك 0

وعن ثابت بن الضحاك بن خليفة الأشهلي صحابيٌ جليل روى عنه أبو قلابة وغيره وتوفي سنة 64هـ قال (نذر رجل) النذر هو إلزام المكلف نفسه شيئاً غير واجبٍ عليه بأصل الشرع وهو مكروهٌ شرعاً وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم (أنه لا يأتي بخير وإنما يستخرج به من البخيل)

قال (نذر رجلٌ أن ينحر إبلاً ببوانة)

الإبل جمعٌ لا مفرد له من لفظه وإنما مفرده بلفظٍ آخر وهو بعير والبعير يشمل الناقة والجمل خلافاً لما عليه العامة اليوم بأنه خاصٌ بالجمل 0

بوانة / اسم موضع قال البغوي : أسفل مكة دون يلملم وقال أبو السعادات : هضبةٌ من وراء ينبع (نقله عنهم صاحب فتح المجيد ص172)

فسأل النبي صلى الله عليه وسلم الناس أو هذا الرجل والظاهر من الحديث الأول فقال (هل كان فيها وثنٌ من أوثان الجاهلية يعبد) الوثن أعم من الصنم فكل صنمٍ وثن وليس كل وثنٍ صنم لأن الصنم يختص بالمنحوت وأما الوثن فيشمل كل ما عبد من دون الله من شجرٍ أو حجر أو قبرٍ أو غيره ولذا قال النبي صلى الله عليه وسلم (اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد) قالوا : لا 0 وهذا يدل على أن المسئول ليس بواحد وأنه سأل الناس المتواجدين حين السؤال ليكون قولهم مجتمعين أوثق من قول الواحد وهذا يدل على غاية التحرص من النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الأمر وأنه أمرٌ خطير يحتاج إلى مزيد تدقيق وتحري

ثم قال (فهل كان فيها عيدٌ من أعيادهم) كعيد رأس السنة وعيد الأم وعيد الحب وعيد النيروز والمهرجان وغيرها من أعياد الكفار ، ثم شابههم المتأخرون من هذه الأمة فأحدثوا أعياداً ما أنزل الله بها من سلطان كعيد المولد والإسراء والمعراج وعيد الوطن وعيد القريقعان وغيرها 0

فقال النبي صلى الله عليه وسلم (أوف بنذرك) فدلَّ على أنه لو كان فيها وثن أو عيد للكفار لنهاه عن الوفاء بنذره في ذلك المكان ولذلك قال (فإنه لا وفاء لنذرٍ في معصية الله) وفي الحديث الآخر (من نذر أن يطع الله فليطعه ومن نذر أن يعصه فلا يعصه) وعليه كفارة يمين لحديث (لا نذر في معصية وكفارته كفارة يمين) رواه أحمد ثم قال (ولا فيما لا يملك ابن آدم) فلو قال لله عليَّ أن أتصدق بناقة فلان أو أعتق عبده ونحو ذلك فهذا نذرٌ باطل ولا يصح حتى يملك المنذور به بشراءٍ أو هبةٍ أو إرثٍ أو نحو ذلك

وقد ذكر أهل العلم أن أقسام النذر ستة :

1- نذر الطاعة فيجب الوفاء به كمن نذر أن يصوم في غير عيد أو يصلي في غير وقت نهي أو يعتمر ونحو ذلك لحديث (من نذر أن يطع الله فليطعه)

2-نذر المعصية فلا يجوز الوفاء به ويكفر كفارة يمين كمن نذر أن يشرب المسكر أو يترك الصلاة المفروضة أو نحو ذلك لحديث (ومن نذر أن يعصه فلا يعصه)

3-نذر المباح كأن ينذر أن يشتري ساعة أو يلبس ثوباً ونحو ذلك فيخير بين الوفاء بنذره ولا شيء عليه أو تركه ويكفر كفارة يمين 0

4-نذر اللجاج والغضب وهو الذي يقصد به اليمين للمنع أو الحث أو التصديق أو التكذيب كأن يريد أن يمنع ولده من الخروج من البيت فيقول لله علي نذرٌ أن أضربك مائة سوط إن خرجت من البيت أو أن لا آكل ولا أشرب مدة كذا وكذا فهنا يخير بين الوفاء بنذره إذا لم يضره وبين كفارة يمين 0

5-نذر المكروه فينذر أن يفعل أمراً مكروهاً شرعاً كأن ينذر أن لا ينام إلا على بطنه فهنا يكره الوفاء بنذره ويكفر كفارة يمين 0

6-النذر المطلق بحيث لا يسمي شيئاً فيقول لله عليَّ نذر فيكفر كفارة يمين لحديث (كفارة النذر إذا لم يسمَّ كفارة يمين) (القول المفيد 237/1 بتصرف)

قال الشيخ حامد الفقي رحمه الله في حاشيته على فتح المجيد ص174 : قد يشكل على هذا جعل محل اللات بالطائف مسجداً ثم أجاب: بأن اتخاذه مسجداً لخشية رجوع الجهال إليه فاتخذ مسجداً ليُنسى ما كان يفعل فيه ا0هـ والحقيقة أن هذا الجواب غير مقنع ، ثم وجدت كلاماً للشيخ محمد العثيمين رحمه الله يصلح جواباً حيث قال : لو أراد إنسان أن يصلي في مكانٍ يذبح فيه لغير الله جاز ذلك لأنه ليس من نوع العبادة التي يفعلها المشركون في هذا المكان ا0هـ (القول المفيد 241/1) فيكون بناء المسجد في محل اللات لأن عبَّادها كانوا مشتغلين بأنواعٍ من العبادات عندها غير الصلاة كالذبح والطواف والنذر وغيرها فكانت إقامة الصلاة في مكانهم ليس من جنس عبادتهم والله تعالى أعلم 0

((باب من الشرك النذر لغير الله))

وقول الله تعالى ﴿ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً ﴾ [الإنسان 7] وقوله ﴿ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللّهَ يَعْلَمُهُ ﴾ [البقرة : 270] .

وفي ﴿ الصحيح ﴾ عن عائشة رضي الله عنها ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (من نذر أن يطيع الله فليطعه ، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه)

النذر عبادة وقربة يتقرب بالوفاء بها إلى الله عز وجل ولذا امتدح الله عباده المؤمنين بقوله {يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا} (7) سورة الإنسان وأمر الله بالوفاء به فقال {ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ} (29) سورة الحج وتوعد من لم يوف بنذره بوعيدٍ شديد فقال تعالى {وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (75) فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُواْ بِهِ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ (76) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُواْ اللّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ } (77) سورة التوبة فإذا تبين أن النذر عبادة فقد تقدم أن العبادة لا يجوز صرف شيءٍ منها لغير الله ومن صرف شيئاً منها لغير الله فقد أشرك ولذا قال المؤلف (بابٌ من الشرك النذر لغير الله) وذلك مثل أن يقول للولي الفلاني عليَّ نذرٌ إن شفى مريضي أن أصوم يوماً أو أن أذبح له قرباناً أو نحو ذلك فهذا شركٌ لأنه عقد النذر لغير الله ، والفرق بينه وبين نذر المعصية أن نذر المعصية يعقد لله فيقول لله عليَّ أن أقتل فلاناً أو أن أزني بفلانة فهذا نذر معصيةٍ لا يجوز الوفاء به وفيه الكفارة وأما نذر الشرك فيكون عقده لغير الله ابتداءً فهذا لا ينعقد وليس فيه كفارة بل فيه التوبة ، وقد ساق المؤلف الآية الثانية وهي قوله تعالى { وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ} (270) سورة البقرة فكما أن النفقة عبادة سواءً النفقات الواجبة كالزكاة والنفقة على من تحت ولايته أو مستحبة كالصدقات والنفقة على الخارجين عن ولايته فكذلك النذر هو عبادة ولذا رتب عليهما الجزاء فإن

قوله تعالى (يعلمه) ليس مجرد علمٍ فإن الله يعلم كل شيءٍ ولكن علمٌ بجزاء أي فسيجازيكم على هذه النفقات والنذور بحسب نوع النية والعمل فمن أنفق في سبيل الله وتصدق على الفقراء والمساكين وأنفق على أهله وأولاده ومن تحت ولايته يبتغي الأجر من الله فسيجازيه الله خيراً ، وإن أنفق على الفساد وسعى بإنفاقه في نشر الرذيلة والمنكر فسيجازيه بالعقاب الشديد ، وكذلك إن نذر قربةً ووفى بها فسيجازى خيراً وأن نذر لغير الله أو نذر شراً فسيعاقبه الله ، فتبين بهذا أن النذر عبادة لأنه قرن بالإنفاق ولا شك أن الإنفاق عبادة قال العثيمين : تعليق الشيء بعلم الله دليلٌ على أنه محل جزاء ، وترتب الجزاء عليه دليلٌ على أنه من العبادة (القول المفيد 1/ 246 بتصرفٍ يسير)

قال المؤلف (وفي الصحيح) ليس له اصطلاحٌ يعرف به مراده من هذه اللفظة وقد يكون مراده أن الحديث صحيح أو في أحد الكتب الصحيحة وهذا الحديث في البخاري كتاب الأيمان والنذور باب النذر فيما لا يملك وفي معصية (عن عائشة رضي الله عنها) هي الصديقة بنت الصديق زوجة سيد المرسلين أفقه النساء وأعلمهن وقد اختلف هل هي أفضل أم خديجة قال في قرة العيون : لا يقال خديجة أفضل ولا عائشة أفضل فلخديجة من الفضائل ما ليس لعائشة من سبقها للإيمان بالنبي وتأييده في أصعب مراحل دعوته وغير ذلك ولعائشة من العلم بالأحاديث والأحكام ما ليس لخديجة لعلمها بأحوال النبي ونزول القران وبيان الحلال والحرام حتى كان الصحابة يرجعون إليها بعد وفاة النبي لتبين لهم ما أشكل عليهم من أحوال النبي اهـ (حاشية فتح المجيد ص180) توفيت عائشة رضي الله عنها سنة 57هـ وصلى عليها أبو هريرة (أن رسول الله قال (من نذر أن يطيع الله فليطعه ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه) قال في فتح المجيد ص181: أجمع العلماء على أن من نذر طاعةً لشرط يرجوه كأن شفى الله مريضي فعليَّ أن أتصدق بكذا ونحو ذلك وجب عليه إن حصل ما علق نذره على حصوله وأجمعوا على أنه لا يجوز الوفاء بنذر المعصية واختلفوا هل ينعقد فتجب فيه الكفارة أو لا ينعقد أصلاً والراجح الأول لزيادة الطحاوي (وليكفر عن يمينه) اهـ

((باب من الشرك الاستعاذة بغير الله))

وقول الله تعالى﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً ﴾[الجن : 6]

وعن خولة بنت حكيم رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من نزل منزلاً فقال : أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق ، لم يضره شيء حتى يرحل من منزله ذلك » . [رواه مسلم] .

الإستعاذة / هي الإلتجاء والإعتصام ويسمى المستعاذ به معاذاً وملجأً ومن ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم في المهدي عليه السلام (يعوذ عائذٌ بالبيت) وقوله في الفتن (فمن وجد من ذلك ملجأً فليعذ به) 0

تنبيه / قد يقع لبسٌ عند بعض الناس في الاستعاذة والاستعانة والاستغاثة بين ما يجوز منها وما لا يجوز وما هو شرك والمؤلف رحمه الله إنما أورد في هذا الكتاب ما هو شركٌ منها ونبه على التحذير منه ، ويُعرف الفرق بين ما هو شركٌ وما دونه بأن ما لا يقدر عليه إلا الله فصرفه لغيره شرك لأنه أشرك هذا المخلوق فيما هو من خصائص الله وهي القدرة المطلقة فحين يستعيذ أو يستعين أو يستغيث بهذا المخلوق فيما لا يقدر عليه عادةً مثله يكون قد أعتقد أن لهذا المخلوق قدرة خارقة للعادة وأعتقد أن له تصرفاً في المقادير والكون وهذا من محض حق الله فيكون مشركاً بذلك وهذا شركٌ في الربوبية ، وكذلك فإن هذه الأشياء هي في الحقيقة دعاء فحين يقول الغريق (يا ربي أعني على النجاة يا رب أعوذ بك من الغرق يا رب أغثني بفرجٍ عاجل) هو وإن كان يستعين ويطلب الغوث من الله ويستعيذ به من شر الغرق فهو يدعو ، فكذلك من يستعين ويستعيذ ويستغيث بغير الله فهو يدعو والدعاء عبادة وصرف العبادة والدعاء لغير الله شرك قال تعالى {وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا} (18) سورة الجن وحينئذٍ يكون شركاً في الألوهية ، وهو أيضاً شركٌ في الأسماء والصفات فالمؤمن حين يستعين ويستعيذ ويستغيث بربه يقول يا الله يا رحمن يا رحيم ارحمني يا لطيف ألطف بي ونحو ذلك ، وكذلك المستعين والمستعيذ والمستغيث بغير الله قد ينادي معبوده بما هو من أسماء الله وصفاته كقول صاحب البردة عن النبي صلى الله عليه وسلم

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به سواك عند حصول الحادث العمم
إن لم تكن آخذا يوم المعاد يدي كرماً فقل يا زلة القدم
فإن من جودك الدنيا وضرتها ومن علومك علم اللوح والقلم

فوصف النبي بأن من جوده الدنيا والآخرة وهذه الصفة لله وحده وكذلك علم اللوح والقلم لله وحده فوصف النبي بصفات الله وذلك شركٌ في الأسماء والصفات

ثم ذكر المصنف قوله تعالى {وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا} (6) سورة الجن وقد كان العرب في الجاهلية قبل الإسلام إذا أمسى أحدهم بوادٍ قفر وخاف على نفسه قال : أعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه يريد كبير الجن فلمَّا رأت الجن أن الإنس تخاف منهم وتلتجئ بهم زادوهم إخافةً ليزدادوا إلتجاءً إليهم ويستمروا في ذلك وهو معنى قوله تعالى ((فزادوهم رهقاً)) قاله أبو العالية والربيع وزيد بن أسلم وروي عن بن عباسٍ وقتادة أن معنى ((رهقاً)) أي إثماً ذكر هذه الأقوال بن كثير في تفسيره ويمكن الجمع بأنهم زادوهم إخافةً ليزدادوا إلتجاءً إليهم فيزدادوا إثماً بشركهم لأنه لا يقدر على رد الشياطين إلا الله قال تعالى {وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} (36) سورة فصلت وقد فسر الشيخ علي ملا قاري الحنفي قوله تعالى {وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ الإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِيَ أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَليمٌ} (128) سورة الأنعام بأن استمتاع الإنسي بالجني في قضاء حوائجه وامتثال أوامره وإخباره بشيءٍ من المغيبات (يريد مسترقي السمع وإلا فالجن لا يعلمون الغيب) واستمتاع الجني بالإنسي تعظيمه إياه واستعاذته به وخضوعه إليه (نقله في فتح المجيد ص183) والآية تدل على عدم جواز إستعاذة الإنس بالجن لكونهم عالمٌ غيبيٌ عنهم 0 وعن خولة بنت حكيم السلمية يقال لها أم شريك وهي زوجة عثمان بن مظعون رضي الله عنه قالت : سمعت رسول الله يقول (من نزل منزلاً) أي مكاناً وسواءً كان في سفرٍ أو حضر إذ لم يرد تقييده في الحديث بحالةٍ دون حالة حتى قال الشيخ بن باز رحمه الله : لا مانع من قول هذا الدعاء حتى إذا ركب سيارته فإنها له منزلٌ في سفره وتنقله

(فقال : أعوذ بكلمات الله التامات) قال العثيمين : كلمات من جموع القلة لأنه جمع مذكر سالم لكن جموع القلة تدل على الكثرة بالدليل وقد جاء الدليل أن كلمات الله لا حصر لها كما قال تعالى {قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا} (109) سورة الكهف وأبلغ من هذا قوله تعالى {وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} (27) سورة لقمان والمراد بالكلمات هنا الكلمات الكونية والشرعية (القول المفيد 252/1) وقوله (التامات) أي الكاملات التي لا يلحقهن نقصٌ ولا عيب كما يلحق كلام البشر ، وهذا الحديث يدل على جواز الإستعاذة بصفات الله فإن كلام الله من صفاته وفيه ردٌ على الجهمية إذ لو كان كلام الله مخلوقٌ لم يجز الإستعاذة به 0 قال العثيمين : تمام الكلام بأمرين : الصدق في الأخبار والعدل في الأحكام كما قال تعالى {وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلِ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } (115) سورة الأنعام (القول المفيد 253/1)

قوله (من شر ما خلق) أي من شر كل مخلوقٍ فيه شر وليس المراد من شر ما خلقه الله لأن بعض المخلوقات لا شر فيها كالنبيين والملائكة وغيرهم فتعين أن يكون المراد من شر كل من يريد بي شراً من المخلوقات 0

قوله (لم يضره شيءٌ حتى يرتحل من منزله ذلك) النكرة في سياق النفي تفيد العموم فلا يضره شر هذه المخلوقات مطلقاً ، لكن قال العثيمين : قد يتخلف الوعد لوجود مانع لا لقصور السبب أو تخلف الخبر ونظير ذلك كل ما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم من الأسباب الشرعية إذا فُعِلت ولم يحصل السبب فليس ذلك خللٌ في السبب ولكن لوجود مانع مثل قراءة الفاتحة شفاء ويقرأها بعض الناس ولا يشفى فعليك أن تفتش ما هو المانع فتزيله فيحصل لك أثر السبب (القول المفيد 254/1) قلت : المانع قد يكون معصية أو عدم يقين بخبر رسول الله في هذا أو نحو ذلك ، وينبغي أن يعلم أن هناك فرقٌ بين الضرر وبين الأذى قال تعالى { لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى } (111) سورة آل عمران والحديث لم ينفي الأذى فقد يحصل الأذى لكنه نفى الضرر فحينئذٍ من لدغته عقرب أو نحوها وهو قد ذكر هذا الحديث وتألم من لدغتها فنقول له هذا الأذى لكن تأكد يقيناً أنها لن تضرك بموتٍ أو مرضٍ مزمنٍ أو غيره إنما مجرد أذىً يزول عما قريب فلينتبه لهذا 0

((باب من الشرك أن يستغيث بغير الله أو يدعو غيره))

وقول الله تعالى ﴿ وَلا تَدْعُ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَنفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِّنَ الظَّالِمِينَ * وَإِن يَمْسَسْكَ اللّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ ﴾ [يونس : 106 ، 107] . الآية .

الاستغاثة / هي طلب الغوث وهي إزالة الشدة ، وهي من الدعاء كما قال تعالى {إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُرْدِفِينَ} (9) سورة الأنفال ولكنها تكون من المكروب فهي أشد حالات الدعاء ، ولذا أورد المؤلف الآيات التي تبين عدم جواز صرف الدعاء لغير الله ليدلل على أن صرف الاستغاثة لغير الله شرك ، والمراد استغاثة العبودية كما تقدم في الاستعاذة ، وهي التي يكون تعلق القلب مطلقاً على المستغاث به أو يستغيث به فيما لا يقدر عليه إلا الله كشفاء مريض وإنزال مطر وغير ذلك إذ لا يقدر على ذلك إلا الله وكذلك الاستغاثة بمن لا يملك الغوث كغائبٍ أو ميتٍ لأنهم لا قدرة لهم على غوثه وإنما استغاث بهم لاعتقاده أن لهم تصرفاً في الكون وأن لهم القدرة على النفع والضر وأن ذلك بمقدورهم ، وأما استغاثة الحي القادر الحاضر فيما يقدر عليه فهي جائزة 0

قول المصنف (باب من الشرك أن يستغيث بغير الله أو يدعوا غيره) من باب عطف الخاص على العام والعام على الخاص وهو واردٌ في لغة العرب كقوله تعالى {مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ} (98) سورة البقرة 0

قوله تعالى{وَلاَ تَدْعُ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَنفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ (106) وَإِن يَمْسَسْكَ اللّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَآدَّ لِفَضْلِهِ يُصَيبُ بِهِ مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} (107) سورة يونس والآية الأولى كقوله تعالى {وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} (88) سورة القصص والآية الثانية كقوله تعالى { وَإِن يَمْسَسْكَ اللّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدُيرٌ } (17) سورة الأنعام ففي هذه الآيات يحذر الله نبيه ومن كان نبيه قدوته وهم عباد الله المؤمنين من أن يدعوا من لا ينفع ولا يضر بمعنى لا يكن قادراً على النفع والضر وهو كل من سوى الله فإن النفع الحقيقي والضر الحقيقي بيد الله فهو النافع الضار ولذا قال ((وَإِن يَمْسَسْكَ اللّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَآدَّ لِفَضْلِهِ)) قال بن عثيمين : هذا القيد ليس شرطاً بحيث يكون له مفهوم فيكون لك أن تدعوا من ينفعك ويضرك بل هو لبيان الواقع لأن المدعو من دون الله لا يحصل منه نفعٌ ولا ضرر قال تعالى {وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَومِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ} (5) سورة الأحقاف فهذه كقوله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ } (24) سورة الأنفال مع أن دعاء الرسول كله يحيينا وكقوله { وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُم } (23) سورة النساء أي الأغلب أنهن يكن كذلك (القول المفيد263/1) ويؤيده أنه ربما دعا جنياً فنفع أو ضر بأمر الله رغم كونه من الشرك لأنه دعاء غائب أو عالمٌ خفي قال تعالى ((فإن فعلت فإنك إذاً من الظالمين)) أي الظلم الأكبر وهو الشرك كما قال تعالى {وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ} (13) سورة لقمان وكون الشرك ظلماً لأنه اقتطع ما هو محض حق الله من الدعاء والعبادة والتعظيم وصرفه لغيره ، وقوله تعالى ((وإن يمسسك الله بضرٍ فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخيرٍ فلا راد لفضله)) يبين جل وعلا أن النفع والضر بيده وحده وإنما هذه المخلوقات التي يقع منها نفعٌ أو ضر إنما هي أسباب إن شاء الله أوقع الضر بها وإن شاء منعه وكم من ذات سمٍ لدغت إنساناً فلم تضره وكم من طبيبٍ أراد نفع إنسانٍ فلم يستطع فإذا علمت هذا فاطلب النفع والضر ممن يملكه ويقدر عليه ولا تطلبه ممن هو عاجزٌ عنه قال النبي صلى الله عليه وسلم لابن عباس (يا غلام إني أعلمك كلمات احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده تجاهك تعرف على الله في الرخاء يعرفك في الشدة إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيءٍ

لم ينفعوك إلا بشيءٍ قد كتبه الله لك وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيءٍ لم يضروك إلا بشيءٍ كتبه الله عليك رفعت الأقلام وجفت الصحف) ولذلك أنكر الله على المشركين صرف شيءٍ من أنواع العبادة لمن لا ينفع ولا يضر وهو من سواه قال تعالى {قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا وَاللّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} (76) سورة المائدة فالنفع والضر إنما مالكه هو الله وحده وهو السميع لشكواكم العليم بدوائكم وما ينفعكم فاعبدوه وحده وقال تعالى {قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَنفَعُنَا وَلاَ يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللّهُ } (71) سورة الأنعام وقال تعالى {قُلْ أَرَأَيْتُكُم إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (40) بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاء وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ} (41) سورة الأنعام وهاهم المشركون إذا ركبوا لجة البحر وخافوا من الغرق نسوا معبوداتهم وتوجهوا إلى الله وحده كما قال تعالى {فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ} (65) سورة العنكبوت فإين نفع معبوداتهم التي يتوجهون إليها في السراء لقد تيقنوا أنها لن تستطيع نفعهم في هذا الموقف العصيب فعادوا إلى من يعلمون بفطرتهم أن النفع بيده فسألوه ولكن العجب أنه لما نجاهم من هذه الهلكة عادوا إلى عبادة من لا ينفع ولا يضر فانظر إلى الحمق وانتكاسة الفطرة ، فإذا علم هذا فينبغي للمؤمن إن يتوجه إلى الله في الرخاء والشدة لا إلى غيره لأن الذي يدعى في الشدة هو الذي ينبغي أن يعبد في الرخاء وتقدم قول النبي صلى الله عليه وسلم (تعرف على الله في الرخاء يعرفك في الشدة) 0

وقد جاءت النصوص الكثيرة تحذر من صرف الدعاء لغير الله وأنه شرك كقوله تعالى {فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ} (213) سورة الشعراء وقوله تعالى {وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا} (18) سورة الجن وقال تعالى {وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} (88) سورة القصص وقال تعالى {وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ} (117) سورة المؤمنون فجعل دعاء غيره كفراً ،

قال بن عثيمين رحمه الله : هناك فرقٌ معنوي بين قوله تعالى ((وإن يمسسك الله بضر)) وقوله ((وإن يردك بخير)) لأن الأشياء المكروهة لا تنسب إلى إرادة الله بل إلى فعله أي مفعوله فالمس من فعل الله والضر من مفعولاته فالله لا يريد الضر لذاته بل يريده لغيره لما يترتب عليه من الخير ولما وراء ذلك من الحكم البالغة وفي الحديث القدسي (إن من عبادي من لو أغنيته أفسده الغنى) رواه الطبراني أما الخير فهو مرادٌ لله لذاته ومفعولٌ له ويقرب من هذا ما في سورة الجن {وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا} (10) سورة الجن

فإذا أصيب الإنسان بمرض فالله لم يرد به الضرر لذاته بل أراد المرض وهو يضره لكن لم يرد ضرره بل أراد خيراً من وراء ذلك وقد تكون الحكمة ظاهرةً في نفس المصاب وقد تكون ظاهرةً في غيره (القول المفيد 265/1) وهنا نبه الشيخ إلى مسألةٍ عظيمة ينبغي تفصيل الكلام فيها وهي أن الشر لا ينسب إلى الله وذلك لما رواه مسلم في صحيحه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول في دعاء الاستفتاح (لبيك وسعديك والخير كله في يديك والشر ليس إليك) فالشر لا ينسب إلى الرب جل وعلا ، وإنما إلى مخلوقاته التي يكون فيها شر كالشياطين والحيات والعقارب والثعابين والأعاصير والفيضانات والزلازل والبراكين والحوادث والمرض وغيرها فيقال عنها إنها شرور وأن فيها شراً وضرراً ولا يقال ذلك للرب جل وعلا ، فهذا من ناحية صحة اللفظ ، وأيضاً فينبغي للمؤمن أن يعتقد اعتقاداً جازماً لا يساوره فيه شك أن الله لا يريد الشر ولا يحبه ولا يفعله لكن يقدره لخيرٍ أراده قد نعلمه وقد لا نعلمه ، وفعل الشر وقع من مخلوق من حيةٍ أو شيطان أو إنسان ، والله أقدره على الفعل وقدَّر وقوعه على المفعول به ، لحكمةٍ صادرةٍ عن إرادة خير إما خاصٌ أو عام ، فمثال الخاص / الحادث المروري نراه شراً والله قدَّره علينا وأراده خيراً فإن مات من وقع عليه الحادث من أهل الإسلام فهو شهيد وإن حيي فسيكون ذلك تكفيراً لسيئاته ورفعةً لدرجاته في دار البقاء الأبدي ولعله كان مفرطاً فيتوب أو غافلاً عن طاعة ربه فينتبه لقرب الموت أو غير ذلك من الحكم التي تشتمل على أنواع الخير ، وإن وقع على الكافر فمات فهو لئلا يزداد من الإثم فيزاد في عذابه فهو خيرٌ له من هذه الناحية ، وإن حيي فالغالب أن الإنسان إذا اشتدت عليه الكروب أنه يعود إلى الله ويعرف ضعف معبوداته التي يعبدها من دون الله كحال ركَّاب البحر الذين ذكرهم الله في كتابه ، ومثله المرض والمصائب الفردية 0 ومثال الخير العام / الزلازل والبراكين والأعاصير ونحوها التي تدمر وتقتل فالشر وقع منها والله قدَّر ذلك إرادةً لخيرٍ عام وهو معرفة العباد قوة ربهم وضعفهم ومقدرته عليهم وحاجتهم إليه فيعلنوا توبتهم وإنابتهم إلى ربهم ، والأغلب أن الله عز وجل يوقع مثل هذه عقوباتٍ لقومٍ عصوا وارتكبوا الشرك والكفر وكبائر الذنوب دون نكير 0 وفيها خيرٌ لهم لئلا يزدادوا من الإثم وخيرٌ لغيرهم لأخذ العظة والعبرة والكف عن مثل فعلهم 0

قال الشيخ خالد السبت : الشر في مفعولاته أي مخلوقاته فالحيات والعقارب والشياطين هذه فيها شرور لكن لما خلقها الله خلقها لحكمةٍ وخير **0اهـ** . فلابد من التفريق بين الفعل والمفعول ، والخلق والمخلوق ، ففعل الله وخلقه كله خير لا شر فيه ، وإنما الشر في بعض مخلوقاته لا في خلقه وفعله ، فإن أسماءه الحسنى وصفاته

العليا تمنع نسبة الشر والسوء والظلم إليه ❾ وما ربك بظلام للعبيد ❼ وفي الحديث القدسي (يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي) **0**

ولأجل مزيد توضيح فإنه ينبغي معرفة مرادات الله عز وجل فإن الإرادة نوعان :

1-إرادة كونية قدرية وهي التي تتعلق بتدبير أمور الخلق قدراً وكوناً كقوله تعالى { وَإِذَا أَرَادَ اللّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلاَ مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ } (11) سورة الرعد وقال تعالى { وَلاَ يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} (34) سورة هود وقال تعالى { فَمَن يُرِدِ اللّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاء كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ } (125) سورة الأنعام وقال تعالى { وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا اقْتَتَلُواْ وَلَكِنَّ اللّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ } (253) سورة البقرة

2-إرادة شرعية وهي فعل ما يحبه الله تعالى من الأعمال المشروعة كالصلاة والزكاة والصوم ونحوها وترك ما يبغضه الله عز وجل من الأعمال غير المشروعة كالكفر والزنا والربا ونحوها وهذه الإرادة هي التي تتعلق بها محاسبة العباد 0

والفرق بين الإرادتين :

1-أن الإرادة الكونية لا تستلزم المحبة أي أنه ليس كل شيء يخلقه الله كونًا يلزم أن يكون محبوبًا له ، وأما الإرادة الشرعية فإنها تستلزم المحبة ،فكل شيءٍ شرعه الله لعباده فإنه يحبه وكل شيءٍ نهاهم عنه فإنه يبغضه 0

2-أن الإرادة الكونية لابد أن تقع أي أن كل شيء أراده الله كونًا فإنه لابد أن يقع لكن إذا أراد شيئاً شرعاً فإنه قد علقه بأفعال البشر، فالله أراد من هذا الإنسان أن يصلى لكن هذا الإنسان قد يصلي وقد لا يصلي قال تعالى ((وهديناه النجدين)) 0

3-أن الإرادة الشرعية مرادةٌ لذاتها فالإيمان والصلاة والزكاة والصوم والحج وسائر الطاعات مرادة لذاتها ، .وأما الإرادة الكونية فقد تكون مرادةً لذاتها وقد تكون مرادة لغيرها لا لذاتها ، فالكفر والمعاصي أرادها الله كوناً وقدراً لكنها مرادة لغيرها لا لذاتها ،فهي مرادة ليتبين من يؤمن بالله ويتبع الرسل ممن لا يريد ذلك وحتى يقوم سوق الجهاد وبذل النفوس في سبيله جل وعلا وغير ذلك مما أريد لأجلها وأما الإرادة الشرعية فإنها مرادة لذاتها 0

فإن قيل كيف يريد الله تعالى أمرًا وهو لا يحبه ؟

فالجواب / لما يترتب على وجوده من الحكم والمصالح ومن أمثلة ذلك :

أولاً / خلق إبليس فإن إبليس مادة كل فسادٍ في الأديان والاعتقادات والأعمال والشهوات والشبهات ، وهو سببٌ لشقاوة العبد ، فخلقه ليس مرادًا لذاته ، بل مراد لغيره وقد تلمس العلماء الحكم والمصالح من خلقه فذكروا منها ما يلي :

1- أن يظهر للعباد قدرة الرب تبارك وتعالى على خلق المتضادات والمتقابلات ، فالذي خلق هذه الذات الفاسدة من كل وجه والتي هي أخبث الذوات والتي هي سبب كل شر، هو الذي خلق ذات جبريل التي هي من أشرف الذوات وأزكاها والتي هي مادة كل خير ، فتبارك من خلق هذا وهذا ، وذلك كما ظهرت حكمته في خلق الليل والنهار ، والحر والبرد ، والماء والنار ، والداء والدواء ، والموت والحياة ، والجنة والنار ، وهذا دليل على كمال قدرته وعزته وملكه وسلطانه ، فإنه خلق هذه المتضادات وقابل بعضها ببعض وسلط بعضها على بعضٍ وجعلها محل تصرفه وتدبيره وحكمته 0

2- أن يكمل الله تعالى لأوليائه مراتب العبودية ، وذلك بمجاهدة إبليس وحزبه وإغاظته بالطاعة لله جل وعلا واللجوء إلى الله أن يعيذهم من شره وكيده فيترتب لهم على ذلك من المصالح الدنيوية والدينية والأخروية ما لا يحصل بدونه ، ثم إن المحبة والإنابة والتوكل والصبر والرضا ونحوها أحب أنواع العبودية لله جل وعلا ، وهذه إنما تتحقق بالجهاد وبذل النفس وتقديم محبته جل وعلا على كل ما سواه ، فكان خلق إبليس سببًا لوجود هذه الأمور .

3- حصول الابتلاء ، ذلك أن إبليس خلق ليكون محكًا يمتحن به الخلق ليميز الله الخبيث من الطيب .

4-ظهور آثار أسمائه تعالى ومقتضياتها ومتعلقاتها فمن أسمائه : الرافع ، والخافض ، والمعز ، والمذل ، والحكم ، والتواب ، وهذه الأسماء تستدعي متعلقات يظهر فيها أحكامها فكان خلق إبليس سببًا لظهور آثار هذه الأسماء ، فلو كان الخلق كلهم مطيعين ومؤمنين لم تظهر آثار هذه الأسماء .

5- خروج ما في طبائع البشر من الخير والشر ، فالطبيعة البشرية مشتملة على الخير والشر والطيب والخبث ، وذلك كامنٌ فيها ، فخلق الشيطان مستخرجًا لما في طبائع أهل الشر من القوة إلى الفعل وأرسلت الرسل

تستخرج ما في طبيعة أهل الخير من القوة إلى الفعل ، فاستخرج أحكم الحاكمين ما في هؤلاء من الخير الكامن فيهم ليترتب عليه آثاره وما في أولئك من الشر ليترتب عليه آثاره وتظهر حكمته في الفريقين وينفذ حكمه فيهما بعذابٍ أو نعيم 0

6- ظهور كثير من آياته جل وعلا وعجائب صنعه ، فلقد حصل بسبب وقوع الكفر والشر من النفوس الكافرة الظالمة ظهور كثير من الآيات العجائب ، كآية الطوفان ، وآية الريح ، وآية إهلاك ثمود وقوم لوط ، وآية انقلاب النار على إبراهيم عليه السلام بردًا وسلامًا وغير ذلك من الآيات ، فلولا تقدير كفر الكافرين وجحد الجاحدين لما ظهرت هذه الآيات الباهرة 0 وغير ذلك من الحكم 0

الثاني / خلق المصائب والآلام والحكمة من ذلك :

1- تذكير العباد الذين تنكبوا عن الصراط بقدرته جل وعلا عسى أن يحدث ذلك في قلوبهم رجوعًا وتوبة ، وكم حصل من الخير بسبب هذه الحوادث والآلام من توبة المذنبين وتيقظ الغافلين ، وإقبال المعرضين ورجوع الكثير إلى الله قال تعالى {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} (41) سورة الروم

2- استخراج عبودية الضراء وهي الصبر ، قال تعالى { وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (155) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ (156) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ } (157) سورة البقرة، وقال تعالى{ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ} (10) سورة الزمر وقال تعالى { وَاللّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ } (146) سورة آل عمران وهذا لا يتم إلا بأن يقلب الله الأحوال على العبد حتى يتبين صدق عبوديته لله جل وعلا كما قال تعالى . {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ} (31) سورة محمد

3-تكفير السيئات ، فإن العبد قد يكتسب الذنب ويغفل عن التوبة فيجري الله تعالى عليه المصائب والآلام فيصبر فيكون ذلك سببًا لتكفير السيئات عنه ، وفي الحديث عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا دخل على مريض يعوده قال (لا بأس طهور إن شاء الله) رواه البخاري وعن أبي هريرة وأبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم قال (ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه) متفق عليه 0

4- التشويق إلى الجنة إلى الجنة ، فإن العبد إذا مرت عليه هذه الآلام والمصائب التي تكدر عيشه وتنغص

عليه حياته تذكر الجنة ونعيمها وسلامتها من الآفات وأنها دار الراحة الأبدية والنعيم الدائم ، فيشمر للفوز بها ليرتاح وينعم فيها 0

5-تقوية رابط العبد بربه جل وعلا ، حين يعلم أنه لا خلاص له من هذه المصائب والآلام إلا بالالتجاء إلى ربه جل وعلا ، فيكون دائم الذكر والدعاء والتضرع إلى ربه جل وعلا قال صلى الله عليه وسلم (إن عظم الجزاء مع عظم البلاء وإن الله إذا أحب قومًا ابتلاهم ، فمن رضي فله الرضا ومن سخط فله السخط) وغير ذلك من الحكم والمصالح.

ويعلم بهذا أن ما نراه من أقدار الله شراً هو في حقيقته ليس بشر لما يتضمنه من خيرية ومصالح عظيمة للعبد

فإن قيل فلماذا يضل الله أقواماً ويهدي آخرين ؟

فالجواب / أن ذلك راجع إلى علم الله فالله عز وجل أعدل العادلين بل تجاوز العدل إلى الرحمة والله عز وجل لا يظلم مثقال ذرة ((وما ربك بظلامٍ للعبيد)) فهو سبحانه لم يجبر العباد لكنه علم بأن هؤلاء المهتدين سيسلكون طريق الهداية فحكم لهم بها ، وعلم أن الآخرين سيختارون طريق الضلالة،فحكم لهم بها فذلك راجعٌ لسابق علم الله تعالى وإلا فإن الله ليس بظلام للعبيد ومن شك في ذلك فقد ضلَّ سواء السبيل 0

فإن قيل لماذا لم يساوي الله بين الناس في الأرزاق ؟

فالجواب / أن المساواة ليس فيها عدل بل فيها ظلم ، كيف يساوى بين العامل والتارك بين من يبذل ويكدح ومن هو خامل ونائم ، ثم لو سوي بينهم في الأرزاق فمن يخدم الآخر كما قال تعالى { نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ } (32) سورة الزخرف فتتعطل الخدمات ويضطرب أمر الناس فكان من رحمة الله بعباده أن فرق بينهم ليخدم بعضهم بعضاً وتصلح أمورهم ، ثم إن الله جعل الدنيا دار ابتلاء لا دار جزاء فابتلى الفقير بالفقر ليرى مدى صبره ورضاه بما قسم له وابتلى الغني بالغنى ليرى مدى شكره وعدم بطره وابتلى كلاً منهما بالآخر فابتلى الغنيَّ بالفقيرِ ليرى هل يتصدق عليه ويواسيه بما أتاه الله أم يبخل ويتكبر عليه وابتلى الفقيرَ بالغنيِّ ليرى هل ينظر فيما أوتى فيجزع لم لم يؤتى مثله أو يقنع ويعلم أن كلاً من عند الله ، ثم إن الله قد يبتلي الإنسان بالفقر لعلمه تعالى أن هذا الإنسان لو كان غنيا لطغى وتكبر فرحمةً به لئلا ينتقل في دار الخلود إلى النار جعله فقيراً ليخلد

في الجنة في النعيم وكذا الغنى لو كان فقيراً لجزع وتسخط فرحمةً به جعله غنياً وحبسه عن الجنة خمسمائة عام بعد الفقراء لأن الغنى فيه تلذذ 0

وتبين بهذا أن ما نراه شراً من أقدار الله هو في حقيقة أمره خيرٌ كثير فلا ننسب الشر إلى الله ولكن إلى مخلوقاته وإلى ما جنته أيدي العباد من السوء 0

وقوله تعالى ﴿ فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ ﴾ [العنكبوت : 17] . الآية . وقوله ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَومِ الْقِيَامَةِ ﴾ الآيتان [الأحقاف : 5] . وقوله ﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ ﴾ [النمل : 62] .وروى الطبراني بإسناده أنه كان في زمن النبي صلى الله عليه وسلم منافق يؤذي المؤمنين ، فقال بعضهم : قوموا بنا نستغيث برسول الله من هذا المنافق . فقال النبي صلى الله عليه وسلم (إنه لا يستغاث بي ، وإنما يستغاث بالله) 0

قال تعالى { وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (16) إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } (17) سورة العنكبوت قال في المصباح المنير : يخبر تعالى عن عبده وخليله إبراهيم إمام الحنفاء أنه دعا قومه إلى عبادة الله وحده لا شريك له والإخلاص له في التقوى وطلب الرزق منه وحده لا شريك له وتوحيده في الشكر فإنه المشكور على النعم لا مسدي لها غيره فقال لقومه ((اعبدوا الله واتقوه)) أي أخلصوا له العبادة والخوف ((ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون)) أي إذا فعلتم ذلك حصل لكم الخير في الدنيا والآخرة واندفع عنكم الشر في الدنيا والآخرة ثم أخبر تعالى أن الأصنام التي يعبدونها لا تضر ولا تنفع وإنما اختلقتم أنتم لها أسماء فسميتموها آلهة وإنما هي مخلوقةٌ مثلكم هكذا رواه العوفي عن بن عباس وبه قال مجاهد والسدي وروى الوالبي عن بن عباس ((وتخلقون إفكاً)) أي تنحتونها أصناماً 0 وهي لا تملك لكم رزقاً ((فابتغوا عند الله الرزق)) وهذا أبلغ في الحصر كقوله ((إياك نعبد وإياك نستعين)) ((رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة)) ولهذا قال ((فابتغوا)) أي فاطلبوا ((عند الله الرزق)) أي لا عند غيره فإن غيره لا يملك شيئاً ((واعبدوه واشكروا له)) أي كلوا من رزقه واعبدوه وحده واشكروا له على ما أنعم به عليكم ((إليه ترجعون)) أي يوم القيامة فيجازي كل عامل بعمله اهـ وفي مختصر تفسير البغوي لعبد الله الزيد ((وتخلقون إفكاً)) تقولون كذباً قال مقاتل : تصنعون أصناماً بأيديكم وتسمونها آلهة ((أن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً))

لا يقدرون أن يرزقوكم ((فابتغوا)) فاطلبوا ((عند الله الرزق)) اهـ واقتصر المصنف على قوله تعالى ((فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه)) لأنها الشاهد على الباب فمعناها إثبات النفع من الله ونفيه عمن سواه كما قدمنا ما قالوه في المصباح المنير : أنها تفيد الحصر أي فاطلبوه منه لا من غيره ثم قال ((واعبدوه)) لأن القادر على النفع والضر ومن بيده الرزق هو المستحق للعبادة دون من سواه فلا يستغاث ولا يطلب من غيره الرزق وهو النفع العام ولا يخاف حرمان الرزق إلا منه فلن يضرك أحد ويحرمك من الرزق إذا كان الله أراده لك ، ولهذا أورد المصنف هذه الآية في باب الإستغاثة 0

الآية الثالثة التي أوردها المصنف وهي قوله تعالى {وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَومِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ (5) وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاء وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ} (6) سورة الأحقاف يبين تعالى أنه لا أحد أضل ممن يدعوا ويطلب ويستغيث بمن لا يستجيب له ولو جلس يدعوه إلى يوم القيامة كقوله تعالى {لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لاَ يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاء لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاء الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ} (14) سورة الرعد بل إن هذا المدعو مع عجزه التام عن استجابة دعاء هذا الداعي لا يدري أن أحداً يدعوه أو يطلب منه بل هو غافلٌ عن ذلك لكونه ميتاً أو غائباً ولذا قال تعالى ((وهم عن دعائهم غافلون)) أي لا يشعرون ، وزيادةً على خسرانه في الدنيا بأنه أضاع وقته وجهده وربما ماله وغير ذلك في دعاءه واستغاثته بمن لا يستجيب له 0 وهناك الخسران الأكبر وهو خسران الدين لأنه أشرك مع الله وهذا المعبود الذي دعاه من دون الله سوف يتبرأ منه يوم القيامة ويقول يا رب ما أمرته بدعائي وعبادتي بل وما شعرت بأنه يعبدني أو يدعوني وإنما أنا في حياةٍ برزخية تختلف تماماً عن الحياة الدنيوية ولا أشعر بما يفعل أهل الدنيا إلا بما ورد النص أنني أشعر به وليس منه الدعاء والعبادة فلا أشعر به مطلقاً وأنت يا رب تعلم ذلك فحينها يخصم العابد والداعي ولا يحير جواباً ويخسر الآخرة كما خسر الدنيا قال تعالى ((وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاء وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ)) فجعل الله دعائهم لهم عبادة 0 قال البغوي ((ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له)) يعني الأصنام لا تجيب عابديها إلى شيء يسألونها ((إلى يوم القيامة)) أبداً ما دامت الدنيا، ((وهم عن دعائهم غافلون)) لأنها جماد لا تسمع ولا تفهم.ا0هـ وهذا تفسير ببعض المعنى وإلا فإن كل معبودٍ من دون الله يتبرأ ممن عبده سواءً كان حجراً أو شجراً أو بشراً أو غير ذلك ولذلك تبرأ المسيح عليه السلام ممن عبده كما قال تعالى {وَإِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ (116) مَا قُلْتُ

لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} (117) سورة المائدة وهل الأصنام في أغلبها إلا تماثيلٌ مجسمةٍ لأناسٍ صالحين وحين يعبدون الصنم إنما يريدون ذلك الرجل الصالح وهو غافل لكونه ميت والصنم غافل لكونه جماد ، وإنما ذكرت ذلك لئلا يقال إنما وردت هذه الآية في عباد الأصنام خاصة ، بل هي تشمل كل ما عبد من دون الله دون علمه فإن علم لكونه حياً وكان دعاءه دعاء عبادة أو دعاء مسألةٍ فيما لا يقدر عليه إلا الله وجب عليه الإنكار وإلا لم تكن له حجةٌ يوم القيامة ، ويشهد لما ذكرنا من كونه عامةً قوله تعالى {وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاء إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (40) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ} (41) سورة سبأ وقوله تعالى {قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاء الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ} (63) سورة القصص وقال تعالى {وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاء أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ (17) قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاء وَلَكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا} (18) سورة الفرقان وقد أنكر أهل العلم قول من قال إن (ما) تطلق على غير العاقل وضعف بن حجر حديث بن الزبعري وفيه أنه لما نزل قوله تعالى {إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ} (98) سورة الأنبياء قال غلب محمد فنحن نعبد الملائكة واليهود عزيرا والنصارى عيسى فقال النبي له (ما أجهلك بلغت قومك فإن ما لغير العاقل) أو كلاماً نحوه فهذا ضعيف والصحيح أنه لما قال ذلك نزل قوله تعالى {إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَى أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ} (101) سورة الأنبياء

قوله تعالى {أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاء الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ} (62) سورة النمل يبين المولى جل وعلا أن المشركين يعلمون أنه لا يجيب في حالة الاضطرار إلا الله ولذا هم يخلصون له في الدعاء في حالة الضرورة كما قال تعالى {فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ} (65) سورة العنكبوت فيقول تعالى لهم إذا كنتم تقرون بذلك فلماذا تجعلون معه إلهاً آخر في حال الرخاء فيجب أن تجعلوا دعائكم كله لله في الرخاء والشدة ولا تشركوا معه غيره فيما هو من خصائصه لكنكم ((قليلاً ما تذكرون)) أي تتعظون وتعتبرون بما يصيبكم في حال الإضطرار من إخلاص العبودية لله ثم في حال الرخاء تنسون وترجعون إلى شرككم وكفركم وقوله تعالى ((ويجعلكم خلفاء الأرض)) أي يخلف بعضكم بعضاً فيها فهذا يموت وهذا يولد والكفار يعلمون أن هذا كله من الله 0 وقوله ((ويكشف السوء)) أي

الحالة التي هي أقل من الاضطرار يكشفها وهي حالة السوء فإن الإنسان قد يساء بما لا يضره فكل ما ضره ساءه وليس كل ما ساءه ضره 0

وقول العلماء إن الدعاء نوعان : دعاء مسألة ودعاء عبادة فإنما يريدون أن يبينوا أن العبادة تتضمن الدعاء فكأن المصلي حين يصلي يقول بلسان حاله اللهم إني أصلي طمعاً في جنتك وهروباً من نارك وهكذا الصيام والحج والزكاة وسائر العبادات وإلا فإن الأصل أن الدعاء يراد به دعاء المسألة وهو نوعٌ من أنواع العبادة وصرفه لغير الله شرك وتقدمت الأدلة على ذلك مراراً في ثنايا هذا الكتاب 0

قوله (وروى الطبراني) هو الامام الحافظ سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي القبيلة الطبراني البلدة توفي سنة 360هـ عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه (أنه كان في زمن النبي صلى الله عليه وسلم منافق يؤذي المؤمنين) هو عبد الله بن أبي بن سلول كما في رواية بن أبي حاتم (فقال بعضهم : قوموا بنا نستغيث برسول الله من هذا المنافق) وهذا النوع من الاستغاثة جائز وهو الاستغاثة بالحي فيما يقدر عليه ، لكن النبي صلى الله عليه وسلم أراد أن يبين لأصحابه وأمته عظم الاستغاثة وأن الغوث الحقيقي هو من الله جل في علاه فقال (إنه لا يستغاث بي وإنما يستغاث بالله عز وجل) قال أهل العلم : قال ذلك النبي صلى الله عليه وسلم حمايةً لجناب التوحيد وسداً لذرائع الشرك وتأدباً مع ربه جل وعلا ولئلا يأتي أناسٌ بعد موته فيستغيثون به ، وقيل إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن قادراً على إزالة ضرر ذلك المنافق لأن حكم الله في المنافقين أن يعاملوا بالظاهر فيعاملوا معاملة المسلمين وكان بن سلول يجيد فن التخفي بمقالاته ويشهد لذلك حادثة الإفك فإنه هو الذي تصدرها ومع ذلك لم يثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم جلده حد القذف ، فتكون هذه الاستغاثة محرمة وقد ظنها الصحابة من النوع الجائز فبين لهم النبي صلى الله عليه وسلم حكمها ، ولقد خالف المتأخرون فصاروا يستغيثون بالنبي صلى الله عليه وسلم وبغيره من الصالحين طلباً للنفع ودفع الكرب وما علموا أن هذا هو الشرك الأكبر وقد قال تعالى لنبيه {قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا} (21) سورة الجن وأمره أن يقول {قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَاْ إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} (188) سورة الأعراف فإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً فمن باب أولى أن لا يملكه لغيره 0

باب قول الله تعالى ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ(191) وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً وَلاَ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ (192) ﴾ سورة الأعراف. وقوله ﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴾ الآية [فاطر : 13]

وفي (الصحيح) عن أنس قال : شُجَّ النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد وكسرت رباعيته ، فقال (كيف يفلح قوم شَجُّوا نبيهم » ؟ فنزلت ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ [آل عمران : 128] وفيه عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الأخيرة من الفجر (اللهم العن فلاناً وفلاناً) بعد ما يقول (سمع الله لمن حمده ، ربنا ولك الحمد » فأنزل الله ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ . وفي رواية : يدعو على صفوان بن أمية ، وسهيل بن عمرو والحارث بن هشام ، فنزلت ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ . وفيه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أنزل عليه ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء : 214] قال (يا معشر قريش – أو كلمة نحوها – اشتروا أنفسكم ، لا أغني عنكم من الله شيئاً ، يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئاً ، يا صفية عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم لا أغني عنك من الله شيئاً ، ويا فاطمة بنت محمد سليني من مالي ما شئت لا أغني عنك من الله شيئاً) 0

مناسبة الباب لما قبله

لما ذكر رحمه الله حكم الاستعاذة والاستغاثة بغير الله وبيَّن أنها شرك ، أراد أن يبين أن الخلق والأمر والملك كله لله جل وعلا فكيف يُصرَف شيءٌ من أنواع العبادات لغيره جل وعلا فأتى بالآية الأولى الدالة على أن الخلق كله لله وأن القوة كلها لله وأن هذه المعبودات ضعيفة لا تستطيع أن تنصر نفسها فضلاً عن أن تنصر أصحابها ثم أتى بالآية الثانية التي تدل على أن الملك كله لله ثم أتى بالأحاديث النبوية التي تدل على أن الأمر كله لله ، فكأن الشيخ رحمه الله أراد أن يبين لماذا تكون الاستعانة والاستعاذة والاستغاثة بغير الله شركاً ، ذلك لأن الخلق والملك والأمر كله بيد الله فيستعان ويستعاذ ويستغاث به وحده جل وعلا لا بالمخلوق والمملوك والمأمور 0

الشرح /

يقول الله جل وعلا في الآية الأولى موبخاً ومعنفاً المشركين على شركهم به وعبادتهم غيره ممن هو من خلق الله ، كيف تعبدون المخلوق الضعيف الذي لا يستطيع نصر نفسه فضلاً عن أن ينصركم وتتركون الخالق العظيم القادر على كل شيء الذي لا يعجزه شيء أو تشركونها معه في عبادته وما هو من محض حقه جل وعلا 0

قال في فتح المجيد ص204 : هذا وصف كل مخلوق حتى الملائكة والأنبياء والصالحين وأشرف الخلق محمدٌ صلى الله عليه وسلم كان يستنصر ربه جل وعلا على المشركين ويقول (اللهم أنت عضدي ونصيري بك أحول وبك أصول وبك أقاتل) وهذه الآية كقوله تعالى {وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا} (3) سورة الفرقان انتهى كلامه رحمه الله 0

وقد أمر الله عباده من الأنبياء والصالحين وغيرهم بإخلاص العبادة له وحده ونبذ عبادة من سواه فقال تعالى {إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ} (40) سورة يوسف وقال تعالى {وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ } (23) سورة الإسراء وقال تعالى {وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتْ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ} (21) سورة الأحقاف وقال تعالى {وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} (88) سورة القصص والآيات الدالة على هذا المعنى كثيرة وقوله تعالى في الآية التي ذكرها المؤلف {أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ } (191) سورة الأعراف أتى بما الدالة على غير العاقل ((وشيئاً)) نكرة في سياق النفي فتعم كل شيء ، فدلَّ على أن المراد بهذه الآية الكريمة الجمادات كالأصنام وما يشابهها كالأشجار والموتى وغيرهم لأن الحي قد يخلق شيئاً ولذا ورد في الحديث (ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي) متفق عليه أي المصورون فوصفهم بأنهم يخلقون والمراد الصنع لا الإيجاد من العدم فإن ذاك لا يستطيعه إلا الله ، وقد يراد بهذه الآية الخلق من العدم فتكون عامة للجمادات وغيرها 0

وفي الآية الثانية التي ذكرها المؤلف يقول الله تبارك وتعالى { ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ (13) إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ } (14) سورة فاطر قد ورد في القران ((قطمير ، ونقير ، وفتيل)) وكلها في نواة التمر قال تعالى {أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لاَّ يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا} (53) سورة النساء وقال تعالى {وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتَ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيرًا} (124) سورة النساء وقال تعالى {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاء وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً} (49) سورة النساء وقال تعالى { قُلْ مَتَاعُ

الدَّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلاَ تُظْلَمُونَ فَتِيلاً} من الاية (77) سورة النساء وقال تعالى {يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُوْلَئِكَ يَقْرَؤُونَ كِتَابَهُمْ وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً} (71) سورة الإسراء

فالقطمير / اللفافة الرقيقة التي تكون على نواة التمر 0

والنقير / هي النقرة التي تكون على ظهر النواة 0

والفتيل / هو السلك الذي يكون في شق النواة 0

قال في تاج العروس في مادة فتل : قال ابنُ السِّكِّيتِ : النَّقيرُ : النُّكْتَةُ في ظَهرِ النَّواةِ والفتيلُ : ما كانَ في شَقِّ النَّواةِ 0 والقِطْميرُ : القِشْرَةُ الرَّقيقَةُ على النَّواةِ 0 قال الأَزْهَرِيّ : وهذه الأَشياءُ يُضْرَبُ بها مَثلاً للشيءِ التّافِهِ الحَقيرِ القليلِ 0 انتهى 0

فأراد المولى جل وعلا في هذه الآية أن يبين حقارة معبوداتهم التي يعبدونها من دونه وأنها لا تملك أحقر الأشياء وأقلها ، والمراد ملك إيجادٍ وملك تمام فقد يملك الإنسان نخلةً فأكثر بما فيها من تمرٍ ونوى ولاكنه ملكٌ قاصر فلو شاء الله ما جعل النخل يثمر أو يرسل عليها جائحةً فتهلكها أو يحرمه الأكل منها بمرضٍ أو نحوه ، فتبين أن الملك الحق لله وأن ما يملكه المخلوق إنما ذلك من عطايا الرب جل في علاه تكرماً منه ومنَّةً على عباده وتفضلاً فهو المالك الحق وما عداه مملوك ، فكيف يشرك المملوك الحقير مع المالك العظيم لا شك أن هذا أعظم الظلم ولذا قال العبد الصالح { يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ} (13) سورة لقمان ثم ذكر المولى عيباً آخر في هذه المعبودات يمتنع معه أن تكون صالحةً للعبادة فقال تعالى{إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ } (14) سورة فاطر فهي لا تسمع داعيها وعابدها لكونها جمادات أو أموات أو أحياءٌ غير حاضرين فكيف يدعوا الإنسان ويرجوا من لا يسمع دعاءه ورجاءه لا شك أن هذا أعظم السفه فهذا هو حال هؤلاء المشركين مع معبوداتهم ، ثم تبكيتٌ آخر لهم وهو أنه لو قدِّر أنهم سمعوهم كعابدي الكهنة والمشعوذين والطواغيت الأحياء فإنهم لا يستطيعون أن يستجيبوا لهم في الأمور التي لا يقدر عليها إلا الله كشفاء المرضى وإنزال المطر ونحو ذلك ، ثم تبكيتٌ ثالث لهؤلاء العابدين وهو أن هذه المعبودات تتبرأ منهم يوم القيامة وتعلن العداوة لهم وتكذبهم في دعواهم أنها آلهة ولو كانت حجراً أو شجراً فإن الله الذي أنطق كل شيء سينطقها حتى تعلن عداوتها لهم وبراءتها من عابديها ، وهذا غاية التبكيت والحرمان والخسران العظيم ثم قال تعالى ((ولا ينبئك مثل خبير)) يقصد نفسه جل وعلا فهو الخبير ببواطن الأمور وظواهرها وحاضرها ومستقبلها وما سيحدث من أقوالٍ وأفعالٍ في يوم القيامة ومنه براءة هذه المعبودات من عابديها ولا أحد أصدق من الله قيلاً وحديثاً ، وهذه الآية كقوله تعالى{وَمَنْ أَضَلُّ

مِّمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَومِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ (5) وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاء وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ} (6) سورة الأحقاف وقوله تعالى{وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (81) كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا} (82) سورة مريم وقوله تعالى {وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ (28) فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ} (29) سورة يونس ونحو ذلك من الآيات 0

قوله / وفي الصحيح : يريد صحيح البخاري وإن كان الحديث موجوداً في الصحيحين لكنه لما قال في الحديثين اللذين ذكرهما بعده (وفيه) وهما موجودان في البخاري فقط دلَّ على أن المؤلف أراد من قوله (وفي الصحيح) صحيح البخاري ولعله لم يعلم بوجوده في مسلم والعلم عند الله 0

عن أنس قال : شج النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد وكسرت رباعيته فقال (كيف يفلح قومٌ شجوا وجه نبيهم) فنزلت {لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذَّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ } (128) سورة آل عمران

الشج / جمع شجة وهي الجرح في الرأس والوجه خاصة (القول المفيد289/1)

الرباعيتان / هما السنان اللذان يليان السنان المتوسطان اللذان يسميان ثنايا ويجي بعد الرباعيتان النابان 0

قال في فتح المجيد ص208 : ذكر بن هشام من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن عتبة بن أبي وقاص هو الذي كسر رباعية النبي صلى الله عليه وسلم السفلى وجرح شفته السفلى ، وأن عبد الله بن شهاب الزهري هو الذي شجه في وجهه ، وأن عبد الله بن قمئة جرحه في وجنته فدخلت حلقتان من حلق المغفر في وجنته الشريفة ، وأن مالك بن سنان مص الدم من وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم وازدرده فقال له (لن تمسك النار) انتهى وفي الطبراني من حديث أبي أمامة قال : رمى عبد الله بن قمئة رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد فشج وجهه وكسر رباعيته فقال : خذها وأنا بن قمئة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يمسح الدم عن وجهه (مالك أقمأك الله) فسلط الله عليه تيس جبل فلم يزل ينطحه حتى قطعه قطعةً قطعة 0 انتهى فهذه القصة تدلُّ على أن النبي صلى الله عليه وسلم كسائر البشر يصيبه ما يصيبهم من أذى والله جل وعلا قادرٌ على منع أنبياءه من أذى خصومهم ولكنه جل وعلا أراد أن يبتليهم ليرفع منزلتهم عنده وليعلم الناس أن الأنبياء بشرٌ كسائر البشر يصيبهم ما يصيبهم فيقتدون بهم عند المصاب ولا يغلون فيهم كما قال النبي صلى الله عليه وسلم (لا تطروني كما أطرت النصارى بن مريم إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله) وهكذا سائر إخوانه من الأنبياء ولما أصيب النبي صلى الله عليه وسلم بهذا المصاب من قومه قال (كيف يفلح قومٌ شجوا وجه نبيهم) فأنزل الله{لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذَّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ } (128)

سورة آل عمران وهذا عتابٌ شديد للنبي صلى الله عليه وسلم حين يأس من قومه وشك في فلاحهم وأطلق لسانه في ذلك مع كمال إيمانه عليه الصلاة والسلام وكمال علمه بأن الأمر كله بيد الله ، ولكن هذه هي النفس البشرية قد يصيبها اليأس كما قال تعالى {حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَاءهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاء وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ } (110) سورة يوسف فإذا كان هذا حال الأنبياء وهم أكمل البشر فكيف بمن دونهم ، ولكن فرج الله أقرب ولذلك حذر الرب جل وعلا نبيه من اليأس وأمره بالاستمرار في الدعوة وعدم الحكم على أحدٍ بالفلاح أو الخسران قال في فتح المجيد ص209 : قال بن عطية : كأن النبي صلى الله عليه وسلم لحقه في تلك الحال يأسٌ من فلاح كفار قريش فقيل له بسبب ذلك ((ليس لك من الأمر شيء)) أي عواقب الأمور بيد الله فامض أنت لشأنك ودم على الدعاء لربك 0 وقال بن إسحاق ((ليس لك من الأمر شيء)) في عبادي إلا ما أمرتك به فيهم 0 انتهى وقال محمد العثيمين رحمه الله ((ليس لك من الأمر شيء)) أي الشأن والمراد شأن الخلق فشأن الخلق إلى خالقهم حتى النبي صلى الله عليه وسلم ليس له فيهم شيء فكيف بالأصنام والأوثان والأولياء وغيرهم فالأمر كله لله (القول المفيد290/1) وقد أراد المؤلف بإيراده لهذا الخبر أن يبين أن النبي صلى الله عليه وسلم وهو أشرف الخلق وأكرمهم على الله ليس له من أمر الله شيء فكيف بمن هو دونه من الخلق فالأمر كله لله والخلق عبيده فينبغي أن يصرفوا العبادة له وحده دون من سواه لأنه هو الذي بيده النفع والضر وهو مالك كل شيء والمصرف لكل شيء فكيف يشرك معه من لا يملك شيئاً وليس بيده أمر ولا تصريف 0

قوله : وفيه (أي في البخاري) عن بن عمر (هو الصحابي الجليل عبد الله بن عمر بن الخطاب العالم الزاهد الورع التقي توفي سنة 73هـ) أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الأخيرة من الفجر (اللهم ألعن فلاناً وفلاناً) بعدما يقول (سمع الله لمن حمده ، ربنا ولك الحمد) فأنزل الله ((ليس لك من الأمر شيء)) وفي رواية : يدعوا على صفوان بن أمية وسهيل بن عمر والحارث بن هشام فنزلت ((ليس لك من الأمر شيء))

قوله (سمع الله لمن حمده) أي أجاب حمده وتقبله ، فالسمع هنا متضمنٌ للاستجابة ويقول بعدها (ربنا ولك الحمد) أي ربنا استجب ولك الحمد أي استجب لمن حمدك وها نحن نحمدك فاستجب لنا 0 والحمد أعظم من المدح لأنه يتضمن الإخبار عن محاسن الغير مع محبته وتعظيمه وأما المدح فذكر محاسن الغير وقد يحبه وقد يمدح من لا يحب لرغبةٍ أو رهبة 0

قوله (اللهم ألعن فلاناً وفلاناً) اللعن هو الطرد والإبعاد عن رحمة الله وهؤلاء المخفية أسماؤهم هم المذكورون في الرواية الأخرى وهم صناديد قريش الذين قاتلوا النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد وقتلوا أصحابه وآذوه فدعا عليهم النبي صلى الله عليه وسلم ولكن الرب الرحيم والإله الكريم لم يستجب دعاء نبيه صلى الله عليه وسلم فيهم بل هداهم جميعاً للإسلام وأقر عين نبيه بإسلامهم فكانت فرحة النبي صلى الله عليه وسلم بإسلامهم أعظم من فرحته لو استجاب الله دعائه في تلك الساعة التي دعا عليهم فيها فلله ما أكرم الله وما أعظم جوده وأوسع نواله ولكننا قومٌ نستعجل 0

قوله : وفيه (أي في البخاري وهو عند مسلم أيضاً) عن أبي هريرة اختلف في اسمه وصحح النووي وغيره أن اسمه عبد الرحمن وروى الحاكم في المستدرك عنه أنه قال : كان اسمي في الجاهلية عبد شمس بن صخر فسميت في الإسلام عبد الرحمن مات سنة 57هـ وقيل58هـ وقيل 59هـ وله 78سنة وهو أكثر الصحابة روايةً للحديث فهو من أوعية السنة وحفاظ الحديث فجزاه الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء 0

قال : قام رسول الله صلى الله عليه وسلم حين نزل عليه {وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ} (214) سورة الشعراء والعشيرة القبيلة فقال النبي صلى الله عليه وسلم (يا معشر قريش) أي يا جماعة قريش وهم قبيلة النبي صلى الله عليه وسلم وترجع إلى النضر بن كنانة قال صلى الله عليه وسلم (نحن بنو النضر بن كنانة لا نقفو أمنا ولا ننتفي من أبينا) رواه أحمد وبن ماجة وصححه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم (6753) ثم إلى معد بن عدنان ثم إلى إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام قال صلى الله عليه وسلم (إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل واصطفى قريشا من كنانة واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم) رواه مسلم قوله (أو كلمةً نحوها) هذا احترازاً من الرواة خشية الكذب على النبي صلى الله عليه وسلم إذا شكوا في كلمةٍ لما ورد من الوعيد الشديد لمن كذب على النبي صلى الله عليه وسلم ففي الحديث (من كذب عليَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار) رواه البخاري

قوله (اشتروا أنفسكم) أي انقذوها فإني (لا أغني عنكم من الله شيئاً) وهو الشاهد فإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم وهو أشرف الخلق لا يغني عن قرابته شيئاً فكيف بمن دونه وهذا قوله في حياته فكيف بمن يلوذون به بعد موته كقول صاحب البردة :

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به سواك عند حصول الحادث العمم

لا شك أن هذا من الشرك حيث استغاث بغير الله وإنما الله صاحب الغوث ، ولا يجوز سؤال الله بجاه النبي صلى الله عليه وسلم أو بذاته أو بشرفه أو نحو ذلك فكل ذلك من البدع المنكرة التي لم يفعلها النبي صلى الله عليه وسلم ولا أحدٌ من أصحابه معه أو بعده وما كان شرك الأولين إلا أنهم كانوا يستشفعون بالصالحين من

الأنبياء وغيرهم كما قال تعالى {أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ} (3) سورة الزمر وقال تعالى {وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللّهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} (18) سورة يونس فسماهم كفاراً ومشركين رغم أن مقصدهم طلب الشفاعة من هؤلاء الصالحين ، وقد صرَّح النبي صلى الله عليه وسلم أنه لا يغني عن أقرب أقربائه شيئاً فقال (يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئاً ، يا صفية عمة رسول الله لا أغني عنك من الله شيئاً ، يا فاطمة بنت محمد سليني من مالي ما شئت لا أغني عنك من الله شيئاً) فهذا في حياته فكيف يغني عنهم بعد موته ومن تتبع سيرة النبي صلى الله عليه وسلم علم أنه بشرٌ كسائر البشر لا يملك من خصائص الألوهية والربوبية شيئاً وأنه لم يستطع أن يمنع نفسه ولا أصحابه من أذى الكفار وأنه كانت تصيبه المصائب والأمراض كسائر البشر فلا يستطيع لها رداً ولا يملك لها تحويلاً وكان يلتجئ إلى ربه جل وعلا في كل أموره فيجب الإقتداء به صلى الله عليه وسلم وترك الغلو فيه كما حذر من ذلك عليه الصلاة والسلام فقال (لا تطروني كما أطرت النصارى بن مريم فإنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله) متفق عليه وقال (اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) رواه مالك مرسلاً وصححه الألباني في مشكاة المصابيح حديث رقم (750) قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها (ولولا ذلك أبرز قبره غير أنه خشي أن يتخذ مسجداً) قلت : وما خشيه الصحابة وقع فيه قومٌ من الناس فإني رأيت قوماً يصلون إلى القبر والقبلة خلف ظهورهم فسبحان من نكس بصائرهم وأعماهم عن اتباع الحق لبعدهم عنه وعدم طلبهم له 0

فوائد الباب /

1- سعة رحمة المولى جل وعلا فرغم شدة عداوة الكفار للمسلمين وحرصهم على قتل النبي صلى الله عليه وسلم وتمثيلهم بالقتلى وغير ذلك من الفظائع التي عملوها بالمسلمين إلا أن الرب جل وعلا لم يعاجلهم بالعقوبة ولم يقبل دعاء نبيه فيهم بذلك بل امتن على بعضهم بالهداية والرجوع إلى الإسلام وجعلهم أنصاراً له بعد أن كانوا أعداء فلله الحمد والمنة 0

2- أن النبي صلى الله عليه وسلم وهو أشرف الناس وأكرم الخلق على الله لا يستطيع دفع الأذى عن نفسه فضلاً عن أن يدفعه عن غيره وهذا في حياته فكيف يطلب منه ذلك بعد موته وكيف بمن هو دونه من البشر والمخلوقات لاشك أن النافع الضار هو الله وأنه وحده القادر على كل شيء وأن طلب النفع أو دفع الضر

من غيره فيما لا يقدر عليه إلا الله من شفاء المرضى وإنزال المطر ونحو ذلك شركٌ به جل وعلا ، وهكذا الطلب من الأموات والغائبين كل ذلك كفر وشركٌ به جل وعلا 0

3-جواز القنوت في الصلاة فرضاً كانت أو نفلاً ، ومذهب أحمد أن الذي يقنت هو الإمام الأعظم ، وقال بعض الفقهاء : كل إمام مسجد 0 وقيل : كل مصلٍ لقوله صلى الله عليه وسلم (صلوا كما رأيتموني أصلي) وقد قنت عليه الصلاة والسلام في صلاته عند النوازل فيقتدي به كل مسلم رجحه العثيمين (القول المفيد300/1)

4-تحريم لعن المعين في الصلاة لأن الله جل وعلا قد نهى نبيه عن ذلك ولأن فيه نوع تألي على الله ألا يهدي هذا المعين ، وقد ورد النهي عن لعن إبليس فكيف بمن دونه ، لكن يجوز لعن الكفرة والمنافقين ومن ورد لعنهم في الشرع على وجه العموم فيقال : اللهم ألعن الكفرة والمنافقين وأعداء الدين ونحو ذلك ، وأما المعين الذي تعاظم شره على المسلمين فيقال في الدعاء عليه : اللهم عجل بهلاكه وأرح المسلمين من شره ونحو ذلك ، ولا يدعى على عموم الكفار بالهلاك لأنه تعدٍ في الدعاء لأن الله قد مضى قدره ببقاء الصراع بين المسلمين والكفار إلى قيام الساعة ولا راد لما قضى ولأن المسلمين رحمةً على الناس فيدعون لهم بالهداية ولا يدعون عليهم جميعاً بالهلاك ولم يرد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه دعا على عموم الكفار بالهلاك بل ولا على طائفةٍ منهم كقريش رغم شدة عداوتهم له وإيذائهم له ولأصحابه ، لكن قد ورد عن خبيب بن عدي الدعاء على عموم قريشٍ بالهلاك وقريش طائفة من الكفار لا جميع الكفار 0

باب قول الله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ .

وفي (الصحيح) عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال (إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله ، كأنه سلسلة على صفوان ينفذهم ذلك . حتى إذا فُزّع عن قلوبهم قالوا : ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الحق وهو العلي الكبير فيسمعها مسترق السمع - ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض وصفه سفيان بكفه فحرفها وبدد بين أصابعه - فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته ، ثم يلقيها الآخر إلى من تحته ، حتى يلقيها عن لسان الساحر أو الكاهن فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها ، وربما ألقاها قبل أن يدركه ، فيكذب معها مائة كذبة فيقال : أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا : كذا وكذا فيصدق بتلك الكلمة التي سمعت من السماء) .

مناسبة الباب لما قبله/ لما بيَّن المصنف في الباب السابق أن النبي صلى الله عليه وسلم ليس له من الأمر شيء وأن الأمر كله لله ، أراد أن يذكر خلقاً آخر يعظمهم الناس وهم عظيمي الخلقة وعظيمي المنزلة عند الله ألا وهم الملائكة ويبين أنهم أيضاً لا يملكون من الأمر شيء وأن الأمر كله لله فأورد الآيات والأحاديث الدالة على ذلك 0

قوله تعالى{حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ} (23) سورة سبأ قال بن عباس وبن عمر وأبو عبد الرحمن السلمي والشعبي والحسن وغيرهم : أي زال الفزع عن قلوبهم 0 نقله في فتح المجيد ص217 وقال العثيمين : (عن) تفيد المجاوزة والمعنى جاوز الفزع قلوبهم أي أزيل الفزع عن قلوبهم ، والفزع هو الخوف المفاجئ لأن الخوف المستمر لا يسمى فزعاً (القول المفيد306/1) قال بن جرير :إنما فزع عن قلوبهم من غشيةٍ تصيبهم عند سماع كلام الله 0 انتهى والدليل على أن المراد بهم الملائكة الحديث الذي أورده المصنف حيث قال : في الصحيح / يريد صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال (إذا قضى الله الأمر في السماء) أي تكلم به كما قال تعالى{بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ} (117) سورة البقرة وقال تعالى{هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ} (68) سورة غافر وقوله (في السماء) أي في العلو فكل ما علاك فهو سماء والله جل وعلا فوق السماوات السبع عليٌّ على خلقه بائنٌ منهم أي منفصل ، وقد روى أبو داود عن بن مسعود رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إذا تكلم الله بالوحي سمع أهل السماء للسماء صلصلةً كجر السلسلة على الصفا فيصعقون فلا يزالون كذلك حتى يأتيهم جبريل حتى إذا جاءهم جبريل فزع عن قلوبهم قال فيقولون يا جبريل ماذا قال ربك فيقول الحق فيقولون الحق الحق) صححه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم (436) فتبين بهذا أن الملائكة يسمعون صوتاً عظيماً مفزعاً يعلمون منه أن الرب جل وعلا تكلم أو أراد أن يتكلم بالوحي ولاكن لا يسمعون نص كلامه جل وعلا فيصيبهم صعقٌ وفزعٌ شديد خوفاً من الرب جل وعلا فلا يزول عنهم ذلك حتى ينزل جبريل من عند ربه جل وعلا فيسألونه عن نص كلام الرب جل وعلا فيخبرهم 0 وفي الحديث الذي أورده المصنف (إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله كأنه سلسلة على صفوان ينفذهم ذلك) الصفوان هو الحجر الأملس الصلب مفرده صفوانه وهو على صيغة فعلان من الصفا الذي مفرده صفاة فلا تناقض بين الروايتين بل المعنى واحد ، وليس المراد تشبيه كلام الرب بذلك بل المراد تشبيه سماع الملائكة فإن كلام الرب جل وعلا واضحٌ بين فهو بحرفٍ وصوت كما عليه إجماع أهل السنة ، فَيُسْمِعَهُ الله جبريل ومن يشاء من ملائكته ورسله ، وأما بقية الملائكة فلا يسمعون نص الكلام وإنما يسمعون صوتاً مفزعاً يشبه صوت

جر السلسلة على الصفوان يعلمون حين سماعه أن الرب جل وعلا تكلم بالوحي وقضى بالأمر فحينئذٍ يدخلهم الخوف والفزع حتى ينفذهم ذلك أي يبلغ بهم كل مبلغ حتى جاء في رواية أبي داود المتقدمة أنهم يصعقون أي يصرعون من شدة الفزع والخوف من الرب الجليل جل جلاله ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ((حتى إذا فزع عن قلوبهم)) أي زال الفزع عنها أخذ بعضهم يسأل بعضاً ((ماذا قال ربكم)) فيجيب بعضهم بعضاًً ((قالوا الحق وهو العلي الكبير)) فيبدؤن بالثناء على الرب جل وعلا ووصفه بما هو أهله فيقولون ((قال الحق)) أي كل قوله حق ، والقول الحق هو المشتمل على الصدق في الأخبار والعدل في الأحكام كما قال تعالى{وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلِ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} (115) سورة الأنعام صدقاً في الأخبار وعدلاً في الأحكام ، وقول الملائكة في ثنائهم على الرب ((وهو العلي الكبير)) أي أن ربنا جل وعلا حين يقول الحق ليس ذلك عن ضعفٍ منه لأن من الناس من يصدق في الأخبار لا لأنه يقول الحق ولاكن إما لخوف أن يكشف فيفتضح أو لخوف سلطانٍ ونحوه ، وكذلك من الناس من يعدل في الأحكام لأجل ذلك فالذي جعله يقول الحق هو الخوف والضعف لاكن الرب جل وعلا لا يحمله على قول الحق ضعفٌ أو خوف لأنه العلي الكبير العلي في ذاته وصفاته الذي له العلو المطلق علو الذات وعلو القدر وعلو القهر فعرشه أعلى المخلوقات و{الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} (5) سورة طه ومن ذا يساويه أو يدانيه في قدره {وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ } (18) سورة الأنعام وهو الكبير ذو الكبرياء والعظمة التي لا يدانيها شيء فمن كانت هذه صفاته وعظمته فإنه يقول الحق لا عن خوفٍ وضعف ولاكن عن عزةٍ وعظمةٍ وكبرياء ففي هذه الآية يثني الملائكة الكرام على ربهم عز وجل أنه يقول الحق عن عن عزةٍ وعظمة وكبرياء ثم بعد ثنائهم على ربهم يخبر بعضهم بعضاً بما قال الرب جل وعلا يدل لذلك تتمة الحديث حيث قال النبي صلى الله عليه وسلم (فيسمعها مسترق السمع) أي الجني يسمع ما أخبر الملائكة بعضهم بعضاً به من قول الرب جل وعلا يأخذه عن خفية من الملائكة كالسارق يسرق بخفيةٍ عن أهل البيت فكذلك وصف الجني بأنه يسترق السمع من الملائكة أي يأخذه عنهم دون أن يشعروا به والعلم عند الله ، ثم وصف النبي صلى الله عليه وسلم طريقة استراق الجن للسمع وتناقله الرواة قولاً ووصفاً فقال (ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض وصفه سفيان بكفه فحرَّفها وبدَّدَ أصابعه ، فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته 000الخ) سفيان هو بن عيينة الإمام العلم توفي سنة 198هـ وله91 سنة (فتح المجيد 221) قوله (ثم يلقيها الآخر إلى من تحته حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن) دلَّ على التفريق بين الساحر والكاهن فالكاهن يدعي علم المغيبات وقد لا يكون ساحراً يحدث ما يحدثه السحار من الشعوذة ونحوها ، والساحر قد لا يدعي علم الغيب لكنه يأتي بأمور خارقةٍ للعادة يدعي أنها

كرامات أو نحو ذلك وهي شعوذةٌ ودجل تعتمد على الاستعانة بالجن وخفة الحركة ونحو ذلك والأغلب على السحار إدعاء علم الغيب فجمعوا بين السحر والكهانة وتفرغ الكاهن لادعاء علم الغيب وعلى كلٍ فهما شيطانان يأخذان عن الشياطين فتخدمهم وتسترق لهم السمع لا لأجل سواد عيونهما ولكن لأجل أن يجعلاهما مطيةً لإضلال الناس ، وربما غير الكهنة والسحرة أسمائهم فتسموا بالعرافين أو الروحانيين ومثلهم المنجمين الذين يدَّعون معرفة الغيب بحركات النجوم وهكذا كل من يدعي علم الغيب بأي طريقةٍ ادعاها كقراءة الكف أو الفنجان أو غير ذلك فإنما هو كذابٌ أشر يستغبي الناس ويضحك على عقول الجهال والأغبياء بهذه الادعاءات إما ليأكل أموالهم أو طمعاً في المنصب أو الشهرة أو غير ذلك 0 وقد بيَّن المولى جل وعلا بطلان دعوى من ادعى علم الغيب وبيَّن أن علم الغيب من خصائصه جل وعلا كما قال تعالى{قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ} (65) سورة النمل وقال تعالى {وَيَقُولُونَ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلّهِ فَانْتَظِرُواْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ} (20) سورة يونس وقال تعالى {عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا (26) إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا} (27) سورة الجن ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم (من أتى كاهناً أو عرافاً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد) أي كفر بالقران لأن القران يخبر أن الغيب لا يعلمه إلا الله ثم أنت بعد ذلك تصدق من يدعي علم الغيب فقد كذبت القران وكفرت به ، ولذا فرق النبي صلى الله عليه وسلم بين من أتى الكهنة والعرافين وصدقهم وبين من أتاهم ولم يصدقهم فالأول كافر والثاني لا تقبل له صلاةٌ أربعين يوماً وسيأتي تفصيل الكلام عن هذه المسألة في باب الكهان ونحوهم 0

ثم قال (فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها وربما ألقاها قبل أن يدركه فيكذب معها مائة كذبة فيقال : أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا كذا وكذا فيُصدَقَ بتلك الكلمة التي سمعت من السماء) رواه البخاري

الشهاب هو النجم الذي يرمى به مسترقو السمع كما قال تعالى {إِلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ} (18) سورة الحجر وقال تعالى {إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ} (10) سورة الصافات وقال تعالى على لسان الجن{وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاء فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا (8) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا} (9) سورة الجن

والحديث يدل على أن رمي الشياطين بالنجوم كان قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم ولكنه زاد بعد مبعثه عليه الصلاة والسلام ويؤيد ذلك ما رواه الترمذي وصححه الألباني عن بن عباس رضي الله عنهما قال : بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس في نفر من أصحابه إذ رمي بنجمٍ فاستنار فقال رسول الله صلى

الله عليه وسلم (ما كنتم تقولون لمثل هذا في الجاهلية إذا رأيتموه) قالوا : كنا نقول يموت عظيمٌ أو يولد عظيم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (فإنه لا يرمى به لموت أحدٍ ولا لحياته ولكن ربنا عز وجل إذا قضى أمراً سبح له حملة العرش ثم سبح أهل السماء الذين يلونهم ثم الذين يلونهم حتى يبلغ التسبيح إلى هذه السماء ثم سأل أهل السماء السادسة أهل السماء السابعة ماذا قال ربكم قال فيخبرونهم ثم يستخبر أهل كل سماء حتى يبلغ الخبر أهل السماء الدنيا ويختطف الشياطين السمع فيرمون فيقذفونها إلى أوليائهم فما جاؤوا به على وجهه فهو حق ولكنهم يحرفون ويزيدون)

والحديث يدل على إثبات صفة الكلام للرحمن خلافاً للمعطلة والمؤولة ، وفي الحديث إثبات العظمة للرب جل وعلا وكيف أن الملائكة على عظيم خلقتهم وقوة بنيتهم إلا أنهم يضطربون ويصرعون خوفاً من الرب جل وعلا عندما يتكلم وذلك لأنهم أقرب منا إليه وأعلم بعظمته وجبروته وقد قال تعالى {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء } (28) سورة فاطر وقد قيل : من كان بالله أعرف كان منه أخوف ، وفي الحديث أن الله قد يبتلي العباد ليميز الخبيث من الطيب فيسمح للشياطين باستراق بعض كلامه الذي تناقلته الملائكة لأمرٍ يريده جل وعلا ، وفيه أن الناس قد ينخدعون بالكهنة لكلمة حقٍ استرقها وليه من الشياطين ثم لا يدركون ما زاد عليها من التلفيق والكذب 0

وعن النواس بن سمعان رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إذا أراد الله تعالى أن يوحي بالأمر تكلم بالوحي أخذت السماوات منه رجفة – أو قال رعدة – شديدة خوفاً من الله عز وجل . فإذا سمع ذلك أهل السماوات صعقوا وخروا لله سجداً . فيكون أول من يرفع رأسه جبريل ، فيكلمه الله من وحيه بما أراد ، ثم يمر جبريل على الملائكة ، كلما مر بسماء سأله ملائكتها : ماذا قال ربنا يا جبريل ؟ فيقول جبريل : قال الحق وهو العلي الكبير فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل . فينتهي جبريل بالوحي إلى حيث أمره الله عز وجل) رواه بن خزيمة في التوحيد والبيهقي في الأسماء والصفات وضعفه الألباني في ظلال الجنة وقال العثيمين : الحديث رواه بن أبي حاتم وفيه الوليد بن مسلم وهو مدلس وقد عنعن إلا أنه قد روى مسلم وأحمد ما يشهد له (القول المفيد 317/1)

والحديث يدل على أن السماوات والأرض تسمع كلام الرب جل وعلا وتخافه أشد الخوف قال تعالى {إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا (1) وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا (2) وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا (3) يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (4) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا(5)} سورة الزلزلة وقال تعالى { فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا } (143) سورة الأعراف فهذه السماوات والأرض والجبال تفزع و تخاف خوفاً شديداً وتندك فرقاً من خالقها وهذا بن آدم لا يكاد يخاف إلا إذا عاين العذاب وصدق الله إذ يقول {كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ} (14) سورة المطففين أي غطت عليها الذنوب فغفلت 0 وكون جبريل عليه السلام هو أول من يرفع رأسه لأنه الملك الموكل بالوحي ، وقد قال

تعالى في وصف ملائكته { بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ (26) لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (27) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ } (28) سورة الأنبياء قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن : والآيات المذكورة في هذا الباب والأحاديث تقرر التوحيد الذي هو مدلول شهادة أن لا إله إلا الله فإن الملك العظيم الذي تصعق الأملاك من كلامه خوفاً منه ومهابةً وترجف منه المخلوقات ، الكامل في ذاته وصفاته وعلمه وقدرته وملكه وعزه وغناه عن جميع خلقه وافتقارهم جميعاً إليه ونفوذ تصرفه وقدره فيهم لعلمه وحكمته لا يجوز شرعاً ولا عقلاً أن يُجعل له شريك من خلقه في عبادته التي هي حقه عليهم فكيف يجعل المربوب رباً والعبد معبوداً أين ذهبت عقول المشركين سبحان الله عما يشركون قال تعالى {إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا(93) لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا(94) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا} (95) سورة مريم فإن كان الجميع عبيداً فلم يعبد بعضهم بعضاً بلا دليلٍ ولا برهان بل بمجرد الرأي والاختراع ثم قد أرسل الله رسله من أولهم إلى آخرهم تزجرهم عن ذلك الشرك وتنهاهم عن عبادة ما سوى الله 0 انتهى من شرح سنن بن ماجة (فتح المجيد225/227) قال بن عثيمين : الصعق أولاً ثم السجود بعد الإفاقة (القول المفيد318/1)

((باب الشفاعة))

وقول الله تعالى ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُواْ إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام : 51] وقوله ﴿ قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً ﴾ [الزمر : 44] وقوله ﴿ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾ [البقرة : 255] وقوله ﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى ﴾ [النجم : 26] وقوله ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ * وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ الآيتين [سبأ : 22 - 23] .

قال أبو العباس : نفى الله عما سواه كل ما يتعلق به المشركون ، فنفى أن يكون لغيره ملك أو قسط منه ، أو يكون عوناً لله ، ولم يبق إلا الشفاعة ، فبين أنها لا تنفع إلا لمن أذن له الرب ، كما قال تعالى ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى ﴾ [الأنبياء : 28] فهذه الشفاعة التي يظنها المشركون ، هي منتفية يوم القيامة كما نفاها القرآن ، وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أنه يأتي فيسجد لربه ويحمده ، لا يبدأ بالشفاعة أولاً ، ثم يقال له : ارفع رأسك ، وقل يسمع ، وسل تُعط ، واشفع تُشفع . وقال له أبو هريرة : من أسعد الناس بشفاعتك يا رسول الله ؟ قال : « من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه » . فتلك الشفاعة لأهل الإخلاص بإذن الله ، ولا تكون

لمن أشرك بالله . وحقيقته : أن الله سبحانه هو الذي يتفضل على أهل الإخلاص فيغفر لهم بواسطة دعاء من أذن له أن يشفع ، ليكرمه وينال المقام المحمود . فالشفاعة التي نفاها القرآن ما كان فيها شرك وتلك منفية مطلقًا ، ولهذا أثبت الشفاعة بإذنه في مواضع ، وقد بيَّن النبي صلى الله عليه وسلم أنها لا تكون إلا لأهل التوحيد والإخلاص . انتهى كلامه .

مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد /

هذا بابٌ عظيم ذكره المصنف في كتاب التوحيد لكثرة الضالين فيه بين غلاة وهم أهل الشرك الذين يقولون إن آلهتهم التي يعبدونها إنما هي شفعاء لهم عند الله كما قال تعالى {وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللّهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} (18) سورة يونس وقوله تعالى {أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ} (3) سورة الزمر ثم جاء المتأخرون من أدعياء الإسلام من أهل الضلالة والبدعة فقالوا مثل مقالة المشركين الأولين وقالوا إننا عصاة وهؤلاء الأئمة أقرب إلى الله منا فنحن نتقرب بهم إلى الله ونستشفع بهم عنده ، ثم قاسوا ذلك على الشفاعة عند الملوك فقالوا : إنك لا تستطيع أن تدخل على السلطان إلا عن طريق المقربين منه فكذلك الله لا تستطيع أن تتقرب إليه إلا بواسطة المقربين منه 0 فنقول سبحانك هذا بهتانٌ عظيم إن هذا الذي تقولونه فيه تنقصٌ للرب جل وعلا وفيه تشبيه له بالمخلوق الضعيف من سلاطين الدنيا فكيف يمثل العظيم من كل وجه بالضعيف من كل وجه وكيف يشبه صاحب الملك المطلق والقوة والعظمة الغني عن خلقه بالمخلوق الذي هو مجبورٌ على تلبية طلب وزراءه وخاصته خشية أن ينفروا منه ويتركوه لوحده فيعجز عن تدبير مملكته فهو محتاجٌ لحاشيته مضطرٌ لتلبية أكثر طلباتهم ولو كان يكره تلبيتها ، فكيف يقاس هذا المسكين الضعيف بالرب جل وعلا الغني عن الأعوان الذي لا يعجزه تدبير الأكوان ، فلا شك أن قياس الرب جل وعلا بملوك الدنيا تنقصٌ له جل وعلا وإنما يأذن الله جل وعلا بالشفاعة في الآخرة رفعةً وإكراماً للشافع ، ورحمةً بالمشفوع له 0 ثم الفريق الآخر من أهل الضلالة نفوا الشفاعة مطلقاً وقالوا : لا شفاعة لصاحب الكبيرة وهو مخلدٌ في النار وهم الوعيدية 0

وتوسط أهل الحق أهل السنة والجماعة فقالوا الشفاعة الواردة في النصوص نوعان :

النوع الأول / الشفاعة المنفية ، وهي التي تكون للكفار والمشركين قال تعالى {فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ} (48) سورة المدثر وقال تعالى {وَاتَّقُواْ يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ

هُمْ يُنصَرُونَ} (123) سورة البقرة وقال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خُلَّةٌ وَلاَ شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ} (254) سورة البقرة فلا يقبل الله منهم شفاعة ولا تنفعهم لأنهم كانوا يستشفعون في الدنيا بغير الله وقد قال تعالى {قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} (44) سورة الزمر أي الشفاعة ملكه فيأذن فيها لمن شاء ويمنعها من شاء ولذلك الذين كانوا يسألونها في الدنيا من غيره لم تنفعهم في الدنيا ومنعوا منها في الآخرة فيالخسارتهم كيف طلبوا الشفاعة من غير مالكها فحرموا منها في الدنيا والآخرة 0

النوع الثاني / الشفاعة المثبتة ولها ثلاثة شروط :

1-أن تكون بإذن الله كما قال تعالى {مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ} (255) سورة البقرة فيأذن للشافع أن يشفع كما قال تعالى {يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا} (109) سورة طه ويأذن للمشفوع أن يشفع له كما قال تعالى {وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ } (23) سورة سبأ

2-أن يرضى عن المشفوع له كما قال تعالى {وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى} (28) سورة الأنبياء والله لا يرضى إلا عن أهل التوحيد كما قال تعالى {لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا} (87) سورة مريم وقال تعالى {وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} (86) سورة الزخرف فشهادة الحق هي كلمة التوحيد واشترط العلم بها لئلا يظن أنه بمجرد قولها يأذن له لا بل لابد من معرفة معناها والعمل بمقتضاها فمن فعل ذلك فقد اتخذ عند الرحمن عهداً لأن الله جل وعلا قد عهد إلينا في كتابه أنه يغفر لمن لا يشرك به وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن من أخلص التوحيد دخل الجنة وأن الله جل وعلا لا يعذب من لا يشرك به فهذا هو العهد الذي بيننا وبين ربنا فمن قام بالعهد من إخلاص التوحيد وترك الشرك كان من أهل الشفاعة 0

3-أن تطلب من الله لا من غيره كما قال تعالى {قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} (44) سورة الزمر فيقال : يا رب شفع في نبيك وملائكتك والصالحين من عبادك ونحو ذلك ، ولا يقال يا نبي الله اشفع لي ويا ملائكة الله ويا ولي الله ونحو ذلك فإن ذلك سلب الشفاعة التي هي ملكٌ لله وإعطائها لغيره وهذا هو الشرك بعينه ، اللهم إلا أن يكون ذلك الرجل الصالح حياً يسمع كلامه فيقول اشفع لي يريد أدع لي فهذه ليست من الشفاعة الشركية بل هو من طلب الدعاء من الغير وهو جائز ، ومنه طلب الناس من الأنبياء في المحشر أن يشفعوا لهم لفصل القضاء أي يدعوا الله أن يعجل بفصل القضاء ، فيخر نبينا صلى الله عليه وسلم ساجداً تحت العرش يدعوا ربه أن يعجل بفصل القضاء ، وأما الشفاعة التي تطلب من الأموات أو من الغائبين كالملائكة أو الجان أو نحو ذلك فهي شفاعةٌ منفية ولو قصد منها أن يدعوا له لأن الله نهى عن

ذلك وأخبر أن هذه الشفاعة لا تنفع صاحبها كما قال تعالى {وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاء وَيَرْضَى} (26) سورة النجم قال العبد الصالح {أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَن بِضُرٍّ لاَّ تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلاَ يُنقِذُونِ (23) إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ} (24) سورة يس

قال المصنف / باب الشفاعة

الشفاعة لغةً من الشفع وهو ضد الوتر

اصطلاحاً / طلب الخير للغير 0

وقوله تعالى {وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُواْ إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ} (51) سورة الأنعام

أي أنذر يا نبي الله بهذا القران المؤمنين الذين يخافون يوم الحشر ولا يجعلون بينهم وبين الله أولياء ولا شفعاء ، أو هو خبرٌ من الله أنه ليس بينه وبين عباده وسطاء من أولياء ولا شفعاء ولا يمنعهم منه أحد قال العثيمين : قوله تعالى ((من دونه)) أي بغير اذنه ومفهومه أنها ثابتةٌ بإذنه كما قال تعالى {إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ} (55) سورة المائدة (القول المفيد331/1)

وقوله تعالى {أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاء قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ (43) قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} (44) سورة الزمر أبطل الله استشفاع المشركين وبين أنهم لا يملكونها فملك الشفاعة وملك السماوات والأرض والحشر بما فيه كله لله وحده فيطلب منه وحده دون من سواه 0

وقوله تعالى {مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ} (255) سورة البقرة لا أحد يشفع عنده إلا بإذنه قال العثيمين : النفي إذا جاء في سياق الاستفهام فإنه يكون مضمناً معنى التحدي : أي إذا كان أحدٌ يشفع بغير إذن الله فأتوا به (القول المفيد335/1)

وقوله تعالى {وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاء وَيَرْضَى} (26) سورة النجم كم خبرية للتكثير أي ما أكثر الملائكة الذين في السماء ومع ذلك لا تغني شفاعتهم شيئاً إلا بعد إذن الله ورضاه فهؤلاء الملائكة المقربين فكيف بالأصنام والأوثان والمعبودات من دون الله لاشك أن عدم نفع شفاعتها أولى 0

قوله تعالى {قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ (22) وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ} (23) سورة سبأ هاتين الآيتين صفعةٌ في وجه كل مشركٍ ومبتدع إذ بيَّن الله جل وعلا فيهما أن معبوداتهم التي يعبدونها من دون الله لا تملك شيئاً ولو قليلاً كمثقال ذرة والذرة

قيل هي النملة الصغيرة التي يضرب بها المثل في القلة ، ويقول أهل الكيمياء أن الذرة هي أصغر جزءٍ في المادة ومراد الرب جل وعلا أنهم لا يملكون شيئاً مطلقاً حتى ولو كان مستحقراً بالنسبة للعابدين فمعبوداتهم لا تملكها فضلاً عن أن تملك ما فوقها ، ثم ليتهم إذ لم يملكوا شيء شاركوا المالك في ملكه ولكن ليس لهم نصيب ولا شراكةٌ في ملك المالك ، وليتهم إذ عدموا ذلك كله كانوا عوناً للمالك في ملكه ، بل ولا حتى ذلك بل هو الغني عن الأعوان ، ثم هم بعد ذلك لا يستطيعون الشفاعة ولا ينتفع بشفاعتهم أحد بل الشفاعة لا تنفع إلا من أذن له الله ولا يأذن للمشركين 0 فهذه المعبودات لا تملك ولا تشارك المالك في ملكه ولا يستعين بها وليس لها قولٌ مقبولٌ عنده فياخسارة من توجه إليها وترك المالك الحق 0

قوله : قال أبو العباس 0 يريد بن تيمية أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام الحراني الإمام الحبر العالم الزاهد التقي الورع شيخ الإسلام المجاهد بلسانه وسنانه المتوفى سنة 728هـ وكلامه في تفسير الآيتين الأخيرتين 0

وقوله : فهذه الشفاعة التي يظنها المشركون هي منتفيةٌ يوم القيامة كما نفاها القران 0 فمراده الشفاعة الشركية وهي طلب الشفاعة من الأموات والأشجار والأحجار فهذه الشفاعة هي التي نفاها القران كما قدمنا 0 ثم بين أن النبي صلى الله عليه وسلم على علو قدره وعلو منزلته عند ربه لا يبدأ بالشفاعة وإنما يأتي فيسجد لربه ويحمده ويثني عليه وبعدئذٍ يؤذن له في الشفاعة فكيف يستشفع بهذه الأصنام والأولياء بغير إذنٍ ولا رضاً من الله لا شك أن هذا من أعظم الجهل وأبين السفه ولذلك يقول تعالى {وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَومِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ (5) وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاء وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ} (6) سورة الأحقاف ثم ساق حديث أبي هريرة الذي في البخاري ليبين أن الشفاعة لا تكون إلا لأهل التوحيد وأما أهل الشرك فهم محرومون منها وقد روى مسلم عن أبي هريرة أيضاً أن النبي صلى اللله عليه وسلم قال (إن لكل نبيٍ دعوة مستجابة وإني اختبأت دعوتي شفاعةً لأمتي يوم القيامة فهي نائلةٌ إن شاء الله من مات لا يشرك بالله شيئاً) 0

وللنبي صلى الله عليه وسلم ست شفاعات كما ذكر أهل العلم وهي كالتالي :

1-الشفاعة الكبرى لأهل الموقف 0

2-الشفاعة لقومٍ من العصاة قد استوجبوا النار أن لا يدخلوها 0

3-الشفاعة للعصاة من أمته الذين دخلوا النار أن يخرجوا منها 0

4-شفاعته لأهل الجنة في دخولها 0

5-شفاعته في رفع درجات قومٍ من أهل الجنة 0

6-شفاعته لعمه أبو طالب أن يخفف عنه العذاب 0

وللأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين شفاعاتٌ يوم القيامة حتى ورد أن الشهيد يشفع في سبعين من أهل بيته 0

وهي كلها لا تكون إلا بإذن الله ورضاه ولا تكون بالخروج من النار إلا لأهل التوحيد 0

باب قول الله تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ الآية .

وفي (الصحيح) عن ابن المسيب عن أبيه قال : لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده عبد الله بن أبي أمية وأبو جهل ، فقال له : « يا عم ، قل : لا إله إلا الله ، كلمة أحاج لك بها عند الله » . فقالا له : أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فأعاد عليه النبي صلى الله عليه وسلم ، فأعادا فكان آخر ما قال : هو على ملة عبد المطلب وأبى أن يقول : لا إله إلا الله . فقال النبي صلى الله عليه وسلم (لأستغفرن لك ما لم أنه عنك) فأنزل الله عز وجل ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُواْ أُوْلِي قُرْبَى ﴾ الآية [التوبة : 113] . وأنزل الله في أبي طالب : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ [القصص 56] .

مناسبة الباب لكتاب التوحيد / بيان أن الأمر كله بيد الله جل وعلا حتى الهداية إلى الإسلام هي بيد الله فتطلب منه وحده 0

ومناسبة الباب لما قبله / لما بيَّن أن الشفاعة هي ملك لله وحده ولا تكون إلا بإذنه ورضاه أراد أن يبين متعلق قبول الشفاعة وهي الهداية إلى الدين الصحيح فالشفاعة لا تكون إلا للمهتدي إلى الطريق الصحيح والصراط

المستقيم وأما أهل الضلالة فلا شفاعة لهم كما تقدم ، وإذا كان متعلق الشفاعة وهي الهداية في الدنيا ملك لله فكيف بمتعلقها وهي الشفاعة في الأخرى لا شك أن كليهما ملكٌ لله وأن طلبهما من غيره شرك 0

قال المؤلف : باب قوله تعالى﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم فمن كان دونه من باب أولى أنه لا يهدي من أحب لأن الهداية بيد الله جل وعلا فهي ملكه وحده ولذا قال ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾

والهداية نوعان : النوع الأول / هداية توفيق وإلهام فهذه لا يقدر عليها إلا الله فهي ملكه وطلبها من غيره شرك 0

والنوع الثاني / هداية دلالةٍ وإرشاد فهذه لا تختص بالله جل وعلا بل بإمكان كل أحدٍ أن يدل الناس ويرشدهم إلى الطريق الصحيح قال تعالى {وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} (52) سورة الشورى لكنه لن يسلك هذا الطريق إلا بهداية الله له 0

قال : وفي الصحيح أي جنس الصحيح لأن الحديث في الصحيحين عن بن المسيب اسمه سعيد قرشيٌ من بني خزيمة أحد أعلام التابعين وأبوه المسيب وجده حزن صحابيين استشهد جده في اليمامة ومات أبوه في خلافة عثمان ومات سعيد بعد التسعين وقد اتفق الأئمة على أن مراسيله أصح المراسيل (فتح المجيد238) قال : لما حضرت أبا طالب الوفاة أي مقدماتها وعلاماتها جاءه رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية ويحتمل أن المسيب أو حزن كان معهما لأنهم جميعاً من بني مخزوم وقد قتل أبو جهل مشركاً في غزوة بدر وعبد الله بن أبي أمية أسلم بعد ذلك ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم (يا عم) تلطفاً وتودداً مع المدعو لأنه كان حريصاً على إسلام عمه وعلى إسلام الناس جميعاً (قل : لا إله إلا الله كلمةً أحاج لك بها عند الله) لأن روحه لم تغرغر بعد وقد بيّن النبي صلى الله عليه وسلم أن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر ولكن أصحاب السوء ذكروه بالحجة الملعونة التي يحتج بها المشركون على الرسل وهي تقليد الآباء واتباعهم كما قال تعالى {وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ} (23) سورة الزخرف فقالا له : أترغب عن ملة عبد المطلب أي أتترك دين أبيك وترغب في دينٍ غير دينه فأعاد عليه النبي صلى الله عليه وسلم من حرصه عليه ، وأعادا عليه من ضلالهم وعنادهم حتى كان آخر ما قال : هو على ملة عبد المطلب وأبى أن يقول لا إله إلا الله فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لأستغفرن لك ما لم أنه عنك فأنزل الله عز وجل {مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُواْ أُوْلِي قُرْبَى مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ} (113) سورة التوبة وأنزل في أبي طالب {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ

وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاء وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} (56) سورة القصص وفي الحديث عدم جواز الاستغفار للمشركين وأن الهداية بيد الله وحده وفيه خطر أصحاب السوء كما قال الشاعر :

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه فكل قرينٍ بالمقارن يقتدي

وقال الآخر :

إذا ما صحبت القوم فاصحب خيارهم ولا تصحب الأردى فتردى مع الردي

قال تعالى {وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (27) يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (28) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا} (29) سورة الفرقان وقال تعالى {قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ (51) يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنْ الْمُصَدِّقِينَ (52) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ (53) قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ (54) فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاء الْجَحِيمِ (55) قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدتَّ لَتُرْدِينِ (56) وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ} (57) سورة الصافات

قوله : فأنزل الله {مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُواْ أُوْلِي قُرْبَى مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ} (113) سورة التوبة لا يستلزم أنها نزلت لأجل تلك القصة لكن القصة داخلةٌ فيها إذ القصة مكية والآية مدنية وسبب نزولها كما قيل هو طلب النبي صلى الله عليه وسلم من ربه أن يأذن له في أن يستغفر لأمه فلم يأذن الله عز وجل له وأنزل عليه هذه الآية 0

قال العثيمين : هنا إشكال في قوله لما حضرت أبا طالبٍ الوفاة وقد قال تعالى {وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلاَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا} (18) سورة النساء فإما أن يقال أي ظهرت عليه علامات الموت ولم ينزل به ولكن هذا يبعد فإن لفظ الحديث موافقٌ للفظ الآية في حضور الموت فهنا يقال : إنها خاصةٌ بأبي طالب كما خصَّ بالشفاعة في تخفيف العذاب مع أن الكافر لا يشفع له 0 (انتهى بتصرفٍ يسير القول المفيد353/1) قلت وهذا من تمام عدل الله عز وجل حين منع أباطالب من النطق عند الموت بالشهادة حتى يكون حكمه كسائر الناس في عدم قبول التوبة عند الموت وإنما أذن لنبيه أن يدعوه في وقتٍ لا تقبل فيه التوبة لحكمٍ عظيمةٍ منها :

1- بيان أن الهداية بيد الله وحده حتى النبي صلى الله عليه وسلم الذي هو أشرف الخلق لا يستطيع هداية أحب الناس إليه 0

2- بيان رحمة النبي صلى الله عليه وسلم وحرصه على أمته 0

3- بيان كيف يدعى الناس باللين والرفق والتودد 0

4-بيان خطر أصحاب السوء 0
5-بيان خطر السير على طريق الضلالة وأن من سار على طريق الضلالة لم يوفق للخروج منه عند الموت إلا من رحم الله 0
إلى غير ذلك من الحكم العظيمة والفوائد الجليلة ، والذي منع أبا طالبٍ من الإسلام ما يزعمه من خشية المسبة على بني أبيه وفي ذلك يقول :

ولقد علمت بأن دين محمدٍ من خير أديان البرية دينا
لولا الملامة أو حذار مسبةٍ لوجدتني سمحاً بذاك مبينا

وذلك ناتج عن كبرٍ يحمله في صدره إذ تنقص دين الله وجعل الدخول فيه مسبة ولذلك لم يوفق للهداية لأنه اختار علو الدنيا وعدم العار الذي يلحقه فيها بزعمه حين يغير دينه على الآخرة وقد قال تعالى {ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّواْ الْحَيَاةَ الْدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَأَنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ} (107) سورة النحل وروى الإمام أحمد عن حبة العربي قال: رأيت علياً ضحك ضحكاً أكثر منه حتى بدت نواجذه ثم قال ذكرت قول أبي طالب ظهر علينا أبو طالب وأنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نصلي ببطن نخلة قال ماذا تصنعان يا ابن أخي؟ فدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام فقال ما بالذي تصنعان أو الذي تقولان بأس ولكن والله لا تعلوني استي أبداً وضحك تعجباً من قول أبيه لكن قال الألباني في السلسلة الضعيفة ضعيفٌ جداً حديث رقم (4139) وأما أولئك الذين يعارضون حكم الله كالرافضة الذين يقولون كيف يوفق أبا سفيان للإسلام وهو الذي حارب الرسول وعاداه أشد العداوة ويحرم منه أبا طالب الذي ناصره وأيده فنقول هذا اعتراضٌ على الله في حكمه وأقداره ، والله عز وجل ليس بظلامٍ للعبيد فيوفق للهداية والإسلام من كان أهلاً لها ويمنعها من لم يكن أهلاً لها من المستكبرين والمعاندين ولذلك يقول تعالى {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} (56) سورة القصص وقال عز وجل {ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} (125) سورة النحل أي فيوفقهم لها ومن ظن أن الله يمنعها من هو أهلٌ لها فقد أساء بالله الظن واتهمه بالظلم وقد قال تعالى {ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ} (182) سورة آل عمران وقال تعالى {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاء فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ} (46) سورة فصلت وقال تعالى {مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ} (29) سورة ق وقولهم إن أبا طالب قد أسلم كذبٌ لا دليل عليه بل هذه الرواية في الصحيحين الذين هما أصح الكتب بعد كتاب الله وأما الرافضة فلا إسناد عندهم وإنما يفترون الحديث ثم يجعلونه ديناً فدينهم على الكذب وهم أكذب الناس

حديثاً حتى فيما بينهم ويسمون الكذب تقية فلا يلتفت إليهم ، وقولهم إن هذا الحديث افتراه بني أمية أعداء آل البيت فنقول ليس بني أمية بأعداء لآل البيت ثم إن الحديث رواه سعيد بن المسيب وكان من المعارضين لبني أمية ولم يزوج ابنته من الوليد بن عبد الملك وهو ابن الخليفة وولي عهد الدولة وزوجها صعلوكاً من طلابه فهل مثل هذا يكذب على آل البيت ليؤيد بني أمية كما يقول الرافضة لا جرم أن غلوهم في علي حتى جعلوه في منزلة الرب جل وعلا في شفاء المرضى وإنجاد المكروب وصرفوا له مما هو من محض حق الله يجعلهم يفترون الكذب ليؤيدوا مذهبهم الباطل ولكن أنى للباطل أن يقوم وقد توعده الرب بالتلف والزهوق كما قال تعالى {بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ } (18) سورة الأنبياء

((باب ما جاء أن سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم هو الغلو في الصالحين))

وقول الله عز وجل : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ ﴾ الآية [النساء : 171] .

وفي (الصحيح) عن ابن عباس رضي الله عنهما في قول الله تعالى﴿ وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدّاً وَلا سُوَاعاً وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً ﴾ [نوح : 23] قال : هذه أسماء رجالٍ صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً وسموها بأسمائهم ، ففعلوا ،

ولم تعبد ، حتى إذا هلك أولئك ونسي العلم ، عبدت 0 وقال ابن القيم : قال غير واحد من السلف : لما ماتوا عكفوا على قبورهم ثم صوروا تماثيلهم ، ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم .

وعن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم ، إنما أنا عبد ، فقولوا : عبد الله ورسوله) . [أخرجاه] وقال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إياكم والغلو ، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو) ولمسلم عن ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (هلك المتنطعون) قالها ثلاثاً .

الغلو / هو الإفراط ومجاوزة الحد في المدح أو القدح 0

وأهل الكتاب / هم اليهود والنصارى فالنصارى غلو في المسيح مدحاً حتى جعلوه هو الإله أو ابن الإله أو ثالث ثلاثة ، واليهود غلو فيه قدحاً وقالوا هو بن زانية ، وغلو في عزير مدحاً فقالوا هو ابن الله قال تعالى {وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِؤُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ} (30) سورة التوبة ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي أورده المصنف (لا تطروني كما أطرت النصارى بن مريم إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله) يحذر من مغبة الغلو فيه ولكن وقع أقوامٌ من هذه الأمة فيما حذرهم منه النبي صلى الله عليه وسلم فبالغوا في الغلو فيه حتى صرفوا له مما هو من محض حق الله ، ولقد أنكر النبي صلى الله عليه وسلم على من قال (ما شاء الله وشئت) وقال (أجعلتني لله نداً بل ما شاء الله وحده) وكان يقول عند موته (لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) متفق عليه

قول المصنف : وفي الصحيح أي صحيح البخاري عن بن عباس رضي الله عنهما ترجمان القران وحبر الأمة أنه فسر قوله تعالى {وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا} (23) سورة نوح بأنهم رجالٌ صالحين من قوم نوح ولا شك أن هذا التفسير له حكم الرفع إذ ما يدريه عن حقيقة معبوداتهم وقد تقادم العهد بينهم وبينه فدلَّ على أنه قد سمعه من النبي صلى الله عليه وسلم وبن عباسٍ قد دعى له النبي صلى الله عليه وسلم فقال (اللهم فقه في الدين وعلمه التأويل) فكان من أفقه الأمة وأعلمهم بالتأويل ، وأما استشكال بعضهم في أنه كيف تكون هذه المعبودات أسماءً لرجالٍ صالحين من قوم نوح والعابدين هم قوم نوح فالجواب أن مراده بقوم نوح أي من تقدم من قبيلته كأن تقول زيد بن نفيل رجلٌ صالح من قوم النبي صلى الله عليه وسلم لأنه من قريش رغم موته قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم فهكذا ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر هم من قوم نوح أي من قبيلته رغم تقدم موتهم قبل مبعثه ، وقد ورد ما يدل على أن الناس كانوا جميعاً

على الإسلام إلى عشرة قرون بعد وفاة آدم وكان القرن من الناس لا ينقضي إلا بعد ألف عام لطول أعمارهم وهذا يعني أن الناس قد مكثوا عشرة الآف سنة بعد وفاة آدم على التوحيد ثم دخلهم الشرك شيئاً فشيئاً ، وهذا يجعلك تدرك أن الشيطان يخطط لأمدٍ بعيد فلا يغرنك صغر المعصية فإنه إذا استطاع أن يوقعك في الصغيرة فإنه مع الزمن سيجعلك تتهاون في الصغائر ثم تقع في الكبائر ولربما وقعت في الشرك والكفر من حيث لا تشعر لأنه قد قيل : المعاصي بريد الكفر فإياك وطاعة الشيطان فلا تحقرن صغيرةً إن الجبال من الحصى 0

قال (فلما هلكوا) أي مات هؤلاء الصالحين (أوحى الشيطان إلى قومهم) أي وسوس لهم (أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً) جمع نصب وهي التماثيل المصورة على هيئة جسد أو وجه إنسان (وسموها بأسمائهم) أي جمعوا بين الشكل والاسم وقد يكون الشكل قريباً وقد لا يكون قريباً من صورة المسمى الحقيقة بحسب مهارة الناحت ومعرفته بصورة المسمى الحقيقية (ففعلوا) وكانوا يقولون : إن هذا أشوق لنا للعبادة وأخشع إذا رأينا الصالحين وتذكرناهم فانظر من أي بابٍ دخل الشيطان عليهم فأطاعوه وهم لا يشعرون وهذا يبين لك خطر الجهل بمكائد الشيطان ولذا أنصح بقراءة كتاب (إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان) لابن قيم الجوزية وكتاب (تلبيس إبليس) لابن الجوزي فإنهما مهمان في هذا الباب (ولم تعبد) أي لم يصوروهم وينحتوهم لعبادتهم وإنما ليزدادوا عبادةً لله بزعمهم (حتى إذا هلك أولئك) أي الذين صوروا ونحتوا ولعله هلك بعدهم أجيال إذ يستحيل أن يكون أبناء الناحتين يعبدون ما نحت آباءهم وهم يعرفون هدف آباءهم من النحت ولا شك أنهم يعلمونهم ولذا قال (حتى إذا هلك أولئك ونسي العلم عبدت) أي نسي السبب الذي من أجله نحتت هذه الصور ، أو يكون المقصود أنه مع تعاقب الأجيال ذهب العلماء والصالحين وظهر الجهل في الناس فوسوس لهم الشيطان أن آباءهم كانوا يستشفعون بهذه التماثيل ويعبدونها فأطاعوه لجهلهم حتى صار من بعدهم يناضل عن هذا المعتقد 0

وفي رواية (نسخ العلم) وفي رواية (تنسخ العلم) قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن : أي ذهبت آثاره بذهاب العلماء وعم الجهل حتى صاروا لا يميزون بين التوحيد والشرك فوقعوا في الشرك ظناً منهم أنه ينفعهم عند الله (فتح المجيد ص247)

(وقال بن القيم) هو محمد بن محمد بن أبي بكر الدمشقي تلميذ شيخ الاسلام بن تيمية كان عالماً عاملاً ورعاً تقياً كثير العبادة توفي سنة 751هـ (لما ماتوا) أي الصالحين (عكفوا على قبورهم) أي أكثروا المكث عندها لشدة محبتهم لأولئك الصالحين (ثم صوروا تماثيلهم) وهو من وحي الشيطان كما تقدم إذ زين لهم تصويرهم ليكونوا معهم في أسفارهم وتنقلاتهم يتشوقون بهم إلى العبادة ولأن الصورة تكون أقرب للتذكر من

القبر (ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم) أي الأجيال اللاحقة وكان هذا أول شركٍ في الأرض ثم جرى المشركون على هذا النمط من الغلو في الصالحين وبناء القباب والمشاهد على قبورهم والعكوف عندها ثم عبادة أهلها من دون الله سواءً صوروا تماثيل كما فعل المشركون القدامى وكما فعل النصارى حين صوروا تمثالاً يدل على صلب المسيح ثم عبدوا التمثال الذي على شكل إنسانٍ مصلوب ، أو تعبد القبور مباشرةً بلا تصوير كما هو الحال في المشركين المتأخرين وعلى كلٍ فالشرك واحد وإن تغيرت طرق أهله في معبوداتهم 0

(وعن عمر) هو بن الخطاب بن نفيل العدوي القرشي ثاني الخلفاء الراشد ووزير سيد المرسلين شهيد المحراب فقد طعنه أبو لؤلؤة المجوسي لعنه الله وهو يصلي الفجر سنة 23هـ (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (لا تطروني) أي لا تجاوزوا في مدحي الحد الشرعي فترفعونني فوق منزلتي (كما أطرت النصارى بن مريم) أي كغلوا النصارى في عيسى عليه السلام (إنما أنا عبد) فلست رباً فتجعلون لي مما هو من محض حق الرب جل وعلا (فقولوا : عبد الله ورسوله) متفق عليه وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إياكم والغلو) أي أحذركم الغلو فتجنبوه والسبب (فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو) رواه بن ماجة وغيره وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة حديث رقم (1283) وهو يدل على أن سبب هلاك السابقين غلوهم في الصالحين وتشددهم في الدين على غير علم (ولمسلم) بن الحجاج القشيري النيسابوري صاحب الصحيح (عن بن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (هلك المتنطعون) قالها ثلاثاً) والمتنطعين الغالين المتشددين قال صاحب الفائق في غريب الحديث والأثر : التنطع هو التعمق والغلو وأصله التقعر في الكلام 0 انتهى 0 فتبين بهذا أن سبب هلاك الأمم هو الغلو في الصالحين وما حذر منه النبي صلى الله عليه وسلم من الغلو وقع فيه أقوامٌ من هذه الأمة حتى عبد بعضهم غرفة عائشة بحجة أن النبي صلى الله عليه وسلم مقبورٌ فيها ويقولون إنها أفضل من الكعبة والعرش وحملته ومن الجنة لأن جسد النبي صلى الله عليه وسلم فيها ، فهذا من الغلو الذي لا يرضاه الله ولا رسوله ولا المؤمنين إذ أن الحجرة إنما هي طينٌ وحجر لا تضر ولا تنفع وكون قبر النبي صلى الله عليه وسلم فيها لا يعطيها هذه القداسة التي يزعمونها حتى صاروا يتمسحون بها ويطوفون حولها ، بل إن النبي صلى الله عليه وسلم نفسه لا ينفع ولا يضر أحداً كما قال تعالى {قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا} (21) سورة الجن فكيف بالحجرة وقد حذر النبي صلى الله عليه وسلم من الغلو فيه كما تقدم فكيف نترك تحذيره ونرتكب ما ارتكبت الأمم الهالكة من الغلو والضلال المبين

((باب ما جاء من التغليظ فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح فكيف إذا عبده))

في (الصحيح) عن عائشة رضي الله عنها أن أم سلمة ذكرت لرسول الله صلى الله عليه وسلم كنيسة رأتها في أرض الحبشة وما فيها من الصور . فقال (أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح بنوا على قبره مسجداً ، وصوروا فيه تلك الصور أولئك شرار الخلق عند الله) فهؤلاء جمعوا بين الفتنتين ، فتنة القبور ، وفتنة التماثيل .

ولهما عنها قالت : لما نُزل برسول الله صلى الله عليه وسلم طفق يطرح خميصة له على وجهه ، فإذا اغتم بها كشفها ، فقال وهو كذلك (لعنة الله على اليهود والنصارى ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » يحذر ما صنعوا ، ولولا ذلك أبرز قبره ، غير أنه خشي أن يتخذ مسجداً)

ولمسلم عن جندب بن عبد الله قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يموت بخمس وهو يقول (إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل ، فإن الله قد اتخذني خليلاً ، كما اتخذ إبراهيم خليلاً ، ولو كنت متخذاً من أمتي خليلاً ، لاتخذت أبا بكر خليلاً ، ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد ، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد ، فإني أنهاكم عن ذلك) فقد نهى عنه في آخر حياته ، ثم إنه لعن وهو في السياق من فعله ، والصلاة عندها من ذلك ، وإن لم يُبْنَ مسجد ، وهو معنى قولها : خشي أن يتخذ مسجداً ، فإن الصحابة لم يكونوا ليبنوا حول قبره مسجداً ، وكل موضع قصدت الصلاة فيه فقد اتخذ مسجداً ، بل كل موضع يصلى فيه يسمى مسجداً ، كما قال صلى الله عليه وسلم (جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً)

ولأحمد بسند جيد عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً (إن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء والذين يتخذون القبور مساجد) ورواه أبو حاتم في صحيحه

ذكر المؤلف هذا الباب لبيان تحريم عبادة الله عند القبور فكيف بمن يعبدونها لا شك أن فعلهم هو الشرك الأكبر والخطر الأعظم ثم ذكر الحديث وهو في الصحيحين ولعل المؤلف لم يطلع عليه إلا في أحدهما أو أراد جنس الصحيح يشهد لذلك قوله في الحديث التالي (ولهما) أي صاحبي الصحيحين وكأنه يشير إلى شيءٍ تقدم ذكره فتكون اللام للعهدية ، لأنه لو لم يقصد شيئاً تقدم ذكره لم نفهم المراد بقوله (ولهما)

عن عائشة أم المؤمنين وزوجة سيد المرسلين أفقه النساء توفيت سنة 57هـ عن أم سلمة هند بنت أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم القرشية هاجرت مع زوجها أبو سلمة إلى الحبشة ثم عاد بها إلى مكة ثم

هاجر هو إلى المدينة وحبست هي بعده سنةً ثم لحقت به وتوفي زوجها سنة أربع وقيل ثلاث للهجرة النبوية وكانت قد سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول (من أصيب بمصيبةٍ فقال : اللهم آجرني في مصيبتي واخلف لي خيراً منها 0 إلا آجره الله في مصيبته وأخلفه خيراً منها) فقالته وهي تقول : من خيرٌ من أبي سلمة فتزوجها النبي صلى الله عليه وسلم وهو خيرٌ من أبي سلمة فعاشت معه وتوفي وهو راضٍ عنها وكانت عالمةً عابدةً تقيةً توفيت سنة 62هـ

والحديث الذي في الصحيحين نصه : عن عائشة قالت لما اشتكى النبي صلى الله عليه وسلم ذكر بعض نسائه كنيسة يقال لها مارية وكانت أم سلمة وأم حبيبة أتتا أرض الحبشة فذكرن من حسنها وتصاوير فيها فرفع رأسه فقال (أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً ثم صوروا فيه تلك الصور أولئك شرار خلق الله)

وأم حبيبة هي رملة بنت أبي سفيان بن حرب أسلمت مع زوجها عبيد الله بن جحش فى مكة ثم هاجر مع المسلمين إلى الحبشة فلما قدِمها تنصَّر وفارق الإسلام حتى مات هنالك نصرانياً. قالت أم حبيبة: رأيت في المنام كأن عُبيد الله بن جحش بأسوأ صورة وأشوهها، ففَزِعت فقلت: تغيَّرت والله حاله ، فإذا هو يقول حين أصبح: يا أُمَّ حبيبة إني نظرت في الدّين فلم أرَ ديناً خيراً من النصرانية وكنت قد دِنْتُ بها ثم دخلت في دين محمّد ثم رجعت إلى النصرانية، فقلتُ: والله ما خير لك، وأخبرتُه بالرؤيا التي رأيت له فلم يَحْفل بها وأكبّ على الخمر حتى مات. ثم تزوجها النبي صلى الله عليه وسلم وعاشت معه حتى توفي وهو عنها راض ثم توفيت رضي الله عنها سنة 44 للهجرة 0

الكنيسة معبد النصارى ، والصور التي رأينها قال بن عثيمين : الظاهر أن هذه الصور صورٌ مجسمة وتماثيل منصوبة (القول المفيد1/393) قلت : يحتمل أن تكون صوراً مرسومة ومنقوشة على الجدران لأن أم حبيبة وأم سلمة كانتا تعيشان في مكة مع قريش وهم يعبدون أصناماً هي تماثيل على صور أناس صالحين فلم تكونا لتستغربا ما عهدتاه عند قومهما فالظاهر أنهما استغربتا لما رأتيا شيئاً غريباً لم تكونا تعهداه عند قومهما فأرادتا معرفة الحكم فيه فقال لهما النبي صلى الله عليه وسلم (أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح بنوا على قبره مسجداً ، وصوروا فيه تلك الصور أولئك شرار الخلق عند الله) أي الحبشة أو عموم الذين يفعلون هذه الفعلة والحبشة تسمى أثيوبيا الآن وكانوا نصارى في ذلك الوقت وفي هذا الوقت هم خليطٌ من النصارى والوثنيين ، وقد روي أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بتجنبهم وترك قتالهم ولذلك فإن الصحابة والتابعين ومن بعدهم من الفاتحين اتجهوا إلى شمال وغرب أفريقية وتركوا جنوبها ، وإن لم يصح الحديث فيحتمل أنهم

تركوها لأمورٍ أخرى والله أعلم ، ومن أهل الحبشة ذو السويقتين الذي يهدم الكعبة في آخر الزمان 0 وقوله (الرجل الصالح أو العبد الصالح) الشك من الراوي 0 والحديث يقتضي تحريم اتخاذ المساجد على القبور وفي الحديث الثاني الذي ذكره المصنف التصريح بلعن من فعل ذلك فدلَّ على أنه من كبائر الذنوب لأنه وسيلة إلى تعظيم المقبور ورفعه فوق منزلته ثم إلى الشرك الأكبر ولذا كان خطره عظيماً وخطبه جسيماً ، ثم لم يكتفوا بذلك بل أضافوا إليه تصوير ذلك المقبور حتى يزداد تعظيمه ، وهذا كله من أكبر الوسائل الموصلة إلى الشرك وهو فعل قوم نوح كما تقدم فإن بدايتهم كانت كذلك حتى صار من بعدهم مشركاً 0

قوله (ولهما) أي صاحبي الصحيحين وهما البخاري محمد بن إسماعيل بن بردزبه ومسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري اللذين كتابيهما أصح الكتب بعد كتاب الله (عنها) يريد عائشة رضي الله عنها (قالت : لما نزل برسول الله) أي جاءه الموت (طفق) أي جعل (يطرح) أي يلقي (خميصةً له) كساءٌ له أعلام (على وجهه فإذا اغتم بها كشفها) كان يفعل ذلك من شدة الإحتضار وكان عليه الصلاة والسلام يوعك كما يوعك الرجلان ويشتد عليه الاحتضار ليزداد بذلك رفعةً وأجراً لأن الأجر على قدر البلاء (فقال وهو كذلك) أي على تلك الحال (لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) قالت عائشة : يحذر ما صنعوا ولولا ذلك أُبْرِزَ قبره غير أنه خُشِيَ أن يُتْخَذَ مسجداً) رواه البخاري في كتاب الجنائز باب ما يكره من اتخاذ المساجد على القبور ، ورواه مسلم في كتاب المساجد باب النهي عن بناء المساجد على القبور وعبارة (خشي) ضبطت بفتح الخاء (خَشِيَ) على أن الخشية كانت من النبي صلى الله عليه وسلم والحديث يدل على ذلك فإنه ما لعن اليهود والنصارى على فعلهم هذا وهو يحتضر إلا خشية أن يفعل المسلمون فعلهم فبيَّن أن فعلهم هذا منكر يوجب لمن فعله اللعن وهو الطر والابعاد عن رحمة الله ، وضبطت بضم الخاء (خُشِيَ) على أن الخشية كانت من الصحابة وقد ورد عن الصديق رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال (ما قبض نبيٌ إلا دفن حيث قبض) ولا مانع من الجمع بين السببين بأنهم امتثلوا أمر النبي صلى الله عليه وسلم في دفنه حيث مات وأنهم كانوا كذلك يخشون أن يتخذ قبره مسجداً ، وقد يورد بعض الناس إشكالاً وهو أن قبر النبي صلى الله عليه وسلم الآن داخل المسجد وهو موجودٌ فيه منذ عصر التابعين إلى يومنا هذا ؟ فالجواب / أن المسجد بني في حياة النبي صلى الله عليه وسلم ولم يبن على قبر ولم يدفن الصحابة النبي صلى الله عليه وسلم في المسجد بل دفنوه في حجرة عائشة وكانت خارج المسجد ، ولما جاء عصر الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك وسع المسجد وأدخل حجرات النبي صلى الله عليه وسلم فيه فأنكر عليه علماء التابعين كسعيد بن المسيب وغيره فبطل الاستدلال بفعل خليفة أنكر عليه العلماء ، ولقد وقع طوائف من هذه الأمة فيما حذر منه النبي صلى الله

عليه وسلم فصاروا يتركون مقدمة المسجد ويصلون خلف الحجرة يجعلونها بينهم وبين القبلة بل رأيت بعضهم يصلي باتجاه القبر جاعلاً القبلة خلف ظهره فسبحان من نكس بصائرهم ، وبعضهم يطوف بالحجرة ويتمسح بجدرانها فنسأل الله أن يرد ضال المسلمين إلى الحق رداً جميلاً 0

قال (ولمسلم عن جندب بن عبد الله) بن سفيان البجلي مات بعد الستين (قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يموت بخمس) أي بخمس ليال (وهو يقول : إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل) لأن ذلك لا يجوز له عليه الصلاة والسلام والسبب (فإن الله قد اتخذني خليلاً) والله لا يرضى أن يشاركه أحد في خليله ، ولا يكون لخليله خليل غيره (كما اتخذ إبراهيم خليلاً) فأمره بذبح ابنه ليرى هل جعل إبراهيم في قلبه خليلاً معه لأن الخلة أعلى مراتب المحبة وهي المحبة التي تتخلل إلى الجسد كله وتنفذ إلى القلب فقدم الخليل عليه السلام محبة الله على محبة الولد فاتخذه الله خليلاً قال النبي صلى الله عليه وسلم (ولو كنت متخذاً من أمتي خليلاً لا تخذت أبا بكرٍ خليلاً) أبو بكر هو عبد الله بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة القرشي التيمي خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه في الهجرة وأفضل الصحابة بالإجماع مات في جماد الأولى سنة ثلاث عشرة وله ثلاثٌ وستون سنة 0 والحديث فيه منقبةٌ شريفةٌ عظيمةٌ لأبي بكر وهي أن النبي صلى الله عليه وسلم يحبه حباً شديداً ولو جاز له شرعاً أن يتخذ خليلاً لاصطفى أبا بكرٍ بالخلة فدل على عظم منزلة أبي بكر عند النبي صلى الله عليه وسلم وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم (ما طلعت الشمس ولا غربت بعد النبيين على أفضل من أبي بكر) وفيه ردٌ على الروافض الذين يطعنون في الصديق ويتهمونه بأبشع الأعمال ويرمونه بأبشع الألفاظ ثم هم أول من أحدث الشرك في هذه الأمة وأول من بنى المساجد على القبور فجزاهم الله شراً ورد كيدهم في نحورهم ، والعبيدين أول من بنى للحسين قبراً بمصر بالقاهرة وصاروا يقيمون فيه من الأعمال الشركية ما جعل أهل مصر والصالحون من عباد الله ينفرون منهم ويحذرون منهم غاية التحذير حتى قال النابلسي أحد العلماء الأفاضل : من كان عنده عشرة أسهم فليرم النصارى بواحد وليرم العبيديين بتسعة فسلخوه حياً قاتلهم الله ، وجرائمهم كثيرةٌ مشهورة كسرقة الحجر الأسود وذبح الحجاج وغير ذلك 0

(ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد ، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك) ثم بيَّن المصنف رحمه الله أن من صلى عند القبر فقد اتخذه مسجداً ولا يلزم أن يكون قد بنى حوله بناء لأن معنى المسجد أي المكان الذي يصلى فيه فكل مكانٍ يصلى فيه يسمى شرعاً مسجداً بدليل قوله صلى الله عليه وسلم (جعلت لي الأرض مسجداً وطهورا) فهذه الأحاديث فيها النهي الصريح عن

اتخاذ القبور مساجدوعبادة الله عندها فكيف بأولئك الذين يعبدون القبور نفسها ويتجهون إليها بالصلاة والدعاء والذبح والنذر وغير ذلك من أنواع العبادات ، لا شك أنهم قد ارتكبوا الشرك الأكبر الذي قال الله تعالى فيه {إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا } (48) سورة النساء وقال تعالى {إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيدًا } (116) سورة النساء

تنبيه / قال بعضهم : إن المحبة أعظم من الخلة وقالوا إبراهيم عليه السلام خليل الله ومحمد صلى الله عليه وسلم حبيب الله 0

والجواب / أن هذا القول مردودٌ وغير صحيح فإن الله ذكر في كتابه أنه يحب التوابين ويحب المتطهرين ويحب من اتبع نبيه كما في قوله تعالى {قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ } (31) سورة آل عمران وأما الخلة فهي خاصةٌ بالخليلين وقد صرح النبي صلى الله عليه وسلم بحبه لعائشة وأبيها وعمر ومعاذ وغيرهم ولكنه تبرأ أن يكون له خليلٌ من الناس فدلَّ ذلك على أن الخلة أعظم من المحبة 0

ولأحمد هو بن محمد بن حنبل الشيباني إمام أهل السنة توفي سنة 241هـ عن بن مسعود مرفوعاً أي من قول النبي صلى الله عليه وسلم والموقوف هو الذي يكون من قول الصحابي (إن من شرار الناس) من للتبعيض يعني بعض شرار الناس هم المتصفون بهذه الصفات الواردة في الحديث ، فكل من اتصف بهذه الصفات الواردة فهو من الأشرار وليس كل الأشرار يتصفون بهذه الصفات (من تدركهم الساعة وهم أحياء) لأن الله جل وعلا يبعث ريحاً طيبةً تقبض روح كل مؤمنٍ ومؤمنةٍ ويبقى شرار الناس يتهارجون فيها تهارج الحمر عليهم تقوم الساعة 0 كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح الذي رواه الإمام مسلم وغيره والصنف الثاني وهو الشاهد من الحديث (والذين يتخذون القبور مساجد) رواه أحمد وبن خزيمة وبن حبان والطبراني وقال الهيثمي في المجمع إسناده حسن وهو قول الأعظمي وقال بن تيمية إسناده جيد وقال الألباني في تحذير الساجد : رواه أحمد بسندٍ آخر حسن بما قبله والحديث بمجموعهما صحيح 0

فهذه الأحاديث تدل على تحريم الصلاة عند القبور وأن ذلك يفضي إلى عبادة أهلها خلافاً لمن زعم أن التحريم لسبب نجاسة قبور الموتى لما فيها من الصديد ونحو ذلك فهذه العلة علةٌ عليلة لأن الأحاديث قد ذكرت قبور الأنبياء وليس فيها صديدٌ ولا غيره لأن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء 0

ذكر المصنف في المسائل أن في هذه الأحاديث ردٌ على طائفتين هم شر أهل البدع وهم الجهمية والرافضة 0 لأن الجهمية أنكروا الخلة وعطلوا الصفات ، والرافضة عمروا المشاهد وهي القبور وعطلوا المساجد وهم أول من أحدث الشرك في هذه الأمة كما تقدم ولذا أخرجهم بعض السلف من طوائف الأمة الثلاث وسبعين 0

والجهمية تنسب إلى الجهم بن صفوان لأنه هو الذي نشر المذهب وإلا فإن الذي أسسه قبله هو الجعد بن درهم الذي قتله خالد القسري يوم العيد خطب يوم العيد فقال ضحوا أيها الناس تقبل الله ضحاياكم فإني مضحيٍ بالجعد بن درهم فإنه زعم ان الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً ولم يكلم موسى تكليماً فنزل وذبحه فقال بن القيم :

ولأجل ذا ضحى بجعدٍ خالد القسري يوم ذبائح القربان

إذ قال إبراهيم ليس خليله كلا ولا موسى الكليم الداني

شكر الضحية كل صاحب سنةٍ لله درك من أخي قربان

فانخمدت بدعته زمناً حتى جاء الجهم بن صفوان وكان قد نشأ بين الصابئة عباد الكواكب والفلاسفة فزاد في المذهب وعمقه بالفلسفة وأنكر الأسماء والصفات فقال في نحو قوله تعالى (وهو السميع البصير) أي الذي خلق السمع والبصر في غيره ورفض أن يجعل ذلك اسماً أو صفةً له جل وعلا حتى جاء المعتزلة فقالوا هي أسماء لكنها ليست بصفات فأثبتوا الأسماء وعطلوا الصفات والجهمية معطلةٌ في باب الأسماء والصفات وجبرية في باب القضاء والقدر ومرجئةٌ في باب الإيمان والدين فجمعوا البدع كلها ، وأصل هذه البدعة قد أخذها الجعد عن رجلٍ يقال له أبان بن سمعان الذي أخذها عن طالوت الذي تلقاها من لبيد بن الأعصم اليهودي الذي سحر النبي صلى الله عليه وسلم

والذي أسس الرافضة هو عبد الله بن سبأ اليهودي فانظر إلى أصول هاتين الطائفتين تجد أنهما أسستا لهدم الدين ، وكان عبد الله بن سبأ يزعم أنه يريد استرجاع حق أهل البيت المهضوم وزوَّر الأكاذيب على الصحابة الكرام في هضم حق أهل البيت وغير ذلك حتى انخدع به طوائف من أهل الضلالة فاتبعوه وقد أظهر الغلو في علي رضي الله عنه فهم بقتله ومن معه ففر إلى بلاد فارس ونشر مذهبه هناك ، وأول من سماهم الرافضة هم آل البيت فقد سماهم بذلك زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب حين أرادهم أن يناصروه فقالوا فكيف تقول في الشيخين فقال : وزيرا جدي فقالوا نرفضك ولا نبايعك فسماهم الرافضة ، ومذهبهم مبنيٌّ على النفاق والكذب ويسمون ذلك التقية ولذا كانوا أخطر على الأمة من اليهود والنصارى 0

((باب ما جاء أن الغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثاناً تعبد من دون الله))

روى مالك في الموطأ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد ، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) ولابن جرير بسنده عن سفيان عن منصور عن مجاهد ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ

اللَّاتَ وَالْعُزَّى ﴾ [النجم : 19] . قال : كان يلت لهم السويق فمات فعكفوا على قبره ، وكذلك قال أبو الجوزاء عن ابن عباس : كان يلت السويق للحاج . وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم زائرات القبور ، والمتخذين عليها المساجد والسرج . [رواه أهل السنن] .

هذا الباب متممٌ لسابقه في بيان خطر الغلو في الصالحين وقبورهم

مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر بن عمرو الأصبحي الإمام المبجل إمام دار الهجرة قال البخاري : أصح الأسانيد مالك عن نافع عن بن عمر ولد سنة 93هـ وتوفي سنة 179هـ وكتابه الموطأ كتبه في أربعين سنة وروى هذا الحديث مرسلاً عن عطاء بن يسار ورواه البزار موصولاً عن عطاء عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعاً وله شاهد عند الإمام أحمد (فتح المجيد273) وصححه الألباني في مشكاة المصابيح حديث رقم (750) قال صلى الله عليه وسلم (اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد) وقد استجاب الله دعاء نبيه فلم يجتمع الناس عليه للعبادة كما يفعل عند قبر الحسين وعلي بن أبي طالب والسيد البدوي وغيرهم ، وأما ما يحصل من بعض الجهلة فهم يفعلونه خفيةً وبخوفٍ وحذر ولله الحمد والمنة ولذا قال بن القيم :

فأجاب رب العالمين دعاءه وأحاطه بثلاثة الجدران

حتى غدت أرجاءه بدعائه في عزةٍ وحمايةٍ وصيان

ثم قال (اشتد غضب الله على قومٍ اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) أي مواضع للصلاة ولذا قطع عمر رضي الله عنه شجرة الحديبية لما رأى الناس يتهافتون عليها فيصلون عندها ، وهذا من سد أبواب الشرك وقد قال عليٌ رضي الله عنه لأبي الهياج الأسدي كما في صحيح مسلم (ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ألا تدع تمثالاً إلا طمسته ولا قبراً مشرفاً إلا سويته) وذكر في فتح المجيد ص275 قصة دانيال وكيف أن الصحابة رضي الله عنهم أعموا قبره لئلا يتخذ معبداً 0

(ولابن جرير) هو محمد بن جرير بن يزيد الطبري صاحب التفسير المعروف كان عالماً مفسراً فقيهاً مجتهداً له مذهبٌ فقهي لكنه اندثر ولد عام 224هـ وتوفي عام 310هـ عن سفيان هو بن سعيد بن مسروق الثوري إمامٌ معروفٌ له مذهبٌ فقهيٌ اندثر أيضاً توفي سنة 161هـ عن منصور بن المعتمر بن عبد الله السلمي توفي سنة 132هـ عن مجاهد بن جبر المكي إمام التابعين في التفسير عرض القران على بن عباسٍ رضي الله عنهما مراراً يسأله عن كل آية ولد سنة 21هـ وتوفي وهو ساجد سنة 104هـ قال أي مجاهد (كان يلت لهم السويق فمات فعكفوا على قبره) وكذا قال أبو الجوزاء وهو أوس بن عبد الله الربعي المتوفى سنة 83هـ عن بن عباس (كان يلت السويق للحاج) قال العثيمين : السويق شعيرٌ يحمص ثم يطحن ثم يخلط بتمر أو شبهه ثم يؤكل

(القول المفيد 426/1) قلت : واللت هو العجن والخلط ، فلأجل أنه كان يعمل هذا العمل أحبه الناس وعظَّموه فلما مات عكفوا على قبره فعبدوه وقد ساقه المؤلف ليبين خطر تعظيم القبور وكيف أنه أفضى إلى عبادة أهلها 0

وعن بن عباس رضي الله عنهما قال : لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج 0 حسنه الألباني بشواهده فقال في إرواء الغليل : والواقع أن الحديث له شواهد كثيرة في جملتيه الأوليين ، وأما (السرج) فليس لها شاهد البتة ، فيما علمت ، ولذا لا يمكن القول بتحسين الحديث بتمامه ، بل باستثناء السرج ، وقد ذكرت الشواهد المشار إليها في كتابي " تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد " وباختصار في " الأحاديث الضعيفة " (رقم 223) فليرجع إليهما من شاء 0(213/3) أما مسألة زيارة النساء للقبور فقد اختلف فيها أهل العلم على قولين :

الأول / عدم الجواز لهذا الحديث ولحديث أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن زوارات القبور 0 رواه أحمد والترمذي وبن ماجة وصححه الألباني انظر صحيح الجامع حديث رقم (5109) قال بن تيمية بعد أن ذكر هذين الحديثين رجال هذا ليس رجال هذا فلم يأخذه أحدهما عن الآخر وليس في الإسنادين من يتهم بالكذب ومثله حجةٌ بلا ريب وهذا من أجود الحسن الذي شرطه الترمذي فإنه جعل الحسن ما تعددت طرقه ولم يكن فيه متهم ولم يكن شاذاً أي مخالفاً لما ثبت بنقل الثقات ، وهذا الحديث تعددت طرقه وليس فيه متهم ولا خالفه أحدٌ من الثقات 00الخ (نقله في فتح المجيدص279) وقد ورد أن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم عزت أهل ميتٍ في ميتهم فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم (لعلك بلغت معهم الكدي؟) قالت : معاذ الله وقد سمعتك تذكر فيها ما تذكر 0 قال (لو بلغت الكدي معهم ما رأيت الجنة حتى يراها جد أبيك) رواه النسائي وقال ربيعة ضعيف وضعفه الألباني انظر ضعيف الترغيب والترهيب حديث رقم (2076)

القول الثاني / الجواز واستدلوا بحديث عائشة رضي الله عنها قالت كيف أقول يا رسول الله ؟ تعني في زيارة القبور قال (قولي السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين ويرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين وإنا إن شاء الله بكم للاحقون) رواه مسلم وبأن عائشة رضي الله عنها زارت قبر أخيها عبد الرحمن فقال لها بن أبي مليكة أليس قد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن زيارة القبور قالت : نعم نهى عن زيارة القبور ثم أمر بها 0 رواه البيهقي والحاكم والأثرم وغيرهم وصححه الألباني في إرواء الغليل (233/3) وعن أنس قال مرَّ النبي صلى الله عليه وسلم بامرأةٍ تبكي عند قبرٍ فقال (اتقي الله واصبري) قالت إليك عني فأنك لم تصب بمصيبتي ولم تعرفه فقيل لها إنه النبي صلى الله عليه وسلم . فأتت باب النبي صلى الله عليه وسلم فلم تجد عنده بوابين فقالت لم أعرفك . فقال (إنما الصبر عند الصدمة الأولى) متفق عليه ولم ينهها النبي صلى الله عليه وسلم عن زيارة القبور وقالوا إن الأحاديث في المنع كانت قبل الرخصة وحين أذن النبي صلى الله عليه وسلم في زيارة القبور فإن ذلك يشمل الرجال والنساء لأنهن يحتجن إلى الموعظة كما يحتاج الرجال ولذلك أرشد النبي صلى الله عليه وسلم عائشة إلى ما تقول إذا زارت

القبور ولو كان ذلك محرماً عليها لبين لها النبي صلى الله عليه وسلم ذلك فإن تأخير البيان عن وقت الحاجة لا يجوز كما نص على ذلك الأصوليين 0

ورد أصحاب القول الأول / بأن النبي صلى الله عليه وسلم قد علَّم عائشة الدعاء لتعلمه للناس أو أن ذلك كان قبل النهي ، وأما زيارة عائشة لقبر أخيها فلا حجة فيه لأنه في مقابل النص ولعلها لم يبلغها نهي النبي صلى الله عليه وسلم النساء عن زيارة القبور أو نسيت ذلك أو أنها ظنت وهو الأرجح من سياق كلامها أن قول النبي صلى الله عليه وسلم (كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها) رواه مسلم والترمذي أن ذلك يشمل الرجال والنساء ولذلك قالت لابن أبي مليكة : نهى عن زيارة القبور ثم أمر بزيارتها 0 وقد بيَّن العلماء أن النهي الخاص لا يدخل في الإذن العام والنبي صلى الله عليه وسلم قد نهى نهياً عاماً للرجال والنساء عن زيارة المقابر ثم يحتمل أنه أذن لهم إذناً عاماً في زيارة المقابر ثم نهى النساء بعد أو أنه أذن إذناً عاماً بعد نهيه العام ونهيه الخاص للنساء فيشمل الإذن العام النهي العام ولا يشمل النهي الخاص إلا بدليل وهذا عند جمهور العلماء أن العام لا يعارض الأدلة الخاصة ولا ينسخها ولو كانت النساء داخلاتٍ في الإذن العام لكانت زيارة القبور لهن مستحبة ولا أحد قال بهذا من الأئمة ، قال شيخ الإسلام بن تيمية : العام إذا عُرِفَ أنه بعد الخاص لم يكن ناسخاً له عند جمهور العلماء وهو مذهب الشافعي وأحمد في أشهر الروايتين عنه وهو المعروف عند أصحابه فكيف إذا لم يُعلم أن هذا العام بعد الخاص إذ قد يكون قوله (لعن الله زوارات القبور) بعد إذنه للرجال في الزيارة يدل على ذلك أنه قرنه بالمتخذين عليها المساجد والسرج ومعلومٌ أن اتخاذ المساجد والسرج المنهي عنه محكم كما دلت عليه الأحاديث الصحيحة وكذلك الآخر (نقله في فتح المجيد ص280) وأما المرأة التي تبكي على قبر صبيها فيحتمل أن تكون هذه القصة قبل تحريم زيارة النساء للقبور أو أن النبي صلى الله عليه وسلم علم أنها لم تخرج للزيارة ولكن لما أصابها من الفجيعة بموت ولدها ولذلك أمرها بالصبر ولم ينهها في تلك الحال عن زيارة القبور لأن عدم الصبر هو الذي حملها على مخالفة النهي إن كان قد وجد ، فأمرها بالصبر يقتضي أن تمتنع من كل نهيٍ مرد فعله إلى عدم الصبر ، والحديث يدل على عدم صبر النساء وشدة جزعهن حتى أن هذه المرأة وهي صحابية ارتكبت محرماً لنهرها للنبي صلى الله عليه وسلم ولذلك كانت الحكمة والله أعلم في منع النساء من زيارة القبور لضعف النساء ورقتهن فقد يحملهن ذلك على الجزع والنياحة وربما تكشفن من جراء ذلك ففتنَّ الناس وكل ذلك مفاسد وقد جاء الشرع بسد كل ما يجر إلى مفاسد 0

وهناك قولٌ ثالث / وهو أن المحرم تكرار زيارة القبور لحديث (لعن الله زوارات القبور) ولم يقل زائرات القبور فمن زارت مرةً أو مرتين فلا حرج عليها 0

والجواب / أن المراد كثرة الفاعلات لا كثرة الفعل فإذا زارت مائة امرأة فيمكن أن نقول هؤلاء زوارات القبور وهذا موجودٌ في لغة العرب كقوله تعالى {جَنَّاتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الْأَبْوَابُ } (50) سورة ص مع أنها لا تفتح إلا مرةً واحدة لكن لكثرة الداخلين فكذلك الحديث ويشهد له الحديث الذي ذكره المصنف بلفظ (زائرات القبور) فإن السنة يفسر بعضها بعضاً وليست بمتناقضة 0

وقوله عليه الصلاة والسلام (والمتخذين عليها المساجد والسرج) هو الشاهد فمن فعل ذلك فهو ملعونٌ على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما يجر إليه من تعظيم أهلها ورفعهم فوق منزلتهم ويجر إلى الغلو والشرك وعبادة القبور وأهلها فاستحقوا اللعن وهو الطرد والإبعاد عن رحمة الله 0

ووجه قرن النبي صلى الله عليه وسلم بين زوارات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج أن المرأة بطبيعتها رقيقة عاطفية فربما حملتها العاطفة مع الرقة ومحبة الميت إلى العكوف عنده وكثرة البكاء أو نحو ذلك فيظن أبناءها أو غيرهم من الأطفال أنها تعظم صاحب القبر وتعبده فينشئون على ذلك فالخطر الكائن من إسراج المقابر واتخاذ المساجد عليها موجودٌ في زيارة النساء للقبور فلذلك قرن بينهما النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث والعلم عند الله 0

ولا يجوز للنساء تشييع الجنائز لما ورد عن أم عطية رضي الله عنها قالت : نهينا عن إتباع الجنائز ولم يعزم علينا 0 متفق عليه وعن علي رضي الله عنه قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا نسوةٌ جلوس فقال (ما يجلسكن؟) قلن ننتظر الجنازة قال (هل تغسلن؟) قلن لا قال (هل تحملن؟) قلن لا قال (هل تدلين فيمن يدلي؟) قلن لا قال (فارجعن مأزورات غير مأجورات) رواه بن ماجة وضعفه الألباني حديث رقم (773) في ضعيف الجامع قال شيخ الاسلام : وأما قول أم عطية: ولم يعزم علينا فقد يكون مرادها لم يؤكد النهي وهذا لا ينفي التحريم وقد تكون هي ظنت أنه ليس بنهي تحريم والحجة في قول النبي صلى الله عليه وسلم لا في ظن غيره 0 انتهى 0 قلت : والعلة في منع النساء من زيارة القبور هي موجودةٌ في تشييعهن للجنائز بل هو أشد إذ المصيبة أقرب فيكون إظهار الجزع والنياحة منهن أكثر ولأنهن قد يختلطن مع الرجال فيقع الافتتان بهن 0

باب ما جاء في حماية المصطفى صلى الله عليه وسلم جناب التوحيد

وسده كل طريقٍ يوصل إلى الشرك

وقول الله تعالى ﴿ لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة : 128] عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لا تجعلوا بيوتكم قبوراً ، ولا تجعلوا قبري عيداً ، وصلوا عليّ ، فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم) رواه أبو داود بإسناد حسن ، ورواته ثقات . وعن علي بن الحسين : أنه رأى رجلاً يجيء إلى فرجة كانت عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم ، فيدخل فيها فيدعو ، فنهاه ، وقال : ألا أحدثكم حديثاً سمعته من أبي عن جدي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (لا تتخذوا قبري عيداً ، ولا بيوتكم قبوراً ، وصلوا عليّ فإن تسليمكم يبلغني أين كنتم) [رواه في المختارة]

قوله تعالى ((من أنفسكم)) أي من جنسكم والخطاب لبني آدم كما قال تعالى {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ } (189) سورة الأعراف ويحتمل أن الخطاب للمكلفين من الجن والإنس لأن النبي صلى الله عليه وسلم بعث إليهم جميعاً وقيل الخطاب للعرب لأن منَّة الله عليهم به أعظم لأنه منهم وفي ذلك تشريفٌ لهم ، وقيل إن الخطاب بأنفسهم يشمل جميع الناس والخطاب بمنهم خاصٌ بالعرب كقوله تعالى{هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ } (2) سورة الجمعة والأميين هم العرب وقال إبراهيم وإسماعيل {رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ } (129) سورة البقرة وقوله تعالى ((عزيز عليه ما عنتم)) أي يصعب عليه ما يشق عليكم كقول أرضٌ عزاز أي صلبه والعنت المشقة كقوله تعالى { ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ } (25) سورة النساء وقوله تعالى ((حريصٌ عليكم)) أي على هدايتكم ووصول النفع الدنيوي والأخروي إليكم ((بالمؤمنين رؤوفٌ رحيم)) هذا من منَّة الله على هذه الأمة إذ جعل في نبيهم أكمل الصفات وجعله بهم رؤوفاً رحيماً يحرص على ما ينفعهم ويشق عليه ما يشق عليهم فلله الحمد والمنَّة ، وقوله (بالمؤمنين)) دليلٌ على اختصاص رأفته ورحمته بالمؤمنين وقد يُرحم الكافر إذا نظر إليه بعين القدر وأما بعين الشرع فلا ولذا قال تعالى{مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ } (29) سورة الفتح وقوله تعالى{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} (73) سورة التوبة وقوله تعالى ((فإن تولوا)) أي أعرضوا عما جئت به من الحق والهدى بعدما تبين لهم صدقك وحسن أخلاقك وكريم صفاتك ((فقل حسبي الله)) أو هو كافيني ((لا إله إلا هو عليه توكلت)) في جميع أموري والتوكل عرفه بن عثيمين : بأنه الاعتماد على الله في جلب المنافع ودفع المضار مع الثقة به وفعل الأسباب النافعة (القول المفيد442/1) وهذا التعريف من أجمل ما يكون فإنه جمع بين الاعتماد على الله والثقة به مع بذل الأسباب النافعة ، فإن ترك الأسباب تواكلٌ وليس توكل والاعتماد على الأسباب بالكلية شرك والجمع بينهما هو المطلوب كما قال النبي صلى الله عليه وسلم (اعقلها وتوكل) وقوله النافعة دليلٌ على

أنه ليس كل سببٍ يكون نافعاً فهناك أشياء يعتقدها الناس أسباباً نافعةً وهي ليست كذلك كالنذر وكتعليق التمائم وإتيان السحرة والكهان ، فإن هذه ليست أسباباً أصلاً حتى يعتقد فيها النفع أو عدمه 0 وهناك أسباب محرمة فلا يجوز بذلها كالربا فإنه قد يكسب صاحبه أموالاً فيكون قد بذل سبباً نافعاً بالنسبة له في كسب الأموال لكنه سببٌ محرمٌ شرعاً فلا يجوز العمل به 0 وهكذا شرب الخمر وغير ذلك ، فالأول شرك والثاني كبيرة ، إذ أن اعتقاد شيءٍ سبباً ولم يجعله الله سبباً قدراً هو اتخاذ ندٍ لله في التقدير فهو شرك ، ثم هو أصغر أو أكبر بحسب ذلك السبب المتخذ فمثلاً اتخاذ التمائم واعتقاد أنها أسبابٌ للشفاء شركٌ أصغر وأما الاستشفاع بالميت واعتقاد أن ذلك سببٌ للقرب من الله شركٌ أكبر ، وأما بذل الأسباب المحرمة كأكل الربا وشرب الخمر ونحو ذلك فإن اعتقد أنها جائزة كفر وإن اعتقد تحريمها فإنه يكون مرتكباً لذنب ثم هو كبيرةٌ أو صغيرةٌ بحسب الذنب ، فإن شرب الخمر للتداوي فقد ارتكب كبيرة ، وإن صلى نفلاً في وقت النهي غير ذوات السبب فقد ارتكب صغيرة وهكذا 0

قوله تعالى ((وهو رب العرش العظيم)) العرش أعظم المخلوقات حتى أن الكرسي الذي هو موضع قدمي الرب جل وعلا بالنسبة إليه كحلقةٍ ملقاةٍ بأرضٍ فلاة ، والسماوات السبع بالنسبة للكرسي كحلقةٍ ملقاةٍ بأرضٍ فلاة ، والأرض بالنسبة للسماوات وأفلاكها كحلقةٍ ملقاةٍ بأرضٍ فلاة ، ثم أنت يابن آدم انظر إلى حجمك بالنسبة للأرض ثم إذ بك تعصي الرب جل وعلا وهو الذي على العرش استوى 0

وعلاقة الآيات بالباب / أن النبي صلى الله عليه وسلم يعز عليه أن تقع أمته في الشرك الموجب لهلاكهم ولذلك بيّن لهم التوحيد وحذرهم من الشرك ووسائله وما يوصل إليه 0

وحديث (لا تجعلوا بيوتكم قبوراً) أي لا تجعلوها كالقبور التي لا يصلى فيها وهذا يدل على أن الصحابة قد تقرر عندهم أن المقابر لا يصلى عندها ولذا خاطبهم النبي صلى الله عليه وسلم بما تقرر عندهم فقال لاتجعلوا بيوتكم كالمقابر التي لا يصلى عندها ، وقيل المعنى : لا تدفنوا فيها أحداً 0 وكلا المعنيين صحيح فإن دفن الميت في البيت قد يؤدي إلى تعظيمه فيكون من وسائل الشرك وقد يؤدي إلى استيحاش أهل البيت منه ثم لا يستطيعون بعد ذلك بيع البيت لوجود ميتهم فيه فيكون في ذلك ضرر على الورثة ، ثم إنهم بذلك يحرمون الميت من دعاء المؤمنين له عند زيارتهم للمقابر ، إلى غير ذلك من المفاسد التي يؤدي إليها دفن الميت في البيت 0 والحديث يدل على فضل صلاة النافلة في البيت قال صلى الله عليه وسلم (أفضل صلاة المرء في بيته إلا المكتوبة) رواه البخاري في كتاب الأذان باب صلاة الليل ورواه مسلم في كتاب صلاة المسافرين باب استحباب صلاة النافلة في بيته 0

ثم قال (ولا تجعلوا قبري عيداً) أي مكاناً تعتادون مجيئه للعبادة عنده أو مكاناً تجتمعون فيه لأن الأعياد إما زمانية كعيد الفطر والأضحى وإما مكانية كمنى وعرفات في الحج فهو نهيٌ عن التجمع عند قبره ونهيٌ عن تخصيص وقتٍ لزيارته لا يزوره إلا فيه ، فهذا كله من البدع المنكرة وأما مطلق الزيارة بلا شد رحل وبلا تخصيص زمانٍ معين وبلا تجمع وتجمهر فهي جائزة إذا قصد منها السلام على النبي صلى الله عليه وسلم والدعاء له ثم قال عليه الصلاة والسلام (وصلوا عليَّ فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم) أي فلا تتكلفوا المجيء إلى قبري فإن صلاتكم تصل إليَّ في أي بلدٍ صليتم عليَّ فيه ، واعلم ان الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم فيها فضلٌ عظيم كما قال تعالى {إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} (56) سورة الأحزاب وقال صلى الله عليه وسلم (من صلى عليَّ صلاةً صلى الله عليه بها عشراً) رواه مسلم وعند النسائي (من صلى عليَّ صلاةً واحدةً صلى الله عليه بها عشر صلوات وحطت عنه عشر خطيئات ورفعت له عشر درجات) صححه الألباني في مشكاة المصابيح حديث رقم (922) وعن أوس بن أوس رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إن من أفضل أيامكم يوم الجمعة فيه خلق آدم وفيه قبض وفيه النفخة وفيه الصعقة فأكثروا علي من الصلاة فيه فإن صلاتكم معروضة عليَّ) قالوا يا رسول الله وكيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت؟ يعني بليت فقال (إن الله عز وجل حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء) رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه وغيرهم وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب حديث رقم (1674) وقال صلى الله عليه وسلم (إن لله تعالى ملائكة سياحين في الأرض يبلغوني من أمتي السلام) رواه أحمد والنسائي وبن حبان انظر حديث رقم (2174) في صحيح الجامع. ومعنى الصلاة من الله ثناؤه على عبده في الملأ الأعلى ، وصلاة الملائكة الاستغفار ، وصلاة الآدميين الدعاء ، وأما من قال إن معنى الصلاة من الله الرحمة فلا يصح لقوله تعالى {أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ} (157) سورة البقرة فعطف الرحمة على الصلوات مما يدل على تغايرهما 0

وعن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عالم فقيه عابد كان يلقب زين العابدين لكثرة عبادته وفضائله جمة توفي سنة 93هـ أنه رأى رجلاً ...الخ رواه في المختارة وهو كتاب لصاحبه محمد بن عبد الواحد المقدسي توفي سنة 643هـ قال عنه بن تيمية تصحيحه في مختاراته خيرٌ من تصحيح الحاكم بلا ريب 0 وهذا الحديث يشهد لما قبله وقد روى سعيد بن منصور في سننه عن سهيل بن أبي سهيل قال : رآني الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عند القبر فناداني وهو في بيت فاطمة يتعشى فقال : هلم إلى العشاء فقلت لا أريده فقال ما لي رأيتك عند القبر فقلت سلمت على النبي صلى الله عليه وسلم فقال : إذا دخلت فسلم ثم قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (لا تتخذوا قبري عيداً ولا تتخذوا بيوتكم مقابر وصلوا عليَّ فإن صلاتكم

تبلغني حيثما كنتم ، لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) ما أنتم ومن بالأندلس إلا سواء 0 قال شيخ الاسلام : فانظر هذه السنة كيف مخرجها من أهل المدينة وأهل البيت الذين لهم من رسول الله قرب النسب وقرب الدار لأنهم إلى ذلك أحوج من غيرهم فكانوا له أضبط (نقله في فتح المجيد ص288) ولم يكن الصحابة والتابعون كلما دخلوا المسجد يأتون القبر فيسلمون على النبي صلى الله عليه وسلم رغم سهولة الوصول إليه من باب حجرة عائشة رضي الله عنها قبل أن يحوط القبر ومع ذلك لم يكونوا يفعلون ذلك ولا يدخلون إلى القبر بل يصلون ويخرجون لعلمهم أن الصلاة والسلام عليه في الصلاة أكمل وأفضل وأنه قد نهى عن اتخاذ قبره عيداً ، والخير في اتباع السلف وترك الابتداع 0

باب ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان

وقول الله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَؤُلاء أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ سَبِيلاً ﴾ [النساء : 51] وقوله تعالى ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللّهِ مَن لَّعَنَهُ اللّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُوْلَئِكَ شَرٌّ مَّكَاناً وَأَضَلُّ عَن سَوَاء السَّبِيلِ ﴾ [المائدة : 60] وقوله تعالى : ﴿ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِداً ﴾ [الكهف : 21]

عن أبي سعيد رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذّة بالقذّة ، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه). قالوا : يا رسول الله ، اليهود والنصارى ؟ قال (فمن) أخرجاه . ولمسلم عن ثوبان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (إن الله زوى لي الأرض ، فرأيت مشارقها ومغاربها ، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها ، وأعطيت الكنزين : الأحمر والأبيض ، وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة بعامة ، وأن لا يسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم ، وإن ربي قال : يا محمد إني إذا قضيت قضاءً فإنه لا يرد وإني أعطيتك لأمتك ألا أهلكهم بسنة بعامة وألا أسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم ، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً ويسبي بعضهم بعضًا) ورواه البرقاني في صحيحه ، وزاد (وإنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين ، وإذا وقع عليهم السيف لم يرفع إلى يوم القيامة ، ولا تقوم الساعة حتى يلحق حي من أمتي بالمشركين ، وحتى تعبد فئام من أمتي الأوثان ، وإنه سيكون في أمتي كذّابون ثلاثون ، كلهم يزعم أنه نبي ، وأنا خاتم النبيين ، لا نبي بعدي . ولا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله تبارك وتعالى)

ذكر المصنف هذا الباب لدحض حجة من يقول إن الشرك لا يمكن أن يقع في هذه الأمة لقول النبي صلى الله عليه وسلم (إن الشيطان قد أيس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب ولكن في التحريش بينهم) رواه مسلم
والجواب / أن الشيطان لا يعلم الغيب ولذلك وقع في نفسه اليأس في وقت النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه لما رأى الفتوحات والانتصارات العظيمة ، وإلا فقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أنه لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض (الله الله) وأخبر أن فئاماً من أمته سيعبدون الأوثان وأن نساء دوس ستضطرب إلياتهن حول ذي الخلصة ودوس من جزيرة العرب ، فالنبي صلى الله عليه وسلم يخبر عن يأس الشيطان في زمنٍ معين ولا يمنع هذا من حصول الشرك فيما عداه من الأزمان وقد حصل الشرك في جزيرة العرب قبل مقدم المصنف رحمه الله حتى حاربها وساعده في ذلك آل سعود أيدهم الله ونصر بهم دينه وجزاهم جميعاً عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء 0

قال المؤلف (باب ما جاء) أي من الأدلة (أن بعض هذه الأمة) وليس كلها (يعبد الأوثان) الأوثان جمع وثن وهو كل ما عبد من دون الله فيشمل الأصنام والقبور والشجر والحجر وغيرها وأما الأصنام فيراد بها التماثيل المنحوتة على هيئة وجه إنسانٍ أو جسمه 0

والحديث فيه بشرى أن بعض هذه الأمة لن يعبد الأوثان حتى تقوم الساعة ويؤيده قول النبي صلى الله عليه وسلم (لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة) رواه مسلم ومن لم يكن موحداً لم يكن على الحق ، ثم ساق المؤلف الآيات والأحاديث الدالة على ما عنون له في الباب فذكر قوله تعالى{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَؤُلاء أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ سَبِيلاً} (51) سورة النساء قيل في سبب نزولها أن كعب بن الأشرف وحيي بن أخطب وغيرهم من زعماء يهود قدموا مكة ليستعدوهم على حرب النبي صلى الله عليه وسلم فقال لهم كفار مكة : أديننا خير أم دين محمد ؟ قالوا : بل دينكم خير 0 فنزلت الآية فهؤلاء رغم وجود كتابٍ عندهم يبين لهم الحق إلا أنهم تركوه وعمدوا إلى الباطل والكذب فلا يبعد أن يكون في هذه الأمة مثلهم وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم (لتتبعن سنن من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا جحر ضبٍ تبعتموهم . قيل يا رسول الله اليهود والنصارى ؟ قال فمن) متفق عليه وقد وقع مصداق ما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم فعمدت طوائف من هذه الأمة إلى الإيمان بالجبت وهو السحر والطاغوت وهو الشيطان والكهان ومن تجاوز حده من الطغيان وهو مجاوزة الحد اتباعاً لليهود ، وقد ألف مذهب الشيعة عبد الله بن سبأ اليهودي وألف مذهب الجهمية لبيد بن الأعصم اليهودي الذي سحر النبي صلى الله عليه وسلم فتبعهم طوائف من هذه الأمة 0

وقوله تعالى ((نصيباً من الكتاب)) أي أنهم لم يعطو الكتاب كاملاً لوقوع التحريف فيه قبلهم أو أنهم لا يعلمون منه إلا بعضه إعراضاً منهم عنه 0

ثم ذكر المصنف قوله تعالى {قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللّهِ مَن لَّعَنَهُ اللّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُوْلَئِكَ شَرٌّ مَّكَاناً وَأَضَلُّ عَن سَوَاء السَّبِيلِ} (60) سورة المائدة أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم في هذه الآية أن يقول لليهود الذين استهزئوا بالإسلام ألا أخبركم بشرٍ مما عيرتمونا به 0 قال البغوي في تفسيره : يعني قولهم : لم نر أهل دينٍ أقل حظاً في الدنيا والآخرة منكم ولا ديناً أشر من دينكم ا0هـ وهو أنه منكم يا معشر اليهود الذين عيرتمونا ((من لعنه الله)) فاستحق الطرد والإبعاد عن رحمة الله (وغضب عليه) غضباً قرينه الإنتقام في الدنيا والآخرة ففي الدنيا ((وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت)) أي مسخهم إلى قردة وخنازير وهي الحيوانات البغيضة ولو خيَّر الإنسان بأن يعذب بأشد العذاب الجسدي أو يمسخ إلى حيوانٍ من أفضل الحيوانات كالغزلان والطواويس لاختار العذاب الجسدي فكيف وقد مسخوا بأردى أنواع الحيوانات فنسال الله السلامة والعافية ، وقد قيل إن الممسوخين قردةً هم أصحاب السبت والممسوخين خنازيراً هم أهل المائدة الذين كفروا بعد نزولها ، وقيل كلهم أصحاب السبت فالشباب منهم مسخوا قردةً والشيوخ منهم مسخوا خنازيراً وقد يكون غير الطائفتين والعلم عند الله ، وقد ثبت بالأحاديث الصحاح أن طوائف من هذه الأمة سيمسخون قردةً وخنازير جزاءً لهم على اتباعهم وفعلهم فعل أولئك القوم الذين مسخوا قردةً وخنازير من ارتكاب المنكرات والفواحش علناً 0

وقد سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن القردة والخنازير أهي مما مسخ الله ؟ فقال (إن الله تعالى لم يجعل لمسخٍ نسلاً ولا عقباً ، وإن القردة والخنازير كانت قبل ذلك) رواه مسلم وقوله (وعبد الطاغوت) أي عاقبهم فحول قلوبهم من التوحيد إلى الشرك وهي أشر عقوبةً مما تقدم فإن المتقدمين قد يكتفى بذلك في عقوبتهم في الدنيا ,وأما هؤلاء فعقوبتهم في الأخرة وعقوبة الأخرة أشد من عقوبة الدنيا. وأعلموا أن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء ولذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم يكثر من قول(يامقلب القلوب ثبت قلبي على دينك) فقد يعاقب الله العاصي إذا عظمت ذنوبه وجاهر بها أن يقلب الله قلبه عن التوحيد إلى الشرك وقد فعل الله ذلك بأهل الكتاب كما في هذة الآية فينبغي الحذر من المعاصي خوف هذا العقاب الشديد .

ثم ذكر المصنف قوله تعالى { قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا} (21) سورة الكهف هذا مصداق ما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم بقوله (لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبائهم وصالحيهم مساجد

) وأما من يحتج بالآية على جواز البناء على القبور فالآية دليلٌ عليهم لا لهم وقولهم إن الله عز وجل لم ينكر فعلهم فنقول : بلى قد أنكر على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم لأن كلام النبي صلى الله عليه وسلم وحيٌ من الله كما قال تعالى {وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى (3) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى} (4) سورة النجم وقد حذر النبي صلى الله عليه وسلم من هذا الفعل وأخبر أن من فعله استحق اللعن وهو الطرد والإبعاد عن رحمة الله وأن فعله من كبائر الذنوب لقول العلماء كل فعلٍ ترتب عليه لعن فاعله فهو كبيرة 0

ثم ذكر المصنف قول النبي صلى الله عليه وسلم (لتتبعن سنن من كان قبلكم) رويت سنن بفتح السين بمعنى طريقهم وبضمها بمعنى طريقتهم والمراد أن من هذة الأمة من يفعل فعلهم ويسلك منهجهم (حذو القذة بالقذة) القذة ريشة السهم ، ولأجل أن لا يكون الرمي مختلاً بهذا السهم فلا بد أن تكون الريش متساوية محاذيةً لبعضها ، فهذا وصفٌ لشدة اتباع طوائف من هذه الأمة بمن قبلهم ، وإنما قلنا طوائف مع عموم الحديث لأن بعض ألفاظ العموم يراد بها الخصوص كما هو معلومٌ في أصول الفقه كقوله تعالى عن بلقيس { وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ } (23) سورة النمل أي من كل ما يصلح لملوك الدنيا فهو عامٌ أريد به الخصوص لا أنها أوتيت من كل شيءٍ على الإطلاق فإنها لم تؤتى مثل ما أوتي سليمان لأنه ملكٌ نبي وهو في زمانها فكيف بمن تقدمها أو جاء بعدها فكذلك هذا الحديث مخصوصٌ بمن يصلح أن يكون متبعاً لهم وهم أهل الأهواء والشهوات وأما أهل الصلاح والتقوى فلن يتبعوهم إلى قيام الساعة كما أخبر بذلك الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم ، وقيل : إن العموم في الحديث غير مخصوص بل هو باقٍ على عمومه لكن هذا التقليد قد يكون في مباح أو في صغائر الذنوب أو كبائرها أو الشرك ، وقد وقع ما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم فأهل الصلاح والتقوى يقلدونهم في ركوب السيارات والطائرات والقطارات وصنعها ويأخذون عنهم في الطب والهندسة وغيرها من العلوم المباحة فهذا تقليدٌ لهم لا كنه تقليدٌ مباح ، وأهل الأهواء والشهوات يقلدونهم في المحرمات من الصغائر كالقصات والموديلات إلى الكبائر كالزنا وشرب الخمور إلى الشرك والكفر كتعلم السحر وتصديق الكهنة والعرافين ، وقوله (حتى لو دخلوا جحر ضبٍ لدخلتموه) وهذا أيضاً غلوٌ في اتباعهم فلو فعلوا شيئاً غريباً قد لا يستطاع لحاول قومٌ من أهل الإسلام أن يقلدوهم في ذلك لأن جحر الضب لا يستطيع الإنسان دخوله لكن هذا لبيان سخافة عقول المتبعين إذ أنهم يتبعونهم فيما لا يستساغ عقلاً ولا يستطاع حساً ولا يقبل شرعاً ، وهذا نراه جلياً واضحاً في القصات الغريبة التي تنفر منه النفوس السوية بل لم يقف الأمر عند قصات شعر الرأس بل جعلوا للحية قصاتٍ معينة كالسكسوكة والعقرب والخليجي ونحو ذلك من الأمور الغريبة فخالفوا النهي عن حلق اللحى واتبعوا أهل الكتاب في طريقتهم التي تشمئز منها النفوس ، وكذلك موديلات الملابس

وغير ذلك ، وهذا الحديث سيق مساق الذم لمن يفعل ذلك ، إذ ينبغي للأمة أن تعتز بدينها وثقافتها الإسلامية وعاداتها السوية وتبتعد عن مشابهة إخوان القردة والخنازير ، وقد ذكر شيخ الإسلام أن المشابهة في الظاهر تورث حباً في الباطن ، ولا شك أن محبة أعداء الله منكرٌ عظيم وخطرٌ جسيم فليتنبه لهذا أهل الإسلام 0

وقد أورد المصنف هذا الحديث ليبين أن ما وقع فيه الناس في زمانه من بناء المساجد والقباب على القبور وتعظيمها وإسراجها ونحو ذلك إنما تلقفوه من أهل الكتاب قبلهم وأن اتباعهم مذموم فيجب الكف عن اتباعهم والعودة إلى ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه إذ لم تكن موجودةً في زمانهم مثل هذه الضلالات والخير في الإتباع وترك الابتداع 0

قال المصنف (ولمسلم) صاحب الصحيح (عن ثوبان) مولى النبي صلى الله عليه وسلم لازمه ونزل الشام بعده ومات بحمص سنة 54هـ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (إن الله زوى لي الأرض) جمعها وضمها (فرأيت مشارقها ومغاربها ، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها) وهذا من اطلاع الله نبيه صلى الله عليه وسلم على الغيب ليطمئنه ويبشره حتى يبشر أمته ، وليس لمعترضٍ أن يقول : هذا أمرٌ لا يصدقه العقل كيف يرى الإنسان مشارق الأرض ومغاربها وهو في مكانه ؟ فنقول : الله على كل شيءٍ قدير ، وما جاء عن الله وصح عن رسوله نؤمن به ولو لم تدركه عقولنا رغم أننا نجزم قطعاً أنه لا يخالف العقول فالعقل السليم يدرك أن الله على كل شيءٍ قدير وأن الله فعالٌ لما يريد ، وها نحن في هذا العصر يستطيع الإنسان وهو جالسٌ في بيته أن يرى مشارق الأرض ومغاربها عن طريق التلفاز والأقمار الصناعية التي صنعها الإنسان فهذا الله قد أعطى الإنسان العادي هذه القدرة فكيف بالأنبياء والمرسلين ، وقد وقع مصداق ما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم فامتدت الفتوحات إلى أقصى الشرق إلى بلاد الهند والسند وحدود الصين وإلى أقصى المغرب إلى حدود فرنسا بخلاف الجنوب والشمال فلم تكن ممتدةً كامتدادها في الشرق والغرب ثم قال (وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض) الكنز الأحمر الذهب والأبيض الفضة ، قال العلماء : الذهب عند قيصر والفضة والجواهر وهو الكنز الأبيض عند كسرى ، والحديث يشمل ما عندهم وما عند غيرهم ثم قال (وإني سألت ربي لأمتي ألا يهلكها بسنةٍ بعامة) السنة هي الجدب والقحط كقوله تعالى {وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَونَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّن الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ} (130) سورة الأعراف وقوله (بعامة) أي لا يعمهم القحط وقد استجاب الله دعاء نبيه كما سيأتي في الحديث لكن قد تصاب بلدة دون أخرى بقحط فيستفيدون الأقوات من إخوانهم في البلاد الأخرى ، لكن لا يعم الديار الإسلامية كلها القحط هذا وعدٌ من الله وقضاءٌ قد قضي ولله الحمد والمنة ، ثم قال (وألا يسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم) أي من غيرهم (فيستبيح بيضتهم) البيضة ما يجعل

على الرأس لوقايته من ضربات السيوف والسهام ونحوها وإذا وصل العدو إلى الرأس واستطاع اقتحام البيضة بنزعها أو كسرها فإنه سيهلك صاحب البيضة ، فهذا تشبيهٌ بليغٌ من النبي صلى الله عليه وسلم فشبه الأمة بهذا المقاتل الذي لبس البيضة فإذا بقيت البيضة عليه فلن يستطيع العدو إهلاكه لاكن قد يستطيعون إيذاءه فالنبي صلى الله عليه وسلم يدعوا ربه أن لا يسلط العدو على أمته حتى يهلكهم جميعاً ، فاستجاب الله دعاء نبيه وهذه بشرى أخرى لهذه الأمة ثم بيَّن النبي صلى الله عليه وسلم ردَّ ربه عليه فقال (وإن ربي قال : يا محمد إني إذا قضيت قضاءً فإنه لا يرد وإني أعطيتك لأمتك ألا أهلكهم بسنة بعامة وألا أسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم ، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً ويسبي بعضهم بعضًا) قال العثيمين : هذا قيدٌ في الإجابة أي إذا وقع منهم ذلك أنهم يهلك بعضهم بعضاً ويسبي بعضهم بعضاً سلطت عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم (القول المفيد476/1) قلت : ويحتمل أن يكون هذا خبراً أي أني قد أجبت دعائك في أن لا أسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم لكن أمتك بأنفسهم سوف يهلك بعضهم بعضاً ويسبي بعضهم بعضاً ، وقد وقع شيءٌ من هذا القتل والسبي في القديم والحديث فإنا لله وإنا إليه راجعون 0

رواه البرقاني في صحيحه ، وزاد (وإنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين ، وإذا وقع عليهم السيف لم يرفع إلى يوم القيامة ، ولا تقوم الساعة حتى يلحق حي من أمتي بالمشركين ، وحتى تعبد فئام من أمتي الأوثان ، وإنه سيكون في أمتي كذَّابون ثلاثون ، كلهم يزعم أنه نبي ، وأنا خاتم النبيين ، لا نبي بعدي . ولا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله تبارك وتعالى)

البرقاني هو أبو بكر أحمد بن محمد بن أحمد بن غالب الخوارزمي الشافعي ولد سنة 336هـ وتوفي سنة 425هـ والحديث قد رواه مسلم إلى (ويسبي بعضهم بعضاً) وزاد البرقاني (وإنما أخاف على أمتي ... الخ) ورواه بتمامه أبو داود وصححه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم (1773) والأئمة المضلين يشمل العلماء والحكام والعباد الذين يدعون الناس إلى الفساد والضلال ويدّعون أنهم على طريقةٍ شرعية فيفتتن بهم الناس كما قال تعالى {وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ} (119) سورة الأنعام وقال تعالى {وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا} (67) سورة الأحزاب قال عمر : يهدم الإسلام زلة عالم وجدال المنافق بالكتاب وحكم الأئمة المضلين 0

قال بن المبارك :

وهل أفسد الدين إلا الملوك وأحبار سوءٍ ورهبانها

وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه : إن من ورائكم فتناً يكثر فيها المال ويفتح فيها القرآن حتى يأخذه المؤمن والمنافق والرجل والمرأة والصغير والكبير والعبد والحر فيوشك قائلٌ أن يقول ما للناس لا يتبعوني وقد قرأت القرآن ما هم بمتبعي حتى أبتدع لهم غيره فإياكم وما ابتدع فإن ما ابتدع ضلالة وأحذركم زيغة الحكيم فإن الشيطان قد يقول كلمة الضلالة على لسان الحكيم وقد يقول المنافق كلمة الحق 0 فقيل له : ما يدرينا رحمك الله أن الحكيم قد يقول كلمة الضلالة وأن المنافق قد يقول كلمة الحق قال بلى اجتنب من كلام الحكيم المشبهات التي يقال لها ما هذه ولا يثنينَّك ذلك عنه فإنه لعله أن يراجع وَتَلَقَ الحق إذا سمعته فإن على الحق نورا 0 وفي رواية (ما تشابه عليك من قول الحكيم حتى تقول ما أراد بهذه الكلمة) رواه أبو داود وقال الألباني : صحيح الإسناد موقوف فهذه الأدلة والآثار تبين خطر أئمة الضلال وهم الذين يظن الناس أنهم أهل الحق وهم أهل ضلال يبتدعون في الدين ويدخلون فيه ما ليس منه ويزعمون أنه منه تلبيساً على الناس واتباعاً لشهواتهم ومصالحهم ، فيجب الحذر من هؤلاء والتحذير منهم فإن خطرهم عظيم وشرهم مستطير 0 قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن : قد بيَّن الله في كتابه صراطه المستقيم الذي هو سبيل المؤمنين فكل من أحدث حدثاً ليس في كتاب الله ولا سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو ملعون وحدثه مردود كما قال صلى الله عليه وسلم (من أحدث حدثاً أو آوى محدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين) وقال (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد) وقال (كل محدثةٍ بدعة وكل بدعةٍ ضلالة) وهذه أحاديث صحيحة ومدار أصول الدين وأحكامه على هذه الأحاديث ونحوها وقد بيَّن الله تعالى هذا الأصل في مواضع من كتابه العزيز كما قال تعالى {اتَّبِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلاَ تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ} (3) سورة الأعراف وقال تعالى {ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاء الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ} (18) سورة الجاثية ونظائرها في القران كثير 0 (فتح المجيد ص304) وقوله صلى الله عليه وسلم (وإذا وقع عليهم السيف لم يرفع إلى يوم القيامة) قد وقع مصداق ما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم فإنه منذ وقع السيف بقتل عثمان رضي الله عنه لم يرفع فما زال المسلمون يقتل بعضهم بعضاً من ذلك الوقت وإلى وقتنا رغم النكير والتحذير من مغبة ذلك 0 وقوله (ولا تقوم الساعة حتى يلحق حيٌ من أمتي بالمشركين) أي يرتدون صراحةً وعلناً ويلحقوا بالمشركين ليعاونوهم على المسلمين وهذا وقع بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم فإنها ارتدت قبائل من العرب ولحقوا بالمشركين لكن الله خذلهم ونصر المؤمنين عليهم ، وكون هذا الشيء قد وقع لا يمنع تكرره فإننا لا نزال نسمع من يرتد ويلحق بالنصارى أو بغيرهم فنسأل الله الثبات على دينه إلى الممات ثم قال (وحتى تعبد فئامٌ من أمتي الأوثان) فهؤلاء يعبدون الأوثان مع ادعائهم الإسلام وهذا ظاهرٌ جلي في عباد الأولياء والقبور ، وهذا هو الشاهد على الباب من الحديث وفيه الرد على

من ادعى أن الشرك وعبادة الأوثان لا يقعان في هذه الأمة ، وإن لم يكن هؤلاء المذكورون هم عبَّاد القبور والأولياء فمن يكونون 0 ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم (وأنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون كلهم يزعم أنه نبي) المراد من سيكون لهم شوكةٌ وقوة وإلا فإن مدعي النبوة كثيرون (وأنا خاتم النبيين لا نبي بعدي) فكل من ادعى النبوة بعد النبي صلى الله عليه وسلم فهو كذاب كمسيلمة والأسود العنسي وسجاح وطليحة الأسدي والمختار بن عبيد الثقفي وكان قد أظهر التشيع لآل البيت وطلب ثأر الحسين فاجتمع له خلق فلما استعظم أمره ادعى النبوة وزعم أن جبريل يأتيه فقتله مصعب بن الزبير رضي الله عنهما ، وخرج الحارث الكذاب زمن عبد الملك بن مروان فقتله وهكذا خرج غيرهم وما زال يخرج مدعي النبوة حتى يكون منهم المسيح الدجال فإنه يدعي النبوة أولاً ثم يدعي الألوهية ، ولا يتعارض قوله صلى الله عليه وسلم (لا نبي بعدي) بنزول المسيح عيسى بن مريم فإن مبعث عيسى عليه السلام كان قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم ثم هو يحكم بشريعة محمدٍ صلى الله عليه وسلم فلا تعارض 0 وقوله صلى الله عليه وسلم (ولا تزال طائفة من أمتي .... الخ) بعد أن ذكر أن هناك من أمته من يرتد عن دينه ومنهم من يعبد الأوثان أراد أن يبشر أمته أنه سوف يبقى فيها أقوامٌ على الحق ولا يلزم أن يكونوا في قطرٍ واحد بل قد يكونوا في بلدانٍ متفرقة لكن عقيدتهم واحدة ومنهجهم واحدة وهم الفرقة الناجية المتمسكين بهدي النبي صلى الله عليه وسلم وصحبه وقال بعض السلف : هم أهل الحديث ومرادهم أهل السنة العاملين بحديث النبي صلى الله عليه وسلم روايةً ودراية وأما من عداهم من الطوائف فمنهم من أنكر الحديث بالكلية كالروافض والخوارج وغيرهم ومنهم من أنكر خبر الآحاد دون المتواتر كالجهمية والمعتزلة ومنهم من انكر خبر الآحاد في الاعتقاد دون الأحكام كالأشاعرة وأما أهل السنة فأوجبوا العمل بكل ما صح عن رسول الله سواءً كانت متواترةً أو آحاداً وسواءً كانت في المعاملات أو الاعتقادات ولذا كانوا هم الناجين ، وبعض أهل العلم فرَّق بين الطائفة المنصورة والفرقة الناجية فذكر أن الطائفة المنصورة هم أهل السنة وأما الفرقة الناجية فتشمل أهل السنة وتشمل كل من لم تكن بدعته مكفرة كالأشاعرة والماتريدية والكلابية ونحوهم 0

وقوله (لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم) الخذلان من الصديق والمخالفة من العدو ، لأن الخذلان هو ترك النصرة ممن يتوقع منه النصرة ، والمخالفة قد تعظم كمخالفة الكفار وقد تصغر كمخالفة المبتدعة ، فلا يضر هذه الطائفة خذلان الموافقين لها في الاعتقاد ، ولا عداوة المخالفين لها ، وهذا من أعظم البشائر لهذه الطائفة المنصورة 0

وقوله (حتى يأتي أمر الله) قيل هي الريح الطيبة التي تقبض أرواح المؤمنين قبل قيام الساعة ، وحينها تنتهي هذه الطائفة ويبقى شرار الخلق يتهارجون فيها تهارج الحمر وعليهم تقوم الساعة كما ثبت ذلك في الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم 0

واعلموا أن الضرر غير الأذى قال تعالى {لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدُبَارَ ثُمَّ لاَ يُنصَرُونَ} (111) سورة آل عمران فقد تُقاتَل هذه الطائفة وقد يحصل لها أذى إما شديدٌ أو دونه لا كنها لا تتضرر بذلك بل تبقى قوتها وعزيمتها قائمة والعاقبة لها كما قال تعالى {وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ} (128) سورة الأعراف وقال تعالى {إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ} (51) سورة غافر

(باب ما جاء في السحر)

وقول الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ ﴾ [البقرة : 102] . وقوله : ﴿ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ ﴾ [النساء : 51] . قال عمر : ﴿ الجبت ﴾ : السحر ، ﴿ والطاغوت ﴾ : الشيطان . وقال جابر : الطواغيت : كهان كان ينزل عليهم الشيطان في كل حيٍ واحد وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (اجتنبوا السبع الموبقات) قالوا : يا رسول الله : وما هن ؟ قال : « الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولي يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات » .وعن جندب مرفوعاً (حد الساحر ضربة بالسيف) رواه الترمذي وقال : الصحيح أنه موقوف . وفي (صحيح البخاري) عن بجالة بن عبدة قال : كتب عمر بن الخطاب : أن اقتلوا كل ساحر وساحرة ، قال : فقتلنا ثلاث سواحر .

وصح عن حفصة رضي الله عنها : أنها أمرت بقتل جارية لها سحرتها ، فقتلت ، وكذلك صح عن جندب . قال أحمد : عن ثلاثة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم .

هذا الباب وعدة أبوابٍ بعده يتكلم فيها المصنف عن صنفٍ من الناس إنما هم دجاجلةٌ وكذابين أهل إفسادٍ وضلالٍ وإضلال وهم أهل السحر والكهانة والتنجيم ويبين المصنف حقيقتهم وخطرهم على التوحيد ، وأنهم أدواتٌ بأيدي الشياطين لإضلال الناس وردهم إلى الهاوية ، ويذكر حكم الشارع الحكيم في هؤلاء وأمثالهم ، وسوف نفصل الكلام عنهم إن شاء الله خلال هذا الشرح لشدة خطرهم مع انتشارهم في هذا الزمان عبر وسائل الإعلام وغيرها وكثرة الهالكين بهم فأولهم السحر والسحرة :

((تعريف السحر))

السحر لغة / ما خفي ولطف سببه ومنه سمي السحر لآخر الليل لأن الأفعال فيه تكون خفية ، وَسَحَرَهُ أَيْ خَدَعَهُ وَمِنْهُ قَوْله تَعَالَى { قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ } (سورة الشعراء 153) أَيِ الْمَخْدُوعِينَ 0 وقد يسمي العرب السحر طباً تفاؤلاً بالسلامة ، وَوَرَدَ فِي الْقُرْآنِ بلَفْظِ الْجِبْتِ ، فَسَّرَهُ عُمَرُ وَابْنُ عَبَّاسٍ وَأَبُو الْعَالِيَةِ وَالشَّعْبِيُّ بِالسِّحْرِ ، وَقِيل : الْجِبْتُ أَعَمُّ مِنَ السِّحْرِ ، فَيَصْدُقُ أَيْضًا عَلَى الْكِهَانَةِ وَالْعِرَافَةِ . وَالتَّنْجِيمِ (انظر موسوعة الفقه الكويتية كلمة سحر)

شرعاً / قَال الْبَيْضَاوِيُّ : الْمُرَادُ بِالسِّحْرِ مَا يُسْتَعَانُ فِي تَحْصِيلِهِ بِالتَّقَرُّبِ إِلَى الشَّيْطَانِ مِمَّا لاَ يَسْتَقِل بِهِ الإْنْسَانُ ، وَذَلِكَ لاَ يَحْصُل إِلاَّ لِمَنْ يُنَاسِبُهُ فِي الشَّرَارَةِ وَخُبْثِ النَّفْسِ . قَال : وَأَمَّا مَا يُتَعَجَّبُ مِنْهُ كَمَا يَفْعَلُهُ أَصْحَابُ الْحِيَل وَالآْلاَتِ وَالأْدْوِيَةِ ، أَوْ يُرِيهِ صَاحِبُ خِفَّةِ الْيَدِ فَغَيْرُ مَذْمُومٍ ، وَتَسْمِيَتُهُ سِحْرًا هُوَ عَلَى سَبِيل التَّجَوُّزِ لِمَا فِيهِ مِنَ الدِّقَّةِ ؛ لأِنَّ السِّحْرَ فِي الأْصْل لِمَا خَفِيَ سَبَبُهُ 0 (تفسير البيضاوي عند تفسيره الآية 102 من سورة البقرة)

وَنَقَل التَّهَانُوِيُّ عَنِ الْفَتَاوَى الْحَامِدِيَّةِ : السِّحْرُ نَوْعٌ يُسْتَفَادُ مِنَ الْعِلْمِ بِخَوَاصِّ الْجَوَاهِرِ وَبِأُمُورٍ حِسَابِيَّةٍ فِي مَطَالِعِ النُّجُومِ ، فَيُتَّخَذُ مِنْ ذَلِكَ هَيْكَلاً عَلَى صُورَةِ الشَّخْصِ الْمَسْحُورِ ، وَيَتَرَصَّدُ لَهُ وَقْتٌ مَخْصُوصٌ فِي الْمَطَالِعِ ، وَتُقْرَنُ بِهِ كَلِمَاتٌ يُتَلَفَّظُ بِهَا مِنَ الْكُفْرِ وَالْفُحْشِ الْمُخَالِفِ لِلشَّرْعِ ، وَيُتَوَصَّل بِهَا إِلَى الاِسْتِعَانَةِ بِالشَّيَاطِينِ ، وَيَحْصُل مِنْ مَجْمُوعِ ذَلِكَ أَحْوَالٌ غَرِيبَةٌ فِي الشَّخْصِ الْمَسْحُورِ 0 (التهانوي : كشاف اصطلاحات الفنون 3 / 648)

وَقَال الشربيني : مُزَاوَلَةُ النُّفُوسِ الْخَبِيثَةِ لأِقْوَالٍ أَوْ أَفْعَالٍ يترتب عليها أُمُورٌ خَارِقَةٌ لِلْعَادَةِ (مغني المحتاج إلى معرفة ألفاظ المنهاج كتاب دعوى الدم فصل فيما يثبت موجب القصاص)

وقال بن قدامة والبهوتي: السحر عُقَدٌ وَرُقًى وَكَلاَمٌ يُتَكَلَّمُ بِهِ أَوْ يَكْتُبُهُ ، أَوْ يَعْمَل شَيْئًا يُؤَثِّرُ فِي بَدَنِ الْمَسْحُورِ أَوْ قَلْبِهِ أَوْ عَقْلِهِ مِنْ غَيْرِ مُبَاشَرَةٍ لَهُ (انظر المغني وكشاف القناع باب حكم المرتد)(وانظر موسوعة الفقه الكويتية كلمة سحر)

ويمكن تلخيص التعريفات المتقدمة فنقول : السحر / عقدٌ ورقى شركية مع كتابة طلاسم ورموز يدَّعي الساحر أنها من علم الكواكب والنجوم وخواص المواد وغير ذلك وحقيقتها إستعاناتٌ بالشياطين وشركٌ برب العالمين وينتج من مجموع ذلك طاعة الشياطين له وإيقاع الضرر بالبشر في أبدانهم وعقولهم بإذن الله الكوني القدري 0

((حقيقة السحر))

قالت المعتزلة وغيرهم من أهل البدع : أنه ليس للسحر حقيقة إنما هو تخيلات وتمويهات وفي ذلك يقول القاضي عبد الجبار المعتزلي: إن السحر في الحقيقة لا يوجب المضرة لأنه ضرب من التمويه والحيلة 0 وأخذ بهذا القول أَبُو بَكْرٍ الرَّازِيُّ الْحَنَفِيُّ الْمَعْرُوفُ بِالْجَصَّاصِ ، وَأَبُو جَعْفَرٍ الإِْسْتِرَابَاذِيُّ وَالْبَغَوِيُّ مِنَ الشَّافِعِيَّةِ ، إِلَى إِنْكَارِ جَمِيعِ أَنْوَاعِ السِّحْرِ وَأَنَّهُ فِي الْحَقِيقَةِ تَخْيِيلٌ مِنَ السَّاحِرِ عَلَى مَنْ يَرَاهُ ، وَإِيهَامٌ لَهُ بِمَا هُوَ خِلاَفُ الْوَاقِعِ ، وَأَنَّ السِّحْرَ لاَ يَضُرُّ إِلاَّ أَنْ يَسْتَعْمِل السَّاحِرُ سُمًّا أَوْ دُخَانًا يَصِل إِلَى بَدَنِ الْمَسْحُورِ فَيُؤْذِيهِ ، وَنُقِل مِثْل هَذَا عَنِ الْحَنَفِيَّةِ ، وَأَنَّ السَّاحِرَ لاَ يَسْتَطِيعُ بِسِحْرِهِ قَلْبَ حَقَائِقِ الأَْشْيَاءِ ، فَلاَ يُمْكِنُهُ قَلْبُ الْعَصَا حَيَّةً ، وَلاَ قَلْبُ الإِْنْسَانِ حِمَارًا . قَال الْجَصَّاصُ : السِّحْرُ مَتَى أُطْلِقَ فَهُوَ اسْمٌ لِكُل أَمْرٍ مُمَوَّهٍ بَاطِلٍ لاَ حَقِيقَةَ لَهُ وَلاَ ثَبَاتَ ، قَال اللَّهُ تَعَالَى{ فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ } (سورة الأعراف / 116) يَعْنِي مَوَّهُوا عَلَيْهِمْ حَتَّى ظَنُّوا أَنَّ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ تَسْعَى ، وَقَال تَعَالَى{ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّل إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى } (سورة الشعراء / 66) فَأَخْبَرَ أَنَّ مَا ظَنُّوهُ سَعْيًا مِنْهَا لَمْ يَكُنْ سَعْيًا وَإِنَّمَا كَانَ تَخْيِيلاً 0 (انظر موسوعة الفقه الكويتية عند كلمة سحر) (و أحكام القرآن للجصاص عند الآية (102) من سورة البقرة)

وذهب أهل المعتقد الصحيح ألى أن السحر نوعان :

النوع الأول / سحرٌ لا حقيقة له وإنما هو تخييلٌ وتمثيل كسحر سحرة فرعون حين خيلوا للناس أن حبالهم وعصيهم تسعى وحقيقتها أنها ثابتة وإنما السحر وقع على أعين الناس كما قال تعالى { فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ }

النوع النوع / سحرٌ له حقيقة وله تأثيرٌ على الأبدان والعقول فيمرض وربما يقتل إذا شاء الله وهذا النوع ثابتٌ بأدلةٍ كثيرة مِنْهَا قَوْله تَعَالَى { قُل أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ } وَالنَّفَّاثَاتُ فِي الْعُقَدِ : هُنَّ السَّوَاحِرُ فلمَّا أمر الله بالاستعاذة منهن عُلِمَ أن لهن تأثيراً وضررا ، وَمِنْهَا قَوْله تَعَالَى { فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ } (سورة البقرة / 102) فأثبت الضرر لكن لا يكون إلا بإذن الله الكوني القدري كسائر الأدواء 0 وَمِنْهَا مَا وَرَدَ أَنَّ النَّبِيَّ

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُحِرَ وقد سحره لبيد بن الأعصم اليهودي عليه لعائن الله المتتابعة حتى إنه ليخيل إليه أنه يفعل الشيء وما فعله فقد روى الشيخان عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت : سُحِرَ رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إنه ليخيل إليه أنه فعل الشيء وما فعله حتى إذا كان ذات يومٍ وهو عندي دعا الله ودعاه ثم قال أشعرت يا عائشة أن الله قد أفتاني فيما استفتيته ، جاءني رجلان فجلس أحدهما عند رأسي والآخر عند رجلي ثم قال أحدهما لصاحبه ما وجع الرجل قال مطبوب قال ومن طبه قال لبيد بن الأعصم اليهودي قال في ماذا قال في مشطٍ ومشاطة وجف طلعة ذكر قال فأين هو قال في بئر ذروان فذهب النبي صلى الله عليه وسلم في أناس من أصحابه إلى البئر فقال هذه البئر التي أريتها وكأن ماءها نقاعة الحناء ولكأن نخلها رءوس الشياطين فاستخرجه 0 متفق عليه وَأُنْزِلَتْ عَلَيْهِ الْمُعَوِّذَتَانِ فَمَا قَرَأَ عَلَى عُقْدَةٍ إِلاَّ انْحَلَّتْ وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى شَفَاهُ . فدلَّ على أنه أثَّر في النبي صلى الله عليه وسلم وأمرضه حتى شفاه الله من ذلك 0 وقد تكاثرت نصوص الكتاب والسنة في بيان حكم السحر والسحرة وبينت خطرهم وحذرت منهم ، ولو كان مجرد خيالات لا حقيقة لها لما استدعى كلَّ هذا البيان والتحذير ، ثم إن الناس منذ القديم وإلى عهدنا وهم يتأثرون بالسحر ويتضررون به إذا شاء الله وهذا أمرٌ مشاهدٌ محسوس لا ينكره إلا مكابر معارضٌ للعقل والنقل 0 (انظر موسوعة الفقه الكويتية عند كلمة سحر)

((حكم السحر والساحر))

السحر محرمٌ باتفاق الأئمة بل هو محرمٌ في جميع الأديان السماوية كما في الآية التي استدل بها المصنف وهي قوله تعالى﴿ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ ﴾ [البقرة : 102] أي علم أهل الكتاب في كتبهم وعلى ألسنة رسلهم أن من اتخذ السحر بضاعةً يتعلمها ويعلمها ويعمل بها لا خلاق له في الآخرة أي لا نصيب له في الجنة 0

وأدلة تحريم السحر كثيرة منها قوله تعالى { وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى } (سورة طه / 69) وقَوْله تَعَالَى { وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ } (سورة البقرة / 102) فَجَعَلَهُ مِنْ تَعْلِيمِ الشَّيَاطِينِ الذين يريدون إغواء بني آدم وَقَال فِي آخِرِ الآْيَةِ { وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنْفَعُهُمْ } فَأَثْبَتَ فِيهِ ضَرَرًا بِلاَ نَفْعٍ وكل ما فيه ضررٌ بلا نفع فهو محرم لقول النبي صلى الله عليه وسلم (لا ضرر ولا ضرار) وقال تَعَالَى حِكَايَةً عَنْ سَحَرَةِ فِرْعَوْنَ { إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى } (سورة هود / 73) فَأَخْبَرَ أَنَّهُمْ رَغِبُوا إِلَى اللَّهِ فِي أَنْ يَغْفِرَ لَهُمُ السِّحْرَ فدلَّ ذلك عَلَى أَنَّهُ ذَنْبٌ يوجب التوبة منه وقال النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَات) وذكر منها السحر 0 متفق عليه

قال في موسوعة الفقه الكويتية / وَفَرَّقَ بَعْضُ الْفُقَهَاءِ بَيْنَ مَا كَانَ مِنَ السِّحْرِ تَمْوِيهًا وَحِيلَةً ، وَبَيْنَ غيره، فَقَالُوا : إِنَّ الأْوَّل مُبَاحٌ لِأَنَّهُ نَوْعٌ مِنَ اللَّهْوِ فَيُبَاحُ مَا لَمْ يُتَوَصَّل بِهِ إِلَى مُحَرَّمٍ كَالإْضْرَارِ بِالنَّاسِ . قَال الْبَيْضَاوِيُّ : أَمَّا مَا يُتَعَجَّبُ مِنْهُ كَمَا يَفْعَلُهُ أَصْحَابُ الْحِيَل بِمَعُونَةِ الآْلاَتِ وَالأْدْوِيَةِ ، أَوْ يُرِيهِ صَاحِبُ خِفَّةِ الْيَدِ فَغَيْرُ مَذْمُومٍ ، وَتَسْمِيَتُهُ سِحْرًا عَلَى التَّجَوُّزِ أو لما فيه من الدقة ا0هـ0(كلمة سحر في الموسوعة)

قلت : لا شك أن قولهم في التفريق وإباحة ما كان تمويهاً وحيلةً من السحر غير صحيح لأن سحر سحرة فرعون الذي استعملوه ضد موسى عليه السلام كان من هذا النوع فإنه كما قيل كانت عصيهم مجوفةً مملوءةً زئبقاً وحبالهم معمولةً من أدمٍ قد حشيت زئبقاً فلمَّا ارتفعت الشمس ذاب الزئبق من حرارتها فتحرك فتحركت الحبال والعصي ولاشك أن هذا من التمويه والحيلة ومع هذا فقد ذموا على ذلك وطلبوا التوبة وغفران الذنب قال تعالى {فَلَمَّا أَلْقَواْ قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللّهَ لاَ يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ} (81) سورة يونس **فجعل عملهم من الإفساد في الأرض 0**

لكن اختلفوا هل يكفر الساحر أولا ؟

فقال أبو حنيفة ومالك وأحمد : يكفر بتعلمه وتعليمه سواءً اعتقد حله أو تحريمه وروي هذا القول عن عمر وعثمان وعلي وبن عمر وجندب وحبيب بن كعب وقيس بن سعد وعمر بن عبد العزيز واستدلوا بقوله تعالى {وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيْاطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ} (102) سورة البقرة فقوله تعالى ((وما كفر سليمان)) أي ما كان ساحراً كفر بسحره وقول الملكان (إنما نحن فتنةٌ فلا تكفر)) أي لا تتعلم السحر فتكفر به 0 قاله في المغني 0 واستدلوا بقوله تعالى {قَالَ مُوسَى أَتقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ} (77) سورة يونس وقوله {وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى} (69) سورة طه فنفيُ الفلاح عنهم يدل على كفرهم 0

وقال الشافعي : لا يكفر إلا إذا اعتقد إباحته لأن عائشة رضي الله عنها لم تقتل الجارية التي سحرتها بل باعتها بمحضرٍ من الصحابة ولو كانت كافرةً بمجرد فعل السحر وتعلمه لكانت مرتدةً يجب قتلها ولا يجوز استرقاقها 0 وأجيب بأنه يحتمل أن معنى سحرتها أي ذهبت إلى ساحرٍ سحر لها ، أو أن هذه الجارية تابت فسقط عنها الكفر والقتل بتوبتها وعلى احتمال أنها هي التي سحرت بنفسها وأنها لم تتب فهو قولٌ لعائشة رضي الله عنها قد خالفها فيه غيرها من الصحابة والتابعين (انظر في الفقه الحنفي فتح القدير كتاب السير باب أحكام المرتدين ورد المحتار كتاب الجهاد مطلب توبة اليائس وفي الفقه المالكي مواهب الجليل شرح مختصر خليل باب الردة وحاشية الدسوقي على الشرح الكبير وفي الفقه الشافعي مغني المحتاج إلى معرفة ألفاظ المنهاج كتاب دعوى الدم فصلٌ فيما يثبت موجب القصاص وفي الفقه الحنبلي المغني والانصاف كتاب الديات باب حكم المرتد وكشاف القناع باب حكم المرتد)

وروي عن الشافعي أنه قال : إذا تعلم السحر قلنا له صف لنا سحرك فإن وصف ما يوجب الكفر مثل ما اعتقده أهل بابل من التقرب إلى الكواكب السبعة وأنها تفعل ما يلتمس منها فهو كافر وإن كان لا يوجب الكفر لاكن اعتقد إباحته كفر ، وإلا لم يكفر (انظر فتح المجيد ص314، وأضواء البيان36/3) وإلى هذا القول جنح بعض الأحناف والمالكية والحنابلة قال بن عابدين : قال في الفتح : ويجب أن لا يعدل عن مذهب الشافعي في كفر الساحر والعراف وعدمه وأما قتله فيجب ولا يستتاب إذا عرفت مزاولته لعمل السحر لسعيه بالفساد في الأرض لا بمجرد علمه إذا لم يكن في اعتقاده ما يوجب كفره(رد المحتار على الدر المختار كتاب الجهاد مطلب في الساحر والزنديق) وقال القرافي : فالذي يستقيم في هذه المسألة ما حكاه الطرطوشي عن قدماء أصحابنا أنا لا نكفره حتى يثبت أنه من السحر الذي كفَّرَ الله تعالى به أو يكون سحره مشتملاً على كفر كما قاله (ش) (الذخيرة 37/12) وقال المرداوي : قوله (فأما الذي يسحر بالأدوية والتدخين وسقي شيءٍ يضر فلا يكفر ولا يقتل ولكن يعزر) هذا المذهب (الإنصاف كتاب الديات باب حكم المرتد)

قال العثيمين : السحر نوعان :

الأول / شرك وهو الذي يكون فيه عقدٌ ورقى ويستخدم الساحر فيها الشياطين يعبدهم ويتقرب إليهم ليسلطهم على المسحور 0

والثاني / أدوية وعقاقير تؤثر في بدن المسحور فهذه عدوانٌ وفسق (القول المفيد489/1بتصرف)

وقال الشنقيطي : التحقيق في هذه المسألة هو التفصيل فإن كان السحر مما يعظَّمُ فيه غير الله كالكواكب والجن وغير ذلك مما يؤدي إلى الكفر فهو كفرٌ بلا نزاع ومن هذا النوع سحر هاروت وماروت .... وإن كان السحر لا يقتضي الكفر كالاستعانة بخواص بعض الأشياء من دهاناتٍ وغيرها فهو حرامٌ حرمةً شديدة ولكنه لا يبلغ بصاحبه الكفر اهـ0 (أضواء البيان 36/3)

قلت : وقد قيل إن معنى قول الملكين ((فلا تكفر)) أي لا تستعمله على وجهٍ تكفر به أي لا تستعمله في الأمور المكفرة كما يقال خذ المال ولا تفسق به أي لا تستعمله على وجهٍ تفسق به أي لا تستعمله في الفسق 0 (انظر الذخيرة 33/12)

تنبيه / قال بعض أهل العلم : السحر هو ما يكون فيه استعانةٌ بالجن والشياطين فهذا كله كفرٌ ويقتل فاعله ردةً وما عدى ذلك من الأدوية والعقاقير فلا يسمى فاعلها ساحر إذا لم يستعن بالجن والشياطين وحينئذٍ لا يكفر ولا يقتل 0

قلت : والسحرة يتلاعبون بالناس بتقديم هذه الأدوية والعقاقير وإلا فهم يتعاملون مع الجن والشياطين باطناً ، فيجب الحذر منهم وعدم تصديقهم 0

((حكم قتل الساحر))

القول الأول / يقتل بمجرد فعل السحر وتعلمه وهو قول مالك وأحمد وقتله بحد الردة وعليه فلا يقتل الذمي فإن النبي صلى الله عليه وسلم لم يقتل لبيد بن الأعصم اليهودي الذي سحره لكون كفره أصلياً ، إلا أن يقتل بسحره فيقتل قصاصاً إذا كان سحره مما يقتل غالباً وإلا فالدية0 (انظر الذخيرة للقرافي 12/33) ومواهب الجليل شرح مختصر خليل باب الردة والإنصاف كتاب الديات باب حكم المرتد وكشاف القناع باب حكم المرتد)

القول الثاني / يقتل بمجرد اعترافه بالسحر أو ثبوت ذلك عليه بالبينة فيقتل حد الإفساد في الأرض وعليه فيقتل ولو كان كافراً أصلياً وهو قول أبي حنيفة (انظر رد المحتار على الدر المختار كتاب الجهاد مطلب توبة اليائس)

القول الثالث / لا يقتل إلا إذا اعتقد إباحته أو فعل في سحره ما يوجب الكفر فيقتل ردةً أو قتل بسحره عمداً وكان سحره مما يقتل غالباً فيقتل قصاصاً وإلا فالدية وهو قول الشافعي 0 (انظر مغني المحتاج إلى معرفة ألفاظ المنهاج كتاب دعوى الدم فصل فيما يثبت موجب القصاص)

قلت / وبهذا نعلم أن الأئمة الأربعة مجمعون على أن الساحر يكفر ويقتل إذا استباح السحر أو فعل في سحره ما يوجب الكفر من دعاء غير الله والتقرب إلى الشياطين وادعاء تأثير الكواكب في الحوادث الأرضية والأقدار ونحو ذلك ، ومختلفون في مجرد التعلم والفعل 0

ومن وجب قتله من السحرة قتل بلا استتابة في قول أبي حنيفة ومالك وأحمد في المشهور عنه لأن علم السحر لا يزول بالتوبة فلا يؤمن الرجوع ولو باطناً 0 وقال الشافعي ورواية عن أحمد : يستتاب وتقبل توبته لأن ذنبه لا يزيد

عن الشرك والمشرك يستتاب وتقبل توبته ولذلك صحَّ إيمان سحرة فرعون وتوبتهم (انظر رد المحتار كتاب الجهاد مطلب توبة اليائس وفتح القدير كتاب السير باب أحكام المرتدين ومواهب الجليل في شرح مختصر خليل باب الردة والذخيرة للقرافي 12/33 وأضواء البيان تفسير سورة طه وفتح المجيد ص320)

وقال العثيمين : يقتلون ولا يستتابون لأن قتلهم حد والحد لا يستتاب صاحبه (القول المفيد 509/1) وهو الذي رجحه المصنف في مسائل الباب 0

واستدل القائلون بأنه يقتل ولا يستتاب بما يلي :

1-ماروي عن جندب مرفوعاً (حد الساحر ضربة بالسيف) رواه الترمذي وقال : الصحيح أنه موقوف والعمل على هذا عند بعض أهل العلم من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وغيرهم (ضعفه الألباني فيه حديث رقم (1460) وقال الشنقيطي : قال بن كثير قد رواه الطبراني من وجهٍ آخر عن الحسن عن جندب مرفوعاً وهذا يقويه كما ترى (أضواء البيان 39/3) وجندب هذا ليس هو جندب بن عبد الله البجلي بل هو جندب الخير المعروف بقاتل الساحر واسم أبيه كعب وقيل زهير الأزدي الغامدي وقصة قتله للساحر رواها البخاري في التاريخ الكبير عن أبي عثمان النهدي أن رجلاً كان عند الوليد يلعب فذبح إنساناً وأبان رأسه فعجبنا فأعاد رأسه فجاء جندب الأزدي فقتله وقال : فليعد رأسه إن كان صادقاً) ورواه البيهقي في الدلائل ومالك في الموطأ كتاب العقول باب ما جاء في الغيلة والسحر وجندب صحابيٌ جليل لم يكن ليقتل الساحر لولا وجود خبرٍ عنده يدل على وجوب قتله مباشرة دون سؤالٍ هل قتل به أو لم يقتل به ولم يستتيبه وإنما ذكر أن ذلك حده والخبر وإن صحح الترمذي وقفه إلا أن له حكم الرفع إذ الحدود لا تثبت إلا بنص 0

2-ماروي عن بجالة بن عبدة قال : كتب عمر بن الخطاب : أن اقتلوا كل ساحر وساحرة ، قال : فقتلنا ثلاث سواحر . رواه البخاري كما ذكر المصنف هنا وأنكر صاحب تيسير العزيز الحميد كونه في البخاري وقال إن المصنف أشار إلى أصله وهو خبر كتب عمر إلى بجالة لاكن ليس فيه الأمر بقتل السحرة وإنما فيه التفريق بين المحارم من المجوس وقال هذه الزيادة رواها القطيعي في الجزء الثاني من فوائده بلفظ (ثم اقتلوا كل كاهنٍ وساحر) ذكر ذلك العثيمين (انظر القول المفيد 508/1) قلت وقد صحح كونه في البخاري الشنقيطي في أضواء البيان وقال : هذه اللفظة ساقطةٌ في بعض روايات البخاري ثابتةٌ في بعضها وهي ثابتةٌ في رواية مسدد وأبي يعلى كما ذكر بن حجر 0 قلت : وقد رواه أبو داود ولفظه قال بجالة : كنت كاتباً لجزء بن معاوية عم الأحنف بن قيس إذ جاءنا كتاب عمر قبل موته بسنة اقتلوا كل ساحر وفرقوا بين كل ذي محرم من المجوس وانهوهم عن الزمزمة فقتلنا في يوم ثلاثة سواحر وفرقنا بين كل رجل من المجوس وحريمه في كتاب الله وصنع طعاماً كثيراً فدعاهم فعرض السيف على فخذه فأكلوا ولم يزمزموا وألقوا وقر بغلٍ أو بغلين من الورق ولم يكن عمر

أخذ الجزية من المجوس حتى شهد عبد الرحمن بن عوف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذها من مجوس هجر 0 رواه أبو داود وصححه الألباني فيه حديث رقم (3043) والشاهد أمر عمر بقتل السحرة مطلقاً بلا تقييد يدلُّ على أن ذلك حدهم ولو كان هناك تقييدٌ بقصاصٍ أو استتابةٍ لذكره إذ الدماء أمرها عظيم وعمر من أورع الناس رضي الله عنه وأرضاه 0

3- ما روي عن حفصة أم المؤمنين رضي الله عنها : أنها أمرت بقتل جارية لها سحرتها ، فقتلت 0 رواه مالك في الموطأ 0

4-إجماع الصحابة قال أحمد : صح قتل الساحر عن ثلاثة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم . قلت : يريد عمر وابنته حفصة وجندب الخير ولم ينكر عليهم أحد مع توافر الدواعي فدلَّ على الإجماع السكوتي من الصحابة رضي الله عنهم على هذا الحكم 0

5-وأما قولهم : إن ذنبه لا يزيد عن الشرك والمشرك يستتاب وتقبل توبته ولذلك صحَّ إيمان سحرة فرعون وتوبتهم 0

فنقول / أما قولكم إن ذنبه لا يزيد عن الشرك والمشرك تقبل توبته فنقول : المشرك كافرٌ أصلي وهذا مرتد وحكمه حكم الزنديق الذي لا تقبل توبته ولو صدَّقنا كل مدَّعي توبة لانتشر الزنادقة وكلما قبض عليهم ادعوا التوبة فظهر الفساد والشر إذ أن علم السحر لا يزول بالتوبة فلا ندري هل صدق في توبته أم لا ؟ وأما حكمه عند الله فإن صدق في توبته قبلها الله منه ما لم تطلع الشمس من مغربها أو تبلغ روحه الحلقوم ولذلك قبل توبة سحرة فرعون ؟ أما نحن فلا نقبل توبته لأنا لا نعلم الغيب ولا ندري هل صدق أم هو كاذب فدفعاً لفسادٍ عظيمٍ عن المسلمين نقتله ولا نقبل توبته 0

ثم إن هذا حدٌّ والحدُّ لا يسقط بالتوبة فلو زنا محصنٌ فقبض عليه فقال تبت فإنه يرجم ولا تقبل توبته وكذا لو سرق قطع ولا يستتاب أو قذف أو شرب الخمر جلد ولا يستتاب فالحدود ليس فيها استتابة فكذلك حد الساحر القتل ولا يستتاب 0

((حكم النشرة))

النشرة هي / حلُّ السحر بسحرٍ مثله 0

وهي محرمة لقول جابر رضي الله عنه : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن النشرة فقال (هو من عمل الشيطان) رواه أبو داود وصححه الألباني في مشكاة المصابيح حديث رقم (4553) وذلك لأن فيها ترويجاً لبضاعة السحرة فأحدهم يسحر

والثاني يفك السحر فتروج بضاعتهم ويتعلق الناس بهم ، وفي ذلك مصادمةٌ للتوحيد وإعانةٌ لهم على باطلهم وقد نهى الرب جل وعلا عن التعاون على الإثم والعدوان ، وكيف يُطلب الدواء من مجرمٍ إما كافر أو مفسد في الأرض وقد نهينا عن التداوي بالحرام ، ثم إن السحرة يأمرون غالباً من أراد التداوي عندهم بأنواعٍ من الكفريات كالذبح للجان أو بغير ذكر اسم الله ، وربما أمروا بمعصية كالزنى أو عمل قوم لوط أو شرب الخمر أو غير ذلك ، وقد أجمع السلف كما تقدم على وجوب قتلهم بلا استتابة ولم يكونوا ليجمعوا على ذلك إلا لعلمهم بعظيم جرمه وإفساده في الأرض فكيف يطلب الدواء من مجرمٍ قد أوجب الشرع قتله ، فهل يصح أن يكون مقتولاً لصنعته هذا الدواء ثم يتداوي بدواءه الذي قُتِلَ من أجل صنعته هذا تناقضٌ تنزه عنه الشريعة المطهرة فلا بد من إتلاف دواءه كما أُتلف هو إذ أنه ودواءه محل إفساد ، والحديث واضحٌ في كونه من عمل الشيطان والشيطان كما أخبر الرب جل وعلا عنه أنه إنما يأمر بالفحشاء والمنكر فهذا دينه والساحر رسوله في تبليغ دينه فمن عمل بما يأمره الساحر فقد عمل بما يأمره الشيطان وترك ما يأمره به الرحمن فشتان بين هذا وبين من يعصي الشيطان ويطيع الرحمن 0

والواجب أن يتداوى بالرقى من الكتاب والسنة وبالأدوية الحسية المباحة النافعة وأن يلتجئ المسحور إلى الرب جل وعلا في تخليصه من هذا الداء فإن الله وحده هو النافع الضآر وقد قال تعالى {وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ } (102) سورة البقرة فقد يبتلي الله العبد بتسليط الساحر عليه ليرفع درجته ويعلي مكانته ويغفر زلته بصبره ولجأه وتعلقه بربه جل وعلا وإعراضه عن الإلتجاء إلى السحرة والدجاجلة وفي الحديث (إن عظم الجزاء مع عظم البلاء وإن الله عز وجل إذا أحب قوماً ابتلاهم فمن رضي فله الرضا ومن سخط فله السخط) رواه الترمذي وبن ماجه وصححه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم (1566) ويظهر السخط بالاعتراض على قدر الله وبتناول الأدوية المحرمة وإتيان الكهنة والمشعوذين 0

وينبغي التحرز من هؤلاء المجرمين من السحرة المجرمين بالتحصن بالأوراد الشرعية كأذكار الصباح والمساء والأكل والشرب والنوم ودخول المنزل والخروج منه وأذكار النوم والاستيقاظ وغيرها فهي حصنٌ حصين وسدٌ منيع في وجوه أولئك المفسدين ، ومما ورد أنه يعصم من السحر بإذن الله أكل سبع تمراتٍ على الريق قال صلى الله عليه وسلم (من تصبح بسبع تمراتٍ عجوة لم يضره ذلك اليوم سمٌ ولا سحر) متفق عليه وقال بعض العلماء : إن قوله (عجوة) خرج مخرج الغالب لأن غالب تمر المدينة في زمنه العجوة ولذا من تصبح بسبع تمراتٍ من أي تمرٍ أجزأه واختاره بن باز 0

وقال النبي صلى الله عليه وسلم (اقرؤوا سورة البقرة فإن أخذها بركة وتركها حسرة ولا تستطيعها البطلة) قال معاوية بن سلام بلغني أن البطلة السحرة 0 رواه مسلم

وقال صلى الله عليه وسلم (لا تجعلوا بيوتكم مقابر إن الشيطان ينفر من البيت الذي يقرأ فيه سورة البقرة) رواه مسلم فينبغي الإكثار من قراءتها والمحافظة عليها ولا مانع من تشغيل المسجل بقراءتها قاله بعض أهل العلم ولا شك أن قراءتها أفضل 0

((باب بيان شيء من أنواع السحر))

قال أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا عوف عن حيان بن العلاء ، حدثنا قطن بن قبيصة عن أبيه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (إن العيافة والطرق والطيرة من الجبت)قال عوف : العيافة : زجر الطير ، والطرق : الخط يخط بالأرض والجبت ، قال : الحسن : رنة الشيطان . إسناده جيد ولأبي داود والنسائي وابن حبان في صحيحه ، المسند منه . وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من اقتبس شعبة من النجوم ، فقد اقتبس شعبة من السحر ، زاد ما زاد) رواه أبو داود] وإسناده صحيح وللنسائي من حديث أبي هريرة : « من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر ، ومن سحر فقد أشرك ، ومن تعلق شيئاً وكل إليه » وعن ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ألا هل أنبئكم ما العضة ؟ هي النميمة ، القالة بين الناس » . [رواه مسلم] . ولهما عن ابن عمر رضي الله عنهما ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن من البيان لسحراً » .

((أنواع السحر))

الأول / السحر الذي يزعم أهله أنهم يستعينون فيه بالكواكب كسحر الكلدانيين وأهل بابل وغيرهم، وهؤلاء كانوا قوماً صابئين يعبدون الكواكب السبعة، ويعتقدون أنها المدبرة للعالم، وأن حوادث العالم كلها من أفعالها، وقد قادهم هذا الاعتقاد الباطل إلى اعتقاد أن لها إدراكاتٌ روحانية فإذا قوبلت ببخورٍ خاصٍ ولباسٍ خاصٍ على الذي يباشر البخور مع إقدامه على أفعالٍ خاصةٍ وألفاظٍ يخاطب بها الكواكب كانت روحانية الفلك مطيعةً له، فمتى ما أراد شيئاً فعلته له على حد زعمهم .

وهذا الذي يزعمون أنه روحانية الفلك إنما هي الشياطين تطيعهم وتخدمهم ليستمروا على شركهم وعبادتهم للكواكب فانظر إلى الغباء المستفحل والضلال المبين 0

قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي: ومعلوم أن هذا النوع من السحر كفر بلا خلاف . لأنهم كانوا يتقربون فيه للكواكب كما يتقرب المسلمون إلى الله، ويرجون الخير من قبل الكواكب، ويخافون الشر من قبلها كما يرجو المسلمون ربهم ويخافونه. فهم كفرة يتقربون إلى الكواكب في سحرهم بالكفر البواح 0 (أضواء البيان عند تفسيره لقوله تعالى { وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى} (69) سورة طه)

وللسحرة والكهنة والعرافين والمنجمين طرقاً للاستعانة بهذه الكواكب بزعمهم منها :

1- الطلاسم: وهي عبارة عن نقش أسماءٍ خاصةٍ لها تعلق بالأفلاك والكواكب - بزعمهم - في جسم من المعادن أو غيرها فتحدث خاصية معينة.

2- النظر في حركات الأفلاك ودورانها وطلوعها وغروبها واقترانها وافتراقها، معتقدين أن لكل نجمٍ منها تأثيراً حال انفراده، كما أن له تأثيراً حال اجتماعه بغيره على الحوادث الأرضية من غلاء الأسعار ورخصها، ووقوع الحوادث، وهبوب الرياح ونحو ذلك .

3- النظر في منازل القمر الثمانية والعشرين، معتقدين التأثير في اقتران القمر بكل منزلٍ منها ومفارقته، وأن في تلك المقارنة أو المفارقة سعوداً أو نحوساً أو تأليفا أو تفريقاً وغير ذلك .

4- ما يسمونه بعلم الحرف وهو أن يكتب حروف أبجد هوز... إلخ . ويجعل لكل حرفٍ منها قدراً معلوماً من العدد، ويجري على ذلك أسماء الآدميين والأزمنة والأمكنة وغيرها، ويجمع جمعاً معروفاً عنده ويطرح طرحاً خاصاً ويثبت إثباتاً خاصاً، وينسبه إلى الأبراج الإثني عشر المعروفة عند أهل الحساب، ثم يحكم على تلك القواعد بالسعود والنحوس وغيرها مما يوحيه إليه الشيطان .

ولا شك أن هذا كله ضلال وكفر وزندقة إذ فيه ادعاء علم الغيب وقد قال تعالى {قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ} (65) سورة النمل وقال تعالى {وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ } (59) سورة الأنعام وقال تعالى {عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا} (26) سورة الجن وقال صلى الله عليه وسلم (من اقتبس علماً من النجوم اقتبس شعبةً من السحر زاد ما زاد) رواه أحمد وأبوداود وبن ماجة وصححه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم (6074)

النوع الثاني / الاستعانة بالجن والشياطين عن طريق التقرب إليهم بالشرك والكفر كدعائهم والذبح والسجود لهم أو بتدنيس المصحف وإلقاءه في القاذورات أو بسب الله ورسوله أو بغير ذلك من أنواع الشرك والكفر فحينها تطيعه الشياطين وتخدمه وتنفذ له ما يريد 0

وهذا لا شك أيضاً أنه كفرٌ صراح بلا خلاف 0

النوع الثالث / العقد والنفث فيه قال تعالى{ ومن شر النفاثات في العقد }(الفلق: 4) والنفاثات في العقد: هن السواحر اللاتي يعقدن الحبال والخيوط وينفثن في كل عقدة حتى ينعقد ما يردن من السحر، ويستعن ببعض ما ينفصل من جسم المسحور من شعرٍ أو أظافرٍ أو غيرها أو ببعض ملابسه الداخلية الملامسة لجسده 0 وهذا بعد أن تتكيف نفوسهن بالخبث والشر الذي يردنه بالمسحور فيقع السحر بإذن الله . وربما استعن بالأرواح الخبيثة من شياطين الإنس والجان ، ومن هذا النوع سحر لبيد بن الأعصم اليهودي للرسول صلى الله عليه وسلم .

قال الشنقيطي : ومعلومٌ أن النفوس الخبيثة لها آثارٌ بإذن الله ومن أصرح الأدلة الشرعية في ذلك قوله صلى الله عليه وسلم (العين حق ولو كان شيءٌ سابق القدر لسبقته العين) وهذا الحديث الصحيح يدلُّ على أن همة العائن وقوة نفسه في الشر جعلها الله سبباً للتأثير في المصاب بالعين 0 (أضواء البيان عند تفسير آية(69) سورة طه)

وهذا النوع يكون كفراً إذا كان فيه دعاءٌ واستغاثةٌ بالشياطين أو كان يشتمل على أمرٍ كفري كسب الله ورسوله وامتهان القران والحديث ونحو ذلك وغالب من يعقد العقد وينفث فيها يستعين بهذه الأمور على إيقاع السحر ومن مرَّ على هيئات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر رأى عندها العجب العجاب مما يصنعه هؤلاء السحرة من أنواع الكفريات والشرك في عقدهم التي يعقدونها وسحرهم الذي يصنعونه فوجِدَ منهم من كتب آياتٍ بدم الحيض والنفاس أو بالغائط ووجد من كتب أسماء رجالٍ يستغيث بها إنما هي أسماء الشياطين ووجِدَ غير ذلك ، ولذلك قول من يقول إنه لا يكون سحرٌ إلا بكفر قولٌ قوي 0 وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال صلى الله عليه وسلم (من عقد عقدةً ثم نفث فيها فقد سحر ومن سحر فقد أشرك ومن تعلق شيئاً وكل إليه) رواه النسائي وضعفه الألباني انظر حديث رقم (5702) في ضعيف الجامع.

النوع الرابع / الشعوذة أو الشعبذة ، ومبناها على خفة اليد والحيل الهندسية ومعرفة خواص المواد ونحو ذلك وليس فيها عقدٌ ولا نفث ولا استعانةٌ بالشياطين ولا غير ذلك مما تقدم إنما تعتمد على الذكاء وخفة الحركة في صرف بصر الناظر من شيءٍ إلى آخر فينبهر الناظر ولو دقق النظر لعلم أنه أمرٌ سهل يستطيعه كل أحد ، فهذه تسميتها سحراً مجازاً . قال بن عابدين : والمراد من الساحر غير المشعوذ ولا صاحب الطلسم ولا الذي يعتقد الإسلام 0 (رد المحتار كتاب الجهاد مطلبٌ في الساحر والزنديق) وقوله صاحب الطلسم يريد صاحب الحيل الهندسية

لا أنه الذي يكتب الطلاسم التي يكون فيها استعانةٌ بالشياطين ونحو ذلك فلا شك أن هذا ساحر كما تقدم 0

ومما يروى في ذلك أن راهباً سمع صوت طائرٍ حزين الصوت ضعيف الحركة وإذا الطيور ترق له فتضع في عشه من ثمر الزيتون فقام هذا الراهب فصنع طائراً مثله أجوف إذا ضربته الريح أخرج صوتاً كصوته ثم وضعه في صومعةٍ بناها وزعم أنها على قبر بعض صالحيهم وعلَّق ذلك الطائر في مكانٍ منها بارز لتراه الطيور فإذا جاء زمن الزيتون فتح باباً من ناحية الطائر فتدخل الريح فتضرب الطائر فيصوت فتسمع الطيور صوته فتأتي بالزيتون إليه فيأخذه الراهب عنده حتى جمع شيئاً كثيراً فتعجب الناس كيف يأتي الزيتون للراهب وهو في صومعته ففتن الناس بذلك وأوهمهم أن هذا من كرامات صاحب القبر ، لينتهب أموالهم بعد بحجة التقرب لصاحب القبر 0

تنبيه / قال الرازي وغيره : ومن هذا النوع سحر سحرة فرعون فإنهم جعلوا الزئبق على الحبال والعصي فحركته حرارة الشمس فتحركت الحبال والعصي فظن الناس أن السحرة هم الذين يحركونها وإنما يحركها الزئبق المنصهر بحرارة الشمس 0

قلت : يريد أن هذا من الخدع لمعرفتهم بخواص المواد ، والذي يظهر لي أن الأمر ليس كذلك وأنه من السحر الحقيقي لقوله تعالى {فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى } (66) سورة طه فجعل سبب التخييل هو السحر ولو كان من الخدع لقال (من تلاعبهم) وقال تعالى {فَلَمَّا أَلْقَوْاْ سَحَرُواْ أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ} (116) سورة الأعراف فأخبر تعالى أنهم جاءوا بسحر عظيم ولو كان مجرد خدع وتلاعب لما وصفه بذلك ، ثم إن الحيل والخدع قد يتفطن لها بعض الناس وهنا أطبق الحاضرين جميعاً تخييل السحر وأرهبهم جميعاً فدلَّ على أنه سحرٌ حقيقي 0

تنبيه / ذكر المصنف هذا الباب لأن من الناس من ينخدع بالأحوال الشيطانية والخدع السحرية فيظن أنها من كرامات فاعلها وهي من سحره وشعوذته فإذا عرف أنواع السحر والكهانة والتنجيم ونحوها عرف أن ما يصنعونه ليس من كرامات الأولياء بل من إجرام الفجراء فتنبه ولم ينخدع بها 0

قال المصنف : قال أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا عوف عن حيان بن العلاء ، حدثنا قطن بن قبيصة عن أبيه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (إن العيافة والطرق والطيرة من الجبت) قال عوف :

العيافة : زجر الطير ، والطرق : الخط يخط بالأرض والجبت ، قال : الحسن : رنة الشيطان . إسناده جيد ولأبي داود والنسائي وابن حبان في صحيحه ، المسند منه .

هكذا ساق المصنف الحديث بالسند وجود إسناده والحديث رواه أحمد وأبو داود وقال النووي في رياض الصالحين رواه أبو داود بإسنادٍ حسن وضعفه الألباني في مشكاة المصابيح حديث رقم (4583) وقال في سنده حيان بن العلاء وهو مجهول قال عبد الرحمن بن حسن هو أبو العلاء البصري مقبول (فتح المجيد322)

والمراد بزجر الطير أنهم كانوا في الجاهلية إذا أراد أحدهم سفراً أو أمراً زجر الطير فيطير فإن اتجه يميناً تفاءل ومضى إلى ما أراد ، وإن ذهب شمالاً تشاءم وتطير وترك ما عزم على فعله 0 وقوله الطرق هو الخط يخط بالأرض أي على وجهٍ يزعم فاعله أنه يعلم به ما كان وما يكون وهو فعل السحرة والكهنة من دجلهم وتلاعبهم بعقول الجهال فإن قيل إن النبي صلى الله عليه وسلم قد قال (إن نبياً من الأنبياء كان يخط فمن وافق خطه فذاك) رواه مسلم فالجواب أن هذا ورد على النبي صلى الله عليه وسلم بصيغة سؤال من معاوية بن الحكم إذ قال يا رسول الله منا رجالٌ يخطون فأجابه بما يستحيل معرفته إلا بوحيٍ وهو موافقة خط نبيٍ من الأنبياء فمن ذا الذي يعلم أنه وافق خط ذلك النبي فهذا سؤالٌ تعجيزي لغلق باب الخط في الأرض ، فإن قيل فما الحكمة من كون ذاك النبي يخط وهو لا يعلم إلا ما أوحاه الله إليه فالجواب أن الله قد يبتلي العباد ليختبرهم كما ابتلاهم بهاروت وماروت يعلمان الناس السحر ، وكما سيبتليهم بالدجال ، فالله جل وعلا ابتلاهم بهذا النبي الذي يخط في الأرض خط صدقٍ ليأتي دجالون يخطون خط كذب يزعمون أنهم أخذوه عن ذاك النبي ليلبسوا على الناس ، ونبينا صلى الله عليه وسلم وهو المؤيد بالوحي وهو أعلم الناس لم يعرف طريقة خط ذاك النبي فكيف بهؤلاء الجهال الكذبة ، فهو علمٌ خاصٌ بذاك النبي كما خصَّ سليمان عليه السلام بالملك العظيم ، ولذلك لم يسع النبي صلى الله عليه وسلم إلى طلبه والبحث عنه وهو أشد الناس طلباً للخير وبحثاً عنه فدل على أنه لا خير لنا فيه وإنما هو شرفٌ شرّف به ذاك النبي كما شرف إبراهيم بالخلة وموسى بالتكليم ومحمدٌ بهما جميعاً 0

ومثل الخط بالأرض قراءة الفنجان والكف وغير ذلك فكله دجلٌ وكذبٌ وخداع 0

والجبت فسره الحسن هنا برنة الشيطان وتقدم تفسير عمر وغيره بأنه السحر ولذلك ذكر المصنف هذه الأنواع التي هي من الجبت في باب أنواع السحر ، ورنة الشيطان قيل صوته الذي يلبس به على الناس وقيل وحيه وإملائه 0

وقول المصنف : ولأبي داود والنسائي وبن حبان في صحيحه المسند منه / يريد أنهم ذكروا متن الحديث المسند دون تفسير عوف والحسن 0

قال المصنف : وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من اقتبس شعبة من النجوم ، فقد اقتبس شعبة من السحر ، زاد ما زاد). رواه أبو داود وإسناده صحيح .

(من اقتبس) أي تعلم لأن المتعلم يأخذ من العالم العلم كما يأخذ من أراد ضوءاً من صاحب الضوء شعلة وناسب ذكر الاقتباس النجوم لأنها مضيئة وإن كان علم التنجيم منه ما هو مضيء وهو علم التسيير ومنه ما هو مظلم وهو علم التأثير وسيأتي تفصيله في باب التنجيم 0 وقوله (شعبة) أي طائفة ، وهذا الحديث والذي قبله يدلان على الترابط الوثيق بين المنجمين والسحرة والكهان وأن بعضهم من بعض 0

قال المصنف : وللنسائي من حديث أبي هريرة (من عقد عقدةً ثم نفث فيها فقد سحر ، ومن سحر فقد أشرك ، ومن تعلق شيئاً وكل إليه)

أي نفث فيها لأجل السحر وأما من نفث فيها لأجل أن تكون رطبةً ليحكم شدها فليس من السحر والأعمال بالنيات 0

قال المصنف : وعن ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (ألا هل أنبئكم ما العضة ؟ هي النميمة ، القالة بين الناس) . رواه مسلم

العضة هي البهت والتفريق وتطلق على السحر لأنه مبنيٌ على الكذب ويقال للساحر عاض ومنه قوله تعالى {الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ} (91 سورة الحجر) أي سحراً وقيل مفرقاً تفرقوا فيه فقالوا كهانة وقالوا سحراً وقالوا أساطير الأولين وغير ذلك (انظر تاج العروس والفائق في علوم الحديث والأثر) وقد فسرها النبي صلى الله عليه وسلم بقوله (هي النميمة) ثم فسر النميمة فقال (القالة بين الناس) أي نقل القول بينهم على جهة الإفساد لأنه لا يكون الواشي بالإصلاح تماماً كما أخبر بذلك النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد أورد المصنف هذا الحديث في باب أنواع السحر بناءً على أن معنى العضة السحر وأن النميمة من أنواع السحر أو لأن النميمة كالسحر في الإفساد وقطع أواصل المحبة بين الناس ولأن النمام يقصد الأذى بكلامه وعمله على وجه المكر والحيلة كالساحر بل إفساد النمام قد يكون أعظم من إفساد الساحر ولذا نقل بن عبد البر عن يحي بن أبي كثير قوله (يفسد النمام في ساعة ما لا يفسد الساحر في سنة) قال أبو الخطاب في عيون المسائل : ومن السحر السعي بالنميمة والإفساد بين الناس لا كنه يختلف عنه في كون الساحر يكفر والنمام جرمه دون الكفر 0(نقله في فتح المجيد327) والنميمة من كبائر الذنوب قال النبي صلى الله عليه وسلم (لا يدخل الجنة نمام) متفق عليه ومرَّ بقبرين

فقال (إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير بلى إنه كبير أما أحدهما فكان يمشي بالنميمة وأما الآخر فكان لا يستتر من بوله) متفق عليه

ولهما عن ابن عمر رضي الله عنهما ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (إن من البيان لسحراً) .

أي للبخاري ومسلم ومن للتبعيض والبيان الفصاحة والبلاغة فبعضها سحر لكونه يجعل السامع يظن أن الباطل حقاً من شدة بيان صاحبه ، فنبه النبي صلى الله عليه وسلم أمته إلى ذلك لئلا ينخدعوا بكل فصيح حتى يوقفوا كلامه على الكتاب والسنة فما وافقهما من كلامه أخذوا به وما خالفهما رموا به عرض الحائط ، والبيان نعمةٌ من الله إن استغل فيما يرضي الله قال تعالى {الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2) خَلَقَ الْإِنسَانَ (3) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ} (4) سورة الرحمن فلا يتعلق بنفس البيان حكم إنما الحكم متعلقٌ باستخداماته فمن استخدمه في الدعوة إلى الله وبيان الحق للناس كان له به أجرٌ عظيم، وإن استخدمه في الدجل وترويج الباطل والبدع بين الناس كان عليه إثمٌ في ذلك ، ووجه كون البيان من السحر لأنه قد يصرف الناس به إلى الباطل بصورة خفية كفعل الساحر ، حتى أنه ليكون الحق عليه فيسحر الناس بحججه لبيانه فيغلب صاحب الحق ولذا قيل :

تقول هذا مجاج النحل تمدحه وإن تشأ قلت ذا قيء الزنابير

مدحاً وذماً وما جاوزت وصفهما والحق قد يعتريه سوء تعبير

((باب ما جاء في الكهان ونحوهم))

روى مسلم في صحيحه ، عن بعض أزواج النبي صلى الله عليه وسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم قال (من أتى عرَّافاً فسأله عن شيء فصدقه ، لم تقبل له صلاة أربعين يوماً » وعن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال (من أتى كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم) . رواه أبو داود وللأربعة والحاكم وقال : صحيح على شرطهما ، عنه (من أتى عرافاً أو كاهناً فصدقه بما يقول ، فقد كفر بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم). ولأبي يعلى بسند جيد عن ابن مسعود مثله موقوفاً . وعن عمران بن حصين مرفوعاً (ليس منا من تَطير أو تُطير له ، أو تَكهن أو تُكهن له ، أو سَحر أو سُحر له ، ومن أتى كاهناً فصدقه بما يقول ، فقد كفر بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم) . رواه البزار بإسناد جيد ، وروه الطبراني في الأوسط بإسناد حسن من حديث ابن عباس دون قوله : « ومن أتى . . » إلى آخره .

قال البغوي : العراف : الذي يدعي معرفة الأمور بمقدمات يستدل بها على المسروق ومكان الضآلة ونحو ذلك وقيل : هو الكاهن والكاهن هو الذي يخبر عن المغيبات في المستقبل وقيل : الذي يخبر عما في الضمير .

وقال أبو العباس ابن تيمية : العراف : اسم للكاهن والمنجم والرمال ونحوهم ممن يتكلم في معرفة الأمور بهذه الطرق .

وقال ابن عباس في قوم يكتبون (أبا جاد) وينظرون في النجوم: ما أرى من فعل ذلك له عند الله من خلاق .

الكهان جمع كاهن والكاهن كما عرفه البغوي هنا هو الذي يخبر عن المغيبات في المستقبل وقيل الذي يخبر عمَّا في الضمير فيقول أنت تضمر كذا وكذا ومن ذلك قصة النبي صلى الله عليه وسلم مع بن صياد حين أضمر النبي صلى الله عليه وسلم في صدره آيةً من سورة الدخان ((يوم تأتي السماء بدخانٍ مبين)) فقال يابن صياد قد خبأت لك خبيئاً فما هو قال : الدخ فقال النبي صلى الله عليه وسلم (أخسأ فلن تعدو قدرك) أي كونك كاهنٌ كذاب 0 والذي يخبر الكاهن بذلك القرين فإن قرين المخبئ يخبر قرين الكاهن بما خبأ له فيخبر قرين الكاهن الكاهن بذلك فيظن من لا يعرفه أنه صادق وأنه يعلم الغيب وما في الضمائر وقد يكون المخبر شيطاناً آخر غير القرين ، وهكذا يخبر الكاهن بالأمور المستقبلية أخذاً من أوليائه من الجن فإن الجن تسترق السمع من السماء ثم تلقيه على الكاهن فيكذب معها مائة كذبة فيصدقه الناس بتلك الكلمة التي سمعت من السماء ، وفائدة الشياطين من ذلك عبادة الكاهن لهم وما يوقع الناس فيه من المحرمات والشركيات

كتصديقه بادعاء علم الغيب وهذا كفرٌ لكونه تكذيب لقوله تعالى {قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ } (65) سورة النمل ولذا قال النبي صلى الله عليه وسلم ((من أتى كاهنا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد) أي بالقران الذي فيه إفراد الله بعلم الغيب 0 وفائدة الكاهن خدمة الشياطين له وما يحصل عليه من الأموال من المغفلين والحمقى الذين يصدقونه 0 وهذا هو الاستمتاع الذي ذكره الله في كتابه فقال تعالى {وَيَوْمَ يِحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ الإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِيَ أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَليمٌ} (128) سورة الأنعام ويطلق على الكاهن عراف وقيل العراف أشمل فهو يشمل الكاهن والمنجم والرمال وغيرهم من مدعي علم الغيب ، والمقصود أن هذا الباب يشمل كل مدعي علم الغيب بأي طريقةٍ كانت وبأي اسمٍ دعي به ، وطرق أهل الضلال في التلبيس على الناس كثيرة ولذا أورد المصنف هنا الكهنة والعرافين والسحرة والمنجمين في هذا الباب لأنهم من جنسٍ واحد دينهم الكذب وعبادة الشياطين وهدفهم إغواء الناس وأنصارهم الشياطين ، ولذا كان علمهم وعملهم مضادٌ للتوحيد مناقضٌ له فلم يفردوا الله بالعبادة بل تقربوا إلى الشياطين وعصوا رب العالمين وقد أمرهم بمعاداة الشيطان وأولياءه كما قال تعالى {أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (60) وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ} (61) سورة يس وقال تعالى {إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ} (6) سورة فاطر فشتان بين من كان من أولياء الرحمن وبين من كان من أولياء الشيطان أولئك صدق فيهم قوله تعالى{ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ} (102) سورة البقرة

وإتيان الكهان والعرافين والمنجمين ونحوهم على أربعة أنواع :

الأول / أن يسألهم فيصدقهم بما يقولون فهذا يكفر وعلى ذلك أدلةٌ كثيرة منها ماورد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من أتى عرافاً أو كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد) رواه أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه والحاكم وقال صحيح على شرطهما وصححه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم (5939) **وعن جابر بن عبد** الله رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال (من أتى كاهناً فصدقه بما قال فقد كفر بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم) قال في الترغيب والترهيب رواه البزار بإسناد جيد قوي وصححه الألباني فيه حديث رقم (3044) وعن عمران بن حصين رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ليس منا من تطير أو تطير له أو تكهن أو تكهن له أو سحر أو سحر له ومن أتى كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم) رواه البزار بإسناد جيد وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب حديث رقم (3041) صحيح لغيره

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : من أتى عرافاً أو ساحراً أو كاهناً فسأله فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم) رواه البزار وأبو يعلى بإسناد جيد موقوفاً وصححه الألباني موقوفاً في صحيح الترغيب والترهيب حديث رقم (3048) ورواه الطبراني في الكبير وصححهاالألباني في صحيح الترغيب والترهيب حديث رقم (3049) قال عبد الرحمن بن حسن : هذا يدل على كفر الكاهن والساحر بادعائهما علم الغيب وكذا المصدق لهما إذا اعتقد ذلك ورضي به (فتح المجيد331) وذكر العثيمين أن من صدقهم وهو يعلم أن الغيب من خصائص الله فهو كافرٌ كفراً أكبر وإن كان يجهل ذلك فكفرٌ أصغر (القول المفيد541/1)

الثاني / أن يأتيهم وهو عازمٌ ألا يصدقهم وإنما مجرد اطلاع على ما يقولونه فهذا لا تقبل له صلاةٌ أربعين يوماً كما في الحديث الأول الذي ذكره المصنف وهو (من أتى عرافاً فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين يوماً) هذا لفظ مسلم وقد زاد المصنف لفظة (فصدقه بما يقول) وهي ليست موجودةً في الصحيح وإنما هي عند أحمد ولعلها وهمٌ من الراوي لأن الأحاديث تدل على أن تصديقهم كفر كما تقدم 0

الثالث / أن يسألهم ليختبرهم وليتأكد هل هم كهنةٌ حقاً ليحذرهم ويتجنبهم فهذا جائز

الرابع / أن يسألهم ليفضحهم ويكشف للناس كذبهم وخداعهم وعجزهم وليبلغ عنهم الجهات المسئولة عن إقامة الحدود ليقيموا عليهم الحدود فهذا واجب 0

قال المصنف : وقال ابن عباس في قوم يكتبون (أبا جاد) وينظرون في النجوم: ما أرى من فعل ذلك له عند الله من خلاق .

أبا جاد أي حروف الهجاء وقد سميت الحروف أبجدية أو حروف أبا جاد لأنهم جمعوها في كلماتٍ فكانت أول كلمة هي (أبجد) فسموها الحروف الأبجدية لأجل ذلك وهي (أبجد هوز حطي كلمن سعفص قرشت ثخذ ضظغ) ومراد بن عباس رضي الله عنهما أي الذين يربطون بين النجوم وبين هذه الحروف مدعين أنهم يعرفون الغيب بذلك فهؤلاء حكم بن عباسٍ بكفرهم هنا فقال (ما أرى من فعل ذلك له عند الله من خلاق) أي نصيب والذي يحرم من كامل أعماله هو الكافر 0

((باب ما جاء في النشرة))

عن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن النشرة فقال (هي من عمل الشيطان) رواه أحمد بسند جيد . وأبو داود ، وقال : سئل أحمد عنها فقال : ابن مسعود يكره هذا كله وفي (البخاري) عن قتادة : قلت لابن المسيب : رجل به طب أو يؤخذ عن امرأته ، أيحل عنه أو ينشر؟ قال : لا بأس به ، إنما يريدون به الإصلاح ، فأما ما ينفع فلم ينه عنه . انتهى . ورُوي عن الحسن أنه قال : لا يحل السحر إلا ساحر .

قال ابن القيم : النشرة : حل السحر عن المسحور ، وهي نوعان :

حل بسحر مثله ، وهو الذي من عمل الشيطان ، وعليه يحمل قول الحسن ، فيتقرب الناشر والمنتشر إلى الشيطان بما يحب ، فيبطل عمله عن المسحور .

والثاني : النشرة بالرقية والتعوذات والأدوية والدعوات المباحة ، فهذا جائز .

النشرة لغةً / التفريق

اصطلاحاً / حلُّ السحر عن المسحور لأنه يرفعه ويزيله ويفرقه قاله العثيمين (القول المفيد503/1) وقال أبو السعادات : النشرة ضرب من العلاج والرقية يعالج به من يظن أن به مساً من الجن سميت نشره لأنه ينشر بها عنه ما خامره من الداء أي يكشف ويزال (نقله في فتح المجيد 337)

وهي نوعان :

الأول / حل السحر بسحرٍ مثله وهذا محرم وعليه تحمل أحاديث التحريم 0

الثاني / حل السحر بالأوراد والأدوية الشرعية فهذا جائز وعليه يحمل كلام بن المسيب وغيره ممن يجيزون النشرة جمعاً بين النصوص 0

وقد روى بن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ليث بن أبي سليم قال : بلغني أن هؤلاء الآيات شفاء من السحر بإذن الله تقرأ في إناءٍ فيه ماء ثم يصب على رأس المسحور الآية التي في سورة يونس{فَلَمَّا أَلْقَواْ قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللّهَ لاَ يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ (81) وَيُحِقُّ اللّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ} (82) سورة يونس وقوله تعالى {فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} (118) سورة الأعراف إلى آخر الآيات الأربع من سورة الأعراف وقوله تعالى {وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى} (69) سورة طه 0 وقال بن بطال : في كتاب وهب بن منبه أنه يأخذ سبع ورقاتٍ من سدرٍ أخضر فيدقه بين حجرين ثم يضربه بالماء ويقرأ فيه آية الكرسي والقواقل ثم يحسو منه ثلاث حسوات ثم يغتسل به يذهب عنه كل ما به وهو جيدٌ للرجل إذا حبس عن أهله 0 (نقلها في فتح المجيد ص339) وقد اعترض الشيخ حامد فقي رحمه الله على هذه الآثار وقال إنها لم ترد عن النبي صلى الله عليه وسلم فهي بدع وكل بدعةٍ ضلالة وتعقبه الشيخ بن باز رحمه الله وقال : إن التداوي بالقران الكريم والسدر ونحوه من الأدوية المباحة ليس من باب البدع بل هو من باب التداوي وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم (تداووا عباد الله ولا تتداووا بحرام) وثبت في سنن أبي داود في كتاب الطب أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ في ماءٍ وصبه على المريض ، وبهذا نعلم أن التداوي بالسدر وبالقراءة في الماء وصبه على المريض ليس به محذور من جهة الشرع إذا كانت القراءة سليمة وكان الدواء مباحاً(تعليق سماحته على فتح المجيد ص339) وتقدم الكلام عن أحكام النشرة في باب السحر فراجعه إن شئت 0

((باب ما جاء في التطير))

وقول الله تعالى ﴿ أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : 131] وقوله ﴿ قَالَ طَائِرُكُمْ مَّعَكُمْ ﴾ [يس : 19] الآية .

عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (لا عدوى ، ولا طيرة ، ولا هامة ، ولا صفر). أخرجاه . زاد مسلم (ولا نوء ، ولا غول) ولهما عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لا عدوى ولا طيرة ، ويعجبني الفأل). قالوا : وما الفأل ؟ قال (الكلمة الطيبة) ولأبي داود بسند صحيح عن عقبة بن عامر قال : ذكرت الطيرة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال (أحسنها الفأل ، ولا ترد مسلماً فإذا رأى أحدكم ما يكره فليقل : اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت ، ولا يدفع السيئات إلا أنت ، ولا حول ولا قوة إلا بك)

وله من حديث ابن مسعود مرفوعاً : « الطيرة شرك ، الطيرة شرك ، وما منا إلا ، ولكن الله يذهبه بالتوكل » . رواه أبو داود ، والترمذي وصححه ، وجعل آخره من قول ابن مسعود ولأحمد من حديث عبد الله بن عمرو (من ردته الطيرة عن حاجته فقد أشرك) قالوا : فما كفارة ذلك ؟ قال (أن تقول : اللهم لا خير إلا خيرك ، ولا طير إلا طيرك ، ولا إله غيرك) وله من حديث الفضل بن عباس: إنما الطيرة ما أمضاك أو ردك .

الطيرة هي التشاؤم بالطيور وغيرها وقد كان أهل الجاهلية يزجرون الطير فإن اتجه يميناً قالوا سانح أي سنحت الفرصة لتنفيذ العمل وتفاءلوا وإذا اتجه شمالاً قالوا بارح أي مستقر كقول أحد إخوة يوسف{ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىَ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ } (80) سورة يوسف وتشاءموا واستقروا مكانهم وتركوا ما كانوا عازمين على فعله ، وإن استقبلهم قالوا ناطح أو نطيح وإذا استدبرهم قالوا قاعد أو قعيد ويتشائمون من ذلك كله ، وربما كان تشاءمهم بمسموع كتشائمهم بصوت البومة فإذا نعقت على بيت أحدهم قال : نعت إليَّ نفسي أو أحد أهل بيتي ، ويتشاءم أحدهم إذا سمع قائلاً يقول يا خائب يا خسران ونحو ذلك ، وربما كان تشاؤمهم بمرئي كما لو رأى معتوهاً أو مشلولاً أو نحو ذلك ،ويتشائمون بشهر صفر المعروف 0 فجاء الدين

بنبذ هذه المعتقدات وأن هذه المخلوقات لا تضر ولا تنفع وأن الضار النافع هو الله وحده جل في علاه ولذلك وصم النبي صلى الله عليه وسلم المتطيرين بالمشركين لكونهم يعتقدون الضر والنفع فيما سوى الله ، وذكر المصنف هذا الباب في كتاب التوحيد لأجل ذلك فالطيرة لا تتفق مع التوحيد فالموحدين يعلمون أنه لا يضر ولا ينفع إلا الله وأن هذه المخلوقات ليس بيدها ضرٌ ولا نفع ، والطيرة تنافي التوكل والاعتماد على الله وتنافي الرضا بقضاء الله وقدره ، وتزرع في النفس الجبن والخوف والتردد وتنزع منه العزيمة والإقدام والشجاعة وتجعله أسيراً لوساوس الشيطان وتخويفه فأضرارها الدينية والدنيوية كثيرةٌ ولا خير فيها البتة 0

والتطير أنواع :

الأول / أن يعتقد المتطير أن ما تطير به هو الذي يجلب الخير أو يدفع الشر بذاته ، فهذا شركٌ أكبر لأنه اعتقد في المخلوق نفعاً وضراً من دون الله وهذا شرك 0

والثاني / أن يعتقد أن الله تعالى هو الذي يجلب الخير ويدفع الشر وأن هذه الأشياء التي تطير بها إنما هي أسباب وعلاماتٌ للخير والشر فهذا شركٌ أصغر إذا استرسل معه وصده عن حاجته أو مضى إليها بسببه فعن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (الطيرة شرك ، الطيرة شرك ، الطيرة شرك ، وما منا إلا ولكن الله يذهبه بالتوكل) رواه أبو داود واللفظ له والترمذي وابن حبان في صحيحه وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب حديث رقم (3098) وقال الترمذي : سمعت محمد بن إسماعيل يقول كان سليمان بن حرب يقول في هذا الحديث (وما منا إلا ولكن الله يذهبه بالتوكل) هذا عندي قول ابن مسعود . ا0هـ ومعناه ما منا إلا وقد يقع في قلبه شيءٌ من التطير لكن لما كان المؤمن متوكلاً على ربه في جلب المنافع ودفع المضار فإنه يزول عنه ما يجده من الطيرة سريعاً ولا يتأثر به بخلاف الكافر الذي لا يعتمد على الله ولا يتوكل عليه فيتأثر بالطيرة، ولا يكون ما وقع في قلب المؤمن من الطيرة شركاً حتى يعمل بها فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من ردته الطيرة من حاجة فقد أشرك) قالوا يا رسول الله ما كفارة ذلك قال أن يقول أحدهم (اللهم لا خير إلا خيرك ولا طير إلا طيرك ولا إله غيرك) رواه أحمد وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة حديث رقم (1065)

الثالث / أن يقع في قلبه شيءٌ من التطير فيصده ويدافعه ويستعين بالله ويتوكل عليه ويمضي لمقصده فلا شيء عليه 0 فعن معاوية بن الحكم رضي الله عنه قال قلت يا رسول الله أموراً كنا نصنعها في الجاهلية كنا نأتي الكهان قال فلا تأتوا الكهان قال قلت كنا نتطير قال ذلك شيءٌ يجده أحدكم في نفسه فلا يصدنكم . قال قلت ومنا رجال يخطون قال كان نبيٌ من الأنبياء يخط فمن وافق خطه فذاك . رواه مسلم وعن عروة بن عامر رضي

الله عنه قال ذكرت الطيرة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال (أحسنها الفأل ولا ترد مسلما فإذا رأى أحدكم ما يكره فليقل اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت ولا يدفع السيئات إلا أنت ولا حول ولا قوة إلا بالله) رواه أبو داود وضعفه الألباني فيه حديث رقم (3919)

وأما التفاؤل فهو مشروع فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لا عدوى ولا طيرة ويعجبني الفأل) قال قيل وما الفأل قال (الكلمة الطيبة) متفق عليه وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (لا طيرة وخيرها الفأل قالوا وما الفأل ؟ قال الكلمة الصالحة يسمعها أحدكم) متفق عليه وعن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعجبه إذا خرج لحاجةٍ أن يسمع يا راشد يا نجيح . رواه الترمذي وصححه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم (4978) وعن بريدة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان لا يتطير من شيء فإذا بعث عاملا سأل عن اسمه فإذا أعجبه اسمه فرح به ورئي بشر ذلك على وجهه وإن كره اسمه رئي كراهية ذلك على وجهه وإذا دخل قرية سأل عن اسمها فإن أعجبه اسمها فرح به ورئي بشر ذلك في وجهه وإن كره اسمها رئي كراهية ذلك في وجهه . رواه أبو داود وصححه الألباني فيه حديث رقم (3920) وقوله (أحسنها الفأل ، وخيرها الفأل) وفسره بالكلمة الطيبة مع أن الفأل مضادٌ للطيرة في الأصل لاكن لما كان أهل الجاهلية يتفاءلون أحياناً باتجاه الطير لليمين وبسماع مثل كلمة يا رابح ويانجيح ويا راشد ونحو ذلك من الكلمات الطيبة جعله أحسن ما يفعلونه في ذلك ، والتفاؤل فيه حسن ظنٍ بالله وتوكلٌ واعتمادٌ عليه ، بخلاف الطيرة التي فيها سوء ظنٍ بالله وعدم تسليم الأمور إليه ، وكره النبي صلى الله عليه وسلم للاسم المكروه ليس تطيراً بذلك ولكن لمحبته للتفاؤل بالاسم الطيب فلما فاته ذلك بالاسم المكروه حزن ورؤي كراهية ذلك في وجهه عليه الصلاة والسلام بدلالة أول الحديث والله تعالى أعلم 0

وأما قوله صلى الله عليه وسلم (لا عدوى ولا طيرة وإنما الشؤم في ثلاثة المرأة والفرس والدار) متفق عليه وقوله (أن يكن من الشؤم شيءٌ حق ففي الفرس والمرأة والدار) رواه مسلم وعن أنس قال قال رجل يا رسول الله إنا كنا في دار كثر فيها عددنا وأموالنا فتحولنا إلى دار قل فيها عددنا وأموالنا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ذروها ذميمة) رواه أبو داود وحسنه الألباني في مشكاة المصابيح حديث رقم (4589)

فليس المراد أن هذه الثلاث تأتي بالشؤم أو أنها أسبابٌ لها وإنما المراد أنه قد يحصل للمرء شرٌ من هذه الثلاث لطول مصاحبته لها فيتزوج الرجل امرأة غير صالحه فتفسده أو تنقص دينه وربما تزوج الغني امرأةً كثيرة الطلبات فأتلفت ماله بكثرة طلباتها وربما رزق بمولودٍ منها حصل من وراءه شرٌ كثير ، وهكذا الدابة فكم من سيارةٍ

أزهقت صاحبها وكلفته بكثرة أعطالها وتجدد خرابها وكلما أصلح عطلاً بدا عطلٌ آخر ، وهكذا الدار إما بكثرة خراباتها أو بوجود جيران السوء عندها أو بغير ذلك فهذا كله شر حصل من هذه الثلاث لكن لم يكن الشؤم من عندها أو بأسبابها إنما السبب معاصي الرجل نفسه فهي أصل كل شؤمٍ على بني آدم فيبتلى بظهور الشؤم في هذه الثلاث أكثر من غيرها لكثرة مصاحبته لها ولحاجته إليها وكثرة تعلقه بها ، ولذا قال أحد السلف : إني لأعصي الله فأرى شؤم معصيتي في خلق دابتي وزوجتي 0 ولو كان الرجل صالحاً يخاف الله ويخشاه حق الخشية لرزقه الله زوجةً صالحة طيبة كما قال تعالى {الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ } (26) سورة النور وهكذا الدار والدابة فلو كان صالحاً لأصلح الله له دابته ومسكنه وبارك له في ذلك ورزقه من حيث لا يحتسب كما قال تعالى {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ} (96) سورة الأعراف

ولذلك قال أهل العلم من وقع في نفسه شؤمٌ من هذه الثلاث جاز له أن يفارقها من غير أن يعتقد نسبة الفعل إليها 0

والعلماء مختلفين في هذا الحديث على أقوال هي كالتالي :

القول الأول / تخصيص هذه الثلاث وأنها مستثناة من أحاديث النهي عن الطيرة فمعنى الحديث عندهم الطيرة محرمة إلا من هذه الثلاث ، لكن هذا الشؤم قد جاء بتقدير الله وليس كما يعتقد أهل الجاهلية في الطيرة أنها تضر وتنفع بذاتها 0 قال النووي : واختلف العلماء في هذا الحديث فقال مالك وطائفة: هو على ظاهره وأن الدار قد يجعل الله تعالى سكناها سبباً للضرر أو الهلاك، وكذا اتخاذ المرأة المعينة أو الفرس أو الخادم قد يحصل الهلاك عنده بقضاء الله تعالى (المنهاج عند شرحه لباب الطيرة والفأل في كتاب السلام من صحيح مسلم) وقال بن حجر : قال بن قتيبة ووجهه أن أهل الجاهلية كانوا يتطيرون فنهاهم النبي صلى الله عليه وسلم وأعلمهم أن لا طيرة فلما أبوا أن ينتهوا بقيت الطيرة في هذه الأشياء الثلاثة قلت فمشى بن قتيبة على ظاهره ويلزم على قوله أن من تشاءم بشيءٍ منها نزل به ما يكره قال القرطبي ولا يظن به أنه يحمله على ما كانت الجاهلية تعتقده بناء على أن ذلك يضر وينفع بذاته فإن ذلك خطأ وإنما عنى أن هذه الأشياء هي أكثر ما يتطير به الناس فمن وقع في نفسه شيءٌ أبيح له أن يتركه ويستبدل به غيره (فتح الباري عند شرحه لكتاب الجهاد والسير باب ما يذكر من شؤم الفرس)

القول الثاني / أن الشؤم الذي قد يقع بهؤلاء الثلاث ظاهرٌ بيّن بخلاف الطيرة التي كان عليها أهل الجاهلية والتي لا وجه لها حساً ولا عقلاً ولا شرعاً ، فإذا كان شؤم الشيءِ ظاهرٌ بين جاز أن تتشاءم به كما لو قلت

: المعاصي شؤمٌ على مرتكبها ، وسوء الخلق شؤم على صاحبه ، والابن العاق شؤم على والديه وهكذا فهذه أمورٌ ظاهرةٌ معروفة شرعاً وحساً فكذلك هذه الثلاث الشؤم الحاصل منها إن حصل ظاهرٌ معروف فقيل : إن شؤم المرأة إذا كانت غير ولود ، وشؤم الفرس إذا لم يغز عليه ، وشؤم الدار جار السوء 0 وقيل إن شؤم الدار ضيقها وسوء جيرانها وأذاهم، وشؤم المرأة عدم ولادتها وسلاطة لسانها وتعرضها للريب، وشؤم الفرس حرانها وغلاء ثمنها وأن لا يغزى عليها 0 قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ثلاثة من السعادة المرأة الصالحة تراها تعجبك وتغيب فتأمنها على نفسها ومالك ، والدابة تكون وطيئة فتلحقك بأصحابك ، والدار تكون واسعة كثيرة المرافق ، وثلاث من الشقاء المرأة تراها فتسوؤك وتحمل لسانها عليك وإن غبت عنها لم تأمنها على نفسها ومالك ، والدابة تكون قطوفاً فإن ضربتها أتعبتك وإن تركتها لم تلحقك بأصحابك ، والدار تكون ضيقةً قليلة المرافق) رواه الحاكم وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب حديث رقم (1915) وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من سعادة ابن آدم ثلاثة ومن شقاوة ابن آدم ثلاثة من سعادة ابن آدم المرأة الصالحة والمسكن الصالح والمركب الصالح ومن شقاوة ابن آدم المرأة السوء والمسكن السوء والمركب السوء) رواه أحمد وغيره وصححه الألباني لغيره في صحيح الترغيب والترهيب حديث رقم (1914) قال الإمام ابن القيم : وبالجملة فإخباره بالشؤم أنه يكون في هذه الثلاثة ليس فيه إثبات الطيرة التي نفاها ، وإنما غايته أن الله سبحانه قد يخلق منها أعياناً مشؤومةً على من قاربها وسكنها ، وأعياناً مباركةً لا يلحق من قاربها منها شؤمٌ ولا شر ، وهذا كما يعطى سبحانه الوالدين ولداً مباركاً يريان الخير على وجهه ، ويعطى غيرهما ولداً مشؤماً نذلاً يريان الشر على وجهه ، وكذلك ما يعطاه العبد من ولايةٍ أو غيرها ، فكذلك الدار والمرأة والفرس ، والله سبحانه خالق الخير والشر ، والسعود والنحوس ، فيخلق بعض هذه الأعيان سعوداً مباركةً ويقضي بسعادة من قارنها وحصول اليمن له والبركة ، ويخلق بعض ذلك نحوساً يتنحس بها من قارنها ، وكل ذلك بقضائه وقدره كما خلق سائر الأسباب وربطها بمسبباتها المتضادة والمختلفة ، فكما خلق المسك وغيره من حامل الأرواح الطيبة ولذذ بها من قارنها من الناس ، وخلق ضدها وجعلها سبباً لإيذاء من قارنها من الناس ، والفرق بين هذين النوعين يدرك بالحس ، فكذلك في الديار والنساء والخيل ، فهذا لون والطيرة الشركية لون آخر 0

القول الثالث / أن هذه الثلاث بحكم طول الملازمة والمصاحبة ، تكون في الغالب محالاً وظروفاً لحصول المكروه فيقع المكروه عندها، فيقع الشؤم بها، لا أنها هي سبب ذلك المكروه 0 بمعنى أنه لو مات من عائلة المرء قومٌ في هذه الدار في زمنٍ يسير فإن المرء قد يتشاءم بهذه الدار رغم أن المكروه وقع عندها لا بسببها 0 قال الخطابي:

اليُمن والشؤم سمتان لما يصيب الإنسان من الخير والشر والنفع والضر، ولا يكون شيءٌ من ذلك إلا بمشيئة الله وقضائه ، وإنما هذه الأشياء محالٌ وظروفٌ جُعِلَت مواقع لأقضيته، ليس لها بأنفسها وطباعها فعلٌ ولا تأثيرٌ في شيء ، إلا أنها لما كانت أعم الأشياء التي يقتنيها الناس ، وكان الإنسان في غالب أحواله لا يستغني عن دارٍ يسكنها وزوجةٍ يعاشرها وفرسٍ يرتبطه ، وكان لا يخلو من عارض مكروهٍ في زمانه ودهره أُضيف اليُمن والشؤم إليها إضافة مكانٍ ومحل وهما صادران عن مشيئة الله سبحانه 0 (أعلام الحديث 1379/2) وقال ابن قتيبة في حديث أنس: إنما أمرهم بالتحول منها لأنهم كانوا مقيمين فيها على استثقالٍ لظلها واستيحاشٍ بما نالهم فيها، فأمرهم بالتحول ، وقد جعل الله في غرائز الناس وتركيبهم استثقال ما نالهم السوء فيه ، وإن كان لا سبب له في ذلك، وحب من جرى على يده الخير لهم وإن لم يردهم به، وبغض من جرى على يده الشر لهم وإن لم يردهم به 0 (تأويل مختلف الحديث ص: 99)

القول الرابع / أن أصل الحديث إخبارٌ عما يتشاؤم به أهل الجاهلية غالباً فإنهم أكثر ما يتشائمون به هذه الثلاث لطول صحبتهم لها ، فحصل لبسٌ من الرواة فذكروا أن النبي صلى الله عليه وسلم يثبت الطيرة في هذه الثلاث والحقيقة أنه ينفيها ويذكر ما كان عليه أهل الجاهلية من التطير بهذه الأشياء ولذلك أنكرت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر الشؤم في هذه الثلاث ، فقد قيل لها إن أبا هريرة رضي الله عنه يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (الشؤم في ثلاث : في الدار والمرأة والفرس) فقالت والذي أنزل الفرقان على محمدٍ ما قالها رسول الله صلى الله عليه وسلم قط ، إنما كان أهل الجاهلية يتطيرون من ذلك وفي رواية قالت : ولكن نبي الله صلى الله عليه وسلم كان يقول (كان أهل الجاهلية يقولون : الطيرة في المرأة والدار والدابة) ، ثم قرأت عائشة رضي الله عنها {مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} (22) سورة الحديد رواه أحمد وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة حديث رقم (993) وروى أبو داود الطيالسي عن مكحول أنه قال : قيل لعائشة : إن أبا هريرة رضي الله عنه يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (الشؤم في ثلاث : في الدار والمرأة والفرس) فقالت عائشة رضي الله عنها : لم يحفظ أبو هريرة لأنه دخل ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (قاتل الله اليهود ، يقولون : إن الشؤم في الدار والمرأة والفرس) فسمع آخر الحديث ولم يسمع أوله قال الألباني : إسناده حسن لولا الانقطاع بين مكحول وعائشة ، لكن لا بأس به في المتابعات والشواهد إن كان الرجل الساقط من بينهما هو شخص ثالث غير العامريين المتقدمين 0 وقد روى الإمام أحمد عن أبي معشر عن محمد بن قيس قال : سئل أبو هريرة

رضي الله عنه : سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم (الطيرة في ثلاث : في المسكن والفرس والمرأة) ؟ قال : إذاً أقول على رسول الله صلى الله عليه وسلم ما لم يقل ، ولكني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (أصدق الطيرة الفأل ، والعين حق) . ولكن هذه الرواية ضعيفة لضعف أبي معشر وللانقطاع بين محمد بن قيس وأبي هريرة رضي الله عنه ، وروى الطبري في تهذيب الآثار عن ابن أبي مليكة قال : قلت لابن عباس رضي الله عنهما: كيف ترى في جاريةٍ لي في نفسي منها شيء ؟ فإني سمعتهم يقولون : قال نبي الله صلى الله عليه وسلم (إن كانت الطيرة في شيء ففي الربع والفرس والمرأة) ، قال : فأنكر أن يكون سمع ذلك من النبي صلى الله عليه وسلم أشد النكرة ، وقال : إذا وقع في نفسك منها شيء ففارقها ، بعها أو أعتقها 0

القول الخامس / أن الأحاديث لا تدل على إثبات الشؤم في هذه الثلاث بل تدل على النفي وذلك بحمل رواية الجزم . وهي (إنما الشؤم في ثلاث ...) ورواية (الشؤم في ثلاث ...) . على رواية التعليق . وهي (إن كان الشؤم في شيء ...) وما في معناها . لأن رواية الجزم لم ترد إلا من حديث ابن عمر وأبي هريرة رضي الله عنهما أما رواية التعليق فقد وردت من عدة طرق عن عددٍ من الصحابة حتى رويت من طريق ابن عمر نفسه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال (إن كان الشؤم في شيءٍ ففي الدار والمرأة والفرس) متفق عليه .وعن سهل بن سعد رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال (إن كان في شيء ففي المرأة والفرس والمسكن يعني الشؤم) متفق عليه وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال (لا عدوى ولا طيرة ولا هام ، إن تكن الطيرة في شيء ففي الفرس والمرأة والدار) رواه أبو داود وصححه الألباني فيه حديث رقم (3921) وعن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (إن يك في شيءٍ ففي الربعة والمرأة والفرس) رواه مسلم وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال (لا طيرة ، والطيرة على من تطير ، وإن تك في شيءٍ ففي الدار والفرس والمرأة) رواه بن حبان وقال بن حجر في الفتح: وفي صحته نظر لأنه من رواية عتبة بن حميد عن عبيد الله بن أبي بكر عن أنس وعتبة مختلف فيه وهذا يدل على أن رواية التعليق هي المحفوظة ، فتحمل رواية الجزم عليها . ويكون معنى الحديث : لو كانت الطيرة مؤثرة في شيء لكان أول تأثيرها في هذه الثلاث لأنها أكثر ما يلازم المرء لكن لما لم تؤثر فيها ففي غيرها من باب أولى فالأحاديث تدل على النفي لا على الإثبات قال ابن جرير الطبري : وأما قوله صلى الله عليه وسلم (إن كان الشؤم في شيء ففي الدار والمرأة والفرس) فإنه لم يثبت بذلك صحة الطيرة ، بل إنما أخبر صلى الله عليه وسلم أن ذلك إن كان في شيء ففي هذه الثلاث ، وذلك إلى النفي أقرب منه إلى الإيجاب ، لأن قول

القائل : إن كان في هذه الدار أحدٌ فزيد . غير إثباتٍ منه أن فيها زيداً ، بل ذلك من النفي أن يكون فيها زيد أقرب منه إلى الإثبات أن فيها زيداً 0 وقال الطحاوي : لم يخبر أنها فيهن ، وإنما قال : إن تكن في شيء ففيهن ، أي لو كانت تكون في شيء لكانت في هؤلاء ، فإن لم تكن في هؤلاء الثلاثة فليست في شيء 0 وقال الألباني : الحديث يعطي بمفهومه أن لا شؤم في شيء لأن معناه : لو كان الشؤم ثابتاً في شيءٍ ما لكان في هذه الثلاثة ، لكنه ليس ثابتاً في شيءٍ أصلاً . وعليه فما في بعض الروايات بلفظ (الشؤم في ثلاثة) فهو اختصار وتصرف من بعض الرواة 0 السلسلة الصحيحة حديث رقم (442) وقد روي ما يؤكد عدم الشؤم في هذه الثلاث فعن مخمر بن معاوية قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (لا شؤم وقد يكون اليمن في ثلاثة في المرأة والفرس والدار) رواه بن ماجة وصححه الألباني فيه حديث رقم (1993) ورواه الترمذي عن حكيم بن معاوية **وعن عروة البارقي قال** قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (الخيل معقودٌ في نواصيها الخير إلى يوم القيامة) رواه النسائي وصححه الألباني حديث رقم (3574)

القول السادس / أن الشؤم بها يقع على من تطير بها دون من لم يتطير بها واستدلوا بحديث أنسٍ أن النبي صلى الله عليه وسلم قال (لا طيرة ، والطيرة على من تطير ...) فقد يجعل الله تعالى تطير العبد وتشاؤمه سبباً لحلول المكروه به ، كما يجعل الثقة والتوكل عليه وإفراده بالخوف والرجاء من أعظم الأسباب التي يدفع بها الشر عنه 0

القول الراجح عندي / القول الثاني وقد بينت وجهه قبل ذكر الأقوال ، وأما القول الأول فإنه يعارض الأحاديث الصحاح في نفي الطيرة مطلقاً حتى في الحديث الذي ذكر الشؤم في هذه الثلاث قد نفى فيه النبي صلى الله عليه وسلم الطيرة فقال (لا عدوى ولا طيرة وإنما الشؤم في ثلاثة المرأة والفرس والدار) متفق عليه فتبين أن الشؤم المذكور في هذه الثلاث غير الطيرة المنفية لأنه لو كان مستثنئً منها لقال (لا طيرة إلا في ثلاث ...) والنبي صلى الله عليه وسلم كان يبين للناس بأوضح عبارةٍ وأسهل كلام 0

وأما القول الثالث فيرده أن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر أن الشؤم في هذه الثلاث لا عندها وقد بينا وجه الشؤم بها وأما ما يقع عندها من المصائب فلا يجوز التشاؤم بها لأجل ذلك فهذا من فعل الجاهلية كمن يتشاءم بزوجته لكونها لا تلد الذكور فهذا فعل من لا يؤمن بقضاء الله وقدره وليس للمرأة في ذلك فعلٌ حتى يقع الشؤم منها وهكذا كثرة الموت في الدار إذا لم يكن بسبب تسمم جدرانها أو تهدم أركانها أو نحو ذلك وإلا فلا

يجوز التشاؤم بها وأما حديث أنس أن رجلاً قال : يا رسول الله إنا كنا في دارٍ كثر فيها عددنا وأموالنا فتحولنا إلى دارٍ قل فيها عددنا وأموالنا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ذروها ذميمة) رواه أبو داود وحسنه الألباني في مشكاة المصابيح حديث رقم (4589) فقد أجاب عنه بن قتيبة بقوله : إنما أمرهم بالتحول منها لأنهم كانوا مقيمين فيها على استثقالٍ لظلها واستيحاشٍ بما نالهم فيها، فأمرهم بالتحول ، وقد جعل الله في غرائز الناس وتركيبهم استثقال ما نالهم السوء فيه ، وإن كان لا سبب له في ذلك، وحب من جرى على يده الخير لهم وإن لم يردهم به، وبغض من جرى على يده الشر لهم وإن لم يردهم به 0 (تأويل مختلف الحديث ص: 99) قلت وقد يكون معنى قوله (ذروها ذميمة) أي الطيرة واعتقاد الشؤم في الدار بغير أمرٍ محسوس ظاهر وأما الموت فلا علاقة للدار به وحينئذٍ يكون تشاؤمكم منها من الطيرة المحرمة (فذروها) أي الطيرة فإنها (ذميمة) لا خير فيها 0

وأما القول الرابع فقد أجيب عنه بأن الحديث ثابتٌ من عدة طرق وعن عدد من الصحابة رضوان الله عليهم غير أبي هريرة . قال الإمام ابن القيم: قول عائشة هذا مرجوح ، ولها ـ رضي الله عنها ـ اجتهادٌ في رد بعض الأحاديث الصحيحة خالفها فيه غيرها من الصحابة ، وهي ـ رضي الله عنها ـ لما ظنَّت أن هذا الحديث يقتضي إثبات الطيرة التي هي من الشرك لم يسعها غير تكذيبه ورده ، ولكن الذين رووه ممن لا يمكن رد روايتهم ، ولم ينفرد بهذا أبو هريرة وحده ، ولو انفرد به فهو حافظ الأمة ا0هـ0 وقال الحافظ ابن حجر : ولا معنى لإنكار ذلك على أبي هريرة مع موافقته من ذكرنا من الصحابة له في ذلك 0

وأما القول الخامس فجوابه : أن رواية الجزم ثابتةٌ في الصحيحين فلا يمكن نسفها والقول بأنها غلطٌ من الرواة أو أنهم رووها بالمعنى ثم خالفوا المعنى الصحيح وهم أئمةٌ ثقات ثم إنه يمكن الجمع بين الروايات فلا يصار إلى الترجيح إلا مع تعذر الجمع والجمع ممكن كما بينا 0

وأما القول السادس فجوابه أن معنى الحديث (وإثم الطيرة على من تطير) لأن النبي صلى الله عليه وسلم نفى الطيرة فكيف يقال إنه أثبتها بعد نفيه لها هذا تناقضٌ ينزه عنه كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم فيكون المعنى ما ذكرنا منعاً للتناقض ، وهذا إذا صح الحديث وإلا فقد قال بن حجر في الفتح: في صحته نظر لأنه من رواية عتبة بن حميد عن عبيد الله بن أبي بكر عن أنس وعتبة مختلف فيه لكن حسنه الألباني كما في طبعة بيت الأفكار الدولية لصحيح بن حبان حديث رقم (6090)

((تفسير النصوص التي استدل بها المصنف على نفي الطيرة))

قوله تعالى {فَإِذَا جَاءتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ} (131) سورة الأعراف يخبر تعالى عن حال قوم فرعون وأنهم إذا جاءهم الله بالخصب والسعة والعافية ((قالوا لنا هذه)) أي نحن جديرون بها ولا ينسبون النعمة إلى المنعم جل في علاه ((وإن تصبهم سيئة)) قحطٌ وبلاء ((يطيروا بموسى ومن معه)) أي يتشائمون بهم ويقولون جاءنا هذا الجدب والبلاء بسببهم ((ألا إنما طائرهم عند الله)) أي إنما جاءهم هذا القحط والبلاء من الله بسبب ما جنته أيديهم من الذنوب والعصيان كما قال تعالى {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} (41) سورة الروم وهذا التطير من الصالحين ذكره أصحاب القرية كما قال تعالى {وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءهَا الْمُرْسَلُونَ} (13) سورة يس إلى قوله تعالى {قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (18) قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ} (19) سورة يس أي شؤمكم معكم وهو كفركم وتكذيبكم وعنادكم واستكباركم على الله وعصيانه والتمرد على أوامره هو الذي سبب لكم الشؤم ، ولم يأتكم الشؤم من الصالحين بل على العكس لو أطعتموهم لذهب عنكم الشؤم والبلاء والصالحين سببٌ للخير والنعماء على أهل الأرض كما قال تعالى {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ} (96) سورة الأعراف

قال المصنف عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (لا عدوى ، ولا طيرة ، ولا هامة ، ولا صفر). أخرجاه . زاد مسلم (ولا نوء ، ولا غول)

((تعريف العدوى وخلاف العلماء في العدوى المنفية))

العدوى / مجاوزة العلة من صاحبها إلى غيره 0

والمنفي ما كان يعتقده أهل الجاهلية من أن العدوى تنتقل بذاتها بغير تقديرٍ من الله فنفى النبي صلى الله عليه وسلم ذلك الاعتقاد وإلا فإن انتقال بعض الأمراض من المريض إلى الصحيح لا نفي فيه فإنه معلومٌ حساً وشرعاً فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم (فرَّ من المجذوم فرارك من الأسد) رواه البخاري وقال صلى الله عليه

وسلم (لا يورد ممرضٌ على مصح) رواه مسلم ونهى صلى الله عليه وسلم عن القدوم إلى بلدٍ فيها طاعون وورد عن عمرو بن الشريد عن أبيه قال كان في وفد ثقيف رجلٌ مجذوم فأرسل إليه النبي صلى الله عليه وسلم إنا قد بايعناك فارجع . رواه مسلم قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن : أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن ذلك كله بقضاء الله وقدره والعبد مأمورٌ باتقاء أسباب الشر إذا كان في عافية فكما أنه يؤمر ألا يلقي نفسه في النار أو الماء مما جرت العادة أنه يهلك أو يضر فكذلك اجتناب مقاربة المريض كالمجذوم وكالقدوم على بلد الطاعون فإن هذه أسبابٌ للمرض والتلف ، فالله سبحانه هو خالق الأسباب ومسبباتها لا خالق غيره ولا مقدر سواه ، وأما إذا قوي التوكل على الله والإيمان بقضاء الله وقدره فقويت النفس على مباشرة بعض هذه الأسباب إعتماداً على الله ورجاءً منه ألا يحصل به ضرر ، ففي هذه الحالة تجوز مباشرة ذلك لا سيما إذا كانت مصلحة عامة أو خاصة وعلى هذا يحمل الحديث الذي رواه أبو داود والترمذي أن النبي صلى الله عليه وسلم أخذ بيد مجذوم فأدخلها معه في القصعة ثم قال (كل بسم الله ثقةً بالله وتوكلاً عليه) ورواه ابن ماجه وضعفه الألباني في مشكاة المصابيح حديث رقم (4585) وروي ذلك عن عمر وابنه وسلمان ونظيره ما روي عن خالد بن الوليد أنه أكل السم 0ا0هـ(فتح المجيد344)

فهذه الأحاديث يبين بعضها بعضاً وليست متناقضة فنفى النبي صلى الله عليه وسلم ما كان يعتقده أهل الجاهلية من انتقال العدوى بذاتها ، وبين أنه اعتقادٌ باطل وأن العدوى لا تنتقل إلا بتقديرٍ من الله وأن العدوى سببٌ من أسباب المرض لكن قد يوقع الله بها المرض وقد لا يوقع بها المرض ، وأثبت انتقال العدوى بتقدير الله ، وحث على تجنب أسباب المرض ثم أراد أن يؤكد بفعله في الحديث الأخير أن العدوى لا تنتقل بذاتها بل هي سبب ولا يلزم من فعل السبب حدوث أسبابه بل كل ذلك بتقدير الله فهو خالق السبب وموجد أسبابه فمن كان في موقفٍ كهذا يريد بيان الحق للناس جاز له أن يقتحم أسباب العطب ليبين للناس أن الله هو الذي بيده الضر والنفع وأن هذه مجرد أسبابٍ إذا شاء الله أن يوقعها أوقعها وإذا شاء أن يمنعها منعها ، مع تمام توكله على الله واعتماده عليه ألا يجعل هذا السبب يضره كما فعل خالد بن الوليد عندما شرب السم فلم يضره وقد ألقي إبراهيم في النار وهي سبب للإحراق فكانت عليه برداً وسلاماً وفي هذا الخبر مؤاكلة المجذوم والجذام من الأمراض المعدية بتقدير الله ومع هذا لم ينتقل هذا الداء إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وقيل لا يجوز اقتحام أسباب العطب مطلقاً وقالوا هذا الحديث في مؤاكلة النبي صلى الله عليه وسلم للمجذوم ضعيف ، وقد ذكر بن الجوزي في كتاب الأذكياء أن الشيطان جاء إلى عيسى عليه السلام فقال : ألست تزعم أنه لن يصيبك إلا ما كتب الله لك قال : بلى 0 قال : فارم بنفسك من هذا الجبل فإنه إن قدر الله لك السلامة فستسلم 0 فقال إن الله هو الذي يختبر العبد وليس للعبد أن يختبر الله 0

وقد اختلف العلماء في هذه الأحاديث على عدة أقوال :

القول الأول وهو الراجح / ما قدمنا من أن العدوى المنفية هي ما كان يعتقده أهل الجاهلية من أنها تنتقل بذاتها بغير تقديرٍ من الله ، وأما انتقالها بتقدير الله فلا نفي فيه

القول الثاني / أن الأمر باجتناب المرضى منسوخٌ بأحاديث إنكار العدوى ونسب هذا القول لعمر بن الخطاب وعيسى بن دينار من المالكية

ويجاب / بأن دعوى النسخ لا بد لها من دليل ثم إن الحديث الذي فيه الأمر بالفرار من المجذوم هو نفسه الحديث الذي فيه نفي العدوى فقد قال صلى الله عليه وسلم (لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر وفر من المجذوم فرارك من الأسد) رواه البخاري فتبين أن الأمر بالفرار من المجذوم لا يعارض نفي العدوى كما ذكرنا في القول الأول 0 قال النووي في شرح مسلم : حكى المازري والقاضي عياض عن بعض العلماء أن حديث "لا يورد ممرض على مصح" منسوخ بحديث "لا عدوى" وهذا غلط لوجهين: أحدهما: أن النسخ يشترط فيه تعذر الجمع بين الحديثين ولم يتعذر بل قد جمعنا بينهما. والثاني: أنه يشترط فيه معرفة التاريخ وتأخر الناسخ وليس ذلك موجوداً هنا 0

القول الثالث / ترجيح الأحاديث التي فيها نفي العدوى على الأحاديث التي فيها الأمر باجتناب المرضى وقالوا عن حديث (فر من المجذوم) أنه شاذٌ مخالفٌ للأحاديث المتكاثرة في نفي العدوى وقد أنكرته عائشة واخبرت أن لها مولىً كان به هذا الداء وكان يأكل ويشرب من آنيتها 0

ويجاب / بأنه لا يصار إلى الترجيح مع إمكان الجمع بين الأحاديث وقد بيناه 0

القول الرابع / ترجيح الأحاديث التي فيها الأمر باجتناب المرضى على الأحاديث التي فيها نفي العدوى لأن أبا هريرة رجع عنه إما لشكه فيه وإما لثبوت عكسه عنده والأخبار الدالة على الاجتناب أكثر فالمصير إليها أولى وأما حديث جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم أخذ بيد مجذوم فوضعها في القصعة وقال (كل ثقةً بالله وتوكلاً عليه) فقد ضعفه الألباني (انظر مشكاة المصابيح حديث رقم (4585) وقال بن حجر : فيه نظر وقد أخرجه الترمذي وبين الاختلاف فيه على راويه ورجح وقفه على عمر وعلى تقدير ثبوته فليس فيه أنه صلى الله عليه وسلم أكل معه وإنما فيه أنه وضع يده في القصعة 0

ويجاب / بأن حديث لا عدوى ثبت من غير طريق أبي هريرة فصح عن عائشة وابن عمر وسعد بن أبي وقاص وجابر وغيرهم فلا يُعَلُ بتراجع أبي هريرة ، ثم إنه لا يصار إلى الترجيح مع إمكان الجمع بين الأحاديث وقد بيناه 0

القول الخامس / تخصيص ما ورد به النص أنه معدي كالجذام والجرب والبرص ونحوها من عموم حديث (لا عدوى) ويبقى ما سواها على نفي العدوى ونسب هذا القول إلى الباقلاني وبن بطال 0

ويجاب / بأن التخصيص لا بد له من دليل ولا دليل عليه فيما نعلم 0

القول السادس / أن المرض قد ينتقل بالملامسة والمخالطة والعدوى المنفية هي التي يعتقد انتقالها بغير ملامسة ولا مخالطة كمن يفر من بلد الطاعون فهذا منهيٌ عنه لكونه اعتقد العدوى بغير ملامسةٍ ولا مخالطة 0

ويجاب / بأن أهل بلد الطاعون قد يختلطون لحاجة الناس بعضهم لبعض وإنما نهي عن الفرار من بلد الطاعون خشية أن ينتقل الوباء إلى بلدٍ آخر فهو إلى إثبات العدوى أقرب منه إلى نفيها 0

القول السابع / أن الأمر بمجانبة المرضى هو من باب سد الذرائع التي توصل للمحرم فخشية أن يصاب الصحيح بنفس مرض المريض بتقدير الله فيعتقد أنه من العدوى المنفية فيقع فيما اعتقده أهل الجاهلية فسداً لهذا الباب أمر النبي صلى الله عليه وسلم بمجانبة المرضى ، ونسب هذا القول لمالك والطبري والطحاوي وبن خزيمة وغيرهم 0

ويجاب / بأن انتقال بعض الأمراض من المريض إلى الصحيح ثابتٌ بالطب ، والشرع لا يصادم ما أثبته أهل الاختصاص فتعين أن يكون المراد ما ذكرنا من أن العدوى المنفية هي التي كان يعتقدها أهل الجاهلية ، وليس المراد نفي العدوى مطلقاً بدليل أنه نفى في الأحاديث أموراً لا يمكن نفي حقيقتها كشهر صفر والأنواء والغول والهامة عند من يقول إنها البومة فتبين أن المراد نفي معتقدات أهل الجاهلية فيها لا نفي وجودها 0

مسألة / عن أبي هريرة رضي الله عنه حين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لا عدوى ولا صفر ولا هامة) فقال أعرابي: يا رسول الله. فما بال الإبل تكون في الرمل كأنها الظباء، فيجيء البعير الأجرب فيدخل فيها فيجربها كلها؟ قال (فمن أعدى الأول) أخرجاه في الصحيحين أي أنتم تعلمون أن الأول لم يأته الجرب بعدوىً تنتقل بطبعها وإنما جاءه بتقدير الله فكذلك الذي أعداها هذا البعير الأول ليس انتقال العدوى منه إليها انتقالاً

بالطبيعة بغير تقديرٍ من الله بل هو بتقدير الله وهذا من أقوى الأجوبة المفحمة لمن يدعي أن العدوى تنتقل بذاتها بغير تقديرٍ من الله فسبحان من أعطى نبيه جوامع الكلم

قوله صلى الله عليه وسلم (ولا هامة) قيل هي البومة وقيل هي طائرٌ آخر فيتشائمون به إذا وقع على بيت أحدهم أو سمعوا نعاقها وقالوا تنعى لنا أنفسنا أو أحد أهل دارنا (فتح المجيد246) وقيل إنهم كانوا يزعمون أن هذا الطير هو روح الميت وأنها تصرخ طلباً للثأر إذا كان مقتولاً (القول المفيد563/1) 0

قوله صلى الله عليه وسلم (ولا صفر) قيل هو شهر صفر المعروف كانوا يتشائمون به وربما تشائموا بغيره من الشهور كشوال في النكاح خاصة فأخبرت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أن النبي عقد عليها وتزوجها في شوال وكانت أحظى نسائه عنده وربما تشائموا بيوم الأربعاء وهكذا حياتهم شومٌ في شوم فأبطلها الإسلام وجاء بالفأل لأن فيه حسن ظنٍ بالله بخلاف الطيرة التي يكون فيها سوء ظنٍ بالله وتعلقٌ بغيره 0

قال النووي في شرحه لمسلم قوله صلى الله عليه وسلم (ولا صفر) فيه تأويلان:

أحدهما: أن المراد تأخيرهم تحريم المحرم إلى صفر وهو النسيء الذي كانوا يفعلونه وبهذا قال مالك وأبو عبيدة.

والثاني: أن الصفر دواب في البطن وهي دود وكانوا يعتقدون أن في البطن دابةً تهيج عند الجوع وربما قتلت صاحبها وكانت العرب تراها أعدى من الجرب، وهذا التفسير هو الصحيح، وبه قال مطرف وابن وهب وابن حبيب وأبو عبيد وخلائق من العلماء، وقد ذكره مسلم عن جابر بن عبد الله راوي الحديث فيتعين اعتماده، ويجوز أن يكون المراد هذا والأول جميعاً، وأن الصفرين جميعاً باطلان لا أصل لهما 0ا0هـ

قوله صلى الله عليه وسلم (ولا غول) جمعها غيلان وهي شياطينٌ تتراءى للناس في أسفارهم فتخيفهم وتضلهم عن الطريق وفي الحديث (إذا تغولت الغيلان فبادروا بالأذان) فنفى النبي صلى الله عليه وسلم أن تكون الغيلان قادرةً على إضلال البشر بغير تقديرٍ من الله كما كان يعتقد أهل الجاهلية ، بل إن من ذكر الله وحافظ على أوراده وتحصيناته وتعلق بربه لم تستطع أن تؤذيه ولا تضله 0

قوله صلى الله عليه وسلم (ولا نوء) نجومٌ كان أهل الجاهلية يعتقدون أنها تأتي بالمطر وربما تشائموا من بعضها ولذا ذكرها المصنف هنا في باب الطيرة و سيأتي الحديث عنها في باب الاستسقاء بالأنواء 0

((باب ما جاء في التنجيم))

قال البخاري في (صحيحه) : قال قتادة : خلق الله هذه النجوم لثلاث : زينة للسماء ورجوماً للشياطين ، وعلامات يهتدى بها . فمن تأول فيها غير ذلك اخطأ ، وأضاع نصيبه ، وتكلف ما لا علم له به . انتهى . وكره قتادة تعلم منازل القمر ، ولم يرخص ابن عيينة فيه ، ذكره حرب عنهما ، ورخص في تعلم المنازل أحمد وإسحاق .

وعن أبي موسى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ثلاثة لا يدخلون الجنة : مدمن الخمر ، وقاطع الرحم ، ومصدق بالسحر) رواه أحمد وابن حبان في صحيحه .

علم النجوم قسمان :

الأول / علم التسيير : وهو ما يستدل به على الأوقات والجهات كمجيء الحر والبرد ومتى يزيد الماء في الآبار ومتى ينقص فإذا طلع المرزم قلَّ الماء في الآبار ونحوها وإذا طلع سهيل عاد وكثر ، وكمعرفة الشمال بالجدي وهو القطب الشمالي ومعرفة الجنوب بسهيل وهو القطب الجنوبي ، ومعرفة أوقات الزرع وجني الثمار ونحو ذلك فهذا العلم جائز قال تعالى {وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ } (16) سورة النحل أي لمعرفة الأوقات والجهات ، وليس هذا من ادعاء علم الغيب فإن أهل الإرصاد الجوي مثلاً يبنون توقعاتهم على أمور حسية كمسار الرياح والغيوم ونحو ذلك مما يسهل مراقبته عن طريق الأقمار الاصطناعية ، وهكذا توقعاتهم بخروج نجم كمذنب هالي أو اصطدام نجمٍ بآخر أو حدوث كسوفٍ أو خسوف أو غير ذلك مما يمكن معرفته عن طريق مراقبة مسارات النجوم وزوايا انحرافها ونحو ذلك فيتوقعون أن نجماً سيصطدم بآخر بعد كذا وكذا من الزمن بناءً على سرعة سيرهما وتواجههما في مسارٍ واحد وأن نجماً سيراه أهل الأرض بعد كذا وكذا بناء على سرعة مساره وزاوية انحرافه باتجاه الأرض وهكذا فكل علمٍ يمكن معرفته بالحس وليس فيه اعتمادٌ على الشياطين فهو من علم التسيير المباح ولذا قال السفاريني في عقيدته :

فكل معلومٍ بحسٍ أو حجا فنكره جهلٌ قبيحٌ بالهجا

الثاني / علم التأثير : وهو الاستدلال بالأحوال الفلكية على الحوادث الأرضية فيقولون إذا طلع النجم الفلاني فسيكون زلازل وحروب ونحو ذلك وإذا طلع النجم الفلاني فسيكون أمانٌ واطمئنان ، وهكذا إذا كانت ولادتك في البرج الفلاني فستكون سعيداً في حياتك ذو ثراء وإذا كانت في البرج الفلاني فستكون تعيساً ذو فقرٍ وحاجة ، وهكذا يستدلون بها على أمورٍ غيبية فهذا كله كذبٌ ودجل قال تعالى {قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ} (65) سورة النمل وهذا العلم محرم وادعاء علم الغيب وتصديق من ادعى ذلك كله كفر لتكذيبهم لكلام الله جل وعلا في أن الغيب من خصائصه جل وعلا 0

وقد ذكر الشيخ محمد العثيمين رحمه الله أن علم النجوم أربعة أقسام :

الأول / أن يعتقد أنها تؤثر بذاتها في الحوادث الأرضية العامة كالزلازل والبراكين أو الخاصة كالسعادة والشقاوة والربح والخسارة فهذا كله كفر أكبر مخرج من الملة 0

الثاني / أنها لا تؤثر بذاتها لكنها سببٌ لهذه الحوادث فهذا كفرٌ أصغر 0

الثالث / أن يستدل بها على الفصول وأوقات البذر والحصاد ونحو ذلك فهذا جائز 0

الرابع / أن يستدل بها على جهة القبلة ومعرفة أوقات الصلوات ونحو ذلك فهذه مشروعة وقد تكون فرض كفايةٍ أو فرض عين (القول المفيد 550/1)

وقد خلق الله هذه النجوم لثلاث :

1-زينة للسماء كما قال تعالى {إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ} (6) سورة الصافات

2-رجومًا للشياطين قال تعالى {وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ } (5) سورة الملك

3-علامات يُهتدى بها في معرفة المكان والزمان قال تعالى {وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ } (16) سورة النحل

قال البخاري في صحيحه : قال قتادة : خلق الله هذه النجوم لثلاث : زينة للسماء ، ورجومًا للشياطين ، وعلامات يهتدى بها ، فمن تأول فيها غير ذلك أخطأ وأضاع نصيبه وتكلف ما لا علم له به .

وقول المصنف : وكره قتادة تعلم منازل القمر ، ولم يرخص ابن عيينة فيه ، ذكره حرب عنهما ، ورخص في تعلم المنازل أحمد وإسحاق .

منازل القمر هي الأنواء التي سياتي الحديث عنها في الباب التالي والراجح جواز تعلمها لمعرفة أوقات الأمطار والزروع والحر والبرد والربيع والخريف وغير ذلك 0

وعن أبي موسى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ثلاثة لا يدخلون الجنة : مدمن الخمر ، وقاطع الرحم ، ومصدق بالسحر)رواه أحمد وابن حبان في صحيحه .

مدمن الخمر أي المداوم على شربها والخمر ما غطى العقل على جهة اللذة والطرب بخلاف الإغماء والبنج والجنون 0

قوله (ومصدقٌ بالسحر) ذكره المؤلف في باب التنجيم لقول النبي صلى الله عليه وسلم (من اقتبس علماً من النجوم اقتبس شعبةً من السحر زاد ما زاد) رواه أحمد وأبوداود وبن ماجة وصححه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم (6074) وذلك

لأن المنجمين يدَّعون علم الغيب حالهم حال السحرة والكهان فمن صدَّق أحدهم فهو كمن صدقهم جميعاً 0

وقوله (لا يدخلون الجنة) عند الخوارج والمعتزلة لا يدخلونها مطلقاً ، وأما أهل السنة فاختلفوا في نصوص الوعيد على عدة أقوال :

الأول / أن هذا الوعيد لمن استحل فعلها 0

وأجيب : بأن من استحلها فإنه يكفر سواءً عمل بها أو لم يعمل والحديث فيمن يعمل بها

الثاني / أن نصوص الوعيد تمر كما جاءت بلا خوض وهو قول مالك وغيره ومن سئل قيل له هكذا قال الله ورسوله والله أعلم بمراده 0

ويجاب : بأن هذا نفيٌ للعلم ونفي العلم ليس بعلم ودين الله واضحٌ غير مجهولٍ ولا ملتبس

الثالث / أن المطلق يحمل على المقيد فيقال : لا يدخلون الجنة بلا عذاب بل يسبقه عذاب بقدر ذنوبهم ثم مآل الموحدين إلى الجنة جمعاً بين نصوص الوعيد والرجاء 0

الرابع / أن من فعل ذلك من الموحدين فإنه يستحق هذا العقاب لكن الله بمنه ورحمته يمن على الموحدين فيغفر لهم ابتداءً أو يمحصهم في النار بقدر ذنوبهم ثم يخرجهم منها ولا يخلدون في النار ولا يمنعون من الجنة تكرماً من الله وفضلاً 0 وهذا هو الراجح 0

وذكر العثيمين احتمالاً / وهو أنه من كانت هذه حاله ودأبه فإنه يختم له بخاتمة سوء وهي الكفر فلا يدخل الجنة باعتبار مآله (القول المفيد16/2)

((باب ما جاء في الاستسقاء بالأنواء))

وقول الله تعالى : ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ [الواقعة : 82] وعن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن : الفخر بالأحساب ، والطعن في الأنساب ، والاستسقاء بالنجوم ، والنياحة) . وقال (النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب) . رواه مسلم . ولهما عن زيد بن خالد رضي الله عنه قال : صلى لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح بالحديبية على إثر سماء كانت من الليل ، فلما انصرف أقبل على الناس فقال (هل تدرون ماذا قال ربكم) ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم .قال (قال : أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر ، فأما من قال : مطرنا بفضل الله ورحمته ، فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب ، وأما من قال :

مطرنا بنوء كذا وكذا ، فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب » . ولهما من حديث ابن عباس معناه وفيه قال بعضهم : لقد صدق نوء كذا وكذا ، فأنزل الله هذه الآيات ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴾ إلى قوله ﴿ تُكَذِّبُونَ ﴾ [الواقعة : 75 : 82]

الأنواء جمع نوء وهو لغةً / من الأضداد فيطلق على النهوض والسقوط فيقال ناء بحمله أي نهض به بجهدٍ ومشقة وقيل أثقله فسقط (انظر لسان العرب كلمة نوأ)

اصطلاحاً / هو وقت سقوط نجمٍ من الأنجم الثمانية والعشرين فجراً في جهة المغرب ونهوض نجمٍ منها مكانه في ساعته في جهة المشرق ومدة كل نجمٍ منها ثلاثة عشر يوماً تقريباً (الفائق في علوم الحديث والأثر 29/4 ، النهاية في غريب الحديث والأثر 121/5) وهي (الإكليل والقلب والشولة والنعايم والبلدة وسعد الذابح وسعد بُلع وسعد السعود وسعد الأخبية والمقدم والمؤخر والرشاء والشرطين والبطين والثريا والدبران والهقعة والهنعة والذراع والنثرة والطرفة والجبهة والزبرة والصرفة والعواء والسماك والغفر والزبانا) فالثلاثة الأولى أنواء المربعانية ثم يليها اثنين للشبط ثم ثلاثة للعقارب ثم اثنين للحميمين ثم اثنين للذراعين ثم ثلاثة للثريا ثم التوبيع ثم اثنين للجوزاء ثم المرزم ثم الكليبين ثم أربعة لسهيل ثم أربعة للوسم ، وقد تختلف بعض مسميات هذه الأنواء عند العرب 0

وكانت العرب في الجاهلية تستسقي بالأنواء أي تضيف المطر النازل إليها فيقولون مطرنا بنوء النعايم أو الثريا أو السماك أو غيرها قال تعالى {وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ} (82) سورة الواقعة قال بن كثير : قال مجاهد : هو قولهم مطرنا بنوء كذا وكذا 0 قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن : روي ذلك عن علي وبن عباس وقتادة والضحاك وعطاء الخراساني وغيرهم وهو قول جمهور المفسرين وبه يظهر وجه استدلال المصنف رحمه الله بالآية (فتح المجيد ص360) وقيل المراد بالرزق العلم والقران وهو أقرب لسياق الآيات كما قال تعالى {إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (77) فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ (78) لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (79) تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (80) أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ (81) وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ} (82) سورة الواقعة قال العثيمين : القاعدة في التفسير أن الآية إذا كانت تحتمل المعنيين جميعاً بدون منافاة تحمل عليهما جميعاً وإن حصل بينهما منافاة طلب الترجيح (القول المفيد20/2) قلت لعل الآية أشمل من ذلك كله فهي تشمل الرزق الدنيوي كالأمطار والأموال وغيرها وتشمل الرزق الأخروي كالعلم والوحي والرسل ونحوها ، والتكذيب بها إنكارها أو نسبتها إلى غير الرازق بها ، والسلف رحمهم الله ورضي عنهم قد يفسرون الآية ببعض معانيها تأكيداً على هذا البعض لا حصر الآية به 0

والإستسقاء بالأنواء على ثلاثة أقسام :

الأول / أن ينسب المطر إليها نسبة إيجاد أي أن هذا النوء هو الذي أوجد المطر وجاء به فلا شك أن هذا كفرٌ أكبر وشركٌ لا يغتفر إذ جعل المخلوق خالقاً ونسب إليه الرزق فهذا شركٌ في الربوبية 0

الثاني / أن ينسب المطر إليها نسبة سبب فيقول بسبب النوء الفلاني جاء الله بالمطر ولولا نهوض هذا النجم لما جاء الله بالمطر فهذا كفرٌ أصغر لأنه ربط بين رحمة الله وبين هذا النوء 0 وقد جاء عن زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه قال صلى لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح بالحديبية على أثر سماءٍ كانت من الليل فلما انصرف أقبل على الناس فقال (هل تدرون ماذا قال ربكم ؟) قالوا الله ورسوله أعلم قال قال (أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب وأما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي ومؤمن بالكوكب) متفق عليه

الثالث / أن ينسب المطر إليها نسبة توقيت فيقول وقت نزول المطر في بلادنا هو في وقت طلوع النجم الفلاني فهذا جائز إذا اعتقد أنه مجرد وقت لا سبب ولا إيجاد وأنه قد يأتي الله بالمطر في هذا الوقت وقد يمنعه وقد يأتي به في غير هذا الوقت فكل شيءٍ بإرادة الله وحده 0 وقد قال عمر بن الخطاب للعباس عام الرمادة وهو يستسقي : كم بقي من نوء الثريا ؟ فقال العباس : إن أهل العلم بها يزعمون أنها تعترض في الأفق بعد وقوعها سبعاً 0 قال الراوي : فو الله ما مضت تلك السبع حتى أغيث الناس 0 رواه البيهقي في السنن الكبرى فمراد عمر السؤال عن وقت نزول المطر عادةً هل بقي منه شيء مع إيقانه أن المطر من عند الله ولاعلاقة له بالنجوم إيجاداً ولا سببية 0

قول المصنف : وعن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن : الفخر بالأحساب ، والطعن في الأنساب ، والاستسقاء بالنجوم ، والنياحة) . وقال (النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب) . رواه مسلم

هذا الحديث من باب الإخبار بالأمور المستقبلية لا الإذن بها بل جاء ذكرها على سبيل الذم وأنها من أمور الجاهلية أي التي جاء الدين بنبذها والتحذير منها وإنما سميت جاهلية لفرط جهلهم وعدم معرفتهم بشرع الله 0 فقوله (الفخر بالأحساب) أي التعالي والتعاظم على الناس بسبب حسبه وهو نسبه وسمي حسباً لأن الانسان يحسب ويعد ما يكون من مفاخر نسبه فسمي حسباً وقال (الطعن في الأنساب) أي أنساب

الآخرين لأنه لما لم يكن نسبه لم يعدد مفاخره فيسمى حسباً بل على العكس أخذ يطعن فيه أي يتنقصه ويحتقره وسمي المتنقص طاعناً له لأنه يؤذيه ويجرحه كأنه طعنه بسكين أو سمي بذلك لشدة أثره عليه كتأثير الطاعون في الجسد وقد جاء الدين بذم هذا الفعل فقال تعالى {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} (13) سورة الحجرات وقال صلى الله عليه وسلم (إن الله قد أذهب عنكم عبية الجاهلية وفخرها بالآباء مؤمنٌ تقي وفاجرٌ شقي أنتم بنو آدم وآدم من تراب ليدعنَّ رجالٌ فخرهم بأقوامٍ إنما هم فحمٌ من فحم جهنم أو ليكونن أهون على الله من الجعلان التي تدفع بأنفها النتن) رواه أحمد وأبو داود وحسنه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم (1787) وعن أبي ذرٍ رضي الله عنه قال : إني كنت سابيت رجلاً وكانت أمه أعجمية فعيرته بأمه فشكاني إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال (يا أبا ذر إنك امرؤٌ فيك جاهلية) رواه أبو داود وصححه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم (7822) وقوله (الاستسقاء بالنجوم) أي الأنواء وقوله (النياحة) أي رفع الصوت بالندب على الميت أي تعداد محاسنه على سبيل التحسر على قضاء الله بموته ومن النياحة ضرب الخدود وشق الجيوب والدعاء بدعوى الجاهلية كقول واثبوراه واهلكتاه واويلاه وايتماه ونحو ذلك وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إذا حضرتم المريض أو الميت فقولوا خيراً فإن الملائكة يؤمنون على ما تقولون) رواه مسلم عن أم سلمة وروى عنها أيضاً قالت دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على أبي سلمة وقد شق بصره فأغمضه ثم قال (إن الروح إذا قبض تبعه البصر فضج ناسٌ من أهله فقال لا تدعوا على أنفسكم إلا بخير فإن الملائكة يؤمنون على ما تقولون ثم قال اللهم اغفر لأبي سلمة وارفع درجته في المهديين واخلفه في عقبة في الغابرين واغفر لنا وله يا رب العالمين وأفسح له في قبره ونور له فيه) والنياحة في النساء أكثر ولذا ساق الصحابي الحديث الآخر بعد سياقه للحديث الأول مباشرة لبيان خطر النياحة وقول النبي صلى الله عليه وسلم (عليها سربال من قطران) أي ثوبٌ سابغٌ من الزفت ومن عادة الزفت أنه لا يتوقف عن الاشتعال وقال (ودرعٌ من جرب) أي أن جلدها يكون كله جرب بمنزلة الدرع قاله العثيمين وأقول : الله قادرٌ على أن يجعل الجرب ثوباً يلبسها إياه كما يلبس الناس الدرع فهو كالقطران فإن أصله سائل لكن جعله الله ثوباً سابغاً تلبسه فكذلك الجرب فهذا لأنها لم تغطي مصيبتها بالصبر فغطيت بالعذاب 0

((باب قول الله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ ﴾ الآية . وقوله : ﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ ﴾ . إلى قوله : ﴿ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ ﴾ الآية [التوبة :24] عن أنس أن

رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين) أخرجاه ولهما عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان : أن يكون الله رسوله أحب إليه مما سواهما ،وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار) وفي رواية (لا يجد أحد حلاوة الإيمان حتى . .) إلى آخره وعن ابن عباس قال : من أحب في الله ، وأبغض في الله ، ووالى في الله ، وعادى في الله ، فإنما تنال ولاية الله بذلك ، ولن يجد عبد طعم الإيمان وإن كثرت صلاته وصومه حتى يكون كذلك . وقد صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا ، وذلك لا يجدي على أهله شيئًا . رواه ابن جرير ، وقال ابن عباس في قوله : ﴿ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ ﴾ [البقرة : 166] قال : المودة .

ذكر المصنف هذا الباب في كتاب التوحيد لأن محبة الله أصل التوحيد وأصل الإسلام فبكمالها يكمل وبنقصها ينقص فإن عدمت محبة الله من قلب الانسان عدم منه التوحيد والايمان وصار كافراً مشركاً وهكذا إن سوى غيره به في المحبة ولذلك أورد المصنف هذا الباب وبين الأدلة من الكتاب والسنة على أنه لا يجوز أن يسوى مع الله غيره في المحبة 0

وقد ذكر أهل العلم أن المحبة أنواع :

الأول / محبة العبادة التي توجب التذلل مع التعظيم للمحبوب فهذه لا تكون إلا لله 0

الثاني / محبة تعظيمٍ بلا تذلل ولا عبادة كمحبة الوالد والمعلم وهي جائزة 0

الثالث / محبة شفقةٍ وعطف كمحبة الوالد للولد ونحو ذلك وهي جائزة 0

الرابع / محبة طبيعية / كمحبة الطعام والشراب والمال وغير ذلك وهي جائزة 0

الخامس / المحبة في الله وهي محبة عباد الله الصالحين لا لطمعٍ دنيوي ولكن لكون هذا المحبوب من أولياء الله فهذه مستحبة ، ومنها حب الأعمال الصالحة التي تقرب إلى الله كالصلاة والصوم والحج والزكاة والجهاد 0

فالأولى شرك ولو لم يسوي المحبوب مع الله لأنها محبة عبادة والعبادة لا تكون إلا لله وصرفها لغيره شرك ، والبقية تكون شركاً إذا سوى حبها بحب الله جل وعلا 0

قال المصنف : باب قول الله تعالى {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلّهِ } (165) سورة البقرة وهذا لوضوح المعنى المطلوب للباب من الآية فكان التبويب بها خيرٌ من معنىً يأتي به الإنسان من عنده فليس كلام الله ككلام البشر ، والند : هو الشبيه والنظير والمساوي 0 فهؤلاء الحمقى

من الناس جعلوا محبتهم لآلهتهم مساويةً لمحبتهم لله وقال بعض المفسرين مساويةً لمحبة المؤمنين لله وليس كذلك فإن آخر الآية يرده وقد قال تعالى مخبراً عن المشركين أنهم يقولون لآلهتهم يوم القيامة {تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (97) إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ} (98) سورة الشعراء لكن أخبر المولى جل وعلا أن المؤمنين يحبونه جل وعلا أعظم من محبة المشركين لآلهتهم بل ولا يسوون به أحداً ولما أمر الخليل عليه السلام بذبح ابنه سارع بتنفيذ أمر الله بلا تردد ورمى بحب الولد عرض الحائط لما كان الأمر من أعظم محبوب وهكذا عباد الله الصالحين يضحون بأنفسهم وأهليهم في سبيل الله وكان من لم تكن تلك عقيدته عند الخطب فهو مذموم كما قال تعالى {قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} (24) سورة التوبة ومعنى (تربصوا) أي انتظروا ماذا سيحل بكم من العقاب إذا قدمتم محاب هذه على محبة الله ورسوله ونصرة دينه وإقامة شرعه فهي للتهديد ووصم الله من فعل ذلك بالفسق وهي صفةٌ ذميمة وعواقبها وخيمة ، ومحبة الرسل تابعة لمحبة الله فمن أحب الله فإنه سيحب رسله حتماً ومن لم يحب رسله فهو كاذبٌ في دعواه ولذلك امتحن الله قوماً لما ادعوا محبته فقال {قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} (31) سورة آل عمران فجعل علامة محبته اتباع رسله 0

قول المصنف : عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين) أخرجاه

أنس بن مالك خادم رسول الله توفي سنة 93هـ ولما دفن قال الناس دفن اليوم نصف العلم (لا يؤمن أحدكم) أي لا يكتمل إيمانه فهو نفيٌ لكمال الإيمان الواجب لا نفيٌ لوجود الإيمان وقد قال أهل العلم : إن التعبير بنفي الإيمان يدل على أن العمل المترتب عليه نفي الإيمان من كبائر الذنوب (حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين) ويستلزم ذلك طاعته فيما أمر وتقديم قوله على قول كل أحدٍ من البشر فلا يعارض بقول إمام ولا ولي ولا فقيهٍ ولا غيرهم كما قال الشاعر :

العلم قال الله قال رسوله ... قال الصحابة هم أولي العرفان
ما العلم نصبك للخلاف سفاهةً ... بين الرسول وبين رأي فلان

ونحن نحب الرسول لأنه رسول ربنا قد امتن الله به علينا وجعله رحمةً لنا وهدانا به من الضلالة وبصرنا به من العمى فبلغ أفضل البلاغ وبين غاية البيان وصبر على الأذى من أجل تبليغنا دين ربنا وبذل نفسه وماله وأهله

ووقته وجهده وحياته كلها في سبيل تعليمنا دين ربنا فجزاه الله خير ما جزى نبياً عن أمته وحشرنا في زمرته بمنه ورحمته 0

قول المصنف (ولهما) أي البخاري ومسلم (عنه) أي عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان : أن يكون الله رسوله أحب إليه مما سواهما ،وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار)

فهذه ثلاث خصال من اتصف بهن وجد طعم الإيمان ولذته وهذا يدلُّ على أن للإيمان لذةً وحلاوة يجدها الصالحون من عباد الله كما قال إبراهيم بن أدهم : لو علم الملوك وأبناء الملوك بما نحن فيه من النعيم لجالدونا عليه بالسيوف 0 يريد نعيم لذة الإيمان ومناجاة الملك العلام 0 ثم شرع النبي صلى الله عليه وسلم في تبيين هذه الخصال التي يحصل بها وجدان الإيمان فقال (أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما) ويتضح ذلك بفعل الطاعات واجتناب المحرمات فمن أقام على المعاصي وهو يعلم أنها معصية لله وأن الله لا يحبها فقد قدم محاب نفسه على محاب الله وحينئذٍ يكون كاذباً في دعواه أنه يقدم محبة الله على محبة نفسه كما قال الشاعر

تعصي الإله وأنت تظهر حبه هذا محالٌ في القياس بديع

لو كان حبك صادقاً لأطعته إن المحب لمن يحب مطيع

لكنه لا يكون كافراً حتى يصرح أو يعتقد بقلبه أن هذه المعصية أحب إليه من الله ورسوله فحينئذٍ يدخل في المحبة الشركية فيكفر بذلك 0

قوله (وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله) أي لطاعته لربه ونصرته لدينه لا لمال ولا لحسب ولا لجمال ولا لكونه ولده أو والده ولا غير ذلك من أمور الدنيا إنما أحبه لله فهذا الذي يتذوق طعم الإيمان (ويكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار) وهذا فيمن أسلم بعد كفر فالنفس من طبعها الإشتياق إلى أيام الصبا والأعمال الماضية لكن نفس المؤمن لا تشتاق مطلقاً إلى العودة إلى الكفر بل تكرهه ككرهها لأن تقذف في النار وهذا يدل على الكره الشديد للكفر 0

قوله وفي رواية (لا يجد أحد حلاوة الإيمان حتى . .) إلى آخره

إنما أوردها المصنف للتأكيد ولأنها وردت بالنفي فنفت وجدان حلاوة الإيمان لمن لم يتصف بالخصال الثلاث بخلاف الرواية المتقدمة فلم تصرح بالنفي بل بإثبات حلاوة الإيمان لمن اتصف بهذه الصفات 0

قول المصنف : وعن ابن عباس قال : من أحب في الله ، وأبغض في الله ، ووالى في الله ، وعادى في الله ، فإنما تنال ولاية الله بذلك ، ولن يجد عبدٌ طعم الإيمان وإن كثرت صلاته وصومه حتى يكون كذلك . وقد

صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا ، وذلك لا يجدي على أهله شيئًا . رواه ابن جرير ، وقال ابن عباس في قوله ﴿ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ ﴾ [البقرة : 166] قال : المودة .

أي أحب الطائعين لطاعتهم لله وأبغض العاصين لمعصيتهم لله ، بل لم يكتفي بذلك حتى والى وعادى في الله والموالاة أشمل من المحبة فهي تشمل المحبة مع النصرة فيوالي أولياء الله ولو كانوا من أبعد الناس عنه نسباً ويعادي أعداء الله ولو كانوا أقرب الناس إليه (فإنما تنال ولاية الله بذلك) أي محبته ونصرته ينالها العبد إذا فعل ما تقدم ويكون من أولياء الله إذا كانت هذه حاله (ولن يجد عبدٌ طعم الإيمان وإن كثرت صلاته وصومه حتى يكون كذلك) أي محباً وموالياً لأولياء الله ومبغضاً ومعادياً لأعدائه (وقد صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا وذلك لا يجدي على أهله شيئاً) أي لا ينفعهم عند الله بل قد يضرهم إذا ترتب على تلك المؤاخاة مخالفة أمر الله ورسوله كما قال تعالى {الْأَخِلَّاء يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ} (67) سورة الزخرف وقال تعالى {إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُواْ مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ} (166) سورة البقرة قال بن عباس : أي المودة 0 يعني التي تكون على ما يخالف أمر الله ورسوله كقوله تعالى عن خليله إبراهيم عليه السلام أنه قال لقومه {وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ} (25) سورة العنكبوت فهذه عاقبة المحبة التي لا تكون لله 0

باب قول الله تعالى {إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءهُ فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} (175) سورة آل عمران

وقوله ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللهَ ﴾ الآية [التوبة : 18] . وقوله ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ ﴾ الآية [العنكبوت : 10] عن أبي سعيد رضي الله عنه مرفوعًا (إن من ضعف اليقين : أن ترضي الناس بسخط الله ، وأن تحمدهم على رزق الله ، وأن تذمهم على ما لم يؤتك الله ، إن رزق الله لا يجره حرص حريص ، ولا يرده كراهية كاره) وعن عائشة رضي الله عنها : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (من التمس رضى الله بسخط الناس رضي الله عنه وأرضى عنه الناس ، ومن التمس رضى الناس بسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس)رواه ابن حبان في صحيحه

علاقة الباب بما قبله / عقب المؤلف باب المحبة بباب الخوف لأن المحبة تجعلك ترجو نوال المحبوب فهي من باب الرجاء والرجاء والخوف لا بد من اجتماعهما في المرء حتى يعتدل أمره ويحسن سيره إلى الله ولا يُغَلِب أحدهما على الآخر فيهلك فإنه إن غلب الرجاء أمن من مكر الله وإن غلب الخوف قنط من رحمة الله وأما إن تساويا عنده فذلك كمال التوحيد فلا يأمن من مكر الله ولا ييأس من روحه ، وقال بعض أهل العلم : الأولى أن يغلب الخوف في زمن الصحة لأن النفس تواقة للشهوات مقبلة عليها فلا بد من رادعٍ يردعها وهو الخوف ، وأما في حال المرض فيغلب جانب الرجاء لأن النفس أبعد ما تكون عن الشهوات وهي قريبة من اليأس فيغلب جانب الرجاء ، وقد قال أهل العلم : من عبد الله بالحب وحده فهو صوفي ومن عبده بالخوف وحده فهو خارجي ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجي ومن عبده بالحب والخوف والرجاء فهو سني 0 فبالمحبة والرجاء يكون امتثال الأمر وبالخوف يكون ترك النهي ، ولقد امتدح الله جل وعلا أنبيائه والصالحين من عباده لجمعهم بين تلك الصفات فقال تعالى { إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ} (90) سورة الأنبياء وقال تعالى {أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاء اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ

هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ} (9) سورة الزمر وامتدح الخائفين منه الذين يحملهم خوفهم على امتثال الأمر واجتناب النهي فقال تعالى {وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ} (46) سورة الرحمن وقال تعالى {وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (60) أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ} (61) سورة المؤمنون وقال تعالى {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ} (28) سورة فاطر

والخوف أنواع :

الأول / خوف السر : وهو الخوف من وثنٍ أو طاغوت أو ولي أو غيرهم وقد كان أهل الجاهلية يخافون من معبوداتهم ويخوفون بها عباد الله كما قال تعالى {أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ} (36) سورة الزمر وذلك من ضلالهم واعتقادهم النفع والضر فيها كما قال قوم هودٍ لهود{إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوَءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللّهِ وَاشْهَدُواْ أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (54) مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ} (55) سورة هود فتبرأ من شركهم حين خافوا غير الله بل وتحداهم هم وآلهتهم أن يسرعوا في إهلاكه إن كانوا يستطيعون 0 وهذا النوع من الخوف هو الذي يكون من عباد القبور والأولياء ونحوهم وهو منافٍ للتوحيد وهو الذي ذكر المصنف هذا الباب لأجله ، وسمي خوف السر تمييزاً له عن الخوف الطبيعي ولأنه لا سبب له ظاهر بل سببه عقيدة منحرفة في نفس هذا الخائف فكانت كالسر لا يظهر

الثاني / أن يترك الإنسان أمراً واجباً عليه شرعاً خوفاً من بعض الناس فهذا يحرم ما لم يبلغ الخوف حدَّ الإكراه قال تعالى {إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءهُ فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} (175) سورة آل عمران أي يخوفكم بأوليائه وسبب نزول هذه الآية كما ذكر أهل التفسير أنها نزلت عندما قيل للنبي صلى الله عليه وسلم إن قريشاً قد جمعت لكم فقال النبي صلى الله عليه وسلم (حسبنا الله ونعم الوكيل) فأنزل الله{الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (173) فَانقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُواْ رِضْوَانَ اللّهِ وَاللّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (174) إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءهُ فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} (175) سورة آل عمران فالشيطان يلقي في قلوب المؤمنين أن الكفار أقوياء وأنهم أكثر عدداً وعتاداً وأنه لا طاقة لكم بهم 0 لكن المؤمنين الصادقين لا يلتفتون إلى تخويف الشيطان بل يقولون (حسبنا الله ونعم الوكيل) أي هو كافينا وعليه اعتمادنا ومن كان الله معه فلا يهزم وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم محذراً من هذا النوع من الخوف (لا يحقر أحدكم نفسه) قالوا يا رسول الله كيف يحقر أحدنا نفسه ؟ قال (

يرى أمراً لله عليه فيه مقال ثم لا يقول فيه فيقول الله عز وجل له يوم القيامة ما منعك أن تقول في كذا وكذا فيقول خشية الناس فيقول فإياي كنت أحق أن تخشى) رواه أحمد وبن ماجة وضعفه الألباني في ضعيف الجامع حديث رقم (6332)

الثالث / الخوف الطبيعي كالخوف من سبعٍ أو عدوٍ يلاحقه أو نحو ذلك فهذا جائز ما لم يمنعه من فعل واجب أو ترك محرم 0

وقوله تعالى{إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللهَ فَعَسَى أُوْلَئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ الْمُهْتَدِينَ} (18) سورة التوبة وهذا عندما افتخر المشركون أنهم عمَّار المسجد الحرام فأخبر المولى جل وعلا أن عمَّاره على الحقيقة هم المتصفون بهذه الصفات المذكورة في الآية والشاهد منها على الباب الخشية منه وحده جل وعلا دون من سواه 0

وقوله تعالى{وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ } (10) سورة العنكبوت يخبر تعالى عن قومٍ ادعوا الإيمان ولكن حقيقة أمرهم أن الإيمان لم يتمكن من قلوبهم ولذلك إذا آذاهم الكفار بسبب إيمانهم بتعذيبٍ ونحوه ارتدوا عن دينهم ووافقوا الكفار على دينهم فجعلوا بذلك خوفهم من الكفار كخوفهم من الله وخشيتهم من عذاب الكفار كخشيتهم من عذاب الله فالمؤمن إذا خاف من الله أطاع أمره واجتنب نهيه وهؤلاء خافوا عذاب الكفار فاتبعوا أمرهم وتركوا نهيهم فهؤلاء خافوا الكفار كخوف الله فصاروا مشركين بذلك ولا يعذرون بالخوف ما لم يبلغ حد الإكراه وهو الخوف من القتل ونحوه ويكون طاعتهم لهم في الظاهر دون الباطن فهؤلاء يعذرون لقوله تعالى {مَن كَفَرَ بِاللهِ مِن بَعْدِ إيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} (106) سورة النحل ومثل هذه الآية التي أوردها المصنف قوله تعالى{وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ} (11) سورة الحج فلا يظن العبد أنه سيقول آمنت ولا يمتحن في صدق دعواه كما قال تعالى {أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (2) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ} (3) سورة العنكبوت وقال تعالى {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ } (155) سورة البقرة وقال تعالى{وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ} (31) سورة محمد وقال تعالى{أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ

وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيبٌ} (214) سورة البقرة فالحياة دار ابتلاءٍ وامتحان والآخرة دار الجزاء 0

قول المصنف : عن أبي سعيد رضي الله عنه مرفوعًا (إن من ضعف اليقين : أن ترضي الناس بسخط الله ، وأن تحمدهم على رزق الله ، وأن تذمهم على ما لم يؤتك الله ، إن رزق الله لا يجره حرص حريص ، ولا يرده كراهية كاره)

الحديث رواه أبو نعيم في الحلية والبيهقي وأعله بمحمد بن مروان السدي وفيه أيضاً عطية العوفي ذكره الذهبي في الضعفاء والمتروكين وضعفه الألباني في ضعيف الجامع حديث رقم (2009) ومعناه صحيح فقوله (إن من ضعف اليقين) أي من علامته (أن ترضي الناس بسخط الله) أي تؤثر رضاهم على رضا الله فترتكب ما يسخط الله من المحرمات لأجل إرضائهم (وأن تحمدهم على رزق الله) أي تجعل الحمد لهم دون الله وتنسى أنهم أسباب والرازق هو الله وحده وأما إن اعتقدت أنهم مجرد أسباب وأن الرازق هو الله لم يضرك أن تشكرهم بل هو مستحبٌ شرعاً فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم (من لا يشكر الناس لا يشكر الله) وقال (من صنع إليكم معروفاً فكافئوه فإن لم تجدوا ما تكافئوه به فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافئتموه) فشكر الناس على معروفهم من كريم الشمائل وإنكار معروفهم أو معاملتهم بالإساءة من صفات اللئام وقد جاء الإسلام بالدعوة إلى كريم الخصال والتحذير من مساويها 0 وقوله (وأن تذمهم على ما لم يؤتك الله) إذا طلبت من أحدهم شيئاً فمنعك فلا تذمه لأن الله هو الذي قدر ذلك فهو المعطي المانع وإنما هذا المخلوق وسيلة لتوصيل رزق الله إليك أو منعه فلا تصب جام غضبك عليه فإنه مسكين ضعيف وقد قال تعالى {مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} (2) سورة فاطر ولذلك قال (إن رزق الله لا يجره حرص حريص ولا يرده كراهية كاره) فمهما حرصت على جمع المال فلن يأتيك إلا ما قد كتبه الله لك ومهما حاول الحساد منع ما قد كتب لك فلن يستطيعوا فارض بما قسم الله لك 0

قول المصنف : وعن عائشة رضي الله عنها : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (من التمس رضى الله بسخط الناس رضي الله عنه وأرضى عنه الناس ، ومن التمس رضى الناس بسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس) رواه ابن حبان في صحيحه

ورواه الترمذي بلفظ (من التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس ومن التمس رضا الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس) وصححه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم (6097) وقد ذكره المصنف في باب الخوف لأنه قد يكون الدافع له لإرضاء الناس هو الخوف منهم 0

باب قول الله تعالى ﴿ وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾(23) سورة المائدة

وقوله ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ ﴾ [الأنفال : 2] وقوله ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنفال : 64] وقوله ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ [الطلاق : 3] عن ابن عباس قال ﴿ حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ [آل عمران : 173] قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار ، وقالها محمد صلى الله عليه وسلم حين قالوا له ﴿ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ [آل عمران : 173] . رواه البخاري والنسائي

علاقة الباب بالباب الذي قبله / ذكر المصنف هذا الباب بعد باب الخوف لأن من علَّق توكله على الله لم يخف من غيره فهما متلازمان لأنك لن تخاف من غير الله إلا إذا لم يكن اعتمادك على الله ومع التوكل على الله والاعتماد عليه يزول الخوف من غيره 0

علاقة الباب بكتاب التوحيد / أتى المصنف بباب التوكل في كتاب التوحيد لأن التوكل وهو تفويض الأمور إلى الله مع الثقة به والاعتماد عليه وحده دون من سواه من أعظم أبواب التوحيد ، والتوكل على غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله كالنصر والحفظ والرزق وغيرها من الشرك الأكبر ، وأما التوكل على المخلوق فيما يقدر عليه فهو شركٌ أصغر إلا أن يعتقد أنه مجرد سبب قد ينفع بإذن الله وقد لا ينفع واعتماده الكامل على الله فحينئذٍ يكون جائزاً لا شيء فيه ، ومن أهل العلم من يقول إن الجائز التوكيل لا التوكل والفرق بينهما أن التوكيل هو تفويض تصرفٍ لآخر في بيعٍ وشراءٍ ونحوهما مما يقدر عليه ، وأما التوكل هو التفويض مع اعتماد القلب بالكلية والثقة بهذا المتوكل به وهذا لا يكون إلا لله 0 لكن فيما يظهر لي أن الخلاف لفظيٌ ومقصود

الجميع أن اعتماد القلب والثقة المطلقة لا تكون إلا بالله وقد يعتمد على شخصٍ باعتبار أنه مجرد سبب مع الاعتقاد الجازم أن النافع الضار هو الله فهذا سواءً سمي توكيلاً أو توكلاً فالعبرة بالمعنى لا بالتسمية 0

قال العثيمين : التوكل ينقسم إلى ثلاثة أقسام :

الأول / توكل العبادة والخضوع وهو الاعتماد المطلق على من توكل عليه بحيث يعتقد أن بيده جلب النفع أو دفع الضر فيعتمد عليه اعتماداً كاملاً مع شعوره بافتقاره إليه ، فهذا يجب إخلاصه لله ومن صرفه لغير الله فهو مشركٌ شركاً أكبر كالذين يعتمدون على الصالحين من الأموات والغائبين ، وهذا لا يكون إلا ممن يعتقد أن لهؤلاء تصرفاً خفياً في الكون 0

الثاني / الاعتماد على شخص في رزقه ومعاشه وغير ذلك فهذا من الشرك الأصغر مثل اعتماد كثيرٍ من الناس على وظيفته في حصول رزقه اعتماد افتقار فتجد في نفسه من المحاباة لمن يكون هذا الرزق عنده ما هو ظاهر ، فهو لم يعتقد أنه مجرد سبب بل جعله فوق السبب 0

الثالث / أن يعتمد على شخص فيما فوض إليه التصرف فيه كما لو وكَّلت شخصاً في بيع شيءٍ أو شرائه وهذا لا شيء فيه لأنه اعتمد عليه وهو يشعر أن المنزلة العليا له فوقه لأنه جعله نائباً عنه ، وقد وكَّلَ النبي صلى الله عليه وسلم علياً في ذبح ما بقي من هديه ووكَّلَ أبا هريرة على الصدقة ووكَّلَ عروة أن يشتري له أضحية 0ا0هـ (القول المفيد89/2)

وهناك فرقٌ بين التوكل والتواكل وهو ترك الأسباب بل لابد من العمل بالأسباب مع الاعتماد على الله لحديث (اعقلها وتوكل) ولذا قال بعض اهل العلم : ترك الأسباب سفه والاعتماد عليها شرك 0 والنبي صلى الله عليه وسلم وهو أعظم المتوكلين كان يبذل الأسباب فكان يأخذ الزاد في سفره ويدخر قوت أهله في حضره ويلبس الدرع واللامة في قتاله وقد هاجر فراراً بدينه وحفر الخندق حول المدينة حمايةً لأهلها واتخذ الحرس حتى نزل عليه قوله تعالى {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ } (67) سورة المائدة فترك اتخاذ الحرس وتبعه على ذلك خلفاؤه حتى زمن معاوية رضي الله عنه فاتخذ حرساً حين كثرت الفتن وقلَّ الدين ونجا من محاولة اغتيال ولم ينكر عليه أحدٌ من الصحابة ولا من التابعين فكان إجماعاً منهم على جواز ذلك وأنه من بذل الأسباب التي لا تنافي التوكل ، وغير ذلك من الأسباب التي كان يفعلها عليه الصلاة والسلام مع تمام اعتماده على الله وتوكله عليه 0

وذكر المؤلف الآية الأولى مبوباً بها ليجعل الكتاب معتمداً على نصوص الوحيين ويقلل ما استطاع مما عداهما حتى يكون أقرب لقلوب الموحدين الذين يعتمدون على كلام الله وكلام رسوله ويقدمونهما على كلام كل أحد كائناً من كان فقوله تعالى { وَعَلَى اللّهِ فَتَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ } (23) سورة المائدة أي على الله لا على غيره اعتمدوا الاعتماد المطلق وفوضوا أموركم وثقوا به جل وعلا لأن تقديم المعمول يفيد الحصر فهو أبلغ مما لو قال (فتوكلوا على الله) ولا يحصل كمال التوحيد إلا بكمال التوكل كما قال تعالى {وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ} (84) سورة يونس ولذلك جعل في الآية التي أوردها المصنف التوكل شرطٌ للإيمان فلا يتم الإيمان إلا به وإذا نقص التوكل نقص الإيمان وإذا عُدِمَ التوكل عُدِمَ الإيمان 0

وقال تعالى {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (2) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (3) أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ} (4) سورة الأنفال (إنما) أداة حصر أي إنما المؤمنون الكاملون إيماناً من يتصف بالصفات الواردة في الآيات والشاهد منها قوله تعالى ((وعلى ربهم يتوكلون)) أي يفوضون أمورهم إليه فلا يخافون من سواه ولا يقصدون إلا إياه ولا يرغبون إلا فيما عنده وقدم المعمول كسابقتها لإفادة الحصر ثم قال ((أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا)) لا ما يدعيه المدعون بلا برهان 0

وقال تعالى {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} (64) سورة الأنفال أي هو وحده كافيك ومؤيدك وناصرك وكذلك هو وحده مؤيد اتباعك من المؤمنين فهو حسبك وحسب أمتك وأتباعك إلى يوم القيامة كقوله تعالى {أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ } (36) سورة الزمر أي من يعبده وأولهم محمد عليه الصلاة والسلام 0 وقال بعض المفسرين في الاية السابقة أن معناها الله يكفيك وكذلك اتباعك من المؤمنين يكفونك 0 وهذا خطأٌ بيّن ، لأن الكفاية بيد الله وحده قال تعالى{الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ(173) فَانقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُواْ رِضْوَانَ اللّهِ وَاللّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ} (174) سورة آل عمران فلم يقولوا حسبنا عددنا وعتادنا وقوتنا ولكن قالوا ((حسبنا الله)) وقال تعالى { وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ } (3) سورة الطلاق والقران يفسر بعضه بعضاً 0 وقال بعض النحويين : لو كان العطف على الكاف في حسبك لوجب إعادة الجار ثم العطف يكون على الأقرب وهو لفظ الجلالة فيكون المعنى عندهم : حسبك الله وحسبك من اتبعك من المؤمنين والصحيح أن العطف على الكاف لما قدمنا من كون الكفاية بيد الله وحده ولا مانع من تقدم العاطف ولا يلزم إعادة الجار ولذا قال بن مالك :

وليس عندي لا زماً إذ قد أتى في النثر والنظم الصحيح مثبتاً

قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُواْ بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَينِ } (6) سورة المائدة والإجماع على أن الأرجل معطوفة على (فاغسلوا) وليست الأقرب ، وقالوا إنما مثل هذه الآية كقوله تعالى {وَإِن يُرِيدُواْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللّهُ هُوَ الَّذِيَ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ} (62) سورة الأنفال أي جعل المؤمنين مؤيدين لك فكذلك الآية السابقة جعل المؤمنين حسبك 0

والجواب أن هناك فرقاً بين التأييد والحسب فإن التأييد وهو النصرة لا يلزم منها الاعتماد المطلق على المناصرين ولا الاكتفاء بهم بخلاف الحسب فهي الكفاية من كل شر فلا تكون إلا بالله ولذلك فرق الله بينهما في مقدمة الآية فجعل الحسب له وحده وجعل التأييد له بنصره وبعباده وفرق كذلك بين الحسب والإيتاء فقال تعالى {وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوْاْ مَا آتَاهُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ سَيُؤْتِينَا اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللّهِ رَاغِبُونَ} (59) سورة التوبة فجعل الحسب له وحده والإيتاء له ولرسوله 0

قال بن القيم في تفسير قوله تعالى { وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ } (3) سورة الطلاق أي كافيه ومن كان الله كافيه وواقيه فلا مطمع فيه لعدوه ولا يضره إلا أذى لابد منه كالحر والبرد والجوع والعطش وأما أن يضره بما يبلغ به مراده فلا يكون أبداً وفرقٌ بين الأذى الذي هو في الظاهر إيذاء وفي الحقيقة إحسان وإضرارٌ بنفسه وبين الضرر الذي يتشفى به منه (نقله في فتح المجيد ص398) قلت : ويدل لقوله هذا قوله تعالى {لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدُبَارَ ثُمَّ لاَ يُنصَرُونَ} (111) سورة آل عمران فليتنبه لهذا فإن بعض الناس يقرأ أدعية التحصين ثم إذا لدغته عقرب أو عضته أفعى واشتد عليه الألم قال : ألستم تقولون إن النبي صلى الله عليه وسلم قال (ما من عبدٍ يقول في صباح كل يومٍ ومساء كل ليلةٍ بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم ثلاث مراتٍ فيضره شيء) رواه الترمذي وبن ماجة والحاكم وصححه اللباني في صحيح الجامع حديث رقم (5745) فنقول بلى ولكن لم يقل فيؤذيه شيء فهذا الألم الذي تشعر به إنما هو أذىً في ظاهره وفي حقيقته رفعة للدرجات وتكفير للسيئات وسيزول قريباً ولن يلحقك منه ضرر كموتٍ أو عاهةٍ أو داءٍ مستمر كما أخبر الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم 0

وأما قوله تعالى {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} (173) سورة آل عمران الآيات فقيل نزلت بعد غزوة أحد فإن قريشاً لما رجعت ندمت على رجوعها وعدم استئصال المسلمين بعد النصر الذي حققوه فعزموا على الرجوع ولكن أرادوا أن يتبينوا هل للمسلمين شدة على قتالهم فمرَّ بهم ركب من بني عبد القيس فقال لهم أبو سفيان أين تريدون قالوا نريد المدينة فقال بلغوا محمداً وأصحابه أنا قد جمعنا جيوشنا وإنا عازمون على الرجوع إليهم والقضاء عليهم فلما بلغوا النبي صلى الله

عليه وسلم ذلك قال (حسبنا الله ونعم الوكيل) ثم خرج بمن بقي ممن شهد أحداً إلى حمراء الأسد فلما بلغ أبو سفيان ما صنع النبي صلى الله عليه وسلم كرَّ راجعاً إلى مكة وترك ما كان عازماً عليه وهذا من كفاية الله لنبيه واتباعه إذ لم يكن بهم طاقة بالقتال بعد الجروح التي أصابتهم في أحد ولكن كما قال تعالى {وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا} (25) سورة الأحزاب وفي حديث بن عباس رضي الله عنهما بيان أن الخليلين جعلا اكتفائهما بالله وحده فوقاهم الله ما أريد بهما من سوء وهكذا من اقتدى بهما من عباد الله فسيكفيه الله ما يراد به من مكروه فليس ذلك خاصاً بالأنبياء فإن قوله تعالى { وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ } (3) سورة الطلاق للعموم فالحمد لله الذي لم يكلنا إلى غيره فنضيع 0

باب قول الله تعالى {أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ اللّهِ فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ}(99) سورة الأعراف وقوله { وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّآلُّونَ} (56) سورة الحجر

عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن الكبائر ، فقال (الشرك بالله ، واليأس من روح الله ، والأمن من مكر الله) وعن ابن مسعود قال (أكبر الكبائر : الإشراك بالله ، والأمن من مكر الله ، والقنوط من رحمة الله ، واليأس من روح الله) رواه عبد الرزاق .

الأمن / ضد الخوف وهو توقع السلامة من المكروه 0

المكر / هو التوصل إلى الإيقاع بالخصم من حيث لا يشعر (القول المفيد 101/2)

والمكر قد يكون مدحاً وقد يكون ذماً ، فيكون ذماً إذا كان فيه ظلمٌ وتعدٍ على حقوق وممتلكات الآخرين ، وهذا ينزه الرب جل وعلا عنه 0

ويكون ممدوحاً إذا كان في مقابلة مكر أهل الفساد وطغيان أهل الضلالة والعناد ، ولذلك لا يوصف الله بالمكر إلا في مقابلة مكر الكافرين وطغيان المفسدين كقوله تعالى {وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ} (30) سورة الأنفال وقوله تعالى {وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (50) فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ } (51) سورة النمل وهذه الآية

التي بوب بها المصنف تقدمها آيتين تدلان على سبب هذا التحذير فيقول المولى جل وعلا {أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَآئِمُونَ (97) أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ (98) أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ اللّهِ فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ} (99) سورة الأعراف فالتهديد لما أحدثوا من المعاصي وهم مقيمين في نعم الله أفلا يأمنون أن تكون هذه النعم استدراج كما في قول النبي صلى الله عليه وسلم (إذا رأيت الله تعالى يعطي العبد من الدنيا ما يحب وهو مقيم على معاصيه فإنما ذلك منه استدراج) رواه أحمد والطبراني والبيهقي وصححه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم (561) فهذا هو المراد بالمكر في هذه الآية أي الاستدراج فلمّا أنعم الله عليهم أفسدوا وظنوا أن الله لا يعذبهم لما رأوا من كثرة إفسادهم وعدم نزول العذاب بهم فأمنوا من عذاب الله واستمروا على معاصيهم فوصفهم الله بالخاسرين الذين خسروا التوبة والرجوع إلى الله والندم على معصيته ثم خسروا النعيم المقيم في الآخرة وقد يعاجلهم الله بالعقوبة فيخسروا الدنيا والآخرة فيالعظم خسارتهم لما أمنوا مكر الله بهم واستدراجه لهم 0

ولا يجوز تسمية الله الماكر ولا يوصف بالمكر مستقلاً بل يقال يمكر بالماكرين أو الكافرين وهكذا المخادع والكائد والمستهزئ فيقال الله يخادع الكافرين المنافقين ويستهزئ بهم ويكيد بهم لإن إفرادها صفة ذم والله منزهٌ عن صفات النقص والذم فلله من كل صفةٍ كمالها ولا يوصف بالصفة المذمومة مطلقاً فلا يقال الله يخون الخائنين لأن الخيانة ليس فيها مدحٌ مطلقاً بل هي صفة ذم ولذلك قال تعالى {وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُواْ اللّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} (71) سورة الأنفال ولم يقل فخانهم بخلاف ما تقدم فقد قال تعالى {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ } (142) سورة النساء وقال تعالى {إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (15) وَأَكِيدُ كَيْدًا (16) فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا} (17) سورة الطارق وقال تعالى {وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُواْ إِنَّا مَعَكْمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُونَ (14) اللّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ} (15) سورة البقرة فالمقصود أن صفات الذم لا يوصف الله بها 0

وقوله تعالى { وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّآلُّونَ} (56) سورة الحجر القنوط / استبعاد الفرج واليأس منه وهو يقابل الأمن من مكر الله فلا بد من الخوف من الله مع عدم قطع الرجا من رحمته ولذا قال أهل العلم الخوف والرجاء كجناحي طائر لو اختل أحدهما سقط الطائر قال تعالى {أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاء اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ } (9) سورة الزمر فجمع بين الخوف والرجاء وهذه حال الصالحين من عباد الله الذين يقطعون مكائد الشيطان بذلك فإن الشيطان يشم العبد فإن رآه محباً للشهوات مقبلاً عليها أمنه من مكر الله وقال لا عليك ارتكب ما تشاء فإن الله غفورٌ رحيم ولولا محبتك عنده لما أعطاك هذه النعم ونحو ذلك من الوساوس حتى يقتحم الكبائر وهو آمنٌ من مكر الله ، وإذا رآه معرضاً مقبلاً على الآخرة شديد الخوف من الله زاده

خوفاً وقنطه من رحمة الله وقال له : من أنت حتى يغفر الله لك إنما رحمته للأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين ولست منهم ونحو ذلك حتى يقنطه من رحمة الله فانظر واتعظ فإن الأمن من مكر الله والقنوط من رحمته من مصائد الشيطان التي صاد بها قلوب كثيرٍ من الناس وهما من كبائر الذنوب لما يتضمنانه من أمورٍ محرمة فالأمن من مكر الله يتضمن العجب بالنفس والغرور بها والجهل بقدرة الله وقوته وكمال عدله إذ كيف يجعل العاصي كالمطيع ، والقنوط من رحمة الله يتضمن الجهل بسعة رحمة الله وفضله ونكرانها ويتضمن سوء الظن بالله أنه لا يرحم عباده وقد قال صلى الله عليه وسلم (لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله) رواه مسلم وفي الحديث القدسي يقول الله تعالى (أنا عند ظن عبدي بي) متفق عليه

عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن الكبائر ، فقال (الشرك بالله ، واليأس من روح الله ، والأمن من مكر الله) رواه البزار بلفظ (والإياس) بدل (واليأس) وحسنه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم (4603) قال عبد الرحمن بن حسن : حديث بن عباس رواه البزار وابن أبي حاتم من طريق شبيب بن بشر عن عكرمة عن بن عباس وشبيب لينه أبو حاتم ووثقه بن معين وقال بن كثير في إسناده نظر والأشبه أن يكون موقوفاً(فتح المجيد403)

وعن ابن مسعود قال (أكبر الكبائر : الإشراك بالله ، والأمن من مكر الله ، والقنوط من رحمة الله ، واليأس من روح الله) رواه عبد الرزاق . ورواه بن جرير بأسانيد صحاح (قاله في فتح المجيد ص404) ولا فرق فيما يظهر بين اليأس من روح الله والقنوط من رحمته فكلاهما بمعنىً واحد وهو عدم توقع الفرج والتنفيس ، وقيل إن القانط من رحمة الله هو من يستبعد حصول المطلوب واليائس من روح الله هو من يستبعد زوال المكروب ولذلك ذكرتا جميعاً في حديث بن مسعود ولو كانتا بمعنىً واحد لاكتفي بذكر أحدهما ، وعلى كلٍ فلا يجوز للمسلم فعل هذه الأمور فهي من كبائر الذنوب 0

((باب من الإيمان بالله الصبر على أقدار الله))

وقول الله تعالى ﴿ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [التغابن : 11] قال علقمة : هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله ، فيرضى ويسلم . وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه

وسلم قال (اثنتان في الناس هما بهم كفر : الطعن في النسب ، والنياحة على الميت) ولهما عن ابن مسعود مرفوعاً (ليس منا من ضرب الخدود ، وشق الجيوب ، ودعا بدعوى الجاهلية) وعن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (إذا أراد الله بعبده الخير عجل له العقوبة في الدنيا ، وإذا أراد بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حتى يوافي به يوم القيامة) وقال النبي صلى الله عليه وسلم (إن عظم الجزاء مع عظم البلاء ، وإن الله تعالى إذا أحب قوماً ابتلاهم ، فمن رضي فله الرضى ، ومن سخط فله السخط) حسنه الترمذي .

الصبر لغة / الحبس والمنع 0

اصطلاحاً / حبس النفس عن الجزع واللسان عن التشكي والتسخط والجوارح عن لطم الخدود وشق الجيوب0

والصبر ثلاثة أنواع :

الأول / صبرٌ على طاعة الله : ويعني الإلتزام بالفرائض والواجبات وتكميلها بالسنن والمستحبات وعدم التكاسل في القيام بها 0

الثاني / صبرٌ عن معصية الله : ويعني منع النفس عن شهواتها المحرمة وحبسها عن المعاصي الكبائر والصغائر 0

الثالث / صبرٌ على أقدار الله من المصائب ونحوها 0

والصبر فضله عظيم ومنزلته علية في الإسلام فقد أكثر الله من ذكره والحث عليه في كتابه وكذلك حثَّ عليه النبي صلى الله عليه وسلم في سنته حتى قال صلى الله عليه وسلم (ما أعطي أحدٌ عطاءً هو خيرٌ وأوسع من الصبر) متفق عليه

وقد ذكر المصنف الصبر في كتاب التوحيد لأنه يتضمن الرضا بربوبية الله وألوهيته وأسمائه وصفاته فمن أيقن أن الله رب كل شيء ولا يكون شيء إلا بإذنه وعلمه وهو المقدر له رضي بما قدره الله عليه ، وليعلم المؤمن أن الله لا يقدر الشر المحض لعبده المؤمن بل يكون في ثنايا هذا الشر خيرٌ عظيم أعظم من الشر الذي حصل للعبد وإنما أوقع الله الشر بهذا العبد ليحصل له ذلك الخير ومن أعظم ذلك الخير رفعة الدرجات وتكفير السيئات قال تعالى { وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ } (216) سورة البقرة وقال تعالى { فَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا } (19) سورة النساء ولا ينسب الشر إلى الله باعتبار أنه هو الفاعل بل هو المقدر وفاعل الشر هو المخلوقات قال النبي صلى الله عليه

وسلم (والشر ليس إليك) رواه مسلم فالعقرب هي التي لدغت والمقدر هو الله ، والمرض هو الذي أقعدك والمقدر هو الله وهكذا 0

قال المصنف : وقول الله تعالى ﴿ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [التغابن : 11] قال علقمة : هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله ، فيرضى ويسلم .

رواه بن جرير وبن أبي حاتم في تفسيرهما ورواه البيهقي في السنن الكبرى وعلقمة هو بن قيس بن عبد الله النخعي من أكابر التابعين وعلمائهم سمع من أكابر الصحابة كأبي بكر الصديق وعمر وعثمان وعلي وغيرهم وكان ثقةً ثبتاً توفي بعد الستين وتفسيره هذا واضح فإن من لازم الإيمان بالله أن ترضى وتسلم بما قدره وقضاه ، فقوله تعالى ((ومن يؤمن بالله)) أي بقدره ((يهد قلبه)) يرزقه الطمأنينة والرضا بالقضاء 0

وترك المصنف أول الآية وهي تبين سبب تفسيرها بما ذكره علقمة فقد قال تعالى {مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} (11) سورة التغابن فأي مصيبةٍ يصاب بها العبد فإنها لا تكون إلا بإذن الله وإرادته ومشيئته وحكمته فلا تكون عبثاً ولا يستطيع أحدٌ أن يوقعها إلا إذا كان الله قد قدَّر وقوعها كما قال تعالى في السحرة { وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ } (102) سورة البقرة وقال النبي صلى الله عليه وسلم (واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك بشيء إلا قد كتبه الله عليك رفعت الأقلام وجفت الصحف) رواه أحمد والترمذي وصححه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم (7957) أي بالمقدورات فكل شيءٍ مكتوب كما قال تعالى {مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} (22) سورة الحديد ثم بيَّن الحكمة من ذلك فقال {لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ} (23) سورة الحديد أي اليأس المؤدي إلى الإياس من روح الله والقنوط من رحمته ، والفرح المؤدي إلى البطر والأمن من مكر الله 0

قال المصنف : وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (اثنتان في الناس هما بهم كفر : الطعن في النسب ، والنياحة على الميت)

أي كفرٌ دون كفر لأنه غير معرف بأل فالتعريف بأل يدلُّ على حقيقة الكفر أي الكفر المعهود وهو الكفر الأكبر كقوله صلى الله عليه وسلم (بين الرجل وبين الكفر والشرك ترك الصلاة) فقد قال أكثر أهل العلم المراد به الكفر الأكبر بخلاف هذا الحديث فإن الكفر جاء غير معرفٍ بأل فدلَّ على أن المراد الكفر الأصغر وهو كفر النعمة لأن الطاعن في الأنساب قد نسي نعمة الله عليه بالإسلام وأنه هو الذي به الفخر وأن

التفاضل عند الله بالتقوى ، والنائح قد نسي سابق إنعام الله وإفضاله عليه 0 وقيل المراد من وجدت فيه خصلةٌ من هذه الخصال فقد وجدت فيه خصلةٌ من خصال الكفار ولا يلزم من ذلك كفره كمن وجدت فيه خصلةٌ من خصال المنافقين كالكذب في الحديث أو إخلاف الوعد فلا يلزم أن يكون منافقاً 0

وقد تقدم في باب الاستسقاء بالأنواء أن هاتان الخصلتان رغم نكارتهما إلا أن الأمة ستحتفظ بهما إلى قيام الساعة كما قال صلى الله عليه وسلم (اربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن) وذكر منهن (الطعن في الأنساب والنياحة) رواه مسلم

فقوله (الطعن في النسب) هو رميه بالعيوب كقول إنه ليس بن فلان مع ثبوت نسبه فهذا قذفٌ وهو من أعمال الجاهلية والكفار وكقول الناس في زماننا هذا طرش بحر وهذا لحجي وهذا خلوي وهذا ليس له أصل ونحو ذلك من العبارات التي فيها طعنٌ في الأنساب وكل ذلك من أعمال الكفار ومن فعلها ففيه خصلة من خصالهم 0

وقوله (والنياحة على الميت) أي رفع الصوت بالندب وتعداد محاسن الميت على وجه التحسر كقول واعضداه وانصيراه واثبوراه واخسارتاه وهذا يدل على التسخط وعدم الرضا بقضاء الله وقدره وكل ذلك من أفعال الكفار 0

والناس في باب الرضا بالقضاء والقدر على أقسام :

الأول / المتسخطين المعترضين على قضاء الله وقدره وقد يظهرون ذلك باللسان كقول أحدهم حين ابتلاه الله : لو عوضني بالفردوس ما كانت عوضاً لما ابتلاني به وكقول بعضهم ما لقي الله يبتلي إلا أنا على كثر الناس ونحو هذه العبارات التي تدل على الاعتراض والتسخط على أقدار الله وقد تؤدي بصاحبها إلى الكفر ورب كلمةٍ تهوي بصاحبها في النار سبعين خريفاً وهو لا يشعر ، وقد يكون التسخط بالفعل كشق الجيوب ولطم الخدود وهؤلاء وإن اعترضوا فلن يرد اعتراضهم القدر ولن يخفف المصيبة بل سيزيدها ويخسر المتسخط دنياه وأخراه قال تعالى {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ} (11) سورة الحج

الثاني / الصابرين الذين لا يظهرون تسخطاً ولا جزعاً ولا يبطنون ذلك في قلوبهم لكنهم يكرهون ما أصابهم من البلاء فهذا أقل الواجبات في باب القضاء والقدر 0

الثالث / الجامعين بين الصبر والرضا بما قدره الله عليهم من البلاء فهم غير كارهين ولا محبين لما نزل عليهم من البلاء لكنهم علموا أنه من الله فرضوا بما قدره الله عليهم وهذا أعلى رتبة من مجرد الصبر 0

الرابع / الشاكرين الذين يسألون الله العافية لكن إذا نزل بهم البلاء أحبوه وقالوا : إنما أنزل الله بنا البلاء لأنه يحبنا ويريد ان يخفف عنا ذنوبنا ويرفع لنا درجاتنا فهؤلاء بأعلى المنازل في باب القضاء والقدر وقد قال صلى الله عليه وسلم (إن عظم الجزاء مع عظم البلاء وإن الله تعالى إذا أحب قوما ابتلاهم فمن رضي فله الرضا ومن سخط فله السخط) رواه الترمذي وبن ماجة وحسنه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم (2110) وقال صلى الله عليه وسلم (ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه) متفق عليه وهؤلاء الذين يعلمون أن الله لا يقدر الشر المحض وأن هذا الذي نراه شراً قد جعل الله فيه من الخير أضعاف أضعاف ما فيه من الشر ورب رجلٍ ابتلاه الله بالفقر لعلمه جل وعلا أنه لو اغتنى طغى وتكبر وأفسد في الأرض وخسر الدنيا والآخرة وهكذا المريض وغيرهم ، ثم إنه قد أعد الله لأهل البلاء أجوراً عظيمة فقد قال صلى الله عليه وسلم (ليودن أهل العافية يوم القيامة أن جلودهم قرضت بالمقاريض مما يرون من ثواب أهل البلاء) رواه الترمذي وحسنه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم (5484)

قال المصنف : ولهما عن ابن مسعود مرفوعاً (ليس منا من ضرب الخدود ، وشق الجيوب ، ودعا بدعوى الجاهلية)

ولهما أي صاحبي الصحيحين عن بن مسعود مرفوعاً أي أن القائل هو النبي صلى الله عليه وسلم (ليس منا) قال أهل العلم هذا القول يدل على أن العمل المذكور بعده من كبائر الذنوب والمعنى والله أعلم ليست هذه الأعمال من أعمال المسلمين وكره بعض السلف تأويل نصوص الوعيد وقال الواجب إمرارها كما جاءت ويقال هكذا وردت لأنه أبلغ في الزجر لكنهم مجمعون على أن المسلم لا يكفر بما دون الشرك والكفر من الأقوال والأعمال 0

(من ضرب الخدود) أي لأجل المصيبة وخصَّ الخد لكونه الغالب وإلا فإن ضرب بقية الجسد مثله في الحكم 0

(وشق الجيوب) الجيب هو موضع دخول الرأس من الثوب والقميص وكان أهل الجاهلية يشقونه للمصيبة وشق باقي الملابس لأجل المصيبة مثله في الحكم 0

(ودعا بدعوى الجاهلية) هو الدعاء بالويل والثبور كقول واعضداه وانصيراه وانقطاع ظهراه ونحو ذلك 0

وإنما خصَّ النبي صلى الله عليه وسلم هذه الثلاث مع كون إظهار التسخط على قدر الله بأي طريقةٍ كله محرم ، لأن هذه الثلاث منتشرة في الجاهلية فحذر منها لانتشارها وقد ورد أن النبي صلى الله عليه وسلم (لعن الخامشة وجهها والشاقة جيبها والداعية بالويل والثبور) رواه بن ماجة وبن حبان وحسنه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم (5092) قال

في فتح المجيد ص408 : قد يعفى عن الشيء اليسير إذا كان صدقاً وليس على وجه النوح والتسخط نص عليه أحمد ولما وقع لأبي بكرٍ وفاطمة رضي الله عنهما عندما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم اهـ قلت يريد بقول فاطمة رضي الله عنها ماروه البخاري عن أنس رضي الله عنه قال لما ثقل النبي صلى الله عليه وسلم جعل يتغشاه الكرب . فقالت فاطمة واكرب أباه فقال لها ليس على أبيك كربٌ بعد اليوم . فلما مات قالت : يا أبتاه أجاب رباً دعاه يا أبتاه من جنة الفردوس مأواه يا أبتاه إلى جبريل ننعاه . فلما دفن قالت فاطمة يا أنس أطابت أنفسكم أن تحثوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم التراب ؟ ويريد بقول الصديق ما رواه البخاري أيضاً عن عائشة رضي الله عنها قالت : أقبل أبو بكر رضي الله عنه على فرسه من مسكنه بالسنح ، حتى نزل فدخل المسجد، فلم يكلم الناس، حتى دخل على عائشة رضي الله عنها، فتيمم النبي صلى الله عليه وسلم وهو مسجىً ببردٍ حبرة فكشف عن وجهه ثم أكب عليه فقبله ثم بكى فقال: بأبي أنت يا نبي الله ، لا يجمع الله عليك موتتين ، أما الموتة التي كتبت عليك فقد متها. قلت : وليس في كلاميهما إعتراضٌ ولا تسخطٌ على قدر الله فإنما المحرم هو الكلام الذي فيه تسخطٌ واعتراضٌ على قضاء الله وقدره وأما جريان الدمع والبكاء بلا تسخط والحزن كل ذلك جائز فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لما مات ابنه إبراهيم عليه السلام (إن العين تدمع والقلب يحزن ولا نقول إلا ما يرضي ربنا وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون) متفق عليه وعن أسامة بن زيد رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم انطلق إلى إحدى بناته ولها صبيٌ في الموت فرفع إليه ونفسه تقعقع ففاضت عيناه . فقال سعدٌ يا رسول الله ما هذا ؟ فقال (هذه رحمةٌ جعلها الله في قلوب عباده . فإنما يرحم الله من عباده الرحماء) متفقٌ عليه

قال المصنف : وعن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (إذا أراد الله بعبده الخير عجل له العقوبة في الدنيا ، وإذا أراد بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حتى يوافي به يوم القيامة) رواه الترمذي والحاكم وصححه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم (308)

الحديث يدل على أن المصائب تكفر الذنوب ، ويدل على أن من لم يصب بمصيبةٍ رغم اقتحامه للكبائر والسيئات بلا توبة أن ذلك استدراج وأن هذا العبد قد أريد به الشر في الآخرة لكونه يقع في مساخط الله بنفسٍ متكبرة متعاليةٍ متعاظمة فمثل هذا لا يوفق غالباً للتوبة بخلاف من يقع في السيئات بنفسٍ منكسرةٍ ذليلة فهذا قد يوفقه الله للتوبة ولو بمصيبةٍ تحدث عليه فيتوب من جرائها أو تكون سبباً في تكفير سيئاته ، وكم من إنسانٍ كان مقيماً على المعاصي فلما ابتلي بفقد عزيز أو أصيب بمرض تاب واستقام وأصبح داعيةً إلى الله بعد أن كان داعيةً إلى الغي والفساد ، ومثل هذه النصوص تمرُّ كما جاءت فإنما سيقت للزجر والتخويف ولا يجوز الخوض فيها بغير علم فإن الصحابة رضي الله عنهم حين سمعوا الحديث لم يقولوا : يا رسول الله هل الله يريد

الشر بعباده أو لا يريده ؟ بل ردوه إلى النصوص المحكمة كقوله تعالى {إِنَّ اللّهَ لاَ يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} (44) سورة يونس وقوله{إِنَّ اللّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا}(40) سورة النساء وقوله {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاء وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً} (49) سورة النساء ونحو هذه النصوص التي تبين أن الشر غير مرادٍ لله وإنما هو الجزاء بالعمل عدلاً أو عفواً بحسب ما تقتضيه حكمته وعلمه جل وعلا ، فإن علم في نفس عبده خيراً وفقه للخير برحمته وإن علم أن في نفس العبد شراً وكله إلى نفسه بعدله ثم الجزاء في الأخرى 0

فهذه من أشد أنواع العقوبات أن يحرم العبد التوبة ويحرم من فعل الطاعة ولذا لما سئل الحسن : ما بالنا لا نقوم الليل ؟ قال : قيدتكم خطاياكم 0 أي حرمتم بسببها قال تعالى { فَإِن تَوَلَّوْاْ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ } (49) سورة المائدة فكانت ذنوبهم سبباً في توليهم عن الرسول صلى الله عليه وسلم وترك طاعته 0 وقال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا اللّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ} (155) سورة آل عمران وقد تكون العقوبة من مصائب الدنيا وهذه أهون وهي المرادة في هذا الحديث ، وقد يعفوا الله ابتداءً خاصةً إذا قلت خطايا العبد وكان ممن يبادر إلى التوبة قال تعالى {وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ} (30) سورة الشورى وقد يصاب الإنسان بمصيبةٍ وهو لم يحدث ذنباً وذلك لرفعة درجاته في الآخرة وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم تصيبه المصائب والبلايا وهو أتقى البرية وذلك رفعةً لدرجاته ومنزلته عند الله 0

قال المصنف : وقال النبي صلى الله عليه وسلم (إن عظم الجزاء مع عظم البلاء ، وإن الله تعالى إذا أحب قوماً ابتلاهم ، فمن رضي فله الرضى ، ومن سخط فله السخط) حسنه الترمذي قلت : رواه الترمذي وبن ماجة وحسنه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم (2110) والحديث يدل على أن المصائب يثاب عليها مع تكفير الخطايا وقال بن القيم وغيره : جزاءها تكفير الخطايا بلا ثواب إلا إذا اقترن بها عملٌ صالح كصبرٍ ورضا أو شكرٍ وتوبةٍ واستغفار 0 قلت : لا بد أن يقترن مع المصيبة رضىً أو صبر حتى تكون مكفرةً للخطايا لأنه إذا لم يقترن بها رضىً أو صبر اقترن بها التسخط والجزع وليس للمتسخط إلا السخط فكيف تكون مكفرةً لخطاياه بلا عملٍ صالح فقول بن القيم لا وجه له بل المصائب تكفر الخطايا ويثاب عليها وكلما زاد في مراتب الإيمان بالقضاء والقدر تجاه هذه المصيبة زاد الثواب 0 وفي الحديث الدلالة على أن الذي يصاب بمصيبةٍ من أهل الإسلام أن الله قد أحبه ولو كان من أهل الخطايا إذ لو لم يحبه لأمسك عنه بذنبه حتى يوافيه به يوم القيامة كما في الحديث السابق فدلَّ على أنه أحبه فرحمه فعجل عقوبته في الدنيا ، والمصائب والبلايا يصاب بها خيرة الناس حتى الأنبياء قال النبي

صلى الله عليه وسلم (أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل يبتلى الرجل على حسب دينه فإن كان في دينه صلباً اشتد بلاؤه وإن كان في دينه رقة ابتلي على قدر دينه فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة) رواه البخاري قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن : وفي وقوع الابتلاء بالأنبياء والصالحين من الأسرار والحكم والمصالح وحسن العاقبة ما لا يحصى وأهمها التوحيد فإذا عرف العبد أن هؤلاء الأنبياء والأولياء والصالحين يصيبهم البلاء ولا يدفعه عنهم إلا الله عرف أنهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا دفعاً فلأن لا يملكون لغيرهم أولى وأحرى فيحرم قصدهم والرغبة إليهم في قضاء حاجةٍ أو تفريج كربةٍ (فتح المجيد410)

قوله (فمن رضي) أي سلَّم أمره إلى الله وأحسن الظن بربه ورغب في ثوابه (فله الرضا) فيرضى الله عنه ويرضي عنه الناس ويجعل قلبه رضياً فرحاً غير حزينٍ ولا يائس ففاز بالعاقبة الحسنة في الدنيا والآخرة 0

قوله (ومن سخط) على قضاء الله وقدره (فله السخط) فيسخط الله عليه ويسخط عليه الناس ويجعل نفسه ساخطةً كئيبةً يائسة فيعيش في همٍ وحزن فخسر الدنيا والآخرة ولم يفده تسخطه شيئاً 0

((باب ما جاء في الرياء))

وقول الله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً ﴾ [الكهف : 110]

عن أبي هريرة مرفوعاً (قال الله تعالى : أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه) رواه مسلم وعن أبي سعيد مرفوعاً (ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال) قالوا : بلى يا رسول الله ! قال (الشرك الخفي ، يقوم الرجل فيصلي ، فيزيّن صلاته ، لما يرى من نظر رجل) رواه أحمد

ذكر المصنف باب الرياء في كتاب التوحيد لأن الرياء من الشرك الأصغر الذي ينقص التوحيد وقد فسره النبي صلى الله عليه وسلم بقوله (يقوم الرجل فيصلي فيزين صلاته لما يرى من نظر رجل) فالرياء مشتقٌ من الرؤية والتسميع مشتقٌ من السمع وهو إظهار شيءٍ يسمع كقراءة القران والوعظ والذكر وغيرها ليمدحه الناس ويثنون عليه بأنه قارئ أو عالم أو غير ذلك وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم (من سمَّعَ سمَّعَ الله به ومن يرائي يرائي

الله به) متفق عليه والرياء خلقٌ ذميم وهو من صفات المنافقين كما قال تعالى {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُواْ إِلَى الصَّلاَةِ قَامُواْ كُسَالَى يُرَآؤُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللّهَ إِلاَّ قَلِيلاً} (142) سورة النساء والرياء مبطلٌ للعبادة إذا كان هو الباعث عليها وأما إن حدث الرياء في أثناءها فإن كانت العبادة ينبني بعضها على بعض بحيث لا تتجزأ كالصلاة مثلاً فإنها تبطل إذا استرسل مع الرياء وأما إن دافعه ورده ولم يقبله لم تبطل ، وأما إن كانت العبادة لا ينبني بعضها على بعض بحيث تقبل التجزؤ كالصدقة مثلاً فإنه يبطل منها ما داخله الرياء دون ما لم يداخله الرياء فلو تصدق بمائة ريالٍ خالصةً ثم رأى رجلاً فتصدق بمائةٍ اخرى رياءً فتبطل المائة الثانية دون الأولى ، وأما إن داخله الرياء بعد انقضاء العبادة فلا يضره ، وليحذر المسلم من الوسوسة فإن الشيطان يأتي إليه ويقول أنت مرائي فلا تصلي مع الجماعة لأنك إذا صليت مع الجماعة رائيت فبطلت صلاتك فحفاظاً على صلاتك صلي في بيتك وهكذا غيرها من العبادات يريه أنه مرائي ليتركها فلا يلتفت إلى ذلك بل قد ورد عن بعض السلف قوله (إن العمل من أجل الناس رياء وترك العمل من أجلهم شرك) وأما فرحه إذا مدحه الناس على عبادته فليس من الرياء ولا من الشرك بل هو من عاجل بشرى المؤمن كما ورد عن أبي ذرٍ رضي الله عنه قال قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم أرأيت الرجل يعمل الخير ويحمده الناس عليه ؟ قال (تلك عاجل بشرى المؤمن) رواه مسلم وكذلك من أرى الناس عبادته ليقتدوا به غير راغبٍ في ثنائهم وإنما ليحثهم على عبادة ربهم بالإقتداء به فهو مأجورٌ غير مأزور 0

قال المصنف : باب ما جاء في الرياء أي من التحذير والوعيد الشديد على فعله ثم ذكر النصوص الدالة على ذلك فأولها قوله تعالى {قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا} (110) سورة الكهف يأمر المولى جل وعلا نبيه في هذه الآية الكريمة أن يقول للناس إنني بشرٌ مثلكم ليس لي من صفات الربوبية والإلهية شيء إنما شرفت عليكم بالوحي الذي يوحى إليَّ من ربي عن طريق الملك الموكل بالوحي وهو جبريل عليه السلام وأصل ما يوحى إليَّ التوحيد وهو أن أخبركم أن إلهكم واحد لا شريك له في ربوبيته ولا إلهيته ولا أسمائه ولا صفاته فمن كان منكم يرجوا ويأمل أن يلقى ربه وهو عنه راض فما عليه سوى أن يقوم بأمرين :

الأول / {فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا} والعمل الصالح هو المتضمن للإخلاص والمتابعة فإنه إن لم يكن خالصاً وداخله الرياء بطل وكذلك إن لم يكن وفق ما شرعه النبي صلى الله عليه وسلم فإنه يكون بدعة والبدعة مردودةٌ على صاحبها غير مقبولةٍ عند الله قال صلى الله عليه وسلم (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد) متفق عليه وقال (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد) رواه مسلم روي عن الفضيل بن عياض في تفسير قوله

تعالى {الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا } (2) سورة الملك قال : أصوبه وأخلصه قيل يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه ؟ قال : إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل ، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل حتى يكون خالصاً صواباً ، فالخالص ما كان لله ، والصواب ما كان على السنة (نقله في فتح المجيد ص417)

الثاني /{ وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا } أحداً نكرةٌ في سياق النهي فتعم كل أحد أي لا يشرك معه غيره أبداً وذكر الرب ولم يقل (بعبادة الله) لأن المشركين يقرون بتوحيد الربوبية وأن الله هو الخالق الرازق فيقول الرب جل وعلا لهم كما أنكم تقرون بتوحيد الربوبية ولا تشركون معه غيره فيه فكذلك أقروا بتوحيد الألوهية وذلك بإفراد الله بالعبادة وعدم الإشراك فيها لغيره لأن الرب هو المستحق للعبادة دون من سواه وهذا كقوله تعالى {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ } (21) سورة البقرة والآية تدل على رؤية الله في الدار الآخرة لأن اللقاء يتضمن الرؤية 0

قال المصنف : عن أبي هريرة مرفوعاً (قال الله تعالى : أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه) رواه مسلم

يقول الرب جل وعلا في هذا الحديث القدسي (أنا أغنى الشركاء عن الشرك) والمعنى والله أعلم : إذا كان من الشركاء من يستغني عن شريكه لقدرته على إدارة أملاكه لوحده وغناه عن الشريك فالله أولى وأحق بهذا الأمر 0 ذلك لأن الله هو الغني ونحن الفقراء والله هو القوي ونحن الضعفاء والله هو القادر ونحن العاجزون البؤساء فكيف يجعل الرب الغني القوي القادر محتاجاً إلى الفقير الضعيف العاجز ليكون شريكاً له ، وهل يكون المخلوق الضعيف المستغني عن الشريك أحسن حالاً من الخالق القوي القادر حتى يشرك معه غيره لا شك أن هذا أمرٌ شنيع وظلمٌ فظيع ولذا كان الشرك أعظم الذنوب لما يتضمن من انتقاص الرب جل وعلا وظلمه ما يستحقه من صفات الكمال ونعوت الجلال ولذلك قال العبد الصالح { يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ} (13) سورة لقمان ثم بيَّن الرب جل وعلا عقوبة المرائي فقال (من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه) أي لم أقبل منه عمله وقد روى الإمام أحمد عن محمود بن لبيد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال (إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر) قالو : يا رسول الله وما الشرك الأصغر ؟ قال (الرياء يقول الله لهم يوم يجازي العباد بأعمالهم اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاءً) صححه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم (1555)

قال المصنف : وعن أبي سعيد مرفوعاً (ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال) قالوا : بلى يا رسول الله ! قال (الشرك الخفي ، يقوم الرجل فيصلي ، فيزيّن صلاته ، لما يرى من نظر رجل) رواه أحمد

قلت رواه بن ماجة والبيهقي وحسنه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم (2607)

قوله (ألا أخبركم) أسلوب تشويق (بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال) أي إذا كنت أخاف عليكم من فتنة المسيح الدجال فهناك أمرٌ أخاف عليكم منه أكثر مما أخاف عليكم من فتنة المسيح الدجال (قالوا : بلى يا رسول الله) وهذا يدل على حرص الصحابة على العلم واهتمامهم بمعرفة كل فتنةٍ للحذر منها كما قال الشاعر :

عرفت الشرَّ لا للشرِّ لكن لتوقيه ومن لم يعرف الشر من الخير يقع فيه

قال (الشرك الخفي) هذا هو الشر الذي يخافه عليهم أكثر من الدجال ثم بينه فقال (يقوم الرجل فيصلي فيزين صلاته لما يرى من نظر رجل) فهو الرياء وإنما سمي خفياً لوقوعه في القلب إذ لا يعلم عنه إلا الله فمن يدري أنك تصلي رياءً أو تصلي خالصاً غير الله ، بخلاف بقية أنواع الشرك الأصغر فهي ظاهرة كالحلف بغير الله وقول لولا الله وفلان وما شاء الله وشئت وبالفعل كلبس التمائم الشركية ونحو ذلك وأما الرياء فهو خفي وإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يخافه على أصحابه فمن دونهم من باب أولى 0

قلت : ولا شك أنه قد يخفى على صاحبه الذي هو واقعٌ فيه ولذلك قال بعض السلف : ما عالجت شيئاً أشد علي من نيتي 0 وفي حديث الثلاثة الذين تسعر بهم النار دليلٌ واضحٌ على ذلك لأنهم موقنين وهم في الدنيا أن الله يعلم الخفايا والأسرار فكيف يكذبون عليه في الآخرة إنما قالوا ما اعتقدوه حقاً لخفاء ريائهم على أنفسهم فالواجب الحذر وتفتيش النفس عند كل عبادة مع ترك الوسوسة 0

((باب من الشرك إرادة الإنسان بعمله الدنيا))

وقول الله تعالى ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ * أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [هود : 15 ، 16]

وفي الصحيح عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (تعس عبد الدينار ، تعس عبد الدرهم ، تعس عبد الخميصة ، تعس عبد الخميلة ، إن أعطي رضي ، وإن لم يعط سخط ، تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش ، طوبى لعبد أخذ بعنان فرسه في سبيل الله ، أشعث رأسه ، مغبرة قدماه ، إن كان في الحراسة كان في الحراسة ، وإن كان في الساقة كان في الساقة ، إن استأذن لم يؤذن له ، وإن شفع لم يشفع)

هذا الباب عام والباب الذي قبله خاص يدخل في هذا العموم فالمرائي أراد بعمله الدنيا ولكنه أراد أمراً خاصاً وهو مدح الناس وثنائهم ، وأما هذا الباب فيشمل ذلك ويشمل أيضاً من يريد المال أو الجاه أو المنصب أو الولد أو السعادة الدنيوية أو يريد أن يحفظه الله في ماله وولده غير مريدٍ للآخرة فمثل هذا قد يعطى نصيبه في الدنيا كاملاً وليس له في الآخرة من أجر قال تعالى {مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ (15) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} (16) سورة هود فقوله تعالى {مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا}أي بالأعمال الصالحة وكانت كل أعماله للدنيا { وَزِينَتَهَا } من الأموال والأولاد والنساء والمناصب وليس له همةٌ للآخرة ولا يفكر فيها فهؤلاء {نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ }أي في الدنيا نعطيهم منها على قدر أعمالهم لا نظلمهم ولا ننقصهم شيئاً من أجر أعمالهم بل نعطيها لهم في الدنيا كاملة وقيده في آيةٍ أخرى بالمشيئة قال تعالى {مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاء لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا} (18) سورة الإسراء لكن ليس له في الآخرة من أعماله نصيب ولذلك قال{ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ}فيالخسارة ما ربحوه من أعمالهم 0 قال بن كثير : قال بن عباس: يقول: من عمل صالحاً التماس الدنيا صوماً أو صلاةً لا يعمله إلا التماس الدنيا، أوفيّه الذي التمس في الدنيا من المثابة ، وحبط عمله الذي كان يعمله وهو في الآخرة من الخاسرين، وقال أنس والحسن: نزلت في اليهود والنصارى، وقال مجاهد: نزلت في أهل الرياء، وقال قتادة: من كانت الدنيا همه ونيته وطلبته جازاه الله بحسناته في الدنيا، ثم يفضي إلى الآخرة وليس له حسنةً يعطى بها جزاءً ، وأما المؤمن فيجازى بحسناته في الدنيا ويثاب عليها في الآخرة ، كما قال تعالى{مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاء لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا (18) وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا} (19) سورة الإسراء وقال تعالى{مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ} (20) سورة الشورى انتهى كلامه رحمه الله 0

وقد ذكر المصنف أنه من الشرك لكونه صرف العبادة التي يجب أن تكون خالصةً لله لأمورٍ دنيوية ولذلك جعله النبي صلى الله عليه وسلم عابداً لهذه الأمور الدنيوية كما قال صلى الله عليه وسلم (تعس عبد الدينار ، تعس عبد الدرهم ، تعس عبد الخميصة ، تعس عبد الخميلة ، إن أعطي رضي ، وإن لم يعط سخط ، تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش ، طوبى لعبد أخذ بعنان فرسه في سبيل الله ، أشعث رأسه ، مغبرة قدماه ، إن كان في الحراسة كان في الحراسة ، وإن كان في الساقة كان في الساقة ، إن استأذن لم يؤذن له ، وإن شفع لم يشفع) رواه البخاري

(تعس) أي عثر وانكب لوجهه وهو دعاءٌ عليه بالهلاك قاله بن الأثير ، وقوله (عبد الدينار عبد الدرهم) لكونه يقصدها بعمله وكل من توجه بقصده لغير الله فقد جعل هذا المقصود شريكاً لله ، ولأنه تعلق بالدنيا كما يتعلق المؤمن بربه فكان أسيراً لها كالعبد عند سيده 0

(الخميصة) ثوب الخز أو الصوف المعلم والمراد الكساء الجميل 0

(الخميلة) الفراش الوثير (القول المفيد142/2) فالدينار والدرهم للمهتمين بجمع الأموال والخميصة والخميلة للمهتمين بالزينة والأثاث ، فهذا سيق كمثال وإلا فإن فتن الدنيا كثيرة قال تعالى {زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ} (14) سورة آل عمران فمن جعل هذه همه فلا يعمل العمل الصالح إلا لأجل الحصول عليها كان عابداً لها ولذلك (إن أعطي رضي ، وإن لم يعط سخط) لأن همه الدنيا لا يفكر في أجر الآخرة ولو كانت الآخرة همه لما ألتفت للدنيا إن جاءت فالحمد لله وإن ولت فلم نعمل العمل من أجلها ، وهذا يظهر جلياً في غنيمة الجهاد فمن جاهد لله مخلصاً ولم يعط من الغنيمة لم ينزعج بخلاف المجاهد للغنيمة فإنه سيعد ذلك من أكبر الجرائم في حقه وسيفعل كل ما يستطيع لتحصيل تلك الغنيمة ولن يعود للجهاد مرةً أخرى إذا لم يعط من تلك الغنيمة ، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم مبيناً أجر المجاهد المخلص (طوبى لعبدٍ أخذ بعنان فرسه في سبيل الله ، أشعث رأسه ، مغبرة قدماه ، إن كان في الحراسة كان في الحراسة ، وإن كان في الساقة كان في الساقة ، إن استأذن لم يؤذن له ، وإن شفع لم يشفع) وقال للذي أراد الدنيا (تعس وانتكس) أي عاودته التعاسة مرةً بعد مرةٍ وتقلبت عليه الأموربحيث لا يتيسر له أمر حتى أنه من شدة ذلك (إذا شيك فلا انتقش) أي إذا أصابته شوكة لم يقدر على إخراجها بالمنقاش وهي الأداة التي ييستخرج بها الشوك من الجسم وسبب ذلك تعسر جميع أموره عليه وذلك لأنه أراد غير الله فوكله الله إلى ما أراد ومن وكله الله إلى غيره فبشره بالضعف والعجز وتعسر الأمور ، وهذه الجمل من النبي صلى الله عليه وسلم يحتمل أن تكون خبراً فيخبر النبي

صلى الله عليه وسلم عن حال من جعل الدنيا همه ، ويحتمل أنها دعاء فيدعو عليه النبي صلى الله عليه وسلم لأنه ارتكب ما يستحق أن يُدعى عليه بسببه ، وفي كلا الحالين سيصيبه هذا الأمر من التعاسة والانتكاسة لأنه إن كان خبراً فخبر النبي صلى الله عليه وسلم صدق ، وإن كان دعاء فدعاء النبي صلى الله عليه وسلم مستجاب ، فيكون ما جاءه مما أراده من الدنيا وبالاً عليه وسبب للمشقة والتعاسة فأي خيرٍ جناه بطلبه الدنيا دون الأخرى فلا دنيا سعد بها ولا أجر له في الآخرة ، فالواجب إخلاص العمل لله لا شريك له فمن فعل ذلك أنعم الله عليه وآتاه من خيري الدنيا والآخرة فحصَّل السعادة في الدارين ، ولا تعني السعادة في الدنيا أن يؤتى مالاً وفيراً وزوجةً حسناء وغير ذلك وإنما انشراحاً في الصدر وتيسيراً في الأمور وقناعةً بما رزق ونحو ذلك ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم (طوبى) أي أطيب حال وقيل شجرة في الجنة والأول أعم (لعبد أخذ بعنان فرسه) أي ممسكٌ بمقودها (في سبيل الله) لا في سبيل السمعة ولا المال ولا غير ذلك وإنما في سبيل الله مخلصاً في ذلك (أشعثٌ رأسه) مشغولٌ عن ترجيله بما هو خارجٌ في سبيله (مغبرةٌ قدماه) لم يشتغل بالتنعم بالدنيا وملذاتها حتى في أيسر ذلك من دهن الشعر وترجيله وغسل القدمين فمن كانت هذه حاله فهو أبعد ما يكون عن الافتتان بالدنيا فضلاً عن أن يطلبها بعمل الآخرة (إن كان في الحراسة كان في الحراسة وإن كان في الساقة كان في الساقة) أي أنه لا يبالي أين وضع سواءً قيل له احرس الجيش أو قيل له أرجع إلى مؤخرة الجيش لم يأنف ويتضجر من ذلك بخلاف من خرج رياءً أو طمعاً في دنيا فإنه يريد مقدمة الجيش حتى يقال إنه من الأبطال وحتى يرى فيعطى من الغنيمة ، وليس معنى الحديث الحث على التأخر وترك مقدمة الجيش وإنما بيان حال من خرج في سبيل الله أنه لا يبالي بالدنيا لأنه لم يخرج لأجلها ولذلك يطيع القائد ولو رأى أن في ذلك هضماً لحقه بكونه يجعل في الحراسة أو في مؤخرة الجيش ، وهكذا ليس له طلبٌ للجاه والمنصب ولا يرائي فهو غير معروف عند الناس ولذلك (إن استأذن) بالدخول على الأمراء والقادة ونحوهم (لم يؤذن له) لكونهم لا يعرفونه وليس له عندهم جاه يكرمونه به (وإن شفع لم يشفع) فلا تقبل شفاعته أيضاً عند الملوك والأمراء وغيرهم لأنه لم يبحث عن الجاه يوماً في حياته بل كان مقصده رضى الله ولذلك فهو وجيهٌ عند الله ذو منزلةٍ علية ولو صغر في أعين الناس قال النبي صلى الله عليه وسلم في حديثٍ آخر (رب أشعث مدفوعٍ بالأبواب لو أقسم على الله لأبره) رواه مسلم أي يطرد ولا يستقبل إذا جاء عند أبواب الناس مستأذناً أو شافعاً لكنه عند الله مجاب الدعوة مستقبلاً بالحفاوة والإكرام ، فيا لكرامته وسعادته 0

باب من أطاع العلماء والأمراء في تحريم ما أحل الله
أو تحليل ما حرمه فقد اتخذهم أرباباً

وقال ابن عباس : يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء ، أقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتقولون : قال أبو بكر وعمر؟ وقال الإمام أحمد بن حنبل : عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحته ، يذهبون إلى رأي سفيان ، والله تعالى يقول ((فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)) [النور : 63] أتدري ما الفتنة ؟ الفتنة : الشرك ، لعله إذا رد بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك .

عن عدي بن حاتم : أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ هذه الآية ((اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ)) [التوبة :31] الآية . فقلت له : إنا لسنا نعبدهم قال (أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه ، ويحلّون ما حرم الله ، فتحلونه) ؟ فقلت : بلى . قال (فتلك عبادتهم) رواه أحمد ، والترمذي وحسنه .

هذا باب عظيم لكونه يبين أمراً خطيراً يجهله كثير من الناس وهو مصادمة النصوص بآراء الرجال واجتهاداتهم وما علم هذا المسكين أن الأمر كله لله فالشرع شرعه والحكم حكمه ولذلك عاب بن عباسٍ رضي الله عنهما على الذين يردون سنة النبي صلى الله عليه وسلم محتجين باجتهادٍ من أبي بكر وعمر رضي الله عنهما خالفا فيه النص فمنعا من متعة الحج وقالا لو تركنا الناس يتمتعون بالعمرة إلى الحج لترك الناس البيت سائر السنة وجاءوا في زمان الحج حاجين ومعتمرين فأرادا فصل العمرة عن الحج حتى يأتي الناس للعمرة في غير زمان الحج فلا يخلو البيت وهذا اجتهادٌ منهما خالفا فيه النص فقد ثبت في البخاري وغيره أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بالتمتع بالعمرة إلى الحج ورغب في ذلك فَيُرَد قول من خالفه ولو كان قول أبي بكرٍ وعمر ويلتمس لهما العذر بأنهما لم يتعمدا المخالفة ولعله لم يبلغهما الخبر أو وجدا مسوغاً شرعياً يقتضي ذلك قال عبد الرحمن بن حسن : وما زال العلماء رحمهم الله يجتهدون في الوقائع فمن أصاب فله أجران ومن أخطأ فله أجر كما في الحديث لكن إذا استبان لهم الدليل أخذوا به وتركوا اجتهادهم وأما إذا لم يبلغهم الحديث أو لم يثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم عندهم فيه حديث أو ثبت وله معارض أو مخصص ونحو ذلك فحينئذٍ يسوغ للإمام أن يجتهد O (انتهى من فتح المجيد 432) وحينئذٍ فمن خالف النص من الأئمة فلا يرمى مباشرةً بتعمد معارضة النص ولكن يُسأل فلعل النص لم يثبت عنده أو ثبت ووجد له مخصصاً أو معارضاً أقوى أو غير ذلك ولذلك قد يتهم الإمام بمخالفة النص والدليل معه لا ضده

فلينتبه لهذا ولا يقع المرء في أعراض العلماء والأئمة دون تثبت فإن لحوم العلماء مسومة ولا يعني هذا أنهم لا يخطئون فلا نوافقهم على خطأهم ولا نتبعهم عليه ونلتمس لهم العذر ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً ، والخطر على الذي يتبعهم بعد تيقنه بخطأهم فهو الذي تعمد مخالفة النص 0

ولا يخلو من أطاع العلماء والأمراء في تحليل المحرم وتحريم الحلال من ثلاث حالات :

الأولى / أن يعلم ذلك فيتبعهم تقديماً لطاعتهم على طاعة الله ورسوله ويرى أن قولهم أفضل من قول الله ورسوله فهذا مشركٌ شركاً أكبر 0

الثانية / أن يعلم ذلك فيتبعهم طمعاً في مال أو منصب ونحو ذلك وهو يعتقد أن طاعة الله ورسوله أوجب وأن حكم الله ورسوله أفضل فهذا مشركٌ شركاً أصغر 0

الثالثة / أن لا يعلم أن قولهم يخالف قول الله ورسوله فهذا معذور إذا لم يستطع معرفة الحق لسببٍ من الأسباب كأن يكون في بلادٍ نائية وليس عنده من وسائل الإتصالات والمواصلات ما يمكنه من سؤال العلماء والوصول إليهم أو يكون مسجوناً أو يكون أصم وأعمى أو سأل عالماً يثق بديانته وعلمه فأفتاه بذلك ، وأما إذا استطاع معرفة الحق ولكنه لم يطلبه كسلاً أو نحو ذلك فإنه يأثم لأن الله أمر بالبحث عن الحق وسؤال أهل العلم فقال تعالى { فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ } (43) سورة النحل

وينبغي أن يُغَلَّظَ في الإنكار على من خالف الدليل بعد علمه به كما فعل بن عباس رضي الله عنهما وسئل الشافعي رحمه الله عن مسألة فقال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كذا وكذا فقال السائل : وأنت ما تقول 0 فغضب وأنكر عليه أشد الإنكار وقال أتراني في بيعة أو كنيسة أو أعبد الصلبان أقول قال رسول الله وتقول ما تقول 0 وقد ثبت عن الأئمة قولهم : إذا ثبت الحديث فهو مذهبنا وقولهم كل يأخذ من قوله ويرد إلا النبي صلى الله عليه وسلم 0

قال المصنف : وقال الإمام أحمد هو بن محمد بن حنبل الشيباني المتوفى سنة 241هـ : عجبت عجب إنكار لقوم حالهم أنهم عرفوا الإسناد وصحته فهم علماء في الحديث النبوي ومع ذلك يتركون ما صح عندهم من الأحاديث يذهبون إلى رأي سفيان الثوري رحمه الله والله تعالى يقول { فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } (63) سورة النور قال بن عثيمين : عدي بعن مع أن الفعل (يخالف) يتعدى بنفسه لأنه ضُمِّنَ معنى الإعراض أي يعرضون عن أمره زهداً فيه وعدم مبالاة (القول المفيد2/153) قال عبد الرحمن بن حسن : قال شيخ

الإسلام : إفضاؤه إلى الكفر إنما هو لما يقترن به من الاستخفاف في حق الآمر كما فعل إبليس لعنه الله (فتح المجيد437) قال بن جرير : أدخلت عن لأن معنى الكلام فليحذر الذين يلوذون عن أمره ويدبرون عنه معرضين ((أن تصيبهم فتنة)) فسرها أحمد بالشرك كقوله تعالى {وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ} من الاية(217) سورة البقرة أي الكفر والشرك 0 انتهى 0 ثم قال الإمام أحمد : لعله إذا ردَّ بعض قوله أن يقع في قلبه شيءٌ من الزيغ فيهلك كقوله تعالى {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} (5) سورة الصف وهذا عقابٌ من الله تعالى جزاء تمردهم على أوامر رسله وقد يخفف الله عنهم عقاب الآخرة فيصيبهم بعذابٍ في الدنيا ولذلك قال تعالى ((أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)) من غرقٍ أو حرقٍ أو تلف مالٍ أو ولد أو غير ذلك من العقوبات ولا شك أن ذلك مؤلم وقد يجمع لمن زاد تمرده بين العذابين على أنه لايستطيع الصبر على عذاب الدنيا فكيف بعذاب الآخرة ، وهذا يدل على شؤم المعاصي وسوء عاقبتها في الدنيا والآخرة فالواجب طاعة الله ورسله ورد قول كل من خالف أوامر الله ورسله 0

ثم ذكر المصنف حديث عدي وقد كان نصرانياً فأسلم فسمع قول الله تعالى ((اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ)) فتعجب فبين له النبي صلى الله عليه وسلم معنى الآية وأنها طاعتهم في مخالفة النصوص عمداً 0

باب قول الله تعالى((أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُواْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيداً)) الآيات وقوله ((وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ قَالُواْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ)) [البقرة : 11] . وقوله ((وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا)) الآية [الأعراف : 56] . وقوله ((أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ حُكْماً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ)) المائدة : 50] عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به) قال النووي : حديث صحيح ، رويناه في كتاب " الحجة " بإسناد صحيح . وقال الشعبي : كان بين رجل من المنافقين ورجل من اليهود خصومة ؛ فقال اليهودي : نتحاكم إلى محمد – لأنه عرف أنه لا يأخذ الرشوة – وقال المنافق : نتحاكم إلى اليهود – لعلمه أنهم يأخذون الرشوة فاتفقا على أن يأتيا كاهناً في جهينة فيتحاكما إليه ، فنزلت ((أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ)) الآية [النساء : 60] .وقيل : نزلت في رجلين اختصما ، فقال أحدهما : نترافع إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وقال الآخر : إلى كعب بن الأشرف ، ثم ترافعا إلى عمر ، فذكر له أحدهما القصة . فقال للذي لم يرض برسول الله صلى الله عليه وسلم : أكذلك ؟ قال : نعم ، فضربه بالسيف فقتله .

لا يجوز الحكم بغير ما أنزل الله ولا التحاكم بالقوانين الوضعية فإن ذلك شرك مع الله في التشريع والطاعة قال تعالى {فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا} (65) سورة النساء وقال تعالى {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُواْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيدًا} (60) سورة النساء وقال تعالى {أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ} (50) سورة المائدة وقال تعالى {أَفَغَيْرَ اللّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنَزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً} (114) سورة الأنعام

وقد بيَّن أهل العلم هذه المسألة فقال الشيخ عبد العزيز الراجحي : ذكر الحافظ ابن كثير رحمه الله أن من بدَّل الشريعة بغيرها من القوانين فإن هذا من أنواع الكفر ومثَّل لذلك بالمغول الذين دخلوا بلاد الإسلام وجعلوا قانوناً مكوناً من عدة مصادر يسمى (الياسق) وذكر كفرهم وذكر هذا أيضاً الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ رحمه الله فقد قال في أول رسالته (تحكيم القوانين): إن من الكفر المبين استبدال الشرع المبين بالقانون اللعين 0أ0هـ فإذا بدَّل الشريعة من أولها إلى آخرها كان هذا كفراَ من أنواع الكفر والردة ، وقال آخرون من أهل العلم : إنه لابد أن يعتقد استحلاله ولابد أن تقام عليه الحجة وذهب إلى هذا سماحة شيخنا عبدالعزيز بن باز رحمه الله وقال : إنه لابد أن تقوم عليه الحجة لأنه قد يكون جاهلاً بهذا الأمر وليس عنده علم ، فلابد أن يبين له حتى تقوم عليه الحجة فإذا قامت عليه الحجة فإنه يحكم بكفره 0

وقال الشيخ صالح الفوزان : من نحّى الشريعة الإسلامية نهائياً وأحل مكانها القانون فهذا دليلٌ على أنه يرى جواز هذا الشيء ، لأنه ما نحاها وأحل محلها القانون إلا لأنه يرى أنها أحسن من الشريعة ، ولو كان يرى أن الشريعة أحسن منها لما أزاح الشريعة وأحل محلها القانون ، فهذا كفرٌ بالله 0

وقال الشيخ محمد العثيمين : أما بالنسبة لمن وضع قوانين تشريعية مع علمه بحكم الله وبمخالفة هذه القوانين لحكم الله فهذا قد بدَّل الشريعة بهذه القوانين فهو كافر لأنه لم يرغب بهذا القانون عن شريعة الله إلا وهو يعتقد أنه خير للعباد والبلاد من شريعة الله0 وعندما نقول بأنه كافر ، فنعني بذلك أن هذا الفعل يوصل إلى الكفر ولكن قد يكون الواضع له معذوراً مثل أن يغرر به كأن يقال إن هذا لا يخالف الإسلام أو هذا من المصالح المرسلة أو هذا مما رده الإسلام إلى الناس 0 (القول المفيد2/160)

وقال الشيخ ناصر العقل : يبدو لي أن كثيراً ممن يقعون في الحكم بغير ما أنزل الله أحياناً ليس هذا بإرادتهم ، يأتون إلى سدة نظامٍ وضع له دستورٌ أيام الاحتلال الغربي لبلاد المسلمين ، ثم جاء حكامٌ يرثون هذه النظم ،

قد يكون بعضهم يكره الحكم بغير ما أنزل الله ، ورأينا من البعض محاولات جادة كما كان من ضياء الحق وغيره للعودة إلى حكم الله ، ولكن ترده قوى كثيرة ، وربما يؤدي عمله إلى مفاسد عظمى تفسد أمن البلاد وتوقع في كوارث . فإذن أنا لست بهذا أعتذر عنهم ، ولكن أقول يجب أن نحتاط في ديننا للحكم على العباد لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال (إذا قال الرجل لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما) فإذن الإكراه والتأول والجهل والالتباس أيضاً ، كل هذه موانع من تكفير المعين ... فلذلك لا يجوز الاستعجال في تكفير دولةٍ أو مؤسسة أو نظام أو حزب أو جماعة أو هيئة أو شخص ، لا يجوز التسرع بتكفيره ما لم تُطَبَّق عليه الشروط ، ويجب أن نفرق بين الحكم على المعينين والحكم العام الشرعي 0ا0هـ

ويمكن تلخيص حالات الحكم والتحاكم إلى القوانين الوضعية بما يلي :

أولاً / أن واضع القانون الذي بدل به الشريعة كافرٌ كفراً أكبر دون نظرٍ هل هو مستحلٌ أو غير مستحل لأن فعله يدل على استحلاله لذلك وعليه كلام الشيخ صالح الفوزان ، لاكن لابد من إقامة الحجة عليه بأن يقال له إن فعلك هذا كفرٌ أكبر فإن أصرَّ عليه حكمنا بكفره 0

ثانياً / الحاكم بهذا القانون الذي قد وضع قبله ، يبين له ويقال : إن استبدال أحكام الشريعة بهذه القوانين كفر ، فإن أصر على الحكم بها ولم يبد عذراً كإكراه ونحوه حكمنا بكفره لأنه يكون مستحلاً لها أو معتقداً أنها أفضل من أحكام الشريعة فيكفر بذلك كله الكفر الأكبر 0

ثالثاً / الذي يحكم بالشريعة لاكن حكم ببعض بنود هذه القوانين مما يخالف الشريعة غير مستحلٍ لها ولا معتقدٍ أنها أفضل من الشريعة ولكن لغلبة شهوة وهوى مع إقراره بعصيانه فهذا قد ارتكب كبيرةً لكن لا يحكم بكفره 0

رابعاً / الذي يتحاكم إلى هذه القوانين الوضعية فهذا إن كان راضٍ بها أو معتقدًا جواز التحاكم إليها أو مفضلاً أحكامها على أحكام الشريعة ، فهذا كافرٌ الكفر الأكبر ودليل ذلك قوله تعالى {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُواْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيدًا} (60) سورة النساء وقوله تعالى {فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا} (65) سورة النساء

وأما من كان مجبراً على التحاكم إليها إما لأن خصمه ألزمه بالحضور إلى هذه المحكمة الوضعية أو لأنه لايستطيع الوصول إلى حقوقه إلا برفع الأمر إلى هذه المحكمة الوضعية لعدم وجود محاكم شرعية في الدولة التي هو فيها أو لغير ذلك من الأسباب الملزمة فلا حرج إذا كان كارهاً لذلك غير معتقدٍ جوازه 0

قال بن عثيمين : من حكم بغير ما أنزل الله فإنه يكفر في ثلاثة مواضع :

الأول / إذا اعتقد جواز الحكم بغير ما أنزل الله لأنه من المعلوم بالضرورة أنه لا يجوز الحكم بغير ما أنزل الله فهو كمن اعتقد حلَّ الخمر والزنى

الثاني / إن اعتقد أن حكم غير الله أحسن من حكم الله وقد قال تعالى {أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ} (50) سورة المائدة

الثالث / إذا اعتقد أن حكم غير الله مساوياً لحكم الله وأنه لا فرق فيكفر بذلك لقوله تعالى {أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ} (8) سورة التين

ويكون ظالماً لا كافراً إذا اعتقد أن حكم الله لا يماثله شيء ولا يجوز الحكم بغيره لكن حمله على الحكم بغيره بغضه للمحكوم عليه وحقده عليه وإرادة التشفي منه فإنه يكون ظالماً 0

ويكون فاسقاً إذا اعتقد في الحكم الإعتقاد الصحيح لكن حمله على مخالفته الهوى وحب النفس إما لرشوة أو لكون المحكوم عليه قريبه أو صديقه أو نحو ذلك ولم يضر أحداً فهذا فاسق 0 (انتهى بتصرف من القول المفيد 159/2)

قوله تعالى ((ألم تر)) إستفهام تقرير وتعجب والخطاب للنبي ((إلى الذين يزعمون أنهم ءامنوا)) الزعم هو الدعوى الباطلة فهم كاذبون في دعواهم الإيمان ((بما أنزل إليك)) القران والسنة فالسنة وحيٌ من عند الله كما قال تعالى ((وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحيٌ يوحى)) ((وما أنزل من قبلك)) كالتوراة والإنجيل والزبور وغيرها ومع دعواهم الإيمان بها ((يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت)) وهو كل حكم يخالف حكم الله ورسوله من الطغيان وهو مجاوزة الحد لأن الحاكم بغير ما أنزل الله قد تجاوز حده وادعى أمراً هو لله وحده وهو التشريع والحكم ، ولأن الآمر لهم بذلك زعيم الطواغيت وهو الشيطان وهم مطيعون أمره يتحاكمون إلى من تحت ولايته من الطواغيت كالكهان والعرافين والمنجمين والسحرة وغيرهم من الحاكمين بغير ما أنزل الله فمن رضي بالتحاكم إليهم فقد رضي بالتحاكم إلى شرع إبليس ((وقد أمروا أن يكفروا به)) لأنه عدوهم ولأنه يريد إغوائهم ليكونوا من حطب جهنم ولذلك قال تعالى ((ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً)) سواءً الحاكمين من الطواغيت أو المتحاكمين إليهم ، يريد إبعادهم عن الحق والهدى وطاعة الرب جل وعلا إلى الضلالة والعمى ومعصية الرب

جل وعلا ، وقد حذر المولى جل وعلا من اتباع الشيطان وأعوانه من الطواغيت في أكثر من موضع في كتابه كقوله تعالى {لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} (256) سورة البقرة وقوله تعالى {وَلَمَّا جَاءهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ كِتَابَ اللّهِ وَرَاء ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ (101) وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ ......} (102) سورة البقرة وقال تعالى {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَؤُلاء أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ سَبِيلاً (51) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا} (52) سورة النساء وقال تعالى {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ} (170) سورة البقرة وهذا كالتحاكم لى العادات والسلوم ورؤوس العشائر ونحو ذلك 0
ثم قال تعالى بعد الآية التي أوردها المصنف {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا} (61) سورة النساء ليبين تعالى أن الذين لا يريدون التحاكم إلى الشرع هم منافقون إذا تكرر منهم الصد عن التحاكم إليها لأن قوله تعالى ((يصدون عنك صدوداً)) أي مرةً بعد مرة أو يكون لبيان حالهم ويكون من صدّ عن التحاكم إليها ولو مرة كرهاً لها فهو منافق وقد عدَّ أهل العلم من كره شيئاً من الشريعة كافراً لقوله تعالى {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ} (9) سورة محمد ولا يحبط العمل بالكلية إلا الكفر ، ولو كان يحب الله ورسوله لأحب الشرع المطهر فدلّ كرهه للشرع على كرهه لمن جاء به فكان كافراً 0 ثم قال تعالى {فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآؤُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا} (62) سورة النساء
وإذا أصابتهم نكبة وبلاء وعذاب جراء اقتحامهم المعاصي وتحاكمهم إلى غير شرع الله واحتاجوا إليك جاءوا يعتذرون ويقولون ما أردنا بفعلنا هذا ((إلا إحساناً وتوفيقاً)) قال بن كثير : أي مداراةً ومصانعة ولا نعتقد صحة تلك الحكومة 0 انتهى 0 وقال بن جرير : هذا خبرٌ من الله تعالى ذكره عن هؤلاء المنافقين أنهم لا يردعهم عن النفاق العِبر والنِّقم، وأنهم إن تأتهم عقوبة من الله على تحاكمهم إلى الطاغوت لم ينيبوا ولم يتوبوا، ولكنهم يحلفون بالله كذبًا وجرأة على الله: ما أردنا باحتكامنا إليه إلا الإحسان من بعضنا إلى بعض، والصوابَ فيما احتكمنا فيه إليه.انتهى 0 وقال في الجلالين : ((إلا إحساناً)) صُلْحًا ((وَتَوْفِيقًا)) تَأْلِيفًا بَيْن الْخَصْمَيْنِ 0 انتهى 0فأجابهم الله بقوله {أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ} أي سرائرهم وكذبهم في دعواهم ونفاقهم ثم أرشد نبيه صلى الله عليه وسلم إلى طريقة التعامل معهم فقال {فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا} (63) سورة النساء ثلاثة أمور :

الأول / الإعراض عنهم إحتقاراً لهم فلا يعاقبهم بصنيعهم ولكن يكل ذلك إلى الله فالقلوب علمها عند الله وهو الذي يجازي عليها 0

الثاني / أن يعظهم ويخوفهم من الله ويذكرهم بأليم عذابه وشديد عقابه 0

الثالث / أن ينصحهم سراً فيما بينه وبينهم بكلامٍ قوي يردعهم عن العودة لمثل هذا الفعل إما بالتهديد بالحبس أو القتل أو نحو ذلك 0

قال البغوي : {فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ } أي: عن عُقوبتهم وقيل: فأعرض عن قبول عذرهم وعظهم باللسان، وقل لهم قولا بليغًا، وقيل: هو التخويف بالله، وقيل: أن توعدهم بالقتل إن لم يتوبوا، قال الحسن: القول البليغ أن يقول لهم: إن أظهرتم ما في قلوبكم من النفاق قُتلتم لأنه يبلغ من نفوسهم كل مبلغ، وقال الضحاك: { فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ } في الملأ { وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلا بَلِيغًا } في السّر والخلاء 0 انتهى

ثم أورد المصنف قوله تعالى {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ قَالُواْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ} (11) سورة البقرة يقولون : نحن نريد الديمقراطية والحرية أن تنتشر في الأرض ولا أن نعطل نصف المجتمع ببقاء المرأة في البيت ولا أن يفرض الرجل العبودية على المرأة ونحو ذلك من العبارات الرنانة التي ينخدع بها المخبولون من الناس فأجابهم الله بقوله{أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ} (12) سورة البقرة الذين ينشرون الإنحلال الخلقي من الإختلاط والتبرج والزنا وغير ذلك وقد يكون بعضهم لا يريد ذلك ولكنها تأتي من جراء دعواته تلك فيكون مفسداً وهو لا يشعر ، أو لا يشعرون بأن المعاصي تفسد الأرض وذلك أن كل معصيةٍ هي إفسادٌ في الأرض كما قال تعالى {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} (41) سورة الروم ولذا قال إخوة يوسف لما اتهموا بالسرقة {قَالُواْ تَاللهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ }(73) سورة يوسف فتبين أن المعاصي إفسادٌ في الأرض ولذا قال تعالى {وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا} (56) سورة الأعراف من الدعاة والعلماء وأهل الخير والحق فهؤلاء هم المصلحون في الأرض ، والإفساد والسعي إليه بعد انتشار الحق أشد جرماً مما لو كان الفساد منتشراً قبل واستمر عليه فإن الأول قد باء بإثمه وإثم من تبعه على هذا الفساد الذي دلهم عليه كما قال تعالى {وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ } (13) سورة العنكبوت وقال صلى الله عليه وسلم (من دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً) رواه مسلم ومناسبة الآيات للباب أن التحاكم إلى غير شرع الله من أعظم ما يفسد في الأرض بل لا أعلم شيئاً يفسد الأرض أعظم منه فهاهي المجتمعات التي لا تحكم بشرع الله يعيش أهلها في قلقٍ أمني واقتصاديٍ واجتماعي لا يأمن أحدهم على أهله وماله في غيبته قد انتشرت عندهم الجرائم والموبقات وتفسخت مجتمعاتهم من كل معاني

الإنسانية الشريفة والأخلاق الكريمة إلى الإنحلال الخلقي ثم فشت فيهم الأمراض وتدهور اقتصادهم وتعطلت منافعهم فبعضهم وجد الإنتحار وقتل نفسه هو الحل الأسلم وآخرين اشتغلوا بقطع الطريق والنهب والسلب فإي إفسادٍ أعظم من هذا 0

ثم ذكر المصنف قوله تعالى {أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ} (50) سورة المائدة يعني : أيريدون الرجوع إلى حكم الجاهلية وهو إنكارٌ من الله لهم ، والجاهلية إما يراد بها ما قبل الإسلام أو يراد بها ما يضاده وهو أشمل لإنه يشمل الأولى ويشمل أيضاً الجاهلية الحديثة وهي الدساتير القومية والقوانين الوضعية التي وضعها البشر تخالف حكم الإسلام فهذه جاهلية وإن سماها أهلها تمدن وحضارة 0 وهل يتوقع هؤلاء الأغبياء الذين يضعون القوانين أو الذين يتحاكمون إليهم أن أحكامهم ستكون أحسن من أحكام الله الذي خلقهم وهو أعلم بما ينفعهم ويصلحهم في معاشهم ومعادهم فشرعه لهم فلا أحد أحسن حكماً من الله 0

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به) رواه الطبراني وبن أبي عاصم وأبو الفتح المقدسي في كتاب الحجة وغيرهم وضعفه الألباني في مشكاة المصابيح حديث رقم (167) وفي ظلال الجنة حديث رقم (15) لضعف نعيم بن حماد لكن مصداقه في كتاب الله قوله تعالى {فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا} (65) سورة النساء فإذا كان يحب حكم الله ورسوله ويهواه فهو المؤمن وإن كان يبغضه ويقلاه فهو الكافر كما قال تعالى {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ} (9) سورة محمد وقد يقيد الهوى في الحديث بما يوجب مضادته الكفر فمن يهوى التوحيد فهو المؤمن ومن يهوى الشرك فهو الكافر لأن هوى النفوس يصغر ويكبر فمنهم من يهوى الذبح لغير الله مثلاً فهذا هواه يجره إلى الشرك كما قال تعالى {أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ } (23) سورة الجاثية ومن الناس من يهوى الزنى وشرب الخمر ونحو ذلك فهذا لا يجره هواه إلى الشرك وإنما يجره إلى كبائر الذنوب إلا إذا دعاه إلى استحلالها ومنهم من يجره هواه إلى الصغائر ومنهم من هواه اتباع السنن ومعصية الشيطان ، فنفي الإيمان في الحديث قد يكون معناه نفي الإيمان بالكلية وقد يكون معناه نفي كمال الإيمان كقول النبي صلى الله عليه وسلم (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ...) متفق عليه مع إجماع أهل السنة على أن الزاني وشارب الخمر وأصحاب الكبائر لا يخلدون في النار لقوله تعالى {إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا } (48) سورة النساء وللأحاديث الدالة على إخراج عصاة الموحدين من النار وهي كثيرة 0

ثم ذكر المصنف حديث الشعبي وهو عامر بن شراحيل الكوفي عالم زمانه أدرك خلقاً من الصحابة وعاش بضعاً وثمانين سنة وكان قوي الحافظة حتى قال عن نفسه : ما كتبت سوداء في بيضاء وأقل شيءٍ أحفظه الشعر ولو شئت أنشدتكم شهراً لا أعيد بيتاً وحديثه يدل على أن المنافق يكره حكم الله ورسوله ويفضل حكم الطواغيت عليه وهذا ديدنهم في كل زمانٍ ومكان ويلقبون أحكام الطواغيت بالتمدن والحضارة والتقدم وأحكام الله ورسوله بالرجعية والتخلف قاتلهم الله أنى يؤفكون 0

ثم ذكر المصنف قصة عمر وعمر رضي الله عنه كان شديداً في الحق وقد يخطئ الإنسان من شدة غيرته على الحق وخطؤ عمر أنه افتات على الإمام وهو النبي صلى الله عليه وسلم فالإمام هو الذي ينفذ الحدود لا خاصة الناس إذ لو فتح المجال لادعى كل قاتل أن مقتوله قال كلمة كفر أو نحو ذلك ، فوجب أن يكون الحاكم هو الذي ينفذ الحدود ولا يجوز الإفتيات عليه ، ولكنَّ عمر غلبته غيرته على الحق فاخطى لأجل ذلك ولذلك شبه النبي صلى الله عليه وسلم عمر بموسى عليه السلام في شدته للحق وإن موسى عليه السلام وهو كليم الرحمن غضب غضباً لله لما عبد قومه العجل فألقى الألواح وفيها كلام الله الذي كتبه بيده كما في الصحيح وأخذ برأس أخيه يجره وهو نبي مثله وقيل أيضاً أنه كان أكبر منه سناً فلم يعاتبه الله جل وعلا لأنه فعل ذلك غضباً لله 0

والحديث يدل على أن من عرف حكم الله ورسوله وأعرض عنه وسعى إلى التحاكم إلى الطواغيت أنه يكفر ولذلك قتله عمر ردةً ولو كان مسلماً لاقتص له النبي صلى الله عليه وسلم 0 والحديث أخرجه الواحدي والبغوي معلقاً وضعفه أهل العلم لكن قال الشيخ محمد بن عثيمين : ذكر في تيسير العزيز الحميد أن هذه القصة رويت من طرقٍ متعددة وأنها مشهورة متداولة بين السلف والخلف تداولاً يغني عن الإسناد ولها طرقٌ كثيرة ولا يضرها ضعف إسنادها 0 (انتهى من القول المفيد179/2)

باب من جحد شيئاً من الأسماء والصفات

وقول الله تعالى : ﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾ [الرعد : 30] وفي صحيح البخاري قال عليّ : حدثوا الناس بما يعرفون ، أتريدون أن يكذب الله ورسوله) ؟ وروى عبد الرزاق عن معمر عن ابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس : أنه رأى رجلاً انتفض لما سمع حديثاً عن النبي صلى الله عليه وسلم في الصفات ، استنكاراً لذلك – فقال : ما فرق هؤلاء ؟ يجدون رقة عند محكمه ، ويهلكون عند متشابهه) . انتهى .ولما سمعت قريش رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر ﴿ الرحمن ﴾ أنكروا ذلك . فأنزل الله فيهم : ﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ ﴾ [الرعد : 30] .

شرح المصنف في ذكر توحيد الأسماء والصفات وذلك لأن التوحيد ينقسم إلى ثلاثة أقسام : توحيد الربوبية وهو اعتقاد أن الله هو الخالق الرازق المدبر للكون وهو توحيد الله بأفعاله 0 والثاني توحيد الألوهية وهو الإقرار بأن الله هو المستحق للعبادة وحده دون من سواه وهو توحيد الله بأفعال العباد 0 والثالث وهو توحيد الأسماء والصفات وهو الإقرار بأن لله جل وعلا الأسماء الحسنى والصفات العلا فمن أنكر ذلك كفر على تفصيلاتٍ ذكرناها في كتابنا (طريق الناجين في بيان عقيدة الموحدين) فراجعه إن شئت فإنا قد ذكرنا هناك أحكام التعطيل والتأويل والتحريف وأصناف أهل البدع في الأسماء والصفات وحكم كل صنف وجملة من الأحكام المتعلقة بالأسماء والصفات 0

ذكر المصنف قوله تعالى {كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِيَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ} (30) سورة الرعد وذكر أنها نزلت في قريش وأنهم لما سمعوا النبي صلى الله عليه وسلم يذكر الرحمن أنكروا ذلك 0انتهى 0 وقد ورد أنهم قالوا : ما نعرف إلا رحمن اليمامة يريدون مسيلمة الكذاب ، وورد أن سهيل بن عمرو في قصة صلح الحديبية لما أمر النبي صلى الله عليه وسلم علياً رضي الله عنه أن يكتب باسم الله الرحمن الرحيم قال سهيل : ما أدري ما الرحمن ولكن اكتب باسمك اللهم وقال تعالى {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا*} (60) سورة الفرقان وكانوا يقولون إن محمداً ينكر تعدد الإلهة وهاهو يدعو إلهين هما الله والرحمن فأنزل الله {قُلِ ادْعُواْ اللّهَ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى } (110) سورة الإسراء فبين الله جل وعلا أن هذه تعدد أسماءٍ لمسمىً واحد وهو الله جل في علاه ، والعرب إذا عظموا أمراً سموه بأكثر من اسم فللأسد عندهم نحو مائة اسم منها الليث والغضنفر وحيدره وقسوره وغيرها وللسيف نحوه فكيف يعجبون من تعدد الأسماء لله جل وعلا فهل أعظم من الله ، وكون أسماء الله جل وعلا حسنى لأنها حسنة في القلوب والأسماع وتدل على كل

معان الحسن والكمال فاسم الله السميع مثلاً يدل على أن سمعه جل وعلا وسع الأصوات باختلاف اللغات وتعدد النداءات لا يشغله سمعٌ عن سمع وهكذا اسمه البصير والرحيم وغيرها تشتمل على كل معان الحسن والكمال بخلاف أسماء المخلوقين فقد يسمى أحدهم حكيم وهو من أسفه الناس وآخر عليم وهو من أجهل الناس وآخر كريم وهو من أبخل الناس وهكذا فلا تدل أسماءهم على صفاتهم ، وقد يسمى المخلوق حكيماً وهو كذلك ذو حكمة وعليم وهو ذو علم وكريم وهو ذو كرم ولكن ليس معنى ذلك أن حكمته وعلمه وكرمه كحكمة الله وعلمه وكرمه فلله الكمال المطلق في هذه الصفات وللمخلوق ما يناسب ضعفه وعجزه فلا تماثل في الصفات وإن تماثلت المسميات كما قال تعالى {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}(11) سورة الشورى وقال تعالى {فَلاَ تَضْرِبُواْ لِلّهِ الأَمْثَالَ } (74) سورة النحل

قول المصنف : وفي صحيح البخاري قال علي رضي الله عنه : حدثوا الناس بما يعرفون أتريدون أن يكذب الله ورسوله 0 أي بما يستطيعون معرفته إذا حدثوا به أي تبلغه عقولهم كما قال بن مسعود رضي الله عنه : إنك لن تحدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة 0 رواه مسلم وليس المراد يعرفونه قبل حديثك عنه لأنهم إذا كانوا يعرفونه فلا حاجة إلى الحديث عنه إلا من باب الذكرى 0 وقوله : أتريدون أن يكذب الله ورسوله 0 لأن الناس أعداء ما يجهلون فإذا حدثتهم حديثاً ولو كان صحيحاً من كلام الله وكلام رسوله غير أن المخاطبين لا تدرك عقولهم هذا الكلام قد ينكرونه ويكذبون به وهو حقٌ من عند الله ورسوله فيكونون مكذبين لله ورسوله ويكون المتحدث هو المتسبب في ذلك 0

ثم ذكر المصنف حديث بن عباسٍ رضي الله عنهما حين رأى الرجل انتفض لما سمع حديثاً عن النبي صلى الله عليه وسلم في الصفات استنكاراً لذلك والسبب يرجع إلى ما تقدم من كلام عليٍ رضي الله عنه فهذا الرجل عقله لم يدرك هذا الحديث فأنكره وانتفض لأنه يظن أن هذه الصفة المذكورة لا تناسب مقام الرب جل وعلا فأنكر لأن عقله لم يقبل وهذه هي حجة المعطلة الذين أنكروا الصفات وقالوا إن إثباتها يستلزم النقص في حق الرب جل وعلا لأن فيها مشابهةً لصفات المخلوقين فالسمع والبصر واليد ونحوها من الصفات توجد في المخلوقين فيجب أن ننزه الرب عنها حتى لا نشبهه بالمخلوقين وهذا لقلة عقولهم وعدم إدراكها لمعاني النصوص وإلا فإن المخلوقات تتفاوت صفاتها فيما بينها فيد الفيل ليست كيد النملة ورقبة الزرافة ليست كرقبة النعجة وأنياب الأسد ليست كأنياب الهر إلى غير ذلك من التفاوت الكبير بين صفات المخلوقات فيما بينها فكيف تقارن صفات المخلوقات مع صفات الخالق ولا يلزم من التشابه في الاسم التشابه في الصفة وقد بين الرب جل وعلا أنه لا يشبهه شيء كما قال تعالى {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}(11) سورة الشورى فقال بن عباس رضي الله

عنهما : ما فرق هؤلاء ؟ أما بتشديد الراء وكون ما نافية فيكون معناها ما يفرقون بين الحق والباطل ، وإما بفتح الراء بدون تشديد وكون ما استفهامية فيكون المعنى ما سبب خوفهم؟ من الفرق وهو الخوف ، ويحتمل أن يكون أراد الأمرين فإنهم خافوا من إثبات الصفات لجهلهم وعدم تفريقهم بين الحق والباطل ، بين إثبات الكمال لله جل وعلا وهو الحق وبين التشبيه وهو الباطل فظنوا أن إثبات الصفات يستلزم منه الباطل دون الحق 0 وكان عليهم إذ جهلوا أن يسألوا أهل العلم الراسخين أو يكفوا عن الخوض فيما لا علم لهم به لأن في ذلك المهلكة ولذلك قال بن عباس : يجدون رقةً عند محكمه 0 الرقة ضد القسوة أي لين وقبول ولكن المشكلة : ويهلكون عند متشابهه 0 ولو أنهم أذعنوا وسلموا لما جاء عن الله وما جاء عن رسوله صلى الله عليه وسلم وقالوا آمنا به لما هلكوا كما قال تعالى {هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الألْبَابِ} (7) سورة آل عمران ولكن كذبوا واستنكروا لما لم تدركه عقولهم من كلام الله وكلام رسوله وخاضوا في ذلك بلا علم فهلكوا كما قال تعالى {بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ} (39) سورة يونس وقال تعالى {وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً} (36) سورة الإسراء وطبيعة أهل الضلالة والهلكة أنهم يتبعون المتشابه وهو ما لا يعرف معناه كثير من العامة فيستغل جهلهم فيفسر لهم بمعانٍ باطلة ليفتن الناس ويصرفهم عن الحق ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم (إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سماهم الله فاحذروهم) متفق عليه وأما الراسخين في العلم فيردون المتشابه إلى المحكم ويفسرونه به ويؤمنون بالكتاب كله ، والقران كله محكم وإنما التشابه هو بالنسبة للناس إما لأنه لا تدركه عقولهم ككيفية صفات الرب جل وعلا وحقائق ما يقع في اليوم الآخر وغير ذلك وإما لخفاء معناه على بعض الناس لعدم تعلمهم فيكون متشابهاً بالنسبة إليه محكماً بالنسبة لمن علمه ، فليس في الكتاب والسنة نصوص الوحيين نصوصاً متعارضة أو متشابهة إنما التعارض والتشابه في أذهان الناس وإدراكاتهم لها 0

باب قول الله تعالى ((يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ)) [النحل : 83]

قال مجاهد ما معناه : هو قول الرجل : هذا مالي ، ورثته عن آبائي .وقال عون بن عبد الله : يقولون : لولا فلان لم يكن كذا .وقال ابن قتيبة : يقولون : هذا بشفاعة آلهتنا .

وقال أبو العباس بعد حديث زيد بن خالد الذي فيه (إن الله تعالى قال : أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر ... » الحديث ، وقد تقدم – وهذا كثير في الكتاب والسنة ، يذم سبحانه من يضيف إنعامه إلى غيره ، ويشرك به . قال بعض السلف : هو كقولهم : كانت الريح طيبة ، والملاح حاذقاً ، ونحو ذلك مما هو جارٍ على ألسنة كثير . [انتهى] .

يمكن أن يعنون له بباب إنكار النعم ونسبتها إلى غير الله ، وقد ذكر المصنف هذا الباب في كتاب التوحيد لأن من نسب النعم إلى غير المنعم بها وهو الله فقد أشرك معه غيره في ربوبيته لأن الله وحده هو الرزاق وهو الذي ساق لك الأسباب التي من خلالها أوصل إليك رزقه فلا نشكر الأسباب وننسى مسبب الأسباب المنعم المتفضل جل وعلا ، ولا يعني هذا أن تنكر فضل من أحسن إليك من الناس بل الواجب الوفاء ورد الإحسان لقول النبي صلى الله عليه وسلم (من صنع إليكم معروفا فكافئوه فإن لم تجدوا ما تكافئوه فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه) رواه أحمد وأبو داود والنسائي وغيرهم وصححه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم (6021) لكن لا تعتقد أن الرزق جاء من عندهم أو بسبب جاههم وشفاعتهم عند الله كما يعتقد المشركون في أوثانهم بل هو بفضل الله وحده 0

وكفر النعم قد يكون كفراً أكبر إذا نسب النعم إلى غير الله نسبة إيجاد أو مشاركة وأنكر أن يكون الله وحده هو المنعم ، ويكون كفراً أصغر إذا نسب النعم إلى أسبابٍ لم يجعلها الله أسباباً لجلب النعم كالذين يقولون أنزل الله المطر بسبب طلوع النوء الفلاني فالأنواء ليست أسباباً لنزول المطر لكنها قد تكون أوقاتاً له كما تقدم في باب الأنواء ، وهكذا الذين يعلقون التمائم والحلق وغيرها ويقولون إنها أسباب لجلب النعم ودفع النقم فهذه

كلها أسباب شركية ، وقد يكون كفر النعم معصية إذا أسرف فيها أوصرفها في غير وجهها أو استعان بها على المعاصي 0

ذكر المصنف قوله تعالى {يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ} (83) سورة النحل وذكر أقوال بعض المفسرين وابتدأها بقول مجاهد بن جبر لأنه أخص تلاميذ بن عباس وقد عرض المصحف على بن عباس مراراً يستوقفه عند كل آيةٍ يسأله عنها توفي سنة 102هـ وله 83هـ قال ما معناه : هو قول الرجل : هذا مالي ورثته عن آبائي 0 يعني ليس مراده الإخبار ولكن نسبة الفضل إلى آبائه مع نكران فضل الله عليه 0 ثم ذكر تفسير عون بن عبد الله : يقولون : لولا فلان لم يكن كذا 0 فهو كذلك لم يرد مجرد الإخبار بل نسب النعمة والفضل لفلان ونسي المنعم الحقيقي وهو الرب جل وعلا ولذلك قال بعض العلماء الأولى أن يقول : لولا الله ثم فلان حتى لا ينسى المنعم فهو أفضل مما لو لم يقلها مع اعتقاده أن المنعم الحقيقي هو الله ، لكن مع عدم اعتقاده أن المنعم هو الله واعتقد أن الذي جلب النعمة له هو فلان بغير تقدير الله فهو كافر كفراً أكبر وهكذا لو اعتقد أن فلاناً مشارك لله في جلب النعمة فهو مشرك شركاً أكبر كالذين ينسبون النعمة للولي الفلاني والصالح الفلاني فهؤلاء مشركون شركاً أكبر ، وهكذا لو أعتقدهم شفعاء أو أسباباً لأنه ما اعتقد ذلك إلا لكونه يعتقد أن لهم تصرفاً خفياً في الكون إلا أن يكن هذا الولي أو الصالح أحياء قادرين على توظيف هذا الشخص أو إعطاءه مالاً أو نحو ذلك من الأرزاق فهنا يكونون أسباباً حسية معلومة ظاهرة لا خفية فلا يكون الطلب منهم حينئذٍ شركاً ما لم يعتقد لهم تصرفاً في الكون فهنا يشرك في الربوبية 0

ثم ذكر المصنف قول بن قتيبة وهو عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري صاحب التصانيف المفيدة سمع من إسحاق بن راهويه وغيره وتوفي سنة 276هـ 0(فتح المجيدص459) قال : يقولون هذا بشفاعة آلهتنا 0 أي هي التي شفعت لنا عند الله حتى جاء بالأرزاق وهذا هو عين شرك أهل مكة الذين قاتلهم النبي صلى الله عليه وسلم فقد قال الله تعالى مخبراً عن عقيدتهم {وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} (18) سورة يونس ولذلك فمن اعتقد أن أهل القبور يشفعون عند الله في دفع الأضرار وجلب الأرزاق والخير فقد شابه المشركين الذين ذمهم الله في كتابه وقاتلهم نبيه صلى الله عليه وسلم 0

ثم ذكر المصنف قول أبي العباس وهو أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني شيخ الإسلام وبحر العلم توفي سنة 726هـ في أثناء شرحه على حديث زيد بن خالد رضي الله عنه وهو الحديث القدسي الذي قال الله فيه (أصبح من عبادي مؤمنٌ بي وكافر ....) الحديث وتقدم في باب الاستسقاء بالأنواء قال بن

تيمية : وهذا كثير في الكتاب والسنة ، يذم سبحانه من يضيف إنعامه إلى غيره ويشرك به 0 قال بن عثيمين : إنما كان هذا مذموماً لأنه لو أتى إليك عبد بهدية من سيده فشكرت العبد دون السيد كان هذا سوء أدب مع السيد وكفراناً لنعمته ، وأقبح من هذا لو أضفت النعمة إلى السبب دون الخالق (القول المفيد 206/2) وقد يمنع الله عز وجل الرزق مع وجود أسبابه كقول النبي صلى الله عليه وسلم (ليست السنة بأن لا تمطروا ولكن السنة أن تمطروا وتمطروا ولا تنبت الأرض شيئاً) رواه مسلم فهنا وجد سبب الرزق وهو المطر ولكن لم يحصل الرزق به فلم تنبت الأرض شيئاً ، وهكذا غيره من الأسباب إن شاء الله أن يرزق بها رزق وإن شاء أن يمنع منع فليست هي الجالبة للأرزاق إنما الرزق من الله وحده فوجب رد الشكر المطلق إلى المنعم جل وعلا دون الأسباب 0

قال المصنف : قال بعض السلف 0 لم يحددهم وقد تعارف أهل العلم أنه إذا أُطلق لفظ السلف فيراد به أهل القرون الثلاثة الفاضلة وهم الصحابة والتابعون وتابعي التابعين لقول النبي صلى الله عليه وسلم (خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم) متفق عليه وهم أعلم الناس لقربهم من عهد الرسالة فهم أعرف بالحق وأبعد الناس عن البدع وهم أصدق الأمة ألسناً وأقواهم إيماناً وأعمقهم ديناً وفهماً ولذلك لم تنتشر البدع إلا بعدهم وإن كانت قد ظهرت في زمانهم إلا أنهم كانوا يكبتونها فكان أهل البدع أذل الناس وأحقرهم حتى مضت القرون الفاضلة فانتشرت البدع بعد ذلك ولذلك قال أهل الفضل والديانة من أهل العلم كمالك وغيره : لا يصلح آخر هذه الأمة إلا باتباع ما كان عليه أولها 0 ا0هـ

قالوا : هو كقولهم كانت الريح طيبة والملاح حاذقاً ونحو ذلك مما هو جار على ألسنة كثير 0 وهذا في ركاب البحر إذا وصلوا إلى بلادهم وسألهم أهلوهم عن رحلتهم فإما أن يقولوا : الحمد لله الذي سكَّن عنا الريح ويسر لنا عبور البحر 0 وإما أن ينسبوا الفضل إلى الأسباب فيقولوا : كانت الريح طيبة فلا عواصف ولا أعاصير وإلا لهلكنا وكان الملاح أي قائد السفينة حاذقاً أي ماهراً مجيداً لقيادة السفينة فنجى بنا من غرقٍ محتم بحسن قيادته ونحو ذلك من العبارات التي ينسبون الفضل فيها إلى الأسباب وينسون مسبب الأسباب من بيده الفضل كله وهو الذي رزقهم بهذه الأسباب التي كانت بها نجاتهم فوجب رد الشكر إليه لا إلى الأسباب التي رزقهم بها فقولهم هذا إذا لم يعتقدوا أن الأسباب الفاعلة بذاتها فهو شرك أصغر وإن اعتقدوا أن الأسباب هي الفاعلة بذاتها بغير تقدير الله فهو شرك أكبر ، والواجب إعتقاد أن هذه الأسباب لا تجلب خيراً ولا تدفع ضراً إلا بمشيئة الله وإرادته فالله وحده هو النافع الضار 0 وحده دون من سواه 0

باب قول الله تعالى ﴿ فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون ﴾ .

قال ابن عباس في الآية : الأنداد : هو الشرك أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء في ظلمة الليل ؛ وهو أن تقول : والله ، وحياتك يا فلان وحياتي ، وتقول : لولا كليبة هذا لأتانا اللصوص ، ولولا البط في الدار لأتى اللصوص ، وقول الرجل لصاحبه : ما شاء الله وشئت ، وقول الرجل : لولا الله وفلان . لا تجعل فيها فلاناً هذا كله به شرك ﴾ . رواه ابن أبي حاتم وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ﴿ من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك ﴾ . رواه الترمذي وحسنه ، وصححه الحاكم .

وقال ابن مسعود : لأن أحلف بالله كاذباً أحب إليّ من أن أحلف بغيره صادقاً .

وعن حذيفة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ﴿ لا تقولوا : ما شاء الله وشاء فلان ، ولكن قولوا : ما شاء الله ثم شاء فلان ﴾ . رواه أبو داود بسند صحيح .

وجاء عن إبراهيم النخعي ، أنه يكره : أعوذ بالله وبك ، ويجوز أن يقول : بالله ثم بك . قال : ويقول : لولا الله ثم فلان ، ولا تقولوا : لولا الله وفلان .

مناسبة الباب لما قبله : هذا الباب مكمل لسابقه في كفران النعمة ونسبتها إلى غير المنعم بها وهو الله جل في علاه غير أن هذا الباب في الكفر الأكبر والجحود الأكبر وهو الشرك بالله واتخاذ الأنداد وهم النظراء والمثلاء والأشباه له جل وعلا ، والباب السابق كان في الكفر الأصغر في الجملة وإن كان يدخل فيه بعض صور الكفر الأكبر كما قدمنا في الشرح ، وقد ذكر المصنف هذا الباب في كتاب التوحيد لأن اتخاذ الأنداد لله يناقض التوحيد فوجب التنبيه عليه للحذر منه كما قال الشاعر :

عرفت الشرَّ لا للشرِّ لكن لتوقيه   ومن لا يعرف الشرَّ خطير أن يقع فيه

ثم ذكر المصنف قوله تعالى {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (21) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاء بِنَاء وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ} (22) سورة البقرة حيث ذكر المولى جل وعلا نعمه على عباده ومنها أنه هو الذي أوجدهم من العدم كما أوجد آباءهم وأجدادهم فكان من الواجب أن يصرفوا له العبادة دون من سواه ، ومن نعمه أن جعل الأرض كالبساط سهلةً مذللة للمسير والسكنى والعيش فيها ولم يجعلها غير صالحةٍ للقرار لوعورة ونحوها ، ومن نعمه أن جعل السماء سقفاً كالبناء المسقوف الذي يحفظ ساكنيه مما قد ينزل عليهم من العلو وزينها بالكواكب والنجوم ، وأنزل من السماء أي العلو لأن كل ما علاك فهو سماء بالنسبة لك والمراد السحاب أنزل منه ماءً وهو المطر فسبحان من أخرج من الهواء ماء ، ثم أخرج الله بهذا المطر نبات الأرض وأنواعاً من الزروع والثمار المختلفة التي يأكل منها الناس والدواب المختلفة فلا تجعلوا لله أمثالاً ونظراء وشركاء تنسبون لهم النعم وتصرفون لهم العبادة وأنتم تعلمون أن المنعم بالخلق والرزق هو الله وحده 0 وقد لا يصرف بعض الناس عبودية الجوارح لغير الله فلا يصلي إلا لله ولا يصوم إلا لله ولا يحج إلا قاصداً وجه الله وهكذا في سائر أعمال الجوارح ولكنه قد يصرف أنواعاً من أعمال القلوب لغير الله كالمحبة كما قال تعالى {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلّهِ } (165) سورة البقرة فهؤلاء أشركوا في المحبة وسووا غير الله به في المحبة فكانوا مشركين وهكذا في الخوف والرجاء والتوكل والإنابة وغيرها من أعمال القلوب لا تصرف إلا لله ولا يجوز صرفها لغيره 0 وفي هذه الآية إلزام للمشركين بما يقرون به على ما ينكرونه إذ هم يقرون بتوحيد الربوبية ويعلمون أن الله وحده هو الخالق الرازق لا خالق غيره ولا رب سواه فيقول الله جل وعلا لهم إذا كنتم تقرون بذلك فاعبدوا خالقكم ورازقكم إذ كيف تصرفون العبادة لغير من خلقكم ورزقكم لاشك أنه غاية السفه والخذلان فكما أقررتم بتوحيد الربوبية فيجب عليكم أن تقروا بتوحيد الألوهية 0

ثم ذكر المصنف تفسير بن عباس رضي الله عنهما للآية فقال : الأنداد هو الشرك أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء في ظلمة الليل 0 وهو أن تقول : والله وحياتك يا فلان وحياتي ، وتقول : لولا كلبية هذا لأتانا اللصوص ، ولولا البط في الدار لأتانا اللصوص ، وقول الرجل لصاحبه ما شاء الله وشئت ، وقول الرجل لولا الله وفلان ، لا تجعل فيها فلاناً هذا كله به شرك 0 رواه بن أبي حاتم

إما أن يريد صوت دبيبها أو أثرها في الأرض والأخير رجحه العثيمين لدلالة باقي الكلام عليه لأنه قال على صفاة ومعلوم أن الصفاة هي الحجارة الملساء التي لا يكاد يرى عليها أثر فإذا اجتمع مع صلابتها وملاستها كونها سوداء زادت في إخفاء الأثر فإذا اختلطت ظلمتها بظلمة الليل كان حرياً أن لا يرى هذا الأثر ، وهذا التشبيه البليغ من حبر الأمة يدل على شدة خطر الشرك وخفاءه فإذا كان خفاءه بهذه الدرجة فيجب الحذر منه غاية الحذر والتفطن والتنبه له ومعرفة مواطنه حتى يتجنبها ذلك لأن الشرك أعظم الذنوب وقد قال الله تعالى فيه {إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا } (48) سورة النساء وقال تعالى {إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيدًا } (116) سورة النساء وقال تعالى {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُواْ اللّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللّهُ عَلَيهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ} (72) سورة المائدة فإذا كان هذا هو جزاء الشرك وهذا هو خفاءه فيجب معرفته معرفة جيدة ليحذره ويتجنبه وقد أرشدنا النبي صلى الله عليه وسلم إلى دعاء جميل نتخلص فيه من الشرك وهو أن تقول (اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم وأستغفرك لما لا أعلم) رواه البخاري في الأدب المفرد وصححه الألباني فيه ثم بين بن عباس بعضاً من أنواع هذا الشرك فقال : وهو أن تقول : والله وحياتك يا فلان وحياتي 0 وهذا حلف بغير الله وقد أورد المصنف حديث بن عمر رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال (من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك) رواه الترمذي وبناكم وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب حديث رقم (2952) وفي النسخ التي رأيتها لكتاب التوحيد أن الحديث عن عمر فما أدري هل الخطأ من النساخ أو المصنف لأن الحديث عن بن عمر لا عن أبيه فقد سمع بن عمر رجلاً يحلف فيقول : لا والكعبة فقال بن عمر : لا يحلف بغير الله فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فذكر الحديث وقوله (فقد كفر أو أشرك) الشك من الراوي وصوابه أشرك قاله العثيمين (القول المفيد 212/2) قلت : ويؤيده أن لفظ بن حبان (فقد أشرك) ورواه أحمد بلفظ (من حلف بشيءٍ دون الله تعالى فقد أشرك) صحح إسناده الألباني في السلسلة الصحيحة حديث رقم (2042) وقال عبد الرحمن بن حسن : يحتمل أن تكون (أو) بمعنى الواو أي كفر وأشرك ويكون من الكفر الذي هو دون الكفر الأكبر كما هو من الشرك الأصغر (فتح المجيد 465) وعن ابن عمر رضي الله عنهما:أنه أدرك عمر بن الخطاب في ركب وهو يحلف

بأبيه، فناداهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ألا، إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم، فمن كان حالفاً فليحلف بالله، وإلا فليصمت) متفق عليه وقال ابن مسعود : لأن أحلف بالله كاذباً أحب إليّ من أن أحلف بغيره صادقاً . رواه الطبراني وصححه ابي في صحيح الترغيب والترهيب حديث رقم (2953) لأن الحلف بالله كاذباً من كبائر الذنوب والحلف بغير الله ولو صادقاً شرك والشرك أعظم من كبائر الذنوب وقد نص بعض أهل العلم على أن الشرك لا يغفر ولو كان من الشرك الأصغر ولكن إن كان من الشرك الأصغر فيمحص صاحبه في النار بقدر ذنبه ولا يغفر الله له ابتداءً بخلاف أصحاب الكبائر التي دون الشرك فإنهم قد يغفر الله لهم ابتداء بلا عذاب وقد يمحصهم في النار بقدر ذنوبهم ثم يخرجهم منها وأما صاحب الشرك الأكبر فلا يخرج من النار أبداً وسائر أعماله باطلة 0

والحلف بغير الله شرك لما يقع في نفس الحالف من تعظيم المحلوف به وإجلاله في نفسه وإلا لما حلف به فالحلف به يدل على التعظيم والإجلال له ، فإن وصل به ذلك إلى أن يعظمه ويجله كما يعظم الله ويجل الله فذلك هو الشرك الأكبر وإن كان دون ذلك فهو من الشرك الأصغر ، والمشاهد أن كثيراً من هؤلاء الذين يحلفون بالأولياء يعظمونهم أعظم من تعظيم الله ولو قيل لأحدهم أحلف بالله في قضيةٍ قد كذب فيها لحلف غير مبال ولو قيل له احلف بالولي الفلاني لتلكأ وتباطأ وربما امتنع وقد ذكر الاستاذ محمد حامد الفقي رحمه الله في حاشيته على فتح المجيد ص465 أن هؤلاء المشركين يزرعون هذه العقيدة الفاسدة في نفوس اتباعهم بقصص مكذوبة خرافية يشيعونها في معابدهم فيحكون أن رجلاً سرق سمكةً مملحة وأكلها فاستحلفه المسروق منه بالله فاقسم بالله ثلاثاً أنه لم يأخذها ولم يرها فلم يحصل له شيء فاستحلفه بأحمد البدوي فما كاد يلفظ الاسم حتى خرجت السمكة من بطنه ولفظها وذلك لأنهم يعتقدون أن البدوي أقدر وأعز من الله فانظر هل بعد هذا الشرك من شرك 0

وأما قول النبي صلى الله عليه وسلم (أفلح وأبيه إن صدق) رواه مسلم فقد اختلف فيه أهل العلم إلى عدة أقوال :

القول الأول / أن هذه الرواية شاذة لانفراد مسلم بها دون البخاري ومخالفة راويها للثقات الذين ذكروا الحديث بدونها (أفلح إن صدق) في الصحيحين ، ولمخالفتها للنصوص الكثيرة التي تدل على عدم جواز الحلف بغير الله 0

القول الثاني / أنها تصحيف من الرواة وأن الصحيح (أفلح والله إن صدق) ولكن لما كان القدامى لا ينقطون الكلمات جاء المتأخرون ووضعوا نقطاً أسفل اللامين لتكون (وأبيه) بدل (والله) تصحيفاً منهم وظناً أنها (وأبيه)

وأجيب بأن هذا بعيد فإن الحديث في الصحيح وقد تناقله الرواة بهذا اللفظ 0

القول الثالث / أن هذه اللفظة على تقدير حذف مضاف ويكون المعنى (أفلح ورب أبيه) وأجيب بأن الحذف يستلزم فهماً باطلاً والنبي صلى الله عليه وسلم مأمور بالتوضيح والبيان كما قال تعالى { فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ} (82) سورة النحل

القول الرابع / أن هذا الحديث قبل تحريم الحلف بغير الله وأنه نسخ بالتحريم كشرب الخمر وسائر المعاصي فإنها حرمت تدريجياً وكان من الصحابة من يفعل بعضها 0

القول الخامس / أن هذا خاصٌ بالنبي صلى الله عليه وسلم لكونه أبعد الناس عن الشرك وأقواهم إخلاصاً وتوحيداً فلا يتطرق إلى قلبه تعظيم المحلوف كتعظيم الله أو قريباً منه 0
ويجاب بأن دعوى الخصوصية لابد لها من دليل إذ نحن مأمورون بالتأسي بالنبي صلى الله عليه وسلم إلا ما دل الدليل على كونه خاصاً به وما لم يرد فيه دليل فيبقى على الأصل 0

القول السادس / أن هذا جرى على لسان النبي صلى الله عليه وسلم من غير قصد فهو كلغو اليمين لأن العرب اعتادت الحلف بآبائها فصار يجري على ألسنتهم من غير قصد قال النووي: ليس هو حلفاً إنما هو كلمة جرت عادة العرب أن تدخلها في كلامها غير قاصدة بها حقيقة الحلف ، والنهي إنما ورد فيمن قصد حقيقة الحلف لما فيه من إعظام المحلوف به ومضاهاته به الله سبحانه وتعالى، فهذا هو الجواب المرضي، وقيل: يحتمل أن يكون هذا قبل النهي عن الحلف بغير الله تعالى والله أعلم 0ا0هـ (المنهاج شرح مسلم بن الحجاج)
وأجيب بأن هذا بعيد جداً فإن النبي صلى الله عليه وسلم إنما ينطق بالوحي كما قال تعالى {وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى (3) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى} (4) سورة النجم

القول السابع / أنه أراد التأكيد لا التعظيم
وأجيب بأن المقصود من الحلف تأكيد المحلوف عليه بذكر من يعظمه الحالف والمحلوف له فتأكيد المحلوف عليه بذكر المحلوف به مستلزم لتعظيمه ثم الأحاديث مطلقة لا تفرق بين من أراد التوكيد أو أراد التعظيم فما هو دليلهم على جواز الحلف بغير الله للتأكيد دون التعظيم لاشك أنه لا دليل عندهم بل الأدلة على تحريم الحلف بغير الله مطلقه 0

والقول الأقوى/ هو القول بالشذوذ أو النسخ والذي يترجح عندي والله أعلم هو القول بشذوذ الرواية لا لأني من علماء الحديث ولكن لأن القول بالنسخ يستلزم معنىً باطلاً في حق النبي صلى الله عليه وسلم وهو ارتكاب كبيرة بل شرك وهو المعصوم صلى الله عليه وسلم وعصمته من ولادته فإنه لم يسجد لصنم قط ولم يشرب الخمر ولم يرتكب كبيرةً مطلقاً ولا شك أن الشرك الأصغر أعظم من الكبيرة فينتفي فعله عن النبي صلى الله عليه وسلم 0

ثم مثَّل بن عباس بمثال آخر لهذا الشرك الخفي وهو قولهم (لولا كليبة فلان لأتى اللصوص ولولا البط في الدار لأتى اللصوص) لأن البط والكلاب إذا رأت الغريب أحدثت أصواتاً فيخاف اللص أن ينتبه ويستيقظ له أهل الدار فيهرب ولذلك إذا علم اللص ان في هذه الدار بط أو كلاب لم يأتيها في الغالب فتبين بهذا أن البط والكلاب أسباب حسية لمنع اللصوص من إتيان البيوت للسرقة ، ولكن المحذور في قولهم أنكار أن يكون الله هو المقدر لمنع اللصوص من الإتيان للبيوت ولو شاء لأعمى البط والكلاب فلم ترى اللص ولو شاء أخرسها فلم تحدث صوتاً فهو وحده الذي جعلها أسباباً لمنع اللصوص من إتيان البيوت فينبغي أن تنسب النعمة إليه لا إلى الأسباب 0

ومثل بن عباس بقول الرجل لصاحبه : ما شاء الله وشئت وقول الرجل لولا الله وفلان لا تجعل فيها فلاناً هذا كله به شرك 0

لأن الواو يقتضي العطف والعطف يقتضي المساواة بين المعطوف والمعطوف عليه فكأنك جعلت مشيئة العبد كمشيئة الله وهو لم يقصد هذا إذ لو قصده لكان مشركاً شركاً أكبر لكن مع عدم قصده هذا يكون مشركاً شركاً أصغر لأنه شرك في الألفاظ ، والواجب أن يفصل بين المشيئتين بحرف فصل كثم فيقول (ما شاء الله ثم ما شاء فلان) (ولولا الله ثم فلان) وبذلك يحصل الفصل بين المشيئتين فتكون مشيئة الله تناسب عظمته وقدرته ومشيئة العبد تناسب ضعفه وعجزه 0 ولو قال (ما شاء الله وحده ولولا الله وحده) لكان أفضل وأولى ولذلك قال بن عباس (لا تجعل فيها فلاناً) أي تجعل السبب هو الفاعل فتنسب النعمة والفضل له وتنسى فضل الله (هذا كله به شرك) أي بمن فعل ذلك 0

تنبيه / يجوز أن يقول الشخص : لولاي لكان كذا أو لم يكن كذا مع اعتقاده أنه مجرد سبب لا أنه هو الجالب للنعمة أو الدافع للنقمة دون الله ومن ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم عن عمه أبا طالب (لولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار) أي أنا كنت سبباً لأن ينجيه الله من أسافل الدركات في النار ويجعله في ضحضاح من نار كما في الحديث الآخر ويكون أهون أهل النار عذاباً 0

وعن حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما صاحب سرِّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ﴿ لا تقولوا : ما شاء الله وشاء فلان ، ولكن قولوا : ما شاء الله ثم شاء فلان ﴾ رواه أحمد وأبو داود والنسائي وصححه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم (7406)

وجاء عن إبراهيم النخعي رحمه الله علم من أعلام التابعين وإمام من أئمة المسلمين ، أنه يكره : أعوذ بالله وبك ، ويجوز أن يقول : بالله ثم بك . قال : ويقول : لولا الله ثم فلان ، ولا تقولوا : لولا الله وفلان .

فهذا يؤكد ما تقدم من جواز الفصل بحرف الفصل (ثم) وأنه يعطي الغرض المطلوب من عدم التسوية بخلاف حروف العطف فإنها تقتضي المساواة 0 وقول إبراهيم النخعي يجوز أن تقول : أعوذ بالله ثم بك) أي في الأمور التي تقدر عليها كأن تمنعني من لص لكونه يخاف منك ومعك سلاح ونحو ذلك أما الاستعاذة المطلقة فلا تكون إلا بالله فمن استعاذ بمخلوق في أمرٍ لا يقدر عليه إلا الله كدفع الموت أو نحو ذلك فهذا شرك أكبر وكذا لو استعاذ بغائب أو ميت كولي وغيره فهو مشرك شركاً أكبر لأنه اعتقد لهؤلاء تصرفاً في الكون ، وأما الاستعاذة بالحي القادر فيما يقدر عليه فجائزه لقول النبي صلى الله عليه وسلم في الفتنة (فمن وجد ملجأً أو معاذاً فليعذ به) ووقال (يعوذ عائذٌ بالبيت) أي المهدي أي يحتمي بالبيت الحرام والبيت لا يحمي أحداً لكن لما كان هو بيت الله احتمى به فكأنه يقول يارب إني ذهبت إلى بيتك لتحميني ، ولكون الناس يوقرونه ويعظمونه ويحرمون القتل والقتال فيه 0

وفي الأحاديث إثبات المشيئة للعبد خلافاً للجبرية الذين يقولون ليس للعبد مشيئة وإنما هو كالشجرة في مهب الريح ، وقال القدرية إن الأمر أنف والعبد هو الذي يخلق فعله ولا دخل لمشيئة الله فيه وقال أهل السنة للعبد مشيئة واختيار ولكنها تابعة لمشيئة الله واختياره كما قال تعالى {لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ (28) وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاء اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} (29) سورة التكوير

((باب ما جاء فيمن لم يقنع بالحلف بالله))

عن ابن عمر رضي الله عنهما ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (لا تحلفوا بآبائكم ، من حلف بالله فليصدق ، ومن حلف له بالله فليرض . ومن لم يرض بالله فليس من الله) رواه ابن ماجه بسند حسن .

مناسبة الباب لما قبله /

لما ذكر خطر الحلف بغير الله لما يتضمن من تعظيم المحلوف به أردف بذكر أنه ينبغي أن يرض الشخص ويقنع إذا حلف له بالله وذلك تعظيماً للمحلوف به جل وعلا لأن عدم رضاه قد يكون فيه نوع من عدم تعظيم الله ولذلك روي عن عيسى عليه السلام أنه رأى سارقاً فقال له سرقت فقال السارق : لا والله ما سرقت فقال عيسى عليه السلام : رضيت بالله وكذَّبتُ عيناي أو كلاماً نحوه 0

قوله (لا تحلفوا بآبائكم) لأن العرب كانوا يحلفون بآبائهم وذلك من تعظيمهم لآبائهم فأنكر النبي صلى الله عليه وسلم ذلك وعده من الشرك وأن التعظيم لا يكون إلا لله وذكرنا أقوال العلماء في حديث (أفلح وأبيه إن صدق) في الباب السابق فراجعه إن شئت

قوله (من حلف بالله فليصدق) وورد في بعض نسخ كتاب التوحيد (من حلف له بالله فليصدق) وهو تصحيف 0 والصدق واجب شرعاً وهو من محاسن الأخلاق التي جاء الدين بتثبيتها وضده الكذب من كبائر الذنوب شرعاً ومن مساوئ الأخلاق التي جاء الدين بنبذها قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ} (119) سورة التوبة وقال تعالى {لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاء أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا} (24) سورة الأحزاب وقال تعالى { فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ} (21) سورة محمد وقال

في ضده وهو الكذب {إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَأُوْلئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ } (105) سورة النحل

وقال النبي صلى الله عليه وسلم (عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً ، وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً) متفق عليه وهذا بلا حلف فإذا اقترن به الحلف بالله صار الصدق أوجب وأعظم والكذب أجرم وآثم وهو اليمين الغموس التي تغمس صاحبها في الإثم ثم في النار خآصةً إذا اقترن ذلك باقتطاع حق امرئٍ مسلم 0

تنبيه / يجوز أن يحلف على غلبة الظن ولا يلزم أن يكون متيقناً تماماً بمطابقة حلفه للواقع وذلك لحديث الرجل الذي قال : والله ما بين لا بتيها أهل بيتٍ أفقر منا 0

قوله (ومن حلف له بالله فليرض ومن لم يرض بالله فليس من الله) رواه بن ماجة وصححه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم (7247) هذا في الأحكام الشرعية إذا كانت خصومة بين اثنين فأكثر فالبينة على المدعي واليمين على من أنكر فإذا لم يكن عند المدعي بينة وحلف المنكر سقط حق المدعي ووجب عليه الرضا بحلف المنكر كحجة للخصم ، لأن هذا حكم الله فالاعتراض وعدم الرضا بالحكم يدل على كراهيته لحكم الله ، ولا يلزمه تصديق الحالف إذا تيقن كذبه لأن هذا يخالف الواقع والشرع لا يأمر بمخالفة الواقع ولا يلزمه الرضا بظلم المنكر والذهاب بماله وحقه ، إنما يرضى بحكم الله الذي ينص على العمل بحلف المدعى عليه إذا لم يكن عند المدعي بينة 0 قال الشيخ محمد العثيمين : لا يلزم المحلوف له التصديق إذا علم كذب الحالف أو ترجح عنده ، أما إذا تساوى الأمران أو ترجح صدق الحالف فيجب تصديقه ، وهذا في الأمور الحسية ، وأما الأمور الشرعية في باب التحاكم فيجب أن يرضى باليمين ويلتزم بمقتضاها لأن هذا من باب الرضا بالحكم الشرعي وهو واجب 0 (القول المفيد 227/2) وقال الشيخ عبد الرحمن بن حسن : من حق المسلم على المسلم أن يقبل منه إذا حلف له معتذراً أو متبرئاً من تهمةٍ ، ومن حقه عليه أن يحسن به الظن إذا لم يتبين خلافه قال عمر : ولا تظنن بكلمةٍ خرجت من أخيك شراً وأنت تجد لها في الخير محملاً 0 وفيه من التواضع والألفة والمحبة وغير ذلك من المصالح التي يحبها الله ما لا يخفى على من له فهم وذلك من أسباب اجتماع القلوب على طاعة الله 0 (فتح المجيد ص469)

((باب قول : ما شاء الله وشئت))

عن قتيلة ، أن يهودياً أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : إنكم تشركون ، تقولون ما شاء الله وشئت ، وتقولون : والكعبة ، فأمرهم النبي صلى الله عليه وسلم إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا (ورب الكعبة ، وأن يقولوا : ما شاء ثم شئت) رواه النسائي وصححه .وله أيضاً عن ابن عباس : أن رجلاً قال للنبي صلى الله عليه وسلم : ما شاء الله وشئت ، فقال (أجعلتني لله نداً ؟ ما شاء الله وحده) ولابن ماجه عن الطفيل أخي عائشة لأمها قال : رأيت كأني أتيت على نفر من اليهود ، فقلت : إنكم لأنتم القوم ، لولا أنكم تقولون : عزير ابن الله . قالوا : وأنتم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون : ما شاء الله وشاء محمد . ثم مررت بنفر من النصارى فقلت : إنكم لأنتم القوم ، لولا أنكم تقولون : المسيح ابن الله ، قالوا : وأنتم لأنتم القوم ، لولا أنكم تقولون : ما شاء الله وشاء محمد . فلما أصبحت أخبرت بها من أخبرت ، ثم أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فأخبرته . قال (هل أخبرت بها أحداً »؟ قلت : نعم . فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال (أما بعد ؛ فإن طفيلاً رأى رؤيا ، أخبر بها من أخبر منكم ، وإنكم قلتم كلمة كان يمنعني كذا وكذا أن أنهاكم عنها . فلا تقولوا : ما شاء الله وشاء محمد ، ولكن قولوا : ما شاء الله وحده)

قتيلة هي بنت صيفي الأنصارية صحابية جليلة (أن يهودياً) هم قوم موسى وكانوا على الحق ثم انحرفوا وسموا باليهود قيل لأن نسبتهم إلى يهوذا بن يعقوب عليه السلام وقيل لأنهم قالوا ((إنا هدنا إليك)) أي تبنا ورجعنا وقد كانوا يعرفون النبي صلى الله عليه وسلم حق المعرفة ولذلك نزلوا المدينة لأنهم يعلمون أنها مهاجر النبي صلى الله عليه وسلم ولم يمنعهم حمَّاها وحرها ولؤائها من سكناها لأجل ذلك ولكن{ وَلَمَّا جَاءهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَاءهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّه عَلَى الْكَافِرِينَ} (89) سورة البقرة لما جاءهم القران مصدق للتوراة في وجوب طاعة النبي الذي سيبعث ونصرته وكانوا يستنصرون به على من قاتلهم من كفار المدينة يقولون أوشك زمان نبيٍ أن يبعث نقتلكم معه قتل عاد ، فلما جاءهم النبي الذي يعرفونه بصفته في التوراة كفروا به فاستحقوا اللعن والطرد من رحمة الله 0 وذلك كبراً وعناداً وتكذيباً للحق ولذلك كانوا مغضوباً عليهم ، ولقد أسلم منهم نفر يسير كأبي بن كعب وعبد الله بن سلام وكانوا أحباراً في اليهودية وأحباراً في الإسلام وقد سأل النبي صلى الله عليه وسلم اليهود عن عبد الله بن سلام وكانوا لم يعلموا بإسلامه فقالوا هو خيرنا وابن خيرنا فخرج عليهم وهو يقول فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فقالوا : هو شرنا وابن شرنا وفاسقنا وابن فاسقنا وجحدوا الحق في لحظة فانظر عاقبة الكبر وجحدان الحق كيف يردي بصاحبه ، ولقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يتعامل معهم

بالحسنى ويتلطف لهم لعلهم يرجعون حتى كثر شرهم وعم فسادهم وتكرر غدرهم واستطار شرهم عند ذاك أغلظ لهم النبي صلى الله عليه وسلم فقتل قوماً منهم وأجلى آخرين 0 وهذا طبع اليهود على مرِّ العصور فلا يوفون بعهد ولا يقبلون الحق ولذلك كان التعامل معهم بالقتل والتهجير هو التعامل الأنسب 0

(فقال : إنكم تشركون تقولون ما شاء الله وشئت 0 وتقولون : والكعبة) فهذا مما يعرفونه من الحق ولو كان ضدهم ما أظهروه ولكنهم وجدوها فرصة لينتقصوا الدين بأخطاء بعض أهله ، وكان يظن أن النبي صلى الله عليه وسلم سيتكبر عن قبول الحق منه كما يتكبرون هم عن قبول الحق منه فتكون فرصة للطعن في الإسلام وفي الرسول صلى الله عليه وسلم ولكن خاب ظنه وفشل مخططه فالنبي صلى الله عليه وسلم أولى من يلتزم الحق ويعمل به ، ولذلك نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن مثل هذه الأقوال التي يكون فيها شرك ثم بين لهم تصحيح هذه الأقوال (فأمرهم إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا : ورب الكعبة ، وأن يقولوا : ما شاء الله ثم شئت) رواه النسائي وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة حديث رقم (136) وفي الحديث دليل على قبول الحق دون النظر فيمن جاء به لمن تأكد له أنه الحق ، وفيه النهي عن الحلف بالكعبة على جلالة قدرها وعظيم منزلتها فتبين أن الحلف لا يكون إلا بالله ، فلا يحلف بملك ولا نبي ولا ولي ولا حياة فلان ولا كرامته أو رقبته ولا بالأمانة ولا غير ذلك إنما الحلف بالله وحده قال صلى الله عليه وسلم (من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك) رواه الترمذي وبن حبان والحاكم وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب حديث رقم (2952) وفي الحديث النهي عن التشريك في المشيئة لأن العبد وإن كان له مشيئة إلا أنها تابعة لمشيئة الله كما قال تعالى {وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} (29) سورة التكوير والتشريك يقتضي المساواة وهذا باطل ولذلك كان شركاً فأرشدهم النبي صلى الله عليه وسلم إلى الفصل بين المشيئتين بحرف الفصل (ثم) وهو حرف يعلم به أن ما قبله ليس مثل ما بعده بل بينهما فارق ولذلك تقال في كل وصف يذكر فيه الخالق مع المخلوق كقول (لولا الله ثم فلان ، وما لنا إلا الله ثم فلان ، توكلنا على الله ثم على فلان) ونحو ذلك فينبغي أن يعظم الخالق وأن يفرد بالتوحيد ولذلك أنكر النبي صلى الله عليه وسلم إنكاراً شديداً على من قال له (ما شاء الله وشئت) فقال (أجعلتني لله نداً بل ما شاء الله وحده) وذلك لأن الأمر وقع من مسلم ينبغي أن يكون عالماً بحق الله وما يجب له من التعظيم وما يفرد به من التوحيد فأغلق عليه باب المساواة ولم يذكره بحرف الفصل حتى يبين له أن حق الله عظيم وأن المشيئة لله وحده ومشيئة المخلوق تابعة لمشيئة الله ، ولذلك كان الإنكار يختلف باختلاف حال المنكر عليه فمن وقع في منكر وجب سد كل الطرق التي قد توصل إلى هذا المنكر ، وأما إذا لم يقع المنكر ولكن خشي وقوعه فيبين ويحذر منه ويبين له الطريق الصحيح فتحاً لباب الخير وسداً لباب الشر ومثل هذا إنكار النبي صلى الله عليه وسلم على الخطيب

الذي قال (من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما فقد غوى) فنهاه النبي صلى الله عليه وسلم عن هذا القول وأرشده إلى التفريق بين الله ورسوله حتى لا يظن ظان المساواة بين الله ورسوله رغم أن معصية الرسول معصية لله وطاعة الرسول هي طاعة لله ولذلك لم يمنع من القرن بينهما بحرف العطف الواو في الطاعة والمعصية لأن الرسول إنما هو مبلغ عن ربه فمن أطاعه فقد أطاع من أرسله ومن عصاه فقد عصى من أرسله 0 أرأيت لو أرسل لك مديرك رسالة مع أحد زملائك يأمرك فيها بأمر فلم تنفذه هل تكون عاصياً لزميلك أم للمدير ؟ لا شك أنك تكون عاصياً للمدير ولو عاقبك فلن يلام ولو قال له قائل : إنما عصى رسولك ولم يعصك أنت شخصياً لعده مجنوناً أو ناقص العقل ، لأن الرسول إنما هو موصل أمر من أرسله 0 فكذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما هو مبلغ عن ربه ويوصل أوامره ونواهيه إلى عباده فكانت معصية الرسول معصية لمن أرسله وطاعته طاعة لمن أرسله فلذا جاز القرن بينهما بحرف العطف بخلاف المشيئة ونحوها فمنع النبي صلى الله عليه وسلم من قرنها بحرف العطف وأمر بإفراد الله بها أو فصلها بحرف فصل 0

ولابن ماجة / الإمام المعروف صاحب السنن اسمه محمد بن يزيد بن ماجة القزويني (209-273) عن الطفيل هو بن عبد الله أخو عائشة لأمها قال (رأيت) أي في المنام ، والرؤيا تأتي منظمة وليست مشوشة أو يستحيل ثبوتها في الحقيقة فيكون حلماً من الشيطان كالذي رأى أن رأسه ضرب فتدحرج فاشتد على أثره فقال النبي صلى الله عليه وسلم (لا تحدث الناس بتلاعبك الشيطان بك في منامك) رواه مسلم وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم من رأى ما يكره في منامه أن يستعيذ بالله من الشيطان وأن يتفل عن يساره وأن يتحول عن الجنب الذي كان عليه وألا يحدث بها أحداً فإنها لا تضره ، وإذا رأى ما يحب حدث بها من يثق به ، وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة وأنها مبشرات وأن أصدق الناس حديثاً أصدقهم رؤيا ، وقال بعض أهل العلم أن كون الرؤيا جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة إنما يخبر النبي صلى الله عليه وسلم عن نفسه فإنه أول ما بدأ الوحي كان يرى الرؤيا فتكون مثل فلق الصبح فبقي ستة أشهر ثم نزل عليه الوحي فإذا قارنا ذلك بمدة نبوته صلى الله عليه وسلم وهي ثلاث وعشرون سنة كانت الرؤيا جزء من ستة وأربعين جزءاً منها ، والصحيح كما قال الشيخ بن باز وغيره أنها إخبار عن جنس الرؤى في الماضي والحاضر والمستقبل وكونها جزء من النبوة لتضمنها الحديث عن المغيبات وهي خاصة بالله فلا يعلم الغيب إلا الله ، والله يطلع أنبيائه على ما شاء من الغيب تأييداً لهم فكذلك قد يطلع الله من يشاء من عباده برؤيا يراها فكانت كالنبوة غير أن النبوة متحققة الصدق واجبة الطاعة فيها وأما الرؤى فقد تصدق وقد لا تصدق ، ولا يجوز العمل بها فيما يخالف الشرع 0

قال (رأيت كأني أتيت على نفر من اليهود) النفر من الثلاثة إلى التسعة (قلت : إنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون عزيرٌ بن الله) وعزير رجل صالح من بني إسرائيل قيل إنه هو الذي أماته الله مائة عامٍ ثم بعثه وكان حافظاً للتوراة في زمنٍ نسيت فيه فعظموه لأجل ذلك ثم عبدوه بعد موته وادعوا أنه ابن الله تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً (قالوا) مجاوبين له (وأنتم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون : ما شاء الله وشاء محمد 0 ثم مررت بنفر من النصارى ...الخ) والقرن في المشيئة ونحوها شرك أصغر لأنه شرك ألفاظ وقد يكون شركاً أكبر إذا اعتقد بقلبه أن مشيئة النبي صلى الله عليه وسلم أو غيره مثل مشيئة الله فأرشدهم النبي صلى الله عليه وسلم إلى إخلاص التوحيد لله في كل شيء وسدَّ عليهم كل أبواب الشرك والشر 0

قوله (وإنكم قلتم كلمة كان يمنعني عنها كذا وكذا أن أنهاكم عنها) ورد في بعض الروايات أنه (الحياء) والمراد الحياء من الله لأنه لم يؤمر بإنكارها بعد وإن كان هو يستحسن إنكاره لكنه استحيا من الله فلم ينكره حتى جاءه الوحي بعد انتشار مثل هذا الكلام قاله الشيخ حامد فقي والشيخ بن باز في تعليقهما على فتح المجيد طبعة دار السلام ص474 قلت : ويمكن أنه أنكر باجتهاده لا بوحي خشية انتشار المنكر وكان قبل لا يريد أن يجتهد ويؤخر الاجتهاد لعله يأتيه الوحي فأخر الله جل وعلا الوحي ليجتهد نبيه فيكون قدوةً للعلماء في أن يجتهدوا فيما يطرأ من المنكرات كالتدخين ونحوه 0 وقد اجتهد النبي صلى الله عليه وسلم في أسارى بدر فخطأه المولى جل وعلا في قوله {مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} (67) سورة الأنفال ليقتدي به العلماء في مراجعة الحق بعد الاجتهاد والله تعالى أعلم 0

تنبيه / ذكر المصنف في المسائل بعض الغلو الموجود في قصيدة البردة للبوصيري كقوله :

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به   سواك عند حصول الحادث العمم

إن لم تكن آخذاً يوم المعاد يدي   عفواً وإلا فقل يا زلة القدم

فإن من جودك الدنيا وضرتها   ومن علومك علم اللوح والقلم

فهل يتوقع البوصيري أو غيره أن الرسول يرضى عن هذا الغلو وقد أنكر ما هو دونه أشد الإنكار فكيف لو سمعه لربما قتل من قاله إذا لم يتب ويراجع الحق 0

باب من سب الدهر فقد آذى الله

وقول الله تعالى ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إلا الدَّهْرُ ﴾ الآية [الجاثية : 24] في الصحيح عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال (قال الله تعالى : يؤذيني ابن آدم ، يسب الدهر ، وأنا الدهر ، أقلب الليل والنهار) وفي رواية (لا تسبوا الدهر ، فإن الله هو الدهر)

بعد أن بين المؤلف رحمه الله الشرك الأصغر وبعض الألفاظ الشركية شرع في بيان بعض الألفاظ التي تنافي حق الله تعالى من كمال التعظيم والتقديس فذكر في هذا الباب سب الدهر لأن سبه يرجع لمن خلقه وأوجده وصرفه على ما يشاء وذكر في الباب الذي يليه التسمي بملك الأملاك وقاضي القضاة ونحوها لأنها حقٌ لله لا تصلح لغيره ثم ذكر في الباب الذي يليه احترام أسماء الله وتغيير أسماء البشر التي لا تصلح إلا لله وذكر غير ذلك من الأمور التي توجب تعظيم المولى جل وعلا 0

قوله (باب من سب الدهر فقد آذى الله) لا يستلزم من الأذية الضرر فالله قد أثبت الأذية ونفى الضرر قال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا} (57) سورة الأحزاب وفي الحديث القدسي (يؤذيني ابن آدم يسب الدهر) متفق عليه ونفى الضرر عن نفسه فقال تعالى { لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا} (32) سورة محمد وفي الحديث القدسي (يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني) رواه مسلم فهناك فرقٌ بين الأذية والضرر كما قال تعالى {لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى} (111) سورة آل عمران والإنسان قد يتأذى برائحة البصل والثوم ولا يتضرر منها ويتأذى بسماع القبيح ومشاهدته ولا يتضرر منه ، فالله جل وعلا وله المثل الأعلى يتأذى بسماع أو رؤية كلِّ ما نهى عنه ولا يضره ذلك بل يضر فاعله ، ولا شك أن سب الله ورسوله ودينه كفر أكبر ولكن سب الدهر من الكفر الأصغر لأنه لم يقصد سب الله 0 وقد ذكر المصنف قوله تعالى عن الدهريين القدامى {وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ} (24) سورة الجاثية فهؤلاء كفرهم أكبر وملحدون لأنهم أنكروا الخالق وأنكروا أن الله هو الذي يميتهم وأنكروا البعث وكانوا يقولون : إنما هي أرحامٌ تدفع وأرضٌ تبلع ولا شيء غير هذا 0 فهؤلاء الدهريين كالملاحدة الذين يقولون : لا إله والحياة مادة 0 وإنما ينكرون وجود الخالق وتدبيره لأمورهم عناداً وكفراً مع تصديقم بذلك في

قرارة أنفسهم كما قال تعالى عن الملاحدة الأولين {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ} (14) سورة النمل

قوله : وفي الصحيح أي في جنس الصحيح ويريد صحيح البخاري وصحيح مسلم لأن الحديث متفق عليه والحديث قدسي وهو ما نقله النبي صلى الله عليه وسلم من كلام الرب جل وعلا معنىً لا لفظاً فالمعنى من الرب جل وعلا واللفظ من النبي صلى الله عليه وسلم كذا قيل والله أعلم ولا شك أن هناك فرقاً بين القران وبين الحديث القدسي فالقران متواتر والحديث القدسي منه المتواتر ومنه الآحاد والقران كله صحيح والحديث القدسي منه الصحيح ومنه الضعيف والقران لا يمسه محدث ولا يقرأه جنب وليس الحديث القدسي كذلك والقران يقرأ في الصلاة ولا يقرأ الحديث القدسي فيها إلى غير ذلك من الفروق غير أننا نؤمن أن ما صح من الحديث القدسي هو كلام ربنا جل وعلا كما آمنا بذلك في القران 0 عن أبي هريرة عبد الرحمن بن صخر الدوسي محدث الأمة صحابي جليل أسلم عام خيبر وشهد ما بعدها من الوقائع وتوفي سنة 57هـ عن النبي صلى الله عليه وسلم قال (قال الله تعالى : يؤذيني ابن آدم يسب الدهر)كانت العرب تسب الدهر عند النوازل وينسبون ما يصيبهم من المصائب إلى الدهر فيقولون : أصابتهم قوارع الدهر ، وأبادهم الدهر ، ونحو ذلك كقول المتأخرين : هذا زمان نحس 0 يعني بنسبة المصائب إليه ، وأما إن كان لمجرد الخبر فيجوز كقول لوط عليه السلام { هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ} (77) سورة هود وقوله تعالى {فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ} (16) سورة فصلت وقوله {إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ} (19) سورة القمر وكقول : هذا يوم شاق 0 ليخبر عن ما حصل له فيه لا لذمه أو نسبة المصائب إليه 0

قال العثيمين : سب الدهر ينقسم إلى ثلاثة أقسام :

الأول / أن يقصد الخبر المحض دون اللوم فهذا جائز كقول : تعبنا من شدة حر هذا اليوم أو برده وما أشبه ذلك لأن الأعمال بالنيات ومثل هذا اللفظ صالح لمجرد الخبر ومنه قول لوط { هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ} (77) سورة هود

الثاني / أن يسب الدهر على أنه هو الفاعل كأن يعتقد أن الدهر هو الذي يقلب الأمور إلى الخير والشر فهذا شرك أكبر 0

الثالث / أن يسبه لا لاعتقاده أنه هو الفاعل بل لأنه محل لهذا المكروه عنده فهذا محرم 0 (القول المفيد 240/2)

قال (وأنا الدهر) أي أنا المصرف له ولذلك قال (بيدي الأمر ، أقلب الليل والنهار) فهذا تفسيرٌ لقوله (أنا الدهر) ولم يذكر المصنف قوله (بيدي الأمر) فلعله سقط سهواً 0 فتبين أن الدهر ليس من أسماء الله قال عبد الرحمن بن حسن : قد غلط بن حزم ومن نحا نحوه من الظاهرية في عدهم (الدهر) من الأسماء الحسنى أخذاً من هذا الحديث وقد بين معناه في الحديث بقوله (أقلب الليل والنهار) وتقليبه تصرفه تعالى فيه بما يحبه الناس ويكرهونه 0 (فتح المجيد ص478)

((باب التسمي بقاضي القضاة ونحوه))

في الصحيح عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال (إن أخنع اسم عند الله : رجل تسمى ملك الأملاك ، لا مالك إلا الله) قال سفيان : مثل شاهان شاه .

وفي رواية (أغيظ رجل على الله يوم القيامة وأخبثه). قوله (أخنع) يعني أوضع .

قوله (باب التسمي بقاضي القضاة ونحوه) يعني من الألقاب التي لا تصلح إلا لله والتي فيها المبالغة في التفخيم والتعظيم كملك الملوك وحاكم الحكام ونحوها وسواءً كانت بالعربية أو بغيرها من اللغات كما عبر سفيان بن عيينة بلغة الفرس فقال (مثل شاهان شاه) أي ملك الملوك فشاهان الملوك وشاه الملك وذلك أن الأعاجم يقدمون الأول المضاف إليه على المضاف فيقولون (موبذان موبذ) فموبذان القضاة وموبذ القاضي

ومعناها قاضي القضاة وهكذا ثم ذكر المؤلف الدليل على ما عنون له فقال (في الصحيح) أي الحديث الثابت الصحيح أو في الكتب الصحيحة وهي صحيح البخاري وصحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال (إن أخنع الأسماء عند الله) أي أذلها وأحقرها من الخنوع وهو الذلة والصغار، فعامله الله بنقيض قصده إذ قصده الفخر والعلو وأن تكون مرتبته فوق مرتبة البشر فأذله الله وحقَّره وجعله أذل البشر وأحقرهم وفي المقابل جعل عبد الله وعبد الرحمن من أفضل الأسماء وأعلاها حين وصفوا أنفسهم بالعبودية للرب جل وعلا 0 قال أحمد سألت أبا عمرو عن أخنع فقال : أوضع 0 رواه مسلم قال بن حجر أبو عمرو هو إسحاق الشيباني وأنكر ذلك النووي وقال إنه مات قبل مولد أحمد فلعله لغوي غيره والله أعلم 0 وورد عند البخاري في رواية (إن أخنى الأسماء) أي أفحشها من الخنى وهو الفحش والفجور ، وذكر أبو عبيد أنه ورد بلفظ (أنخع) وهو بمعنى أهلك لأن النخع الذبح والقتل الشديد قاله بن حجر 0

قوله (رجل تسمى ملك الأملاك) وقد يكون الأملاك أشمل من الملوك ولم يرد في البخاري ولا في مسلم (ملك الملوك) غير أن مسلم عنون للباب بباب تحريم التسمي بملك الأملاك أو بملك الملوك ومثَّل سفيان بن عيينة للحديث بشاهان شاه ومعناه ملك الملوك ، غير أن بعض أهل العلم قد أجازوا التسمي بملك الملوك وقاضي القضاة ونحوها وقد أفتى أبو عبد الله الصيمري الشافعي بأن مثل هذه الأسماء يعتبر فيها النية والقصد وقد قال تعالى { إِنَّ اللهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا} (247) سورة البقرة وقال تعالى {وَكَانَ وَرَاءهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا}(79) سورة الكهف فإذا جاز أن يكون في الأرض ملوك جاز أن يكون بعضهم فوق بعض وبعضهم أعظم من بعض وليس في ذلك ما يوجب المماثلة بين الخالق والمخلوق 0 ونحوه قال القاضي أبو الطيب الطبري والتميمي الحنبلي وبن المنير وقالوا : إن معناه (مالك ملوك الأرض) ولم يجزه الماوردي وبن كثير وغيرهما نقل هذا الشيخ حامد فقي (في حاشيته على فتح المجيد ص481، 482) قلت : ويؤيد قول المجيزين أن لفظ الحديث (ملك الأملاك) والأملاك أشمل من لفظ (الملوك) لكن قال بن حجر : إن الأملاك جمع ملك بالكسر وبالفتح وجمع مليك (فتح الباري 722/10) ولكنه لم يُلحِق به غيره كقاضي القضاة وغيرها وقوفاً عند الخبر ولظهور إرادة العهد الزماني في القضاة ولأنه وجد في الأمة من قديم منذ عهد أبي يوسف صاحب أبي حنيفة ولم يشتهر إنكاره ، ولأن الماوردي الذي أنكر على الملك الذي تسمى في زمانه بملك الملوك كان يقال له (أقضى القضاة) ولم ينكر 0

قلت : إذا تبين أن من معاني الأملاك في لغة العرب التي نطق بها النبي صلى الله عليه وسلم وجاء بها الوحي جمع ملك بالكسر تبين أن ما ذكره سفيان رحمه الله هو الصحيح وأنه لا يجوز التسمي بملك الملوك مطلقاً فإذا

اقترن به نية مضاهاة الله جل وعلا كان كفراً وينبغي أن يلحق به ما كان في معناه كحاكم الحكام وسلطان السلاطين وقاضي القضاة ونحو ذلك لأن العبرة بالمعاني دون الألفاظ وأما قول بن حجر أن الماوردي الذي أنكر التسمي بملك الأملاك كان يسمى (أقضى القضاة) فليس (أقضى القضاة) مثل (قاضي القضاة) فإن أقضى القضاة أي أعلمهم وأحسنهم قضاء بينما قاضي القضاة أي الذي يحاسبهم ويحكم عليهم ففرقٌ بين الاسمين ، وقد كان العز بن جماعة الكناني الشافعي ينهى الناس أن يخاطبونه بقاضي القضاة أو يكتبون له بذلك وأمرهم أن يسموه قاضي المسلمين 0 وروي أنه رأى أباه في النوم وكان أبوه يلقب بقاضي القضاة فسأله عن حاله فقال : ما كان أضر عليَّ من هذا الاسم فصنع ما ذكرنا 0 (نقله في فتح المجيد ص483 وفي فتح الباري (723/10)

ولو سمي برئيس الملوك أو رئيس القضاة فذلك جائز والله أعلم لأن رئيس الملوك لا يصلح اسماً لله لكون صلاحيات الرئيس محدودة فلا تصلح إلا لمخلوق 0

وإنما منع الشارع من التسمي بملك الملوك لأن فيه مضاهاة بالخالق جل وعلا ولما فيه من التعالي والعظمة على الناس والله يبغض المتكبر على عباده ولأن الله جل وعلا هو الملك الحق وما سواه مملوك له 0 وهكذا التسمي بقاضي القضاة لأن الله عز وجل هو الذي يحاسب العباد ويقاضي القضاة بما قضوا به بين عباده ، ففي التسمية بذلك مضاهاة لله جل وعلا وفيه من التعاظم قريباً من ملك الملوك 0 وأما قول بن حجر : أن القضاة يظهر منهم العهد الزماني فيقال وكذلك في الملوك فيقال ملك ملوك زمانه وأما قوله : نقف عند الخبر ، فيقال إن نصوص الشريعة جاءت كقواعد يطبق عليها كل ما يماثلها وإلا لكانت الشريعة قاصرة عن المستجدات وهذا تنزه عنه الشريعة وهل يريد بن حجر وغيره أن يقول النبي صلى الله عليه وسلم (إن أخنع اسم عند الله رجل تسمى ملك الأملاك أو سلطان السلاطين أو حاكم الحكام .....) ثم يظل يسرد الألقاب التي لا تنتهي وتستجد مع الزمن وكأنه يخاطب قوماً لا يفقهون حديثاً 0 وأما قوله وجد من عهد أبي يوسف فما بعد فيقال لا يؤخذ الدين من الرجال بل من نصوص الوحيين وقد ثبت عندنا بالنص وبالقياس الجلي النهي عن مثل هذه الأسماء فنعمل به ونلتمس العذر لمن خالفه من أهل العلم 0

وقد ذكر الشيخ حامد الفقي في حاشيته على فتح المجيد ص483 كلاماً نفيساً لأبي طاهر ونصه : لعله يلحق بذلك ما تعارف عليه الناس في بعض البلدان الإسلامية كصاحب العزة وصاحب الجلالة ونحو ذلك وكل هذه الألقاب إنما شاعت في الناس من وقت دخول الأعاجم وتمكن دولتهم في البلاد الإسلامية وأنهم لم يكن لهم من العدل والدين والاستقامة والعلم والفضل ما يتزينون به عند الله وعند الناس بل لعله كان لهم ضد ذلك فخشوا أن يسقطوا من أعين العامة فاخترعوا لهم من تلك الأسماء والألقاب ما يلقي في نفوسهم الوهم والتعظيم المتكلف

والتبجيل المصطنع ، ولقد كان السلف الصالح يدعون بعضهم بعضاً بأسمائهم أو بوظائفهم وقلوبهم مملوءة بالمحبة والتوقير والإجلال لعلمائهم وأمرائهم لما لهم من العلم والفضل والعدل والإحسان التي جمَّلهم الله بها نسأل الله أن يعيد للناس هذا فهو أنفع وأصلح مما هم عليه اليوم من هذه المداهنات والتملقات المتكلفة بالباطل 0 انتهى

قوله (لا مالك إلا الله) أي الذي يملك حقاً هو الله وإنما ملك الناس عارية يوشك أن يزول منهم أو يتركوه لغيرهم قال تعالى {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاء وَتُعِزُّ مَن تَشَاء وَتُذِلُّ مَن تَشَاء بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} (26) سورة آل عمران

قال سفيان يعني بن عيينة : مثل شاهان شاه 0 وعند البخاري قال سفيان : يقول غيره تفسيره شاهان شاه 0 أي يقول غير أبي الزناد راوي الحديث فمرة نقل عن غيره ومرة قاله من قبل نفسه فتلقاه الرواة هكذا وهذا جائز أن يقول الشخص عن تفسير كلمة قال فلان كذا ويصح أن يقولها بدون ذكر القائل إذا تيقن بصحة ما قال ولا يعتبر هذا من السرقة فإن العلم يأخذه الطالب عن شيخه وشيخه أخذه عمن قبله ولو كان كل شخص أخذ كلمة قال حدثنا بها فلان لكان الكتاب الذي يمكن أن يكون في خمسة عشر ورقة لا بد أن يضيف إليها ألفي ورقة على الأقل إسنادات لكل كلمة فما بالك بالمجلدات وهذه لم يقل به عاقل فضلاً عن أهل العلم ، ولكن يمكن أن ينسب إلى القائل الأول دون ذكر السلسلة إذا كان القائل مشهوراً بالعلم والفضل ترغيباً للناس في العمل بهذا القول 0

قوله : وفي رواية (أغيظ رجل على الله ...) عند مسلم ونصه (أغيظ رجل على الله يوم القيامة ، وأخبثه وأغيظه عليه ، رجل كان يسمى ملك الأملاك. لا ملك إلا الله) والغيظ الغضب وقد روى الطبراني (اشتد غضب الله على من زعم أنه ملك الأملاك) صححه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم (988) وهذا يدل على أن ذلك من كبائر الذنوب). قال بن الأثير في النهاية : قال بعضهم : لا وجه لتكرار لفظتي أغيظ في الحديث ولعله (أغنظ) بالنون وهو شدة الكرب 0 انتهى 0 قلت : وجه التكرار تأكيد غضب الله على من فعل ذلك للردع والزجر والعلم عند الله 0 وفي الحديث إثبات صفة الغضب لله على ما يليق بجلاله وعظمته وقد فصلت الحديث عن أسماء الله وصفاته في كتابي (طريق الناجين)

((باب احترام أسماء الله تعالى وتغيير الاسم لأجل ذلك))

عن أبي شريح : أنه كان يكنى أبا الحكم ؛ فقال له النبي صلى الله عليه وسلم (إن الله هو الحكم ، وإليه الحكم) فقال : إن قومي إذا اختلفوا في شيء أتوني ، فحكمت بينهم ، فرضي كلا الفريقين فقال (ما أحسن هذا فما لك من الولد ؟) قلت : شريح ، ومسلم ، وعبد الله . قال (فمن أكبرهم ؟) قلت : شريح ، قال (فأنت أبو شريح) رواه أبو داود وغيره

أبو شريح هو هانئ بن يزيد الكندي كان يكنى أبا الحكم أي ينادى بذلك والكنية ما صدِّر بأبٍ أو أم أو أخٍ أو عم أو خال ونحو ذلك وتكون للمدح كما في هذا الحديث وتكون للذم كأبي جهل وتكون لملازمة الشيء كأبي هريرة وأبي تراب وتكون لمجرد العلمية كأبي العباس لابن تيمية إذ لا ولد له وكأم عبد الله لعائشة وعبد الله هو بن الزبير بن أختها أسماء ، وأما اللقب فهو ما أشعر بمدحٍ أو ذم كزين العابدين وتأبط شراً وكالصادق والباقر ونحو ذلك 0

وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث أن الله هو الحكم أي من أسمائه ومن صفاته فمن أسمائه الحكم والحكيم وأحكم الحاكمين ومن صفاته الحكم بين عباده بالحق ، وحكم الله قسمان :

الأول / قدري كوني فهذا واقعٌ بالعباد لا محالة رضوا أم أبو كقول أخو يوسف { فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىَ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ } (80) سورة يوسف

الثاني / شرعي اختباري فمن رضيه وحكم به كان مؤمناً ومن سخطه ولم يحكم به كان كافراً قال تعالى {أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ} (50) سورة المائدة وقال تعالى {أَفَغَيْرَ اللّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنَزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً } (114) سورة الأنعام

والذي يشرع حكماً غير حكم الله يسمى طاغوتاً من الطغيان وهو مجاوزة الحد ومن يلتزم بأحكام هذا الطاغوت وهو يعلم أنه قد خالف حكم الله يكون عابداً له قال تعالى {اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ} (31) سورة التوبة قال عدي : إنا لسنا نعبدهم يا رسول الله فقال النبي صلى الله عليه وسلم (أليس يحلون ما حرم الله فتحلونه ويحرمون ما أحل الله فتحرمونه) قال : بلى 0 قال (فتلك عبادتهم) لأنهم جعلوهم شركاء لله في الحكم ، ولذلك أنكر النبي صلى الله عليه وسلم هذه الكنية لأنه قد روعي فيها وجود الصفة فهي ليست اسماً مجرداً عن صفة بل سبب الكنية الصفة وهي الحكم بين الناس ، وأما إذا لم يراعى في الاسم الصفة وكان لمجرد العلمية جاز أن يسمى به فإنه قد وجد من الصحابة من كان اسمه الحكم مثل (الحكم بن سعيد بن العاص ، والحكم بن

الحارث السلمي ، والحكم بن عبد الله الثقفي) ولم يأمرهم النبي صلى الله عليه وسلم بتغيير أسمائهم لأنها أطلقت عليهم لمجرد العلمية لا لوجود صفة الحكم فيهم 0

قوله : إن قومي إذا اختلفوا في شيء أتوني فحكمت بينهم فرضي كلا الفريقين 0 فقال النبي صلى الله عليه وسلم (ما أحسن هذا) لأن الاسلام دين التسامح والتصافي دين المودة والمحبة والألفة وقد جاءت النصوص المتكاثرة ترغب في ذلك وتحذر من الفرقة والاختلاف والتشاحن والتباغض قال تعالى{وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ } (103) سورة آل عمران وقال تعالى {وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} (105) سورة آل عمران وقال تعالى {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ } (10) سورة الحجرات وقال النبي صلى الله عليه وسلم (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى) متفق عليه وقال صلى الله عليه وسلم (المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة) متفق عليه والنصوص في ذلك كثيرة 0

قوله (فما لك من الولد ...الخ) دليل على جواز التكني لا على استحبابه لأن النبي صلى الله عليه وسلم رآه على كنيةٍ محرمةٍ فمنعه منها وعوضه بدلها وهكذا الواجب على الدعاة الاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم فإذا رأوا أن إنساناً وقع في منكر فإنهم يغلقون عليه باب الشر ويفتحون عليه أبواب الخير فإذا وجدوا من وقع في النظر والمعاكسات مثلاً يغلقون عليه هذا الباب ويفتحون له باب الزواج فالشرع لم يمنع أمراً إلا كان قد فتح من الخير ما يغني عنه ، ولكن إذا أغلقوا عليه باب الشر ثم تركوه ولم يفتحوا له باباً إلى خيرٍ يغني عن هذا الشر فقد يعاود أو ينفر من الدين أو غير ذلك من المفاسد فالهدي النبوي خير هدي حين منع الرجل من هذه الكنية المحرمة لم يتركه بل كناه بكنية مباحة تغني عن الكنية المحرمة ، والمقصود أن هذا لا يدل على استحباب التكني أو وجوبه وإنما يدل على جوازه فإن تكنى أو لم يتكنى فلا حرج عليه ، لكن إن قيل باستحباب التكني لأن النبي صلى الله عليه وسلم تكنى بأبي القاسم فهو قول قوي 0 ويدل الحديث على أن الكنية تكون بأكبر الأولاد ، ويجوز أن يتكنى من ليس له ولد فإن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها سألت النبي صلى الله عليه وسلم أن يكنيها فقال (تكني بابنك عبد الله) أي عبد الله بن الزبير لأنه ابن أختها أسماء فهي خالته والخالة بمنزلة الأم ، وكان بن تيمية يكنى بأبي العباس وهو لا ولد له 0

تنبيه / لا يجوز لمن كان اسمه محمد أن يتكنى بأبي القاسم لقول النبي صلى الله عليه وسلم (تسموا باسمي ولا تكنوا بكنيتي) متفق عليه وقد يشمل من لم يكن اسمه محمد لأن الحديث عام 0

((باب من هزل بشيء فيه ذكر الله أو القرآن أو الرسول))

وقول الله تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴾ [التوبة : 65] .

عن ابن عمر ، ومحمد بن كعب ، وزيد بن أسلم ، وقتادة دخل حديث بعضهم في بعض : أنه قال رجل في غزوة تبوك : ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطوناً ، ولا أكذب ألسناً ، ولا أجبن عند اللقاء – يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه القرّاء –فقال له عوف بن مالك : كذبت ، ولكنك منافق ، لأخبرن رسول الله صلى الله عليه وسلم. فذهب عوف إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليخبره فوجد القرآن قد سبقه . فجاء ذلك الرجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد ارتحل وركب ناقته ، فقال : يا رسول الله ! إنما كنا نخوض ونتحدث حديث الركب ، نقطع به عناء الطريق . قال ابن عمر : كأني أنظر إليه متعلقاً بنسعة ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإن الحجارة تنكب رجليه وهو يقول : إنما كنا نخوض ونلعب . فيقول له رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ أَبِاللّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ * لاَ تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ »؟ ما يتلفت إليه وما يزيده عليه .

قوله : باب من هزل 0 أي سخر واستهزأ 0 بشيءٍ فيه ذكر الله 0 سواءً كان من الآيات الشرعية أو الآيات الكونية فمن سخر مثلاً من النملة فقال لماذا خلقها الله على هذه الطريقة يريد السخرية لا العلم أو قال إن

خلقها عبث أو نحو ذلك فهذا كافر وهكذا غيرها من الآيات الكونية فيهزل من طريقة خلقها أو من تدبير الله لها في أرزاقها وحركاتها وغير ذلك ، أو هزل بالآيات الشرعية وهو ما جاء به الوحيين فيهزل من طريقة الصلاة وأوقاتها ويهزل من الحج والصيام والزكاة ويستهزئ بأوامر الله ورسوله ويهزأ برسل الله وأولياءه لماذا لحاهم طويلة وثيابهم قصيرة ولماذا يعملون كذا وكذا مما أمر به الشرع لا ليستعلم وإنما ليستهزئ ، وهكذا لو استهزأ بالأنبياء في غير أمور الشرع كالطول والقصر فيكفر بذلك لأن الله اصطفاهم فكأنه يقول إن الله لا يحسن الاصطفاء ، ويقتل ساب الأنبياء بلا استتابة 0 وأما من دونهم من أهل العلم وغيرهم فانتقاصهم لأشخاصهم لا يكفر لكنه كبيرة من كبائر الذنوب وهكذا سائر المؤمنين ، وأما انتقاصهم لدينهم والاستهزاء بما هم مستمسكين به من أمور الدين فيكفر ما لم يكن يجهل أن ما هم عليه هو من أوامر الدين 0

وقوله : أو القران أو الرسول 0 الحقيقة أن العنوان فيه غموض إذ لا نعلم هل يريد من هزل بالقران وبالرسول أو يريد من هزل بشيءٍ فيه ذكر القران أو ذكر الرسول إذ لفظ الباب يحتمل المعنيين ، وعلى كلٍ من قصد القران والرسول بالاستهزاء فلا شك في كفره فأما القران فسبه سبٌ لمن تكلم به وهو الله جل وعلا ، وأما الرسول فسبه والاستهزاء به سبٌ لمن أرسله فكان كذلك كفراً ، ولا يستتاب ساب الرسول بل يقتل ولو تاب في قول أكثر أهل العلم لأن الرسول صلى الله عليه وسلم قد مات فلا يسقط حقه ولا ندري هل يقبل منه أولا ؟ وأما ساب القران فيستتاب لأن من تكلم بالقران وهو الله حيٌ لا يموت فإن لم يقبل منه عاقبه 0

ثم ذكر المصنف قوله تعالى {وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِؤُونَ} (65) سورة التوبة وذكر سبب نزولها وبن عمر صحابي والبقية من التابعين وقوله : دخل حديث بعضهم في بعض 0 أي أن الراوي الذي بعدهم جمع رواياتهم وجعلها روايةً واحدة وهذا يفعله بعض الرواة كالزهري وغيره ويشير إلى ذلك بقوله : دخل حديث بعضهم في بعض 0 (أنه قال رجل) كذا مبهم ولم يصرح الرواة باسم القائل لاحتمال كونه ممن عفا الله عنهم فلا ينبغي التشهير به ، والستر على من لا يخشى ضرره من الأخلاق الكريمة ولذلك جاء في الحديث (يا عبد الله لا تكن مثل فلان كان يقوم الليل فترك قيام الليل) ونحو ذلك كثير فلا يصرح باسم من كان في الخبر منقصة عليه ، إلا إذا خشي شره وزاد خطره فينبغي التحذير منه باسمه ليحذره الناس ويسلموا من شره ، وقد ذكر بن إسحاق أن وديعة بن ثابت ومخشي بن حمير كانوا يقولون للنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه : أتحسبون أن جلاد بني الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضاً لكأنا بكم غداً مقرنين في الحبال 0 فقال النبي صلى الله عليه وسلم لعمار بن ياسر (أدرك القوم فإنهم قد احترقوا) فجاءوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم معتذرين فقال وديعة بن ثابت يا رسول الله : إنما كنا نخوض ونلعب 0

وقال مخشي بن حمير قعد بي اسمي واسم أبي فسمى مخشي عبد الرحمن وسأل الله أن يقتل شهيداً لا يعلم بمكانه فقتل يوم اليمامة فلم يوجد له أثر 0 قال عكرمة : كان رجل ممن إن شاء الله عفا عنه يقول : إني أسمع آية أنا أعنى بها تقشعر منها الجلود وتجل منها القلوب اللهم فاجعل وفاتي قتلاً في سبيلك لا يقول أحد أنا غسلت أنا كفنت أنا دفنت فأصيب يوم اليمامة فما أحد من المسلمين إلا وقد وجد غيره (ذكرها في فتح المجيد ص491) قولهم (ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء) يعنون النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه (أرغب بطوناً) أي شرهين في الأكل (ولا أكذب ألسنا) يكثرون الكذب وهو الإخبار بخلاف الحقيقة (ولا أجبن عند اللقاء) شديدي الخوف والهلع عند مواجهة العدو 0 وعند التأمل في هذه الصفات نجد أنها تنطبق على المنافقين لا على النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ولكن كما قيل : رمتني بدائها وانسلت 0 وقولهم في المثل العامي (الكل يرى الناس بعين طبعه) فقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن الكافر يأكل في سبعة أمعاء والمؤمن يأكل في معيٍ واحد والمنافق كافر 0 وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن من صفات المنافق (إذا حدث كذب) وأما الجبن فهو سمتهم الأصلية فهم لم يظهروا الإيمان ويبطنوا الكفر إلا من شدة الهلع والخوف والجبن الذي امتلأت به أفئدتهم وقد قال تعالى { يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ } (4) سورة المنافقون من شدة الخوف والجبن فقال له عوف بن مالك أحد الصحابة الكرام : كذبت ولكنك منافق 0 إذ لا يتجرأ مؤمن أن يقول في النبي صلى الله عليه وسلم وصحبه هذه المقالة فلا يقولها إلا من كان في قلبه شك أو نفاق 0 وبهذا يُعلم أن الطعن في الصحابة الكرام طعن في الله ورسوله فكيف يختار الله لخير رسله شر خلقه ثم يسلطهم على دينه كما يقول الرافضة ، وطعن في الرسول لأن المرء على دين خليله ، وهو كذلك طعن في الشريعة لأنهم الواسطة بيننا وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم فهم نقلة الدين وأمناؤه ولذلك قال أبو زرعة : إذا رأيت الرجل ينتقص أحداً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعلم أنه زنديق وذلك أن الرسول حق والقرآن حق وإنما أدى إلينا هذا القرآن والسنة أصحابُ رسول الله صلى الله عليه وسلم وإنما يريدون أن يجرحوا شهودنا ليُبطلوا الكتاب والسنة والجرح بهم أولى وهم زنادقة ا0هـ 0 وقال النبي صلى الله عليه وسلم (من سب أصحابي فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين) حسنه الألباني انظر صحيح الجامع حديث رقم (5111) .

قوله (لأخبرن رسول الله) هذا من إنكار المنكر في حينه وهو من الواجبات العظام وتركه من كبائر الذنوب كما قال تعالى {لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ (78) كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ} (79) سورة المائدة وقال صلى الله عليه وسلم (لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يعمكم بعقابٍ منه ثم تدعونه فلا يستجاب لكم)

رواه أحمد والترمذي وحسنه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم (7070) وفي الحديث دليل على أن من لم يستطع إزالة المنكر بيده أن يستعين بمن يزيله ممن هو أقدر منه على ذلك ، وكذا فعل المصنف رحمه الله فإنه استعان بآل سعود أيدهم الله لإزالة المنكرات الموجودة في زمانهم من الشركيات فما دونها ، ولا يسكت لأن السكوت علامة الرضا والساكت عن الحق شيطان أخرس فإن لم يم يجد من يستعين به على إنكار المنكر وكان لا يستطيع إنكاره بيده أنكره بلسانه فإن لم يستطع أنكر بقلبه وتبرأ ذمته ويفارق موضع المنكر لقوله تعالى {وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللهِ يُكَفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا} (140) سورة النساء ولعل هذه الآية هي التي عناها مخشي بن حمير والله تعالى أعلم 0 فذهب عوف إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليخبره فوجد القران قد سبقه وجاء ذلك الرجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقد ارتحل وركب ناقته فقال : يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب ونتحدث حديث الركب نقطع به عناء الطريق 0 فما كان النبي صلى الله عليه وسلم يزيده على ما أمر به أن يقوله في الآية وهذا من شدة اتباع النبي صلى الله عليه وسلم لأمر ربه وكيف لا وهو أتقى الناس وأعلمهم بالله 0 فقال بن عمر : كأني أنظر إليه متعلقاً بنسعة ناقة النبي صلى الله عليه وسلم 0 النسعة حبل يشد به الرحل 0 والحجارة تنكب رجليه 0 أي تضربها من سرعة السير وكأنه مشغولٌ عنها بإرادة الاعتذار وهو يقول : إنما كنا نخوض ونلعب 0 وتقدم أن القران سبقه بأنهم سيقولون هذه العبارة نفسها فسبحان علام الغيوب فيقول له رسول الله صلى الله عليه وسلم (أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزءون لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم) ما يلتفت إليه وما يزيده عليه 0

والحديث يدل على أن الاستهزاء بأي شيءٍ يرجع إلى الدين فهو كفر ومن ذلك سب العلماء فيما يقولونه أو يفعلونه من أمور الشرع كإطالة اللحى وتقصير الثياب وحف الشوارب والاستهزاء بفتاويهم التي توافق الشرع ، وأما الاستهزاء بطول فلان أو قصره أو نحافته أو سمنه أو غير ذلك من أمور الدنيا فإن لم يقصد الاستهزاء بمن خلقه على هذه الكيفية فلا يكفر لكنه ارتكب كبيرة من كبائر الذنوب ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم لعائشة حينما أشارت إلى قصر صفية (لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته) رواه أبو داود والترمذي وصححه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم (5140) فينبغي الحذر من الاستهزاء عموماً ومن الاستهزاء بأمور الدين بالأخص لكفر من فعل ذلك 0

باب ما جاء في قول الله تعالى ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاء مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي ﴾ الآية .قال مجاهد : هذا بعملي وأنا محقوق به . وقال ابن عباس : يريد من عندي .وقوله ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي ﴾ [القصص : 78] قال قتادة : على علم مني بوجوه المكاسب . وقال آخرون : على علم من الله أني له أهل . وهذا معنى قول مجاهد : أوتيته على شرف .

وعن أبي هريرة أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (إن ثلاثة من بني إسرائيل : أبرص ، وأقرع ، وأعمى . فأراد الله أن يبتليهم ، فبعث إليهم ملكاً ، فأتى الأبرص ، فقال : أي شيء أحب إليك ؟ قال : لون حسن ، وجلد حسن ، ويذهب عني الذي قد قذرني الناس به . قال : فمسحه ، فذهب عنه قذره ، وأعطي لوناً حسناً وجلداً حسناً ، قال : فأي المال أحب إليك ؟ قال : الإبل أو البقر – شك إسحاق – فأعطي ناقة عشراء ، وقال : بارك الله لك فيها . قال : فأتى الأقرع ، فقال أي شيء أحب إليك قال : شعر حسن ، ويذهب عني الذي قذرني الناس به. فمسحه ، فذهب عنه ، وأعطي شعراً حسناً ، فقال : أي المال أحب إليك؟ قال : البقر ، أو الإبل ، فأعطي بقرة حاملاً ، قال : بارك الله لك فيها . فأتى الأعمى ، فقال : أي شيء أحب إليك ؟ قال : أن يرد الله إليَّ بصري ؛ فأبصر به الناس ، فمسحه ، فرد الله إليه بصره ، قال : فأي المال أحب إليك ؟ قال :

الغنم ، فأعطي شاة والداً؛ فأنتج هذان وولد هذا ، فكان لهذا وادٍ من الإبل ، ولهذا وادٍ من البقر ، ولهذا وادٍ من الغنم ، قال : ثم إنه أتى الأبرص في صورته وهيئته . فقال : رجل مسكين ، قد انقطعت بي الحبال في سفري ، فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك ، أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن ، والجلد الحسن ، والمال ، بعيراً أتبلغ به في سفري ، فقال : الحقوق كثيرة . فقال له : كأني أعرفك ، ألم تكن أبرص يقذرك الناس ، فقيراً ، فأعطاك الله عز وجل المال؟ فقال : إنما ورثت هذا المال كابراً عن كابر ، فقال : إن كنت كاذباً فصيّرك الله إلى ما كنت . قال : وأتى الأقرع في صورته ، فقال له مثل ما قال لهذا ، وردّ عليه مثل ما ردّ عليه هذا ، فقال : إن كنت كاذباً فصيّرك الله إلى ما كنت . قال : وأتى الأعمى في صورته ، فقال : رجل مسكين وابن سبيل ، قد انقطعت بي الحبال في سفري ، فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك . أسألك بالذي ردّ عليك بصرك شاة أتبلغ بها في سفري ، فقال : قد كنت أعمى فردّ الله إليَّ بصري ، فخذ ما شئت ودع ما شئت ، فوالله لا أجهدك اليوم بشيء أخذته لله . فقال : أمسك مالك ، فإنما ابتليتم فقد رضي الله عنك ، وسخط على صاحبيك ﴾ . أخرجاه .

لو أن المصنف جعل هذا الباب بعد باب قوله تعالى {يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ} (83) سورة النحل لأن هذا الباب متعلقٌ بكفران نعمة الله ونسبتها إلى غيره ، غير أنه في ذلك الباب نسبها إلى أمر خارج عنه كشفاعة الآلهة وكحذق ربان السفينة ومهارة الطيار ونحو ذلك ، وأما في هذا الباب فنسبها إلى أمر داخل فيه كحسن تصرف في الأموال أو لفضله ومنزلته عند الله 0

والمنكرين لنعمة الله على ثلاث فرق :

الأولى / التي تشرك بالله وتنسب الفضل إلى الهتهم فيقولون ما جاءت هذه النعم إلا بشفاعة آلهتنا ونحو ذلك 0

الثانية / التي تنسب الفضل إلى مهارتها وحذقها فيقول حصلت هذا المال لأني خبير بالتجارة وطرق المكاسب وآبائي كانوا كذلك فورثت هذا الخير كابراً عن كابر ، ولا ينسب الفضل والرزق والنعم إلى الله 0 ومنهم قارون الذي أخبر الله عنه بقوله {قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي} (78) سورة القصص

الثالثة / التي تنسب الرزق إلى الله ، ولكن يقولون إنما رزقنا الله لأنا أهل لذلك لشرفنا وديننا وغير ذلك 0 فكأنهم يدلون على الله بالفضل ، أي كأنهم يقولون لنا الفضل على الله لتقوانا ولشرفنا ولذلك رزقنا ، قال تعالى {فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ} (15) سورة الفجر أي لأني استحق الإكرام 0

وأما الشاكرين لنعم الله فهم الذين يعملون بالأسباب الجالبة للرزق بإذن الله من التجارة والصناعة والزراعة وغيرها ثم إذا حصل لهم رزق نسبوه إلى الله جل وعلا وقالوا لله المنة والفضل علينا فالرزق والفضل من عنده فهو الذي يسر لنا أسباب الرزق ثم رزقنا من خلال هذه الأسباب 0

وعلاقة هذا الباب بكتاب التوحيد واضحة حيث أن نكران نعم الله ونسبتها إلى غيره شرك به جل وعلا إما شرك أكبر كما في الفرقة الأولى وإما شرك أصغر كما في الثالثة وأما الثانية فبحسب ما يقع في القلب من نكران نعم الله فإن أنكرها مطلقاً ونسب الرزق إلى نفسه فذلك كفر أكبر ، وإن اعتمد على الأسباب مع اعتقاده أن الله هو الرازق فذلك شرك أصغر 0 والواجب الاعتماد على الله وحده ، ولا ينافي هذا بذل الأسباب المشروعة التي جعل الله رزقه يصل إلى الناس من خلالها 0

قال المصنف : باب ما جاء في قول الله تعالى {وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاء مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ} (50) سورة فصلت إذا أصابت الانسان ضراء كفقر ومرض وغيرهما ثم حصلت له النعمة بعد ذلك بتحول الفقر إلى غنى والمرض إلى صحة والبلاء إلى فرح كانت غبطته بذلك أكبر وفرحه بذلك أشد فيشعر بلذة النعماء أكبر مما لو لم يكن قد أصابته ضراء ، كالجائع يشعر بلذة الطعام أكثر من الشبعان ، لكن هذا الأحمق لم ينسب النعماء إلى المنعم بها جل وعلا بل نسبها إلى نفسه وقال : استطعت التغلب على الفقر والمرض بذكائي وخبرتي وحسن تصرفي ولم ينسب النعماء إلى الله وبعضهم يقول إنما أنعم الله عليَّ لأني استحق ذلك فأنا أهلٌ لأن ينعم الله عليَّ فكأنه يقول : ليس لله عليَّ فضلٌ في ذلك وإنما ذلك بعملي له وهذا تفسير مجاهد والأول تفسير بن عباس كما ذكر ذلك المصنف وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم (لن ينجي أحد منكم عمله 0 قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته) متفق عليه فهذا العمل لن ينجي صاحبه في الأخرى فكيف تنسب له النعماء في الدنيا 0 وكم من صالح تقي عاش فقيراً ومات فقيراً وتعلمون كيف كانت حياة النبي صلى الله عليه وسلم وهو خير البشر كان يمر عليه هو وأهله الهلال والهلالين والثلاثة وما أوقد في بيته نار إنما طعامهم التمر والماء بل حتى الدقل وهو رديء التمر لم يجد منه ما يملأ به بطنه فهل أعمالكم خير من أعماله ومنزلتكم عند الله أعظم من منزلته حتى رزقكم وأسبغ عليكم النعم أم أن الضراء والنعماء كلها ابتلاء من الله لعباده ليعلم الصابرين في الضراء من أهل الجزع والتسخط وليعلم الشاكرين في النعماء من أهل البطر والتكبر ، ومن كان هدفه من أعماله الصالحة أن يسبغ الله عليه النعم في الدنيا فيخشى أن يكون داخلاً في قوله تعالى {مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ (15) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ

وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} (16) سورة هود وقوله تعالى {مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاء لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا} (18) سورة الإسراء وهكذا قصة قارون الذي أنعم الله عليه حتى أن مفاتح كنوزه يعجز عن حملها العصبة من الرجال فكيف بالكنوز نفسها ، فلم ينسب هذه النعم إلى الله وإنما نسبها إلى إلى نفسه فكانت سبباً لأن غضب الله عليه فخسف به وبداره وكنوزه فلم تنفعه ولم ترد عنه عذاب الله وكانت وبالاً عليه في الدنيا والآخرة وجعل قارون عبرة لمن تسول له نفسه نسبة النعم إليها 0 وهكذا حديث الثلاثة من بني إسرائيل 0

قوله (ناقة عشراء) أي حامل 0 وقوله (انقطعت بي الحبال في سفري) أي الأسباب لأن الأسباب كالحبال التي يتوصل بها الناس إلى مقاصدهم كجذب الماء من الآبار وغير ذلك فكذلك الأسباب يتوصل بها المسافر إلى بلده 0 وقوله (بعيراً أتبلغ به في سفري) أي لا أطلبك من أحسن إبلك كما طلبت أنت أحسن الصور وإنما أي بعير يوصلني إلى بلدي ، ولقد استجداه بأشد أنواع الاستجداءات ككونه مسكيناً وأيضاً بن سبيل أي مسافر وأنه لن يصل إلى أهله إلا بالله ثم بمساعدته ثم ذكره بنعم الله عليه ليكون أرق لقلبه ولم يطلب من أحسن ماله بل بأي شيءٍ تجود نفسه منه 0 ومع ذلك كله أبى وأنكر نعمة الله عليه وقال (الحقوق كثيرة) أي أن هذا المال متعلق به حقوق كثيرة يريد أنه مديون أو أنه يصرف على أناسٍ كثيرين أو غير ذلك من الأكاذيب التي افتراها والتي نسمعها كثيراً ممن يقال له تصدق مما أعطاك الله فيحتج بمثل هذه الحجج وهو فيها كاذب 0 ثم ذكره الملك بسابق حاله فأبى وأنكر نعمة الله وجحد كونه أبرصاً فقيراً وقال (إنما ورثت هذا المال كابراً عن كابر) إما يريدممن يكبرني وهو أبي وممن يكبر أبي وهو جدي أي أن هذا المال قديم عندنا وموروث وليس من فضل الله الحادث علينا ، أو يريد من قوله (كابراً عن كابر) أي أنني وآبائي أهل شرف ونعمة ولم يحصل أن كان أحد منا فقير أو ضعيف بل نحن السادة الشرفاء وإنما أنعم الله علينا لعلو منزلتنا عنده 0 فحينها دعى الملك عليه أمامه لعله يشعر بالخطر فيتراجع عن كبره وغروره قبل فوات الأوان لكنه لم يتراجع وأصر على عناده وكذبه فرده الله إلى ما كان عليه من الضر وكان فاشلاً في الاختبار راجعاً بسخط الله وغضبه كما قال النبي صلى الله عليه وسلم (إن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم فمن رضي فله الرضا ومن سخط فله السخط) وقول الملك (إن كنت كاذباً) يدل على أنه لو كان صادقاً في أن الحقوق كثيرة وأن ماله لا يفي بهذه الحقوق من الديون ونفقات من تلزمه نفقته فلا يجب عليه الإنفاق على المسكين البعيد ويترك من تلزمه نفقته مضطراً أو يترك قريباً له محتاج فهو أولى من البعيد وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم (الصدقة على المسكين صدقة وهي على ذي الرحم اثنتان صدقة وصلة) رواه أحمد والترمذي والنسائي وبن ماجة والحاكم وصححه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم (3858) وأما قوله (كابراً عن كابر) ويريد بذلك

إنكار نعمة الله فهو كاذب بلا شك ولو كان صادقاً أنه مال موروث لأن الله هو الذي رزقه ورزق آبائه فكيف وهو كاذب أن المال موروث فلا شك أن جرمه أشد 0

قوله (وأتى الأقرع) الأقرع هو الذي لا شعر له (في صورته) أي أتاه بصورة أقرع فقال له مثل ما قال للأبرص ورد عليه مثل رد الأبرص فعوقب مثل عقاب الأبرص 0 لكن الأعمى كان مختلفاً تماماً عن سابقيه بل قابله بالإحسان والاعتراف بفضل الرحيم المنان فكان جزاءه الرضى وتمام النعمة وكان جزاء سابقيه السخط وسلب النعمة فشتان بين الفريقين وإنما تذكر مثل هذه القصص في الكتاب والسنة لأخذ العظة والعبرة وللاقتداء بالصالحين الناجين ، والحذر من تقليد المجرمين 0

تنبيه / ذكر الشيخ محمد العثيمين رحمه الله أنه لا يلزم الرضا بالمصيبة بل الواجب الصبر وعدم التسخط والجزع وأما حديث (فمن رضي فله الرضا) فالمراد الرضى بفعل الله الذي هو قضاءه وأما المقضي نفسه وهو المصيبة فلا يلزم الرضا بها غير أن الرضا أكمل من الصبر والشكر أكمل منهما (القول المفيد 294/2) وذكر رحمه الله أن في الحديث دليلاً على جواز التمثيل لمصلحة كأن ياتي بصورة فقير وهو غني ونحو ذلك (القول المفيد 295/2)

وفي الحديث دليل على أن صفة الشح والبخل صفتان ذميمتان قد تؤديان بصاحبهما إلى الهلاك كما في هذا الحديث وقد قال تعالى { وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } (16) سورة التغابن

وفي الحديث إثبات صفتي الرضى والسخط لله جل وعلا 0

((باب قول الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاء فِيمَا آتَاهُمَا ﴾ الآية))

قال ابن حزم : اتفقوا على تحريم كل اسم معبَّد لغير الله؛ كعبد عمر ، وعبد الكعبة ، وما أشبه ذلك ، حاشا عبد المطلب . وعن ابن عباس في الآية قال : لما تغشاها آدم حملت ، فأتاهما إبليس فقال : إني صاحبكما الذي أخرجتكما من الجنة لتطيعانني أو لأجعلن له قرني أيل ، فيخرج من بطنك فيشقه ، ولأفعلن ولأفعلن – يخوفهما – سِّمياه عبد الحارث ، فأبيا أن يطيعاه ، فخرج ميتاً ، ثم حملت ، فأتاهما ، فقال مثل قوله ، فأبيا أن يطيعاه ، فخرج ميتاً ، ثم حملت ، فأتاهما ، فذكر لهما فأدركهما حب الولد ، فسمياه عبد الحارث فذلك قوله تعالى : ﴿ جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاء فِيمَا آتَاهُمَا ﴾ [الأعراف : 190] . رواه ابن أبي حاتم . وله بسند صحيح عن قتادة قال : شركاء في طاعته ، ولم يكن في عبادته . وله بسند صحيح عن مجاهد في قوله : ﴿ لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً ﴾ [الأعراف :189] . قال : أشفقا ألا يكون إنساناً ، وذكر معناه عن الحسن وسعيد وغيرهما .

مناسبة الباب لما قبله / لما ذكر المصنف نسبة النعم إلى غير الله بالعموم عقّب بذكر نعمةٍ خاصة ينسبها بعض الناس إلى غير الله وهي نعمة الولد فيشكرون الطبيب مثلاً الذي عالجهما حتى رزقا بهذا المولود ونسوا أنه مجرد سبب وأن الرازق هو الله أو أن يسمون المولود بعبد الحسين أو عبد الكعبة أو عبد العزى ونحو ذلك مما يكون التعبيد فيه لغير الله ونحو ذلك من كفران هذه النعمة 0

قال المصنف : باب قول الله تعالى {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (189) فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاء فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ} (190) سورة الأعراف قال في المصباح المنير : ينبه تعالى على أنه خلق جميع الناس من آدم عليه السلام وأنه خلق منه زوجته حواء ثم انتشر الناس منهما كما قال تعالى {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ } (13) سورة الحجرات وقال العثيمين : في هذه الآية قولان / الأول : أن النفس الواحدة أي العين الواحدة أي من شخصٍ معين وهو آدم ولذا قال ((وجعل منها زوجها)) أي خلق زوجها منها لأن حواء خلقت من ضلع آدم 0 والقول الثاني : أن المراد بالنفس الجنس أي الجنس البشري ولم يجعل زوجها من جنسٍ آخر بل من نفس الجنس 0 وإطلاق النفس على الجنس قد ورد في مثل قوله تعالى {لَقَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ } (164) سورة آل عمران أي من جنسهم (القول المفيد 299/2) ثم قال تعالى ((ليسكن إليها)) أي خلقت من عينه أو من جنسه ليألفها ويحصل الاطمئنان والاستقرار بينهما كما قال تعالى {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} (21) سورة الروم وقوله تعالى ((فلما تغشاها)) أي وطئها وجامعها أي وطء آدم حواء أو وطء الذكر من الجنس البشري زوجته التي من جنسه والأخير هو الراجح كما سنبين لاحقاً بطلان القصة المنسوبة إلى آدم 0 والتغشية هي التغطية كما فُسِرَ قوله تعالى ((والليل إذا يغشى)) بأن المعنى أن الليل يغطي الأرض ويسترها بظلامه ، فهنا ذكر المولى جل وعلا الوطء والمجامعة بلفظ التغشية وهذا أدبٌ رباني في انتقاء أجمل العبارات للأمور التي تكره الطباع السليمة أن تذكرها باسمها فالجماع ذكر هنا بالتغشية وذكر في آية أخرى بالإفضاء قال تعالى في المهر {وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا} (21) سورة النساء وفي آية أخرى بالملامسة قال تعالى {أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء } (43) سورة النساء وكلها المقصود منها الجماع فينبغي الاقتداء بالرب جل وعلا في انتقاء أجمل العبارات في مخاطبة الناس ودعوتهم وترك الفحش من القول قال صلى الله عليه وسلم (ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذي) رواه أحمد وغيره وصححه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم (5381) وقال صلى الله عليه وسلم (

ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن وإن الله يبغض الفاحش البذيء) رواه الترمذي وغيره وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب حديث رقم (2641) فإن دعت ضرورة للتحدث بأشد الألفاظ جاز كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لماعز حين اعترف على نفسه بالزنى (أنكتها) رواه البخاري لأن ماعزاً كان محصناً وعقوبته الرجم حتى الموت فلابد من التأكد بأشد الألفاظ خشية أنه أراد معنىً آخراً غير الجماع 0 ولعل النبي صلى الله عليه وسلم والعلم عند الله أراد منه أن ينفر من هذا اللفظ الذي تشمئز النفوس من ذكره فضلاً عن الاعتراف به فيقول : لا لم أفعل 0 ليدرأ عنه الحد بالانكار لأن الحدود تدرأ بالشبهات 0

قوله تعالى ((حملت حملاً خفيفاً فمرت به)) ابتداء الحمل يكون خفيفاً فلا تكاد تشعر به ولا يثقلها إلا في آخره ولذا قال تعالى ((فلما أثقلت)) وعلموا أن الولادة قريبة ((دَّعَوَا اللّهَ رَبَّهُمَا)) فجمعوا بين أنواع التوحيد الثلاثة رجاء أن يستجيب الله دعائهما فالربوبية في (ربهما) والألوهية والأسماء والصفات في (الله) 0 قال العثيمين : الظاهر أنهما قالا : اللهم ربنا ، ويحتمل أن يكون بصيغة أخرى 0 (القول المفيد 301/2) ((لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً)) قيل خافا ألا يكون إنساناً ، وقيل خافا ألا يكون تام الخلقة ، وقيل أرادا غلاماً وقيل غير ذلك ، والصلاح يشمل صلاح الدنيا وصلاح الآخرة غير أن قوله تعالى ((فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاء فِيمَا آتَاهُمَا)) يدل على أن المراد صلاح البدن فإن الطفل لا يحكم له بصلاح ديني أو عدمه ((لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ)) قد يكون نذراً منهما وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم (لا تنذروا فإن النذر لا يغني من القدر شيئاً وإنما يستخرج به من البخيل) متفق عليه

قوله تعالى ((فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاء فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ)) نقل المؤلف عن بن عباس رضي الله عنهما أن المقصود بالآية آدم وحواء كذا موقوفاً عليه وروي عن الحسن البصري عن سمرة مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم من طرقٍ متعددة ولكن قد بيَّن بن كثير في تفسيره أن الحديث المرفوع معلول بعلل ثلاث :

الأولى / أن عمر بن إبراهيم البصري أحد رواة الحديث قد قال أبو حاتم الرازي أنه لا يحتج به لكن رواه بن مردويه من طريقٍ آخر عن المعتمر عن أبيه عن الحسن عن سمرة مرفوعاً 0

الثانية / أنه قد روي الحديث من قول سمرة موقوفاً غير مرفوع كما قال بن جرير 0

الثالثة / أن الحسن قد فسره بغير هذا ، فقال مرة : كان هذا في بعض أهل الملل ولم يكن بآدم 0 وقال مرة : عني به ذرية آدم من أشرك منهم بعده 0 وقال مرة : هم اليهود والنصارى رزقهم الله أولاداً فهودوا ونصروا 0 روى ذلك بن جرير بأسانيد صحيحة وهي من أحسن التفاسيروأولى ما حملت عليه الآية ولو كان هذا الحديث

عنده محفوظاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما عدل عنه هو ولا غيره ولا سيما مع تقواه وورعه فهذا يدل على أنه موقوف على الصحابي ويحتمل أنه تلقاه عن بعض أهل الكتاب من آمن منهم 0 (انتهى)

وقال بن حزم : وهذا الذي نسبوه لآدم من أنه سمى ابنه عبد الحارث خرافة موضوعة مكذوبة من تأليف من لا دين له ولا حياء ولم يصح سندها قط ، وإنما نزلت الآية في المشركين على ظاهرها 0 (حاشية فتح المجيد 499)

وقال بن عثيمين : هذه القصة باطلة من وجوه :

الأول / أنه ليس في ذلك خبر صحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم وهذا من الأخبار التي لا تتلقى إلا بالوحي وقد قال بن حزم إنها رواية خرافة مكذوبة 0

الثاني / أنها لو كانت في آدم وحواء فإما أن يتوبا عن الشرك أو يموتا عليه فإن قلنا ماتا عليه فقد جوزنا موت أحد الأنبياء على الشرك وهذا من أعظم الفرية ، وإن قلنا تابا فلا يليق بحكمة الله وعدله ورحمته أن يذكر خطأهما ولا يذكر توبتهما منه فيمتنع غاية الامتناع وقد ذكر توبتهما من أكل الشجرة والشرك أعظم 0

الثالث / أن الأنبياء معصومون من الشرك باتفاق العلماء 0

الرابع / أنه قد ثبت أن الناس يأتون آدم يوم القيامة يطلبونه الشفاعة فيعتذر بأكله من الشجرة وهي معصية ولو وقع منه الشرك لكان اعتذاره به أقوى وأولى وأحرى 0

الخامس / أن الشيطان قال لهما في هذه القصة أنا صاحبكما الذي أخرجتكما من الجنة 0 وهذا لا يقوله من يريد الإغواء وإنما يأتي بشيءٍ يقرب قبول قوله فإذا اعترف أنه عدوٌ لهما فكيف يقبلان قوله بعدئذ 0

السادس / أن الشيطان قال : لأجعلن له قرني أيل 0 والإيل ذكر الأوعال ، والجعل بمعنى الخلق ، فإما أن يصدقاه فيكونان مشركان في الربوبية لأنه لا يقدر على الخلق إلا الله ، وإما أن يكذباه وحينئذٍ فلا يمكن أن يقبلا قوله بعد علمهما أنه عدوٌ لهما 0

السابع / أن الله تعالى قال (فتعالى الله عما يشركون) بضمير الجمع ولو كان المراد آدم وحواء لقال (عما يشركان) فهذه الوجوه تدل على بطلان القصة وأن الآية عائدة إلى بني آدم الذين أشركوا 0 (القول المفيد 308/2،310 بتصرف يسير)

فلا تصح هذه الرواية مرفوعة ولكن إن صحت موقوفة عن بعض الصحابة كابن عباس وأبي بن كعب فيكونون قد أخذوها من أهل الكتاب كما قال بن كثير ، وقد قال أهل العلم إن أقوال أهل الكتاب إذا خالفت ما صح عندنا من الأدلة والإجماع والقواعد الشرعية المعتبرة فهي مردودة وهذه القصة قد خالفت ما ثبت عندنا من عصمة الأنبياء وتمام ستر ربنا على التائبين ويشهد لذلك قصة صاحب قوم موسى الذي منعوا المطر بسببه

ثم أمطروا بسببه فستره الله عاصياً ثم ستره تائباً ولم يبينه حتى لنبيه وكليمه موسى عليه السلام فكيف يفضح نبياً هو أبو البشر ولا يبين توبته سبحانك هذا بهتان عظيم 0

وقد أراد قتادة أن يفرق هنا بين الطاعة والعبادة ليبرئ آدم من الشرك ، ولاكن لا فرق إذ الطاعة في تحليل المحرم أو تحريم الحلال هي عبادة كما قال تعالى {اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ} (31) سورة التوبة قال عدي بن حاتم وكان نصرانياً فأسلم إنا لسنا نعبدهم يا رسول الله قال (أليس يحلون ما حرم الله فتحلونه ويحرمون ما أحل الله فتحرمونه) قال : بلى 0 قال (فتلك عبادتهم) وفي هذه القصة قد أطاعاه في تحليل التعبيد لغير الله وكانا قد علما بتحريمه ولذا لم يطيعاه أولاً ثم أدركهم حب الولد فأطاعاه 0 فلم يصنع قتادة شيئاً حين صدَّق بهذه الرواية البين بطلانها 0 ولا كن قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن عن قول قتادة : هو محملٌ حسن يبين أن ما وقع من الأبوين من تسميتهما ابنهما عبد الحارث إنما هو مجرد تسمية لم يقصدا تعبيده لغير الله 0 (فتح المجيد ص503)

قلت : وهذه مشكلة من يصدق الروايات المكذوبة فيبحث عن مخرج ويحمّلها ما لا تحتمل ليجعل الرواية مقبولة ، فإن حسن النية لا يبرر العمل بالمنكر 0 ولو قالوا إن هذا من الإكراه بالتعذيب وقد قال تعالى {مَن كَفَرَ بِاللّهِ مِن بَعْدِ إيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ } (106) سورة النحل لكان أقرب ، لكن قد صرَّح في الآية بالإشراك والمكره لا يقال عنه مشركاً بل موحد مكره والله مطلعٌ على ما في الضمائر 0

قال بن حزم : اتفقوا على تحريم كل اسم معبد لغير الله كعبد عمرو وعبد الكعبة وما أشبه ذلك حاشا عبد المطلب 0

بن حزم هو أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم القرطبي الأندلسي الظاهري صاحب المحلا والملل والنحل وغيرها من المصنفات البديعة غير أنه من الظاهرية في الفقه وذكر أن عنده بعض الآراء التي تخالف السلف في العقيدة توفي سنة 456 هـ وله 72 سنة

وذكر هنا الإجماع على تحريم كل اسم معبدٍ لغير الله والإجماع حجة قاطعة كما قال تعالى {وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ مَصِيرًا} (115) سورة النساء وقال النبي صلى الله عليه وسلم (إن أمتي لا تجتمع على ضلالة) رواه بن ماجة وصححه الألباني في ظلال الجنة حديث رقم (84) ويكون شركاً أكبر إن أراد عبو دية العبادة وشركاً أصغر إن أراد عبودية الخدمة 0 قوله : حاشا عبد المطلب 0 أي لم يقع الإجماع على تحريمه بل اختلف أهل العلم فيه فقال قوم يجوز التسمية به واستدلوا بقول النبي صلى الله عليه وسلم يوم حنين (أنا النبي لا كذب أنا بن عبد المطلب) والنبي صلى الله عليه وسلم لا يقر

الحرام 0 والقول الآخر وهو الراجح أنه لا يجوز التسمية بعبد المطلب وأما قول النبي صلى الله عليه وسلم هذا فهو من باب الإخبار فهو يخبر عن جدٍ له يسمى عبد المطلب قد مات في الجاهلية ولا يمكن تغيير اسمه بعد موته كقول النبي صلى الله عليه وسلم (يا بني عبد مناف اشتروا أنفسكم من الله لا أغني عنكم من الله شيئاً) متفق عليه فليس هذا إقرارٌ منه بهذا الاسم وإنما إخبار عن نسبٍ مضى لا يمكن تغييره ، ولذلك لم يرد أن النبي صلى الله عليه وسلم سمى أحداً عبد المطلب على اسم جده ولا أذن في ذلك لأحد ولا أقرَّ أحداً على ذلك فتبين أنه كسائر الأسماء المعبدة لغير الله لا يجوز التسمية بها 0

((باب قول الله تعالى : ﴿ وَلِلّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُواْ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَآئِهِ ﴾ الآية . ذكر ابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَآئِهِ ﴾ : يشركون . وعنه : سموا اللات من الإله ، والعزى من العزيز . وعن الأعمش : يدخلون فيها ما ليس منها

مناسبة الباب لما قبله / لما ذكر المصنف أن التعبيد لغير الله شرك عقَّبه بذكر الأسماء الحسنى لأنها هي التي يُعَبَدُ بها فيقال (عبد السميع وعبد العليم وعبد الحكيم ونحو ذلك) لكن المشركين بدل أن يجعلوا أسمائهم معبدةً لله بأسمائه الحسنى أخذوا يشتقون لمعبوداتهم من أسماء الله ليجعلوا التعبيد لها فاشتقوا من الإله اللات وسموا بعبد اللات ، واشتقوا من العزيز العزى وسموا عبد العزى ، واشتقوا من المنان مناة وسموا عبد مناة وهكذا 0

قول الله تعالى {وَلِلّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُواْ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَآئِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} (180) سورة الأعراف أسماء الله حسنى لاشتمالها على كل معان الحسن والكمال المطلق ، حسنةً في القلوب والأسماع 0

وأسماء الله غير محصورة بعدد وأما قول النبي صلى الله عليه وسلم (إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة) متفق عليه فليس المراد الحصر إذ لو أراد الحصر لقال (إن أسماء الله تسعةً وتسعين) لكنه قال (إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة) أي وله غيرها غير أن لهذه التسعة والتسعين مزية على ما عداها من الأسماء أنه من أحصاها أي حفظها وفهم معانيها وعمل بمقتضاها دخل الجنة 0

وقد جاء عدها في رواية الترمذي وجاء عدها عند بن ماجة باختلاف عما هي عليه عند الترمذي فدل على أن العدَّ مدرجٌ في الحديث وليس من قول النبي صلى الله عليه وسلم قال بن كثير : وإنما ذلك كما رواه الوليد بن مسلم وعبد الملك بن محمد الصنعاني عن زهير بن محمد أنه بلغه عن غير واحد من أهل العلم أنهم قالوا ذلك أي أنهم جمعوها من القران كما روي عن جعفر بن محمد وسفيان بن عيينة وأبي زيد اللغوي 0 انتهى 0 فتبين بذلك أن العلماء اجتهدوا في جمعها من القران وأدرجها الرواة في الحديث وإلا فإن الحديث قد ورد في الصحيحين بدون ذكر الأسماء والحكمة من عدم ذكر الأسماء والله أعلم لكي يجتهد الناس في البحث عن أسماء الله ومعانيها ويعملوا بها فيحصل لهم الأجر الوافر بإذن الله 0 قال الشيخ خالد بن عثمان السبت : ولقد بحثت في الكتاب والسنة عن أسماء الله الحسنى فاستخرجت أكثر (280) اسماً وما زال البحث جاري 0 انتهى 0 وهذا يؤيد أن أسماء الله غير محصورةٍ في التسعة والتسعين وأعظم منه تأييداً قول النبي صلى الله عليه وسلم (ما أصاب أحداً قط هم ولا حزن فقال اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك ناصيتي بيدك ماض في حكمك عدل في قضاؤك أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحداً من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور صدري وجلاء حزني وذهاب همي إلا أذهب الله عز وجل همه وأبدله مكان حزنه فرحا) قالوا يا رسول الله ينبغي لنا أن نتعلم هؤلاء الكلمات قال (أجل ينبغي لمن سمعهن أن يتعلمهن) رواه أحمد والبزار وأبو يعلى وابن حبان والحاكم وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب حديث رقم (1822)

قوله تعالى ((فادعوه بها)) أي دعاء مسألة ودعاء عبادة فدعاء المسألة أن تقول مثلاً : يا غفور اغفر لي ويا رحيم ارحمني ويا جبار اجبرني ونحو ذلك ، ودعاء العبادة أن تتعرض لمغفرة الله ورحمته بعمل الصالحات واجتناب المحرمات 0

قوله تعالى ((وذروا الذين يلحدون في أسمائه)) أي اتركوهم لا تتبعوا طريقتهم وليس المراد ترك الإنكار عليهم بل ترك مذهبهم وطريقتهم لأنها طريقة ضالة منحرفة وهي طريقة الجهمية والمعتزلة والأشاعرة ومن نحا نحوهم من أهل التعطيل والتحريف ذلك أن إنكار الصفة التي تضمنها الاسم تعطيل ومنع أن يكون الاسم حسناً ، وهكذا أهل التمثيل والتكييف لأن تمثيل الكامل من كل الوجوه بالناقص من كل الوجوه تنقصٌ للكامل وتحريف لمعاني أسمائه 0 ويمكن أن يكون المراد التهديد : أي اتركوهم لي أنا الذي سوف أعاقبهم عقاباً شديداً على تجرؤهم على أسمائي بالإلحاد 0 والإلحاد الميل والإنحراف ومنه اللحد في القبر لانحرافه إلى جهة القبلة عن سمت الحفر 0 والإلحاد في أسماء الله الميل والعدول بها عن معانيها اللائقة وحقائقها الثابتة إلى الإشراك والتعطيل 0

والإلحاد في الأسماء أنواع :

الأول / إنكار الأسماء جملة أو إنكار بعضها كقوله تعالى {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا*} (60) سورة الفرقان ومن هذا الصنف الجهمية فإنهم أنكروا الأسماء والصفات 0

الثاني / تعطيل الأسماء عن معانيها اللائقة وجحد حقائقها كقول من يقول إنها مجرد أسماء لا تتضمن صفات ولا معان كقول المعتزلة إن الله عليم بلا عليم وقدير بلا قدرة وسميع بلا سمع ...الخ والأشاعرة أثبتوا بعضاً وأنكروا بعضاً آخر 0

الثالث / أن يجعلها دالة على التشبيه فيقول مثلاً : الله سميع بصير والإنسان سميع بصير فمع اتفاق الاسم يلزم اتفاق المسمى فيكون الله مشابهاً للإنسان أو غيره من المخلوقات تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً فلا يلزم من اتفاق الأسماء اتفاق المسميات فإن للفيل يد وللنملة يد وليس بينهما تشابه فهذه في المخلوقات بعضها مع بعض فكيف بالخالق العظيم وقد بين الرب جل وعلا في كتابه أنه لا يشابهه شيء فقال تعالى { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ} (11) سورة الشورى 0

الرابع / أن يشتق من أسمائه أسماء للأوثان كاشتقاق المشركين اللات من الإله والعزى من العزيز ومناة من المنان ونحو ذلك 0

الخامس / وصفه جل وعلا بما لا يليق لأن أسمائه الحسنى تتضمن صفاتٍ حسنى فوصفه بما لا يليق إلحادٌ في أسمائه وصفاته كقول اليهود {إِنَّ اللّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاء } (181) سورة آل عمران وقولهم { يَدُ اللّهِ مَغْلُولَةٌ } (64) سورة المائدة وقولهم { عُزَيْرٌ ابْنُ اللّهِ } (30) سورة التوبة وقول النصارى{ الْمَسِيحُ ابْنُ اللّهِ } (30) سورة التوبة وقولهم : إن لله صاحبة وولداً 0 وكقول اليهود إن الله استراح بعد خلق السماوات والأرض 0 وكقول أهل الحلول والاتحاد أن الله حلَّ في مخلوقاته واتحد معهم 0 إلى غير ذلك من الضلالات والأقاويل المنحرفة التي ينتقصون فيها الرب جل وعلا فما أحلم الله وما أرحمه إذ لم يعاجلهم بهلاك 0

السادس / تسميته بما لم يرد به دليل من كتابٍ ولا سنة كتسمية النصارى له بالأب وكتسميته بالصانع والعقل الفعال وصاحب الفيوضات وغير ذلك من أقوال الفلاسفة والضلال 0 فأسماء الله توقيفية لا نثبتها إلا بدليل 0 وهذا معنى قول الأعمش : يدخلون فيها ما ليس منها 0 كما ذكره المصنف هنا 0

وقد ورد أيضاً الوعيد على الذين يلحدون في آيات الله قال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَن يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} (40) سورة فصلت أي لا يتوقعون أنا لا نراهم ولن نعاقبهم بل نراهم ونعلم ما في ضمائرهم وسوف نعاقبهم بأن نلقيهم في النار يوم القيامة إن أمهلناهم في الدنيا ولم نعاجلهم بالعقوبة 0

وآيات الله كونية وشرعية فآيات الله الكونية هو كل ما في الوجود من مخلوقات ولذا قال الشاعر :

يا عجباً كيف يعصى الإله   أم كيف يجحده الجاحد
وفي كـل شيءٍ له آية   تدل على أنه الواحد

والإلحاد فيها إعتقاد أن مع الله خالقاً آخر ينفرد بخلق بعض المخلوقات أو يشارك الله في خلقه أو يعينه على الخلق ولذا قال تعالى {قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ} (22) سورة سبأ

والإلحاد في الآيات الشرعية تحريف الألفاظ و المعاني أو الكذب على الله أو على رسوله والمعاصي تسمى إلحاداً قال تعالى { وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ} (25) سورة الحج أي في الحرم 0

((باب لا يقال : السلام على الله))

في الصحيح عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : كنا إذا كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في الصلاة قلنا : السلام على الله من عباده ، السلام على فلان ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم (لا تقولوا السلام على الله ، فإن الله هو السلام)

مناسبة الباب لما قبله / لما ذكر المصنف أسماء الله الحسنى وأنها تتضمن صفات الكمال المطلق أراد أن يبين أن الله عز وجل ينزه عن كل عيب ونقص فذكر باب السلام لأن من أسماء الله السلام الذي يتضمن السلامة من كل عيب ونقص المسلم لغيره من الشرور 0

فقال المصنف : باب لا يقال : السلام على الله 0 قال العثيمين : ذلك لأمرين :

الأول / أن مثل هذا الدعاء يوهم النقص في حقه جل وعلا فتدعوا الله أن يسلم نفسه من ذلك ، إذ لا يدعى لشيءٍ بالسلام من شيء إلا إذا كان قابلاً أن يتصف به والله سبحانه منزهٌ عن صفات النقص 0

الثاني / أنك إذا دعوت الله أن يسلم نفسه فقد خالفت الحقيقة لأن الله يُدعى ولا يدعى له فهو غنيٌ عنا لكن يثنى عليه بصفات الكمال مثل غفور سميع عليم ... (القول المفيد324/2)

قوله : في الصحيح 0 تقدم مراراً أن المصنف يطلق هذا اللفظ ويريد به الجنس أي في جنس الكتب الصحيحة وهي صحيح البخاري وصحيح مسلم أو يريد الحديث الصحيح أو أنه غفل عن كونه في أحدهما وهذا يبعد مع تكرار فعله هذا 0

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال كنا إذا كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في الصلاة قلنا : السلام على الله من عباده السلام على فلان وفلان 0 وعند البخاري : السلام على جبريل وميكائيل 0 فقال النبي صلى الله عليه وسلم (لا تقولوا السلام على الله فإن الله هو السلام) متفق عليه أي من أسمائه السلام ومن صفاته السلامة من كل عيب ونقص ، القادر على أن يسلم غيره من كل بلاء وشر 0

وأما معنى قولنا السلام عليكم عند التحية واللقاء ففيها قولان لأهل العلم :

الأول / أن السلام هنا هو الله ويصير المعنى نزلت بركته عليكم ونحو ذلك 0

الثاني / أنه بمعنى السلامة فيدعى له بها عند التحية فكأنه يقول : اللهم سلمهم 0 وقالوا لو كان اسماً لما صحَّ أن يرد نكرة فيقال سلام عليكم وقد قال تعالى {سَلَامٌ قَوْلًا مِن رَّبٍّ رَّحِيمٍ} (58) سورة يس

والراجح / أنه يشمل الأمرين فإن الداعي يختار من أسماء الله ما يناسب حاله فإذا أراد أن يدعوا بالمغفرة قال يا غفور أغفر لي وإذا أراد أن يدعوا بالتوبة قال يا تواب تب عليَّ وهكذا إذا أراد أن يدعوا بالسلامة قال يا سلام سلمني وإذا أراد أن يدعوا لغيره قال سلام عليكم أو السلام عليكم أو عليكم السلام فهي تحية طيبة مباركة كما وصفها ربنا جل وعلا قال تعالى {فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً } (61) سورة النور

ويستفاد من الحديث المبادرة إلى إنكار المنكر وعدم السكوت عليه وأن يعلل لإنكاره فيقول نهيتكم عن كذا لأجل كذا إما يذكر لهم الأدلة من الكتاب والسنة أو العلة التي تقتضي النهي عن هذا الفعل فالنبي صلى الله عليه وسلم لما نهاهم هنا عن قول (السلام على الله) أرشدهم إلى علة النهي وهو (أن الله هو السلام) فلا يصلح أن ندعوا له بالسلام ثم أرشدهم أن يقولوا (التحيات لله ....الخ) التشهد المعروف وهذا يدل على أنه ينبغي على المنكر أن يفتح للناس طرق الخير ولا يسد عليهم طرق الشر ثم يتركهم فهذا يجعلهم يعودون أو يفتح الشيطان لهم طرق شرٍ أخرى 0 والشرع ما حرم شيئاً إلا فتح باب خير يقابله فحرم الزنا وفتح باب الزواج وحرم الربا وفتح باب البيع وهكذا فينبغي أن يذكر المنكر طرق الخير التي يستعيض بها الناس عن طرق الشر والله تعالى أعلم 0

((باب قول : اللهم اغفر لي إن شئت))

في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (لا يقولن أحدكم : اللهم اغفر لي إن شئت ، اللهم ارحمني إن شئت ، ليعزم المسألة ، فإن الله لا مكره له) ولمسلم (وليعظم الرغبة ، فإن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه)

هذا الباب يتبع لأبواب الأسماء والصفات حيث يدل على كمال جود الله وفضله وكرمه وكمال قدرته وكلها مما تدل عليها أسماء الله وصفاته 0

قول المصنف : باب قول : اللهم اغفر لي إن شئت 0 أي حكم ذلك وهو عدم الجواز ثم ذكر الدليل على ذلك وهو في الصحيحين وقول النبي صلى الله عليه وسلم (ليعزم المسألة) أي لا يتردد فيها فقوله (إن شئت) يوحي بالتردد (فإن الله لا مكره له) بخلاف العبد فإنه يعطي من سأله خوفاً منه أو رجاء مصلحة أو لحاجة إليه فيعطيه ما سأله وهو كارهٌ لذلك 0 لكن الله جل وعلا منزهٌ عن هذه الأوصاف كلها فلا أحد يكرهه إن شاء أعطى تفضلاً منه ونعمة وإن شاء منع لحكمة وعلم فلا أحد يجبره على فعل ما لا يريد أو ترك ما يريد فعله 0 ولمسلم (وليعظم الرغبة فإن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه) أي فليطلب أعظم الأشياء التي يرغبها ويريدها ولا يظن أنها تكون ثقيلة على الله فكل شيءٍ هينٌ عند الله جل وعلا كما قال تعالى {إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ} (40) سورة النحل وقال النبي صلى الله عليه وسلم (يد الله ملأى لا تغيضها نفقة سحاء الليل والنهار أرأيتم ما أنفق مذ خلق السماء والأرض ؟ فإنه لم يغض ما في يده) متفق عليه وفي رواية لمسلم (يمين الله ملأى سحاء لا يغيضها شيء)

فتبين بهذا تحريم تعليق الدعاء بالمشيئة لأنه يترتب عليه الأمور التالية :

الأول / الإشعار بأن الله له مكرهٌ على أفعاله وعطائه وأن وراءه من يستطيع أن يمنعه أو يجبره على الفعل 0 وهذا غاية التنقص للرب جل وعلا 0

الثاني / الإشعار بنقص قدرة الله وأنه قد يكون المدعو به عظيماً لا يستطيعه الرب أو يشق عليه وهذا أيضاً انتقاصٌ للرب جل وعلا والله على كل شيءٍ قدير ولا يتعاظمه شيء أعطاه 0

الثالث / الإشعار بأن الداعي غير محتاج لله ولذلك لم يلح في الدعاء ولم يجزم به بل كان كالمتردد في دعاءه ومن ذا الذي يستغني عن ربه طرفة عين أو أقل من ذلك 0

بل الواجب الإلحاح في الدعاء والجزم به وإظهار الفقر والحاجة إلى الرب جل وعلا وسؤاله في كل صغيرة وكبيرة بلا تعاظمٍ ولا احتقار فقد كان الصحابة رضي الله عنهم يسألون الله الشهادة ويسألونه الملح لطعامهم ، فلم يتعاظموا طلب الشهادة ولم يستصغروا طلب الملح وذلك لأنهم يعلمون أن كل نعمةٍ وفضل هم فيها إنما هي من الله فيطلبونها منه جل وعلا 0

والدعاء عبادة عظيمة ينبغي الإكثار منها وقد ورد أن الله جل وعلا يغضب إذا ترك العبد سؤاله ولذلك قال الشاعر :

لا تسألن بني آدم حاجة وسل الذي أبوابه لا تحجب

الله يغضب إن تركت سؤاله وبني آدم حين يسئل يغضب

وينبغي أن يتحرى ساعات الإجابة عند السحر وفي السفر وفي الصوم وفي ساعة الإجابة يوم الجمعة وغيرها ويتجنب موانع إجابة الدعاء من أكل الحرام وارتكاب الإجرام وأن لا يتعدى في الدعاء بأن يدعوا بما لا يمكن شرعاً كأن يدعوا أن يكون نبياً أو بما لا يمكن قدرا كأن يدعوا بالجمع بين النقيضين فهذا من التعدي في الدعاء وهو محرم لأنه يشعر بأن الداعي يستهزئ بالله فإن قصد الاستهزاء أو التنقص للرب جل وعلا كفر وإن لم يقصد ذلك أثم لارتكابه أمراً منكرا قال تعالى {ادْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ} (55) سورة الأعراف

((باب لا يقول : عبدي وأمتي))

في الصحيح عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (لا يقل أحدكم : أطعم ربك ، وضئ ربك ، وليقل : سيدي ومولاي ، ولا يقل أحدكم : عبدي وأمتي ، وليقل : فتاي وفتاتي ، وغلامي)

الحديث في الصحيحين فقد رواه البخاري في كتاب العتق باب كراهة التطاول على الرقيق ورواه مسلم في كتاب الأدب باب حكم إطلاق لفظ العبد والأمة 0 وهذه الألفاظ وإن كان قائلها لا يقصد مشابهة الله في ربوبيته وإلهيته لكن نفس اللفظ فيه تشريك ولذلك نهى عنه النبي صلى الله عليه وسلم فلا يقال للرقيق أطعم ربك أو وضئ ربك أو اسق ربك ونحوها من العبارات لأن هذا اللفظ قد يوهم أن المراد الله ولذلك مُنِعَ منه إجلالاً لمقام الرب جل وعلا وإن كان قائله لا يقصد ذلك قطعاً لأن الله جل وعلا منزهٌ عن الأكل والشرب وغيرهما مما هو جائزٌ على البشر 0 ثم أرشد النبي صلى الله عليه وسلم إلى القول البديل وهذا من عادته عليه الصلاة والسلام أنه إذا أغلق باب منكر فتح بإزائه باب معروف فقال (وليقل سيدي ومولاي) أي أطعم سيدك واسق مولاك ولا يقال أطعم السيد أو المولى لأن هاتين اللفظتين إذا أطلقتا أريد بهما الرب جل وعلا لكن إذا أضيفتا جاز إطلاقها على البشر فيقال سيد بني فلان ومولى بني فلان وهنا جاءت (سيدي ومولاي) مضافة إلى ضمير المتكلم فهنا يصح إطلاقها على المخلوق كالحاكم والوالد والمالك وغيرهم ممن يجب عليه طاعتهم ولا يقولها لمن لا تجب عليه

طاعته خشية أن يكون كاذباً ولا يقولها لمنافق لقول النبي صلى الله عليه وسلم (لا تقولوا للمنافق سيد فإنه إن يك سيداً فقد أسخطتم ربكم) رواه أبو داود والنسائي وغيرهما وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب حديث رقم (2923) والتفاتة النبي صلى الله عليه وسلم من المخاطب إلى المتكلم دليل على أن الكلام يشملهم جميعاً فلا يقول المخاطب (أطعم ربك) ولا يقول المتكلم (أطعمت ربي) ثم انتقل النبي صلى الله عليه وسلم إلى مخاطبة السيد نفسه وأن الكلام يشمله فقال (ولا يقل عبدي وأمتي) لأن في ذلك تشبهاً بالله فالعباد عباده والإماء إماءه وقد يحصل له من التعاظم ما يتجاوز به الحد المشروع فإن النفس لا تتوقف في طلب المزيد من السيادة والتعاظم ولذلك أمرنا النبي صلى الله عليه وسلم أن نحثوا في وجوه المداحين التراب 0 وذلك خشيةً على الممدوحين من التعاظم والبطر 0 ثم أرشده إلى البديل فقال (وليقل فتاي وفتاتي) فإنه لا يتعاظم بذلك ولا يشابه الرب جل وعلا في ندائه 0

وقد اختلف في النهي الوارد في هذا الحديث هل هو للتحريم أم للكراهة على أقوال :

الأول / أنه للكراهة لأنه قد ورد مثلها في نصوص الشرع كقول يوسف عليه السلام{ اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ } (42) سورة يوسف ولم يقل عند سيدك أو مولاك وقوله {وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ} (23) سورة يوسف ولم يقل سيدي أو مولاي وقال النبي صلى الله عليه وسلم (ليس على المسلم في عبده ولا فرسه صدقة) رواه النسائي وصححه الألباني ونحو ذلك من الأدلة فدلَّ على أن النهي الوارد للكراهة وذلك تأدباً مع الله تعالى وإكمالاً للإخلاص والتوحيد له جل وعلا 0

الثاني / أنه للتحريم وليس شرع من قبلنا شرعٌ لنا إذا خالف شرعنا والحديث يحتمل أنه كان قبل التحريم وأنه منسوخ 0

الثالث / التفصيل فإن أضافه لغيره جاز كعبد فلان وأمة فلان ومنه الحديث (ليس على المسلم في عبده ...) ومنه قوله تعالى {وَأَنكِحُوا الْأَيَامَى مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاء يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} (32) سورة النور وإن أضافه لنفسه فإن كان بصيغة الخبر كقول : أطعمت عبدي وكسوت أمتي ونحو ذلك جاز مع غيبة العبد والأمة وأما مع حضورهما فينظر إن ترتب عليه مفسدة تتعلق بالعبد أو السيد منعت وإلا فلا ، وأما إن كان بصيغة النداء نحو يا عبدي ويا أمتي فهذا مكروهٌ أو محرم والظاهر أنه بحسب المفسدة قاله العثيمين 0 (القول المفيد338/2)

والراجح / عندي الأول ، وبه نستطيع الجمع بين الأدلة 0

وقد فصَّل الشيخ محمد العثيمين هذه المسألة وذكر أن حكم هذه الألفاظ كالتالي :
الأول / إذا كانت الإضافة إلى ضمير المخاطب نحو (أطعم ربك وضئ ربك) فيكره ذلك لمحذورين : الأول أن الرب من أسماء الله وهو يطعم ولا يطعم وإن كان المقصود قطعاً غير رب العالمين لكن النهي عنه من باب الأدب مع رب العالمين 0 والثاني أنه يشعر العبد بالإذلال لأنه يكون مربوباً 0

الثاني / إذا كانت الإضافة إلى ضمير الغائب فلا بأس كما في حديث الضالة (حتى يجدها ربها)

الثالث / إذا كانت الإضافة إلى ضمير المتكلم فهو جائز كقول يوسف عليه السلام ((إنه ربي أحسن مثواي))

الرابع / إذا أضيف إلى الاسم الظاهر كقول (هذا رب الغلام) فيجوز ما لم يوجد محظور كما لو ظن السامع أن السيد ربٌ حقيقي خالق ونحو ذلك (القول المفيد 239/2)

قلت ويمكن الاعتراض على الثالث بأن شرع من قبلنا ليس شرع لنا إذا خالف شرعنا وقد ورد في الحديث الالتفاتة إلى المتكلم بعد المخاطب مما يدل على أنهما في الحكم سواء فقال النبي صلى الله عليه وسلم (لا يقل أحدكم أطعم ربك وضئ ربك وليقل سيدي ومولاي) أي أطعمت سيدي ومولاي فدلَّ على أن المتكلم يكره له أن يقول : أطعمت ربي أو وضئت ربي 0   ونستغرب كيف استدل الشيخ على جوازه إذا أضيف إلى ضمير المتكلم بقول يوسف ((إنه ربي أحسن مثواي)) ثم ينكر جوازه للمخاطب مع أن يوسف عليه السلام قد قال لمولى الملك ((أذكرني عند ربك)) فإما أن يستدل بهما جميعاً فيجيزهما وحينئذٍ ينبغي أن يحمل الحديث على كراهة التنزيه ، أو يقول : ليس شرع من قبلنا شرع لنا وحينئذٍ يكون الحكم التحريم ، ولكن يبقى هناك أدلة في شرعنا كقوله تعالى {وَأَنكِحُوا الْأَيَامَى مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاء يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} (32) سورة النور وقول النبي صلى الله عليه وسلم (ليس على المسلم في عبده ولا فرسه صدقة) رواه النسائي وصححه الألباني وحينئذٍ لابد من حمل النهي على التنزيه لا التحريم وبهذا يمكن الجمع بين الأدلة فإنه لا يصار إلى النسخ إلا مع عدم إمكان الجمع ومعرفة الناسخ من المنسوخ وهنا لا دليل على النسخ وقد أمكن الجمع 0

وأما التفريق بحسب الإضافات فلا يظهر أن مقصود الشارع النهي في حالة دون أخرى وإنما المقصود كمال تعظيم الرب جل وعلا وتجنب الألفاظ التي توهم المشاركة وهي لا تختص بحالةٍ دون أخرى والعلم عند الله جل وعلا 0

وقال النووي في شرح مسلم : إنما حقيقة الربوبية لله تعالى لأن الرب هو المالك أو القائم بالشيء ولا يوجد حقيقة هذا إلا في الله تعالى فإن قيل فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم في أشراط الساعة (أن تلد الأمة ربتها) فالجواب من وجهين أحدهما أن الحديث الثاني لبيان الجواز وأن النهي في الأول للأدب وكراهة التنزيه لا التحريم 0 والثاني أن المراد النهي عن الإكثار من أستعمال هذه اللفظة واتخاذها عادة شائعة ولم ينه عن إطلاقها في نادر من الأحوال ......والظاهر أن المراد بالنهي من استعمله على جهة التعاظم والارتفاع لا الوصف والتعريف 0 ا0هـ

((باب لا يرد من سأل بالله))

عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من استعاذ بالله فاعيذوه ، ومن سأل بالله فأعطوه ، ومن دعاكم فأجيبوه ، ومن صنع إليكم معروفاً فكافئوه ، فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه) . رواه أبو داود والنسائي بسند صحيح .

لما ذكر المصنف في الباب السابق النهي عن بعض الألفاظ التي قد يكون فيها مشاركة في الاسم لما هو من خصائص الله ، عقَّب بهذا الباب وهو عدم ردِّ من سأل بالله وذلك تعظيماً للمسئول به وهو الله جل في علاه 0

قول المصنف : باب لا يردُّ من سأل بالله 0 ليس على إطلاقه فمن سأل محرماً كخمرٍ ودخان أو سأل نقوداً ليشتري بها محرماً كآلات عزفٍ نحو ذلك حرمت إجابته وكان المجيب مشاركاً في الإثم ، وهكذا إن سأله ما يضر به كأن يفشي له أسراره أو سأله ما يضر بغيره كأن يضرب فلاناً أو يفشي أسرار فلان أو أن يصنع له ما يؤذيه فهذا كله لا يجوز ، وكذا لو سأله ما يشق عليه كأن يسأله ماله كله أو ما ينقص المال بعده عن ضرورياته وحاجاته فلا يلزمه الإجابة في ذلك 0 وما سوى ذلك من الأموال الفاضلة عن نفقاته وعن نفقات من يعول فينبغي أن يعطي منها من سأله أمراً جائزاً وذلك من كريم الأخلاق التي دعى إليها الإسلام وليس بواجب إلا أن يكون السائل مضطراً ولا معين له من الناس فيجب أن يعطيه بقدر ما يدفع به ضرورته 0

وسؤال الناس تكثراً محرم فعن أبي بشر قبيصة بن المخارق رضي الله عنه قال تحملت حمالة فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم أسأله فيها فقال (أقم حتى تأتينا الصدقة فنأمر لك بها ثم قال يا قبيصة إن المسألة لا تحل إلا لاحد ثلاثة رجل تحمل حمالة فحلت له المسألة حتى يصيبها ثم يمسك ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله فحلت له المسألة حتى يصيب قواماً من عيش أو قال سداداً من عيش ورجل أصابته فاقة حتى يقول ثلاثة من ذوي الحجى من قومه لقد أصابت فلاناً فاقة فحلت له المسألة حتى يصيب قواماً من عيش أو قال سداداً من عيش فما سواهن من المسألة يا قبيصة سحت يأكلها صاحبها سحتاً) رواه مسلم وأبو داود والنسائي وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ما يزال الرجل يسأل الناس حتى يأتي يوم القيامة ليس في وجهه مزعة لحم) متفق عليه وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من سأل الناس أموالهم تكثراً فإنما يسأل جمراً فليستقل أو ليستكثر) رواه مسلم .

وينبغي التعفف عما في أيدي الناس وسؤال الله وحده فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من نزلت به فاقة فأنزلها بالناس لم تسد فاقته ومن نزلت به فاقة فأنزلها بالله فيوشك الله له برزق عاجل أو آجل) رواه أبو داود والترمذي وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب حديث رقم (838) وقال صلى الله عليه وسلم (لأن يأخذ أحدكم أحبله فيأتي بحزمة من حطب على ظهره فيبيعها فيكف بها وجهه خير له من أن يسأل الناس أعطوه أم منعوه) رواه البخاري

وقال صلى الله عليه وسلم (قد أفلح من أسلم ورزق كفافاً وقنعه الله بما آتاه) رواه مسلم وقال صلى الله عليه وسلم (اليد العليا خير من اليد السفلى وابدأ بمن تعول وخير الصدقة ما كان عن ظهر غنى ومن يستعف يعفه الله ومن يستغن يغنه الله) متفق عليه وعن ثوبان رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من تكفل لي أن لا يسأل الناس شيئاً أتكفل له بالجنة فقلت أنا فكان لا يسأل أحد شيئاً) رواه أحمد وأبو داود والنسائي وبن ماجة وزاد فكان ثوبان يقع سوطه وهو راكب فلا يقول لأحدٍ ناولنيه حتى ينزل فيأخذه 0 صححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب حديث رقم (813)

وينبغي أن يسارع المسلم إلى تفقد جيرانه وأقاربه فينظر في المحتاج منهم فيتقدمهم بالبذل والإنفاق ولا يلجئهم إلى المسألة وهذا من كريم الشمائل ومحاسن الأخلاق التي دعى إليها الإسلام ورغب فيها وقد تكاثرت النصوص في الثناء على المنفقين والمتصدقين وبيان ما أعد الله لهم من الأجور الوافرة والنعيم المقيم قال تعالى {مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ وَاللّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاء وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} (261) سورة البقرة وقال تعالى {لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللّهَ بِهِ عَلِيمٌ} (92) سورة آل عمران وقال تعالى {الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ} (274) سورة البقرة وقال تعالى { وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلأنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاء وَجْهِ اللّهِ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ } (272) سورة البقرة وقال تعالى {لِلْفُقَرَاء الَّذِينَ أُحصِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاء مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللّهَ بِهِ عَلِيمٌ} (273) سورة البقرة وقال تعالى {وَلاَ يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً وَلاَ يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} (121) سورة التوبة وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من تصدق بعدل تمرةٍ من كسب طيب ولا يقبل الله إلا الطيب فإن الله يتقبلها بيمينه ثم يربيها لصاحبها كما يربي أحدكم فلوه حتى تكون مثل الجبل) متفق عليه وقال صلى الله عليه وسلم (سبعة يظلهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظله وذكر منهم ورجل تصدق بصدقةٍ فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه) متفق عليه وقال صلى الله عليه وسلم (ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما اللهم أعط منفقاً خلفاً ويقول الآخر اللهم أعط ممسكاً تلفاً) متفق عليه وعن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم (أنفقي ولا تحصي فيحصي الله عليك ولا توعي فيوعي الله عليك) متفق عليه وقال صلى الله عليه وسلم (لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم

به آناء الليل وآناء النهار ورجل آتاه الله مالاً فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار) متفق عليه والأيات والأحاديث في ذلك كثيرة 0

قول المصنف : عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من استعاذ بالله فاعيذوه) الاستعاذة طلب العوذ وهو الاعتصام والالتجاء فإذا استعاذ بالله منك فأعذه إعظاماً لمن استعاذ به ولذلك لما دخل النبي صلى الله عليه وسلم على ابنة الجون قالت : أعوذ بالله منك 0 فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم (لقد عذت بعظيم ، ألحقي بأهلك) رواه البخاري ولكن لو كان هذا المستعيذ قد ارتكب أمراً يوجب حداً أو قصاصاً أو نحو ذلك فإنه لا يعاذ حتى يقام عليه الحد ويقتص منه وهكذا لو ترك واجباً كصلاةٍ أو زكاة فلما أجبر عليها استعاذ بالله من أن يجبر عليها فهذا لا يعاذ بل يجبر على القيام بالواجبات وترك المحرمات 0

تنبيه / قال العثيمين : من استعاذ بملجئٍ صحيح يقتضي الشرع أن يعيذه وإن لم يقل استعيذ بالله فإنه يجب عليك أن تعيذه كما قال أهل العلم : لو جنى أحد جناية ثم لجأ إلى الحرم فإنه لا يقام عليه الحد ولا القصاص في الحرم ولكن يضيق عليه فلا يبايع ولا يشترى منه ولا يؤجر حتى يخرج بخلاف من انتهك حرمة الحرم بأن فعل الجناية في نفس الحرم فإن الحرم لا يعيذه لأنه انتهك حرمة الحرم 0 (القول المفيد350/2)

قوله (ومن سأل بالله فأعطوه) تقدم في أول شرح الباب بيان من يعطى ومن لا يعطى

قوله (ومن دعاكم فأجيبوه) أي دعاكم للمجيء إلى بيته أو غيره للزيارة والأكل عنده ونحو ذلك فأجيبوه لأن ذلك يجبر خاطره ويسلي نفسه بخلاف ما لو لم تجيبوه فإن ذلك يضايقه وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن من حق المسلم على المسلم أن يجيبه إذا دعاه 0 والجمهور على أن إجابة الدعوة مستحبة إلا في العرس خاصة لما ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه كان يقول : شر الطعام طعام الوليمة يدعى إليها الأغنياء ويترك المساكين ومن لم يأت الدعوة فقد عصى الله ورسوله 0 متفق عليه وروى مسلم عن أبي هريرة مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم (شر الطعام طعام الوليمة يمنعها من يأتيها ويدعى إليها من يأباها ومن لم يجب الدعوة فقد عصى الله ورسوله)

ولا تكون إجابة الدعوة في الوليمة واجبة إلا بشروط :

أولاً / أن يكون الداعي مسلماً فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (حق المسلم على المسلم ست . قيل ما هن يا رسول الله ؟ قال إذا لقيته فسلم عليه وإذا دعاك فأجبه وإذا استنصحك فانصح له وإذا عطس فحمد

الله فشمته وإذا مرض فعده وإذا مات فاتبعه) رواه مسلم ويكون مقيداً للمطلق هنا ، وإن دعاه كافر يطمع في إسلامه استحب له أن يجيبه ليرغبه في الإسلام 0

ثانياً / أن لا يكون في مكان الدعوة منكراً لا يستطيع أزالته فإن كان يستطيع إزالته أجاب وأزال المنكر 0

ثالثاً / أن لا تتضمن إجابته إسقاط ما هو أوجب كأن يكون أحد والديه مريضاً ويحتاج إليه بقربه فلا يجيب حينئذٍ لئلا يضيع حق والديه وهو أوجب 0

رابعاً / أن لا يلحقه مشقة ومضرة كأن يكون مكان الدعوة بعيداً يلحقه في الذهاب إليه مشقة ومضرة فلا يلزمه الذهاب إليه 0

خامساً / أن لا يكون الداعي ممن يجب هجره كصاحب بدعة أو صاحب فسوق فلا يجبه إلا أن يطمع بتوبته عند إجابته له 0

وإن كان كسب الداعي حراماً كرباً ونحوه فاختلف في إجابته فقال بعض أهل العلم : لا تجوز لأنها تستلزم أن تأكل طعامه وتعلم أنه قد كسبه من حرام 0 وقال آخرون : إنما إثمه على الكاسب لا على من أخذه بطريق مباح فالرسول صلى الله عليه وسلم كان يجيب دعوة اليهود وهو يعلم أنهم يأكلون الربا والسحت 0

وأما إن علم أن نفس الطعام المقدم إليه مسروق أو مغصوب لم يجز له الأكل منه لأنه حينئذٍ يكون شريكاً ومؤيداً وهو من التعاون على الإثم والعدوان وكذا إن قدَّم له حراماً كخمرٍ وخنزير وهذا لا خلاف في حرمته 0

قوله (ومن صنع إليكم معروفاً فكافئوه ، فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه) رواه أحمد وأبو داود والنسائي وغيرهم وصححه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم (6021)

هذا من كريم الأخلاق التي يحبها الله ورسوله وجاء بها الإسلام وهي المجازاة على الإحسان إحساناً بل قد جاء الدين بأعظم من هذا وهو المجازاة على السيئة إحساناً قال تعالى {ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ} (96) سورة المؤمنون وقال تعالى {وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (34) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ} (35) سورة فصلت وأما عادة اللئام فهي مقابلة الإحسان بالإساءة ولذا قيل (إذا أكرمت الكريم ملكته وإذا أكرمت اللئيم تمردا) وقوله (فكافئوه) يستلزم أن يكون الرد مماثلاً لأن المكافأة هي المجازاة بالمثل والكفء الشبيه والنظير 0 فإذا أهدى إليك هدية فرد له مثلها وإذا ساعدك فساعده وهكذا ، لكن (فإن لم تجدوا ما تكافئونه) لكون المهدى إليه فقير مثلاً أو كان المهدي ملكاً ويعتبر رد الهدية بمثلها استنقاصاً له فالحل حينئذٍ (فادعوا له حتى تروا أنكم قد

كافأتموه) ويكون ذلك مباشرةً بسماعه حتى يعلم أنك قد كافئته ورددت عليه معروفه ، وفائدة الرد حتى لا يكون في العطية مذلة للمعطى فإن المعطى صاحب اليد السفلى والمعطي صاحب اليد العليل فإذا رددت عليه العطية بمثلها كنت في الرد صاحب اليد العليا وهو صاحب اليد السفلى فزال عنك ذل العطية 0 ويكفيه أن يقول : جزاك الله خيراً فعن أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من صنع إليه معروف فقال لفاعله جزاك الله خيرا فقد أبلغ في الثناء) رواه الترمذي وصححه الألباني في مشكاة المصابيح حديث رقم (3024)

والهدايا طيبٌ نشرها بين المؤمنين لقوله صلى الله عليه وسلم (تهادوا تحابوا) رواه البخاري في الأدب المفرد وحسنه الألباني في الإرواء فهي تذهب بالضغائن وتنشر الألفة والمحبة بين الناس 0
ولكن ينبغي على من كان مسئولاً في دائرة حكومية ألا يقبل الهدايا لقول النبي صلى الله عليه وسلم (هدايا العمال غلول) رواه أحمد والبيهقي وصححه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم (7021) وذلك لما لها من أثرٍ في النفوس فقد تجعل هذا العامل يعطي المهدي ما لا يستحقه من حقوق الدولة ويمنعه من يستحقه لأجل تلك الهدية فمنعاً للشرِّ عن نفسه ألا يقبل الهدية ويذكر للمهدي الحديث إعتذاراً له 0 ويمكن أن يشمل الحديث العاملين في الشركات المدنية التي لها تعلقٌ بالجمهور والعلم عند الله 0

((باب لا يسأل بوجه الله إلا الجنة))

عن جابر قال : قال رسول الله (لا يسأل بوجه الله إلا الجنة) رواه أبو داود .

الحديث ضعفه الألباني في مشكاة المصابيح حديث رقم (1944) وقال العثيمين : هذا الحديث ضعفه بعض أهل العلم لكن على تقدير صحته فإنه من الأدب أن لا تسأل بوجه الله إلا ما كان من أمر الآخرة

الفوز بالجنة أو النجاة من النار (القول المفيد 2/ 360) قلت الظاهر أنه يريد على تقدير عدم صحته لأنه إن صح فلا يكون من باب الأدب بل يكون النهي في الحديث للتحريم لا للتنزيه إذ لم يأت ما يعارضه وأما حديث جابر قال لما نزلت ((قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم)) قال اللهم إني أعوذ بوجهك ((أو من تحت أرجلكم)) قال أعوذ بوجهك ((أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض)) قال هذ أيسر هذا أيسر) رواه البخاري وقوله عند منصرفه من الطائف (اللهم أشكوا إليك ضعف قوتي ... وفيه أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ....أن يحل عليَّ غضبك) رواه الطبراني وغيره وضعفه الألباني في جميع كتبه وقول النبي صلى الله عليه وسلم عند دخول المسجد (أعوذ بالله العظيم وبوجهه الكريم وسلطانه القديم من الشيطان الرجيم) رواه أبو داود وصححه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم (4715) فهذه لا تعارض الحديث ويمكن الجمع بينها بأنه سأل ما يقربه من الجنة أو استعاذ مما يباعده عنها فغضب الله يوجب المباعدة عن الجنة فاستعاذ بالله منه واستعاذ من الشيطان لأنه هو الذي يسعى في إدخال العبد إلى النار بما يزينه من الشبهات والشهوات وهذا مانعٌ من دخول الجنة فلذلك استعاذ منه بوجه الله ولم يرد فيما نعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم سأل الله بوجهه أو استعاذ به من أمر دنيوي كأن يسأله السعة في الرزق وكثرة الولد وغير ذلك أو يستعيذ بوجه الله من الفقر مثلاً وإنما كان يسأل ويستعيذ بوجه الله في أمور الآخرة فحينئذٍ يبقى الحديث على دلالته ولو كان ضعيفاً ولا تعارض بينه وبين الأحاديث الأخرى ، وإنما منع من السؤال بوجه الله في أمور الدنيا لأن وجه الله أعظم من أن يسأل به الدنيا لحقارتها عند الله 0

وفي الحديث إثبات صفة الوجه للرب جل وعلا 0

((باب ما جاء في اللّو))

وقول الله تعالى ((يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا)) [آل عمران : 154] وقوله ((الَّذِينَ قَالُواْ لإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَاقُتِلُوا)) آل عمران : 168] الآية .في الصحيح عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (احرص على ما ينفعك ، واستعن بالله ولا تعجزن ، وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كذا لكان كذا وكذا ، ولكن قل : قدر الله وما شاء فعل ، فإن لو تفتح عمل الشيطان)

علاقة الباب بكتاب التوحيد / إن الرضا بما قضاه الله وقدَّره وعدم الاعتراض عليه في قدره من لوازم الإيمان فلا إيمان مطلقاً لمن أنكر القدر ولا إيمان تام لمن اعترض على قضاء الله وقدره بالتسخط وإظهار الجزع ومن

ذلك كلمة (لو) فإنها قد تشتمل على نوعٍ من الاعتراض ولذلك نُهيَ عنها في مثل هذا الموضع فإنه حين يقول (لو فعلت كذا لكان كذا أو لما كان كذا) فكأنه ينكر أن الله عز وجل هو الذي قدر عليه هذا ، ولا راد لما قضاه الله وقدره 0 فحينئذٍ يكون معترضاً وهذا من نواقص التوحيد ولذلك ذكر المؤلف هذا الباب في كتاب التوحيد 0

قول المصنف : باب ما جاء في اللو 0 أي من الأدلة التي تنهى عنها في بعض الأحوال وذلك أن (لو) تستعمل في عدة أوجه منها المباح ومنها المحرم وهذه الأوجه هي كالتالي :

الأول / أن تستعمل في الاعتراض على الشرع كما ذكر الله عز وجل عن المنافقين أنهم قالوا يوم أحد { لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا} (168) سورة آل عمران أي في البقاء في المدينة وهم يعترضون بذلك على أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالخروج لملاقاة الأعداء فهذا محرم لأنهم استعملوها معترضين على الشرع 0

الثاني / استعمالها في الاعتراض على القدر كقوله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِي الأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ اللّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} (156) سورة آل عمران فهذا محرم 0

الثالث / استعمالها في الاحتجاج بالقدر على ارتكاب المعصية كقوله تعالى {سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاء اللّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم حَتَّى ذَاقُواْ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إَلاَّ تَخْرُصُونَ} (148) سورة الأنعام وقال تعالى {وَقَالُوا لَوْ شَاء الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ} (20) سورة الزخرف وهذا احتجاج باطل لا يصح 0

الرابع / أن تستعمل للندم والتحسر كقول النبي صلى الله عليه وسلم (احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز وإن أصابك شيء فلا تقل : لو أني فعلت كان كذا وكذا ولكن قل : قدر الله وما شاء فعل فإن لو تفتح عمل الشيطان) رواه مسلم ومن عمل الشيطان إدخال الحزن والحسرة والندم وربما الاعتراض على القدر فكان الواجب الرضا بالقضاء وإغلاق منافذ الشيطان لأنه يجري من ابن آدم مجرى الدم 0

الخامس / أن تستعمل في التمني وحكمه حكم المتمنى به فإن تمنى خيراً أجر وإن تمنى سوءاً كانت سوءاً ولذا قال النبي صلى الله عليه وسلم (إنما الدنيا لأربعة نفر عبد رزقه الله مالاً وعلماً فهو يتقي فيه ربه ويصل فيه رحمه ويعلم لله فيه حقاً فهذا بأفضل المنازل ، وعبد رزقه الله تعالى علماً ولم يرزقه مالاً فهو صادق النية يقول لو أن لي مالاً لعملت بعمل فلان فهو بنيته فأجرهما سواء ، وعبد رزقه الله مالاً ولم يرزقه علماً فهو يخبط في ماله بغير علم لا يتقي فيه ربه ولا يصل فيه رحمه ولا يعمل لله فيه حقاً فهذا بأخبث المنازل ، وعبد لم يرزقه الله

مالاً ولا علماً فهو يقول لو أن لي مالاً لعملت فيه بعمل فلان فهو بنيته فوزرهما سواء) رواه أحمد والترمذي وبن ماجة وصححه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم (3024)

السادس / أن تستعمل في الخبر المحض فهذا جائز نحو (لو حضرت للدرس لاستفدت) وقول النبي صلى الله عليه وسلم (لو أني استقبلت من أمري ما استدبرت لم أسق الهدي ولجعلتها عمرة) رواه مسلم لما رأى بعض الصحابة تردد في الإحلال فأخبرهم أنه لو كان يعلم أنهم سيترددون لما ساق الهدي ولأحل معهم حتى لا يقع منهم تردد 0 وقال بعض أهل العلم إنه من باب التمني أي : ليتني استقبلت من أمري ما استدبرت حتى لا أسوق الهدي لأحل ، ورجح العثيمين كونها خبراً وقال : إن النبي صلى الله عليه وسلم لا يتمنى شيئاً قدَّر الله خلافه 0 (القول المفيد 2/361-363)

قال المصنف : وقول الله تعالى { يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ } (154) سورة آل عمران إذ كل شيءٍ بقضاء الله وقدره فلماذا الاعتراض على أقدار الله وعلى شرع الله فحين قالوا (لو كان لنا من الأمر شيء) اعتراضٌ على أمر الله ورسوله وأن أمرهم لو كان بأيديهم لما حصل هذا القتل فرأيهم في ظنهم خير من أمر الله ورسوله وهذا من السفه والغباء المطلق والنفاق المتجذر في نفوسهم إذ أن الخير كل الخير في أوامر الله ورسوله وطاعة الله ورسوله هي السعادة كل السعادة في الدنيا والآخرة ففيها صلاح الدنيا والآخرة وفي معصية الله ورسوله الشقاء والتعاسة في الدنيا والآخرة فرد الله عليهم بلو ولا كن فرق بين لو القوم ولو الرب فلو المنافقين في الاعتراض على أمر الله وقدره ولو الرب في بيان حقيقة القدر ومآل الأمر 0

وقوله تعالى {الَّذِينَ قَالُواْ لإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَؤُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} (168) سورة آل عمران فجمعوا بين معصية الله ورسوله بترك الجهاد وبين تحريض غيرهم على معصية الله ورسوله بترك الجهاد وبين الاعتراض على أوامر الله وأقداره فبين لهم الرب جل وعلا أن القعود لا يدفع الأجل فإذا جاءكم الأجل وأنتم قاعدين فردوه إن كنتم صادقين أن القعود يؤخر الأجل ، ولكن لن تستطيعوا ذلك فإن الأعمار آجالٌ مؤجلة لا يقدمها إقدام الأبطال في ساحات المعارك ولا يؤخرها تخلف الجبناء مع النسوان في قعر البيوت 0

قوله : وفي الصحيح 0 أي صحيح مسلم فقد رواه في كتاب القدر باب في الأمر بالقوة وترك العجز ونصه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كلٍ خير) ذكر العثيمين رحمه الله أن المراد قوة الإيمان لا قوة البدن وقال : إن القوى وصف عائد على موصوف وهو المؤمن فالمراد القوي في إيمانه أو ما يقتضيه 0 انتهى 0 وفسر قوله ما يقتضيه

بأنه الأعمال الصالحة كالجهاد في سبيل الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والحزم في العبادات (القول المفيد 366/2) قلت وهذه الأعمال الصالحة تحتاج إلى قوة بدن وكلما زادت قوة المؤمن في بدنه زادت قدرته على هذه الأعمال ، وقوة البدن منها ما هو من أصل الخلقة فيخلق الله عز وجل أقواماً ذوو طولٍ وضخامة وقوة أجسام كعاد كما قال تعالى على لسان هود{ وَاذكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُواْ آلاء اللهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } (69) سورة الأعراف وقال تعالى {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (6) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (7) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ} (8) سورة الفجر فهذا لا شك أنه غير داخلٍ في الحديث لأنه لا دخل للعبد فيه وإنما يحاسب الله العبد على عمله 0 والقسم الثاني من قوة البدن مكتسبة من خلال التمارين الرياضية مثلاً وبناء الأجسام ونحو ذلك فهذا من سعى إليها يريد أن يكون قوياً في بدنه ليخافه أعداء الله وليكون نشيطاً وقوياً في الجهاد وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ونحوها من العبادات التي تحتاج إلى قوةٍ بدنية فإنه يؤجر على هذه النية ويكون داخلاً في الحديث والله تعالى أعلم 0 وها نحن نرى أعداء الله من الرافضة يملئون صالات التمارين الرياضية المقوية وإذا سئلوا قالوا نتجهز حتى إذا خرج المهدي قمنا بالقتال معه ونحن أقوياء ، ولا شك أن أهل السنة أولى بذلك فهم أهل الدين الحق فينبغي أن يسعوا إلى نصرته بكل طريق وقد قال تعالى {وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ } (60) سورة الأنفال ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم (وفي كلٍ خير) حتى لا يتوهم متوهم أنه لا خير في المؤمن الضعيف بل فيه خير لنفسه وللناس ولكن المؤمن القوي أفضل فهذا كقوله تعالى { لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} (10) سورة الحديد

قوله (احرص على ما ينفعك) في أمر دينك ودنياك واحذر مما يضرك ولا ينفعك كالتدخين والمخدرات وسائر المنكرات فلو كان فيها خير لأباحها الشرع ولكن لا خير فيها (واستعن بالله ولا تعجز) أي أقدم على الأعمال النافعة ولا تكن كسولاً ضعيفاً متعاجزاً بل أقدم وابذل الأسباب وكن مستعيناً بالله في أمورك كلها فنعم المعين ونعم النصير ، ومن كان الله معه فلماذا يضعف ويتردد ، ولا شك أن الضعف والتردد طبيعة في الإنسان خاصة إذا فشل في أول أمره ولاكن ينبغي أن يزيل هذا الضعف والتردد ويعيد الكرة بعد الكرة ويستعين بالرب جل وعلا ولا شك أن النصر مع الصبر ومن أكثر طرق الأبواب فتح له وقد روي أن الكسائي طلب علم النحو فصعب عليه فهم بتركه وبينما هو جالس إذ رأى نملة تحمل طعاماً فتصعد به الحائط ثم تسقط ثم تعود ثم تسقط ثم تعود مراراً حتى صعدت الحائط فأخذ من ذلك درساً في ترك العجز وواصل في

الطلب حتى صار إماماً في النحو يرجع الناس إليه فيه 0 وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم (الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت . والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله) رواه الترمذي وابن ماجه وضعفه الألباني
قال (وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت لكان كذا وكذا ولكن قل : قدر الله وما شاء فعل 0 فإن لو تفتح عمل الشيطان) فهذا هو الشاهد من الحديث وذلك أن اعتراضك على قضاء الله وقدره لن ينفعك شيئاً ولن يرد المقضي بل قد يكون سبباً لدخول الشيطان عليك من هذا الباب فيدخل عليك الحزن والحسرة والندم والتعاجز عن الاستمرار في العمل وأن حليفك الفشل ونحو ذلك من مداخل الشيطان 0 وينبغي الصبر والمثابرة على الأعمال الصالحة والنافعة مع الاستعانة بالله والرضا بما قدره ، وقد قال السلف : إنا وجدنا خير عيشنا بالصبر وقال علي رضي الله عنه : الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد وقال أحمد بن حنبل : ذكر الله الصبر في تسعين موضعاً من كتابه 0 والصبر يشمل الصبر على طاعة الله والصبر عن معصيته والصبر على أقداره فمن حقق ذلك دخل في قوله تعالى {إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ} (10) سورة الزمر

((باب النهي عن سب الريح))

عن أبي بن كعب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (لا تسبوا الريح ، فإذا رأيتم ما تكرهون فقولوا : اللهم إنا نسألك من خير هذه الريح ، وخير ما فيها ، وخير ما أمرت به ، ونعوذ بك من شر هذه الريح ، وشر ما فيها ، وشر ما أمرت به) صححه الترمذي

لو أن المؤلف أتى بهذا الباب بعد باب سب الدهر لكان أولى لأن حكمه حكم سب الدهر إذ سبهما سبٌ لمن يصرفهما

عن أبي بن كعب صحابي جليل من أعلم الصحابة بالقران فهو أحد الأربعة الذين أمر النبي صلى الله عليه وسلم بأخذ القران عنهم وقال إن الله أمرني ان أقرأ عليك ((لم يكن الذين كفروا)) فقال أبي : وسماني لك يا رسول الله قال نعم فبكى وسأله النبي صلى الله عليه وسلم أي آية في كتاب الله أعظم فكان جوابه موفقاً ومسدداً حيث ذكر أنها آية الكرسي وكان يصلي بالناس التراويح زمن عمر بأمر منه وفضائله جمة كثيرة 0

قوله (لا تسبوا الريح) الريح مفرد وجمعها رياح وهي تهب في اتجاهات مختلفة فمنها الصبا وهي التي تهب من المشرق ومنها الدبور وهي التي تهب من المغرب وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم (نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور) متفق عليه ومنها المثيرة والنكباء وغيرها ، وهذه الرياح يصرفها الرب كيف يشاء فأحياناً تكون رحمة تسوق السحاب وتبشر بالغيث وتلقح النبات وأحياناً تكون عذاباً وهي الريح العقيم التي لا خير فيها وأحياناً تلطف الجو وتنعش المكان وأحياناً تكون أعاصير تدمر البيوت وتقتلع الأشجار وربما حصل معها فياضانات وأحياناً تكون مغبرة وأحياناً تكون حارة جافة وهي السموم وأحياناً رطبة وأحياناً تكون باردة وهي الزمهرير وهكذا يقلبها الله كيف يشاء بحكمة وعلم وقدرة وهي من جنود الله فيرسلها نصراً لأقوام كما نصر نبيه بالصبا يوم الأحزاب فكانت قوية شديدة البرد فاقتلعت خيام الكفار وأكفأت قدورهم وشلت أطرافهم ببرودتها ففروا هاربين وتكون عذاباً على آخرين كما أهلك الله عاداً بها ، وجعلها بركة على أقوام كما كانت تحمل سليمان عليه السلام إلى حيث يشاء فسبحان مصرفها العظيم ولذلك لا يجوز سبها لأن سبها يعود على خالقها ومصرفها ولذلك أرشد النبي صلى الله عليه وسلم إلى القول الرشيد عند رؤية ما يكره منها فقال (فإذا رأيتم ما تكرهون فقولوا : اللهم إنا نسألك من خير هذه الريح وخير ما فيها وخير ما أمرت به ونعوذ بك من شر هذه الريح وشر ما فيها وشر ما أمرت به) رواه الترمذي وصححه الألباني في مشكاة المصابيح حديث رقم (1518) والحديث يدل على أن نفس الريح فيها خير وشر وأنها تحمل معها خيراً وشراً غير ما في ذاتها فما في ذاتها من الخير نحو أن تكون لطيفة تبرد الجو وتنعش النفس وتنشطها ، وما في ذاتها من الشر نحو أن تهدم البيوت وتقتلع الأشجار وتفيض البحار والأنهار 0 ومثال ما تحمله من الخير لقاح النبات والثمار وإزالة الأشياء الضارة من الأرض وتنظيفها ، ومثال ما تحمله من الشر الأغبرة التي تسبب الأمراض كالزكام والربو وضيق التنفس ونحو ذلك وقوله (وخير ما أمرت به)(وشر ما أمرت به) يشمل ذلك كله فإنها لا تنفع ولا تضر بذاتها ولا بما فيها إلا بإذن الله وأمره ويشمل أيضاً ما أمرت به من الخير سوق السحاب وإثارته ، وما أمرت به من الشر التدمير والإهلاك 0

وحين نلتجئ إلى الرب جل وعلا في طلب خير هذه الريح ونستعيذ به من شرها فنحن قد حققنا أمرين عظيمين :

الأول كمال التوحيد بصدق اللجأ إلى الرب جل وعلا وكمال التوكل عليه وعدم الاعتراض عليه في تصريف مخلوقاته 0

والثاني السلامة من الشرور وتحصيل الخير وذلك لأن الله جل وعلا هو مصرفها ويملك تغييرها من الشر إلى الخير على حسب ما تقتضيه حكمته وعلمه 0

ولو أننا قمنا بسب الريح لخسرنا كمال التوحيد ولم نسلم من شرور هذه الريح ولم نجتلب ما فيها من خير ، حين وجهنا السب إلى مخلوق لا يملك حولاً ولا قوة وليس بيده ضر ولا نفع فشتان بين الفريقين 0

باب قول الله تعالى ﴿ يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ ﴾ وقوله ﴿ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ﴾ الآية [الفتح 6]

قال ابن القيم في الآية الأولى : فسّر هذا الظن بأنه سبحانه لا ينصر رسوله ، وأن أمره سيضمحل ، وفسر أن ما أصابهم لم يكن بقدر الله وحكمته ، ففسر بإنكار الحكمة ، وإنكار القدر ، وإنكار أن يتم أمر رسوله صلى الله عليه وسلم ، وأن يظهره الله على الدين كله . وهذا هو الظن السوء الذي ظنه المنافقون والمشركون في سورة الفتح ، وإنما كان هذا ظن السوء ؛ لأنه ظن غير ما يليق به سبحانه ، وما يليق بحكمته وحمده ووعده الصادق ، فمن ظن أنه يديل الباطل على الحق إدالة مستقرة يضمحل معها الحق ، أو أنكر أن يكون ما جرى بقضائه وقدره أو أنكر أن يكون قدره بحكمة بالغة يستحق عليها الحمد ، بل زعم أن ذلك لمشيئة مجردة ، فذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار 0 وأكثر الناس يظنون بالله ظن السوء فيما يختص بهم وفيما يفعله بغيرهم ، ولا يسلم من ذلك إلا من عرف الله وأسماءه وصفاته وموجب حكمته وحمده .فليعتن اللبيب الناصح لنفسه بهذا ، وليتب إلى الله ويستغفره من ظنه بربه ظن السوء ، ولو فتشت من فتشت لرأيت عنده تعنتاً على القدر وملامة له ، وأنه كان ينبغي أن يكون كذا وكذا ، فمستقل ومستكثر ، وفتش نفسك : هل أنت سالم ؟

فإن تنج منها تنج من ذي عظيمة وإلا فإني لا إخالك ناجياً

يمكن أن نسميه باب عاقبة من ظن بالله ظن السوء

قوله تعالى {ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لاَ يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} (154) سورة آل عمران هذه الآية نزلت في غزوة أحد حين انهزم المسلمون ثم أنزل الله السكينة على المؤمنين بينما شُغِلَ المنافقون بالفزع والخوف على أنفسهم من القتل وذلك أنهم ما خرجوا لطلب الجنة ورضوان الله وإنما رياءً ونفاقاً وقد يكون بعضهم في ترددٍ وشك فلمَّا رأى الهزيمة استقر النفاق في قلبه ولذلك صاروا {يَظُنُّونَ بِاللّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ} أن الله لا ينصر نبيه ولا يظهر دينه وأن أمر الإسلام سيضمحل وينقضي ونحو ذلك من الظنون الفاسدة المعارضة لأمر الله شرعاً وقدراً ولذلك صاروا {يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ} هذا يظهرونه للنبي صلى الله عليه وسلم بصيغة سؤال وحقيقته اعتراض وهذا من روغانهم وكذبهم ونفاقهم فأمره الله أن يرد عليهم بقوله {قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ} ثم بيَّن الرب جل وعلا لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم ما تكنه صدورهم فقال{ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لاَ يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا}أي لو كان أمر الإسلام سيظهر وأن النبي سينصر لما هزمنا في هذه المعركة وقتل منا من قتل وهذا اعتراضٌ على أمر الله القدري وأيضاً يتضمن كلامهم اعتراضاً على أمر الله الشرعي فقولهم{ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ} يحتمل أنهم يريدون لو كان أمر المعركة وُكِّل إلينا لما هزمنا وقد صرح عبد الله بن أبي بن سلول بذلك فقال : يعصيني محمداً ويطيع الصغار والشبان وانسحب بثلث الجيش ، وقد نزل في عصيان الأمر الشرعي آية أخرى وهي قوله تعالى {الَّذِينَ قَالُواْ لإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَؤُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} (168) سورة آل عمران فقولهم : لو أطاعونا يستلزم معصية الرسول فهم إما أن يطيعوهم وإما أن يطيعوا الرسول وهذا قاله القاعدون الذين انسحبوا من المعركة قبل بدءها يقولونه لإخوانهم المنافقين الذين لم ينسحبوا خوفاً على سمعتهم ونحو ذلك أو كان عندهم تردد وشك فقوي ذلك بعد الهزيمة ونماه أولئك القاعدون بأقوالهم وما ذلك إلا ابتلاءً من الله {لِيَمِيزَ اللّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىَ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} (37) سورة الأنفال ولقد أحدث المنافقون خلخلة في صفوف المجاهدين بانسحابهم قبيل المعركة في أصعب الظروف وما بثوه في نفوس المؤمنين من الوهن والضعف بأفعالهم وأقوالهم وهكذا هم في سائر العصور والأزمنة متى ما استطاعوا زعزعة أهل الإيمان بقول أو فعل ابتدروا إليه ومتى كانوا خائفين أظهروا ولائهم وطاعتهم

فلذلك كان بلائهم وشرهم على المسلمين أشد من العدو الخارجي وكان جزائهم في الآخرة أشد العذاب كما قال تعالى {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا} (145) سورة النساء وسواءً أظهروا النفاق أو أبطنوه أو تسموا بأسماء أخر كالعلمانية والليبرالية والحداثة وغيرها فالمعنى واحد والخطر واحد والجزاء واحد وحسبنا الله ونعم الوكيل 0

ثم أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يبين لهم بالحجج العقلية إذ أنهم لا يؤمنون بالأدلة النقلية فقال تعالى {قُلْ فَادْرَؤُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} فأنتم تعلمون أنكم ستموتون وأنتم قاعدون في بيوتكم كما يموت المجاهد فردوا الموت عن أنفسكم إن كنتم صادقين أن الموت يقدمه الخروج للجهاد فليس الأمر كما تظنون بل هي آجالٌ مؤجلة لا تقدمها شجاعة الأبطال المغامرين في ساحات الوغى ولا يؤخرها جبن القاعدين في بيوتهم كالنسوان بل هي آجالٌ مؤجلة وفي أماكن محددة كما قال تعالى { وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} (34) سورة لقمان ولذلك قال في الآية التي ذكرها المصنف{ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ} أي لو كان هذا المقتول في ساحة المعركة قاعداً في بيته لم يخرج للجهاد لجعلنا له أمراً يضطره للظهور والخروج من بيته ولو كان كارهاً حتى يقتل في مكانه الذي قتل فيه ، ولكن الأمر ليس كما تعتقدون من أن الله سيخذل نبيه ويهزم أوليائه وإنما قضى بالهزيمة في أحد لحكم سامية وأسرار عظيمة عالية بين بعضها في كتابه ومن ذلك{ وَلِيَبْتَلِيَ اللّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ} أي يختبركم حتى يظهر مكنونات نفوسكم وما تحمله صدوركم وذلك أن بعض الناس مذبذب لا مؤمن حقاً ولا منافق صدقاً فإذا جاء الابتلاء فحينها سيظهر الأقوى في صدره ويكون هو الغالب وحينها يجازى به فإن كان قوي الإيمان ظهر إيمانه وبعد عنه النفاق بالكلية و لذلك قال{وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ}وليس ذلك راجع له وإنما بتوفيق الله تعالى وبعلمه بمكنونات الصدور ، وإن كان الأبعد النفاق أقوى في صدره غلب عليه في ساعة الابتلاء وزال عنه الإيمان كما قال تعالى {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ} (11) سورة الحج رجع إلى الكفر والنفاق وظهر ما كان يخفي عليه في صدره من النفاق ، فالظهور والخفاء إنما هو بالنسبة للشخص نفسه ، وأما الله جل وعلا فهو المطلع على مكامن الصدور ولا يخفى عليه منها شيء ولذلك قال{ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} وقد كان الصحابة الكرام يخافون النفاق على أنفسهم لما يعلمون من خفاءه على بعض أصحابه ولذلك قال بن أبي مليكة : أدركت ثلاثين من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كلهم يخاف النفاق على نفسه 0 وورد أن عمر بن الخطاب قال لحذيفة رضي الله عنهم أسألك بالله هل عدني رسول الله من المنافقين فقال : لا ولا أزكي بعدك أحداً 0

قوله تعالى {وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ مَصِيرًا} (6) سورة الفتح قال النبي صلى الله عليه وسلم (يقول الله تعالى : أنا عند ظن عبدي بي) رواه البخاري ومسلم وأحمد وغيرهم وزاد أحمد (إن ظن خيراً فله ، وإن ظن شراً فله) صححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب حديث رقم (3386) وانظر صحيح الجامع حديث رقم (4315) وعند الطبراني (فليظن بي ما شاء) صححه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم (4316) وقال صلى الله عليه وسلم (لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله عز وجل) رواه مسلم وأبو داود وبن ماجة وذلك أن الشيطان يريد أن يهلكه ولو في آخر لحظةٍ من حياته فيجعله يسيء الظن بربه أنه لا يغفر له ولا يتوب عليه ولا يرحمه وأن الله سيدخله النار ولن يقبل أعماله لكثرة ذنوبه وقد يظن والعياذ بالله أن الله لن يعدل معه وأنه سيجعل أعماله هباءً منثوراً بلا جرمٍ ولا ذنب وهذا كله من سوء الظن بالله 0 فعلى المؤمن أن يحسن الظن بالله وأنه رحيم غفور يقبل التوبة ويعفو عن السيئات وأن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً ونحو ذلك مما فيه إحسان الظن بالله جل وعلا 0 ولكن المنافقين والمشركين لم يحسنوا الظن بالله بل ظنوا بالله ظن السوء وما ذلك إلا لما تأصل في نفوسهم من بغض دين الله وبغض رسوله فكانوا يظنون أن الله لن ينصر دينه وسيخذل نبيه وأن أمر الإسلام سيضمحل وينتهي ولكن ردَّ الله عليهم بقوله ((عليهم دائرة السوء)) أي الهزيمة النكراء والإضمحلال سيكون لهم والغنيمة والنصر سيكون للمؤمنين 0 والدائرة مفرد وجمعها دوائر وذلك أن الصراع بين الحق والباطل يكون مثل الدائرة التي تدور فمرةً تتجه يميناً ويكون النصر للحق وأهله ومرةً تتجه شمالاً ويكون النصر للباطل فإذا قيل دارت عليهم الدائرة أو الدوائر فمعناه أن الهزيمة والخذلان وقع عليهم وهنا في الآية يخبر الرب جل وعلا وقوله الحق أن الدائرة ستكون على الكافرين وأن الهزيمة والخذلان مآلهم فظنهم في غير محله وهذا في الدنيا وأما في الآخرة فكما قال تعالى {وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ مَصِيرًا} فشر الدوائر دارت عليهم بسبب ظنونهم السيئة 0 وقد أبان الله لهم في كتابه حلاً هو الحل الوحيد الذي يستطيعون به تحقيق ظنونهم السيئة فقال تعالى {مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاء ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ} (15) سورة الحج أي فليتعاطا الأسباب التي توصله إلى السماء ثم ليقطع النصر النازل للإسلام وأهله وللنبي صلى الله عليه وسلم من السماء بحيث يغلق الباب الذي ينزل منه النصر ولن يستطيعوا هذا فهو من باب التعجيز ، وقيل إن معنى الآية فلينتحر إذ أن نصر الله نازلٌ لا محالة ولن يطفئ غيظ هذا المشرك والمنافق إلا الموت 0

ثم ذكر المصنف كلام بن القيم رحمه الله وهو واضح لكنه اختصره وقد أتى به في فتح المجيد كاملاً انظر ص531 وما بعدها ، وأصله في زاد المعاد في هدي خير العباد (2/103-106) ذكره عقب كلامه عن غزوة أحد في مبحث الحكم والغايات التي كانت فيها وقد ذكر جملةً من الأشياء التي يكون فيها ظن سوءٍ بالله فراجعه 0

واعلم أن كل ما خالف أسماء الله وصفاته وشرعه وقدره من الظنون فهو ظن سوء 0

((باب ما جاء في منكري القدر))

وقال ابن عمر : والذي نفس ابن عمر بيده ، لو كان لأحدهم مثل أحد ذهباً ، ثم أنفقه في سبيل الله ما قبله الله منه حتى يؤمن بالقدر . ثم استدل بقول النبي صلى الله عليه وسلم (الإيمان : أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره) رواه مسلم وعن عبادة بن الصامت أنه قال لابنه (يا بني إنك لن تجد طعم الإيمان حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك ، وما أخطأك لم يكن ليصيبك ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (إن أول ما خلق الله القلم ، فقال له : اكتب ، فقال : رب ، وماذا أكتب ؟ قال : أكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة) يا بني سمعت رسول الله صلى الله وسلم يقول (من مات على غير هذا فليس مني) وفي رواية لأحمد (إن أول ما خلق الله تعالى القلم ، فقال له : اكتب ، فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة) وفي رواية لابن وهب : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (فمن لم يؤمن بالقدر خيره وشره أحرقه الله بالنار) وفي المسند والسنن عن ابن الديلمي قال : أتيت أُبيّ بن كعب ، فقلت : في

نفسي شيء من القدر ، فحدثني بشيء لعل الله يذهبه من قلبي ، فقال : لو أنفقت مثل أحد ذهباً ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر ، وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك ، وما أخطأك لم يكن ليصيبك ، ولو مت على غير هذا لكنت من أهل النار . قال : فأتيت عبد الله بن مسعود ، وحذيفة بن اليمان ، وزيد بن ثابت ، فكلهم حدثني بمثل ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم حديث صحيح رواه الحاكم في صحيحه .

إن الإيمان بالقدر من أركان الإيمان بالله فلا يتم إيمان العبد حتى يؤمن بالقدر خيره وشره من الله وله أربع مراتب هي :

الأولى / العلم : وهو الإيمان بأن الله يعلم ما كان وما يكون وما سيكون وأنه لا يخفى عليه شيء من أمر الدنيا والآخرة 0

الثاني / الكتابة : وهو الإيمان بأن الله قد كتب كل شيء مما كان ومما سيكون في اللوح المحفوظ 0

ودليل المرتبتين قوله تعالى {أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} (70) سورة الحج

وأما قوله تعالى {يَمْحُو اللّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ} (39) سورة الرعد فهذا المحو والإثبات ليس مما في اللوح المحفوظ ولذا ذكر اللوح المحفوظ بعدها وهو أم الكتاب لأن هناك كتباً تكتب فيها المقادير فهناك الكتابة العمرية وهي التي تكون على الجنين في بطن أمه كما في حديث عبد الله بن مسعود قال حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق (إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً ثم يكون في ذلك علقة مثل ذلك ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات بكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد) متفق عليه وهناك كتابة حولية وتكون في ليلة القدر كما قال تعالى {إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ (3) فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ} (4) سورة الدخان وهناك التقدير اليومي كما قال تعالى {يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ} (29) سورة الرحمن فمن شأنه أنه يغني ويفقر ويعز ويذل ويحي ويميت ونحو ذلك من الأقدار التي تحصل يومياً فهذه الكتابات العمرية والحولية واليومية هي التي يكون فيها المحو والإثبات كما قال ذلك أهل العلم وأما ما في اللوح المحفوظ فلا يبدل كما في قوله صلى الله عليه وسلم (رفعت الأقلام وجفت الصحف) رواه أحمد والترمذي وصححه الألباني في مشكاة المصابيح حديث رقم (5302)

وليس الإيمان بالقدر معناه ترك العمل وترك الأسباب بل على الإنسان أن يعمل كما قال صلى الله عليه وسلم للصحابة حين قالوا له : أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل فقال (اعملوا فكل ميسر لما خلق له) متفق عليه

الثالث / المشيئة : وهي أنه لا يقع شيء إلا بمشيئة الله وإرادته ولو لم يرده الله لم يقع قال تعالى { وَلَوْ شَاء رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ } (112) سورة الأنعام

الرابع / الخلق : وهو الإيمان بأن كل شيءٍ مخلوق لله كما قال تعالى{اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ } (62) سورة الزمر

وقد جمعها الناظم بقوله :

علمٌ كتابة مولانا مشيئته   وخلقه وهو إيجادٌ وتكوينُ

وهناك مسائل كثيرة في باب القدر قد نستعرض بعضاً منها في هذا الباب ولكن ليعلم المؤمن أن القدر سر الله في خلقه وأن الله لم يقدر شيئاً إلا لحكمٍ بالغة قد تخفى على الكثير فينبغي الحذر من الخوض في القدر بغير علم فإنه مزلق خطير ، فعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على أصحابه وهم يختصمون في القدر فكأنما يفقأ في وجهه حب الرمان من الغضب فقال (بهذا أمرتم أو لهذا خلقتم تضربون القرآن بعضه ببعض بهذا هلكت الأمم قبلكم) رواه بن ماجة وصححه الألباني وينبغي الحذر من وساوس الشيطان فيه فقد يأتي للشخص فيقول : لماذا قدَّر الله على هذا الفقر وعلى الآخر الغنى وعلى فلان الصحة وعلى الآخر المرض وعلى فلان أن يترأس وعلى الآخر أن يرأس ...الخ لأجل أن يشكك في عدل الله أو غير ذلك فيقال له أخسأ يا عدو الله فما فعل ذلك ربنا إلا لحكمة بالغة قد نعلمها وقد لا نعلمها ولربما لو كان هذا الفقير غنياً والمريض صحيحاً والمرؤوس رئيساً لكفروا وطغوا وتجبروا فكان من حكمة الله أن جعلهم كذلك حتى تبقى لهم آخرتهم يتنعمون فيها إلى غير ذلك من الحكم والأسرار فاصطحب معك في باب القدر قوله تعالى{إِنَّ اللّهَ لاَ يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} (44) سورة يونس وقوله {إِنَّ اللّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا} (40) سورة النساء وقوله { وَأَنَّ اللّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ} (182) سورة آل عمران

وقد اختلف الناس في القدر على ثلاث طوائف :

الطائفة الأولى / الجبرية كالجهمية وغيرهم الغالين في إثبات القدر حتى سلبوا العبد المشيئة والإرادة وقالوا هو كالريشة في مهب الريح لا مشيئة له مطلقاً وهو مجبور على ما يفعله سواءً من الطاعات أو المعاصي 0 وهذا اتهامٌ لله تعالى بالظلم حيث يعاقب العاصي وهو الذي أجبره على فعل المعاصي ويثيب المطيع وهو الذي أجبره على فعل الطاعة ، فسبحان الله وتعالى الله عما يقولون علواً كبيراً 0 واستدلوا بمثل قوله تعالى {اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ } (62) سورة الزمر وقوله{فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللّهَ رَمَى } (17) سورة الأنفال وقالوا إن هذه الآيات تدل على أن عمل الإنسان مخلوقٌ لله وحينئذٍ لا قدرة للإنسان عليه بل هو مجبور عليه ولذا أضاف الله القتل والرمي إلى نفسه في الآية

والجواب : أن كون عمل الإنسان مخلوق لله لا يلزم منه أن يكون الإنسان مجبور عليه ، ولكن لما كان الإنسان يعمل بإرادته واختياره وقدرته ، والإرادة والاختيار والقدرة كلها مخلوقة لله ، صار عمله مخلوقاً لله ولو شاء الله لسلبه إياها فأصبح بلا إرادة ولا اختيار ولا قدرة فكيف يعمل ولذلك نسب الله الفعل إلى نفسه أي هو الذي أقدركم عليه وأراد وقوعه منكم وسدد ضربكم ورميكم 0 قال بن سعدي في تفسيره : { فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ } بحولكم وقوتكم { وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ } حيث أعانكم على ذلك بما تقدم ذكره.{ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى } وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم وقت القتال دخل العريش وجعل يدعو الله، ويناشده في نصرته،ثم خرج منه، فأخذ حفنة من تراب، فرماها في وجوه المشركين، فأوصلها الله إلى وجوههم،فما بقي منهم واحد إلا وقد أصاب وجهه وفمه وعينيه منها،فحينئذ انكسر حدهم، وفتر زندهم، وبان فيهم الفشل والضعف، فانهزموا.0 فيقول تعالى لنبيه: لست بقوتك حين رميت التراب أوصلته إلى أعينهم، وإنما أوصلناه إليهم بقوتنا واقتدارنا. انتهى وقال في الجلالين : فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ" بِبَدْرٍ بِقُوَّتِكُمْ "وَلَكِنَّ اللَّه قَتَلَهُمْ" بِنَصْرِهِ إيَّاكُمْ "وَمَا رَمَيْت" يَا مُحَمَّد أَعْيُن الْقَوْم "إذْ رَمَيْت" بِالْحَصَى لِأَنَّ كَفًّا مِنْ الْحَصَى لَا يَمْلَأ عُيُون الْجَيْش الْكَثِير بِرَمْيَةِ بَشَر "وَلَكِنَّ اللَّه رَمَى" بِإِيصَالِ ذَلِكَ إلَيْهِمْ 0انتهى وقال الشوكاني: قال ثعلب : المعنى { وَمَا رَمَيْتَ } الفزع والرعب في قلوبهم { إِذْ رَمَيْتَ } بالحصباء فانهزموا { ولكن الله رمى } أي : أعانك وأظفرك ، والعرب تقول : رمى الله لك ، أي أعانك وأظفرك وصنع لك . وقد حكى مثل هذا أبو عبيدة في كتاب المجاز . انتهى 0 فتبين بهذا أن الآيات لا تدل على أن العبد مجبور على فعله وإنما تدل على أن ما يفعله إنما أقدره الله عليه ومكنه من فعله ، وقد أثبت الله لنبيه في هذه الآية فعلاً وإرادة فبطل احتجاج الجبرية بهذه الآية ، ومن الأدلة على بطلان الجبر قوله تعالى {سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاء اللّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم حَتَّى ذَاقُواْ بَأْسَنَا } (148) سورة الأنعام فعذبهم لأجل احتجاجهم بالجبر فدل على بطلان هذه الحجة ، وقد دل الكتاب والسنة في أدلة كثيرة على أن للإنسان إرادة واختيار وقدره وأجمع على ذلك السلف فدل على أن القول بالجبر محدث وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار ، والقول بالجبر يقتضي أن الله خلق الثواب والعقاب عبثاً وظلماً وأنه لا فائدة من إرسال الرسل وإنزال الكتب وتشريع الشرائع وقيام الجهاد وسوق الجنة والنار إذ أن الناس مجبرون على ما يفعلون وهذا ضلال مبين 0

الطائفة الثانية / القدرية كالمعتزلة وغيرهم الذين يقولون لا قدر والأمر أنف أي مستأنف لم يكن مقدراً وقالوا إن الإنسان هو الذي يخلق فعله وأن الله لم يكتبه ويقدره عليه وليس لله تعالى في أفعال العباد مشيئة ولا اختيار ولا خلق بل ولا علمٌ سابق عند غلاتهم 0 واستدلوا بالنصوص التي تثبت الإرادة للعبد دون التي تربط إرادة العبد ومشيئته بإرادة الله ومشيئته فجعلوا العبد شريكاً لله في ربوبيته حيث انفرد العبد بخلق فعله وشريكاً لله في ملكه حيث كانت له إرادة ومشيئة لا تخضع لإرادة الله ومشيئته فانظر أين وصل بهم الضلال ولذلك وصفوا بأنهم مجوس هذه الأمة حيث أثبتوا خالقاً مع الله كما أثبتت المجوس أن للخير خالق وهو النور وللشر خالق وهو الظلمة 0 وقد انقسم القدرية إلى غلاة ينكرون علم الله السابق وهو وصف لله بالجهل وعدم العلم وهؤلاء لا شك في كفرهم ، وطائفة أخرى أثبتت العلم ونفت القدر فقال العلماء كالشافعي وغيره : ناظروهم بالعلم فإن أقروا به خصموه وإن أنكروه كفروا 0 يعني يقال لهم : هل عَلِمَ الله أن هذا الفعل من العبد سيقع ؟ فإن قال لا 0 كفر لأنه أنكر علم الله السابق ، وإن قال نعم فقل له وهل وقع فعلهم على وفق علم الله السابق أو على خلافه فإن قالوا على وفقه خصموا لأنه حينئذٍ يكون قد أراده ، وإن قالوا على خلافه فيكونون قد أنكروا العلم فيكفرون 0 ومن طريف ما يروى في المناظرات مع القدرية أن عبد الجبار الهمذاني القاضي المعتزلي دخل على بن عباد وكان معتزلياً أيضاً وكان عنده أبو إسحاق الاسفراييني من أهل السنة فقال عبد الجبار : سبحان من تنزه عن الفحشاء 0 فقال أبو إسحاق : سبحان من لا يقع في ملكه إلا ما يشاء 0 فقال عبد الجبار : يريد ربنا أن يعصى 0 فقال أبو إسحاق : أيعصى ربنا قهراً 0 فقال عبد الجبار : أرأيت إن منعني الهدى وقضى عليَّ بالردى أأحسن إليَّ أم أساء ؟ فقال أبو إسحاق : إن كان منعك ما هو لك فقد أساء ، وإن كان فعل ما هو له فيختص برحمته من يشاء 0 فبهت المعتزلي ولم يحر جواباً 0 ذكره العثيمين (القول المفيد 402/2)

الطائفة الثالثة / أهل الحق وهم أهل السنة وعقيدتهم الإيمان بالقدر خيره وشره من الله وأن الله لا يظلم العباد شيئاً ، وأن للعبد إرادة ومشيئة ولكنها تابعة لإرادة الله ومشيئته كما قال تعالى {إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاء اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا(29) وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاء اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا} (30) سورة الإنسان وقوله تعالى {لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ (28) وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاء اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} (29) سورة التكوير فالإنسان له مشيئة واختيار فهو الذي يطيع ويعصي باختياره ويحاسب على العمل الذي فعله باختياره ومشيئته ، والله جل وعلا قد قدَّر عليه أن يطيع أو يعصى على وفق ما سبق في علم الرب جل وعلا أن هذا العبد سيختار هذا الطريق فقدره عليه ثم يحاسبه الرب على ما فعله باختياره ولا يحاسبه على القدر فإن قدر الله سرٌ مكنون وما يدري هذا

العبد أن الله قدر عليه المعاصي لماذا لا يعتقد أن الله قدر عليه الطاعة فيفعلها أم يريد أن يتبع شهوات نفسه ويحتج على ذلك بالقدر فهذا يدعي مشاركة الله في علمه وأنه يعلم ما قدره الله عليه وأعظِم بها من فرية 0 واحتجاجه بالقدر على فعل المعاصي لا يفيده فإن لله الحجة عليه ، وقد روي أن سارقاً سرق في عهد عمر فأتي به إليه فقال ما حملك على ما صنعت قال قدر الله علي أن أسرق فأخذ عمر السكين فقطع يده وقال قدر الله علي أن أقطع يدك 0 ولو قيل لهذا المحتج بالقدر أجلس في بيتك ولا تعمل فإن قدر الله لك مالاً فسيأتيك لما صنع وهكذا لو قيل له في الطعام والشراب والولد وغير ذلك من أمور الدنيا لما رضي وأنكر الاحتجاج بالقدر لكن فيما يخالف أمر الله من شهوات نفسه سرعان ما يحتج بالقدر وحجته باطلة وشبهته مردودة وجوابه داحض عند الله وجرمه أعظم من جرم المعترف بذنبه المقر بتقصيره النادم على فعله المعصية 0
وأما حديث بن عمر الذي ذكره المصنف فله قصة رواها مسلم في صحيحه عن يحيى بن يعمر قال : كان أول من قال في القدر بالبصرة معبد الجهني فانطلقت أنا وحميد بن عبد الرحمن الحميري حاجين أو معتمرين فقلنا لو لقينا أحداً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألناه عما يقول هؤلاء في القدر فوفق لنا عبد الله بن عمر بن الخطاب داخلاً المسجد فاكتنفته أنا وصاحبي أحدنا عن يمينه والآخر عن شماله فظننت أن صاحبي سيكل الكلام إلي فقلت أبا عبد الرحمن إنه قد ظهر قبلنا ناس يقرؤون القرآن ويتقفرون العلم وذكر من شأنهم وأنهم يزعمون أن لا قدر وأن الأمر أنف قال فإذا لقيت أولئك فأخبرهم أني بريئ منهم وأنهم برآء مني والذي يحلف به عبد الله بن عمر لو أن لأحدهم مثل أحدٍ ذهباً فأنفقه ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر ثم قال حدثني أبي عمر بن الخطاب قال بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد حتى جلس إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه وقال يا محمد أخبرني عن الإسلام فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا قال صدقت قال فعجبنا له يسأله ويصدقه قال فأخبرني عن الإيمان قال أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره قال صدقت قال فأخبرني عن الإحسان قال أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك قال فأخبرني عن الساعة قال ما المسئول عنها بأعلم من السائل قال فأخبرني عن إمارتها قال أن تلد الأمة ربتها وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان قال ثم انطلق فلبثت ملياً ثم قال لي يا عمر أتدري من السائل قلت الله ورسوله أعلم قال فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم 0

فتبين بهذا الحديث والأحاديث التي تليه أن الإيمان بالقدر من أركان الإيمان العظام التي لا يتم الإيمان إلا بها فمن أنكر القدر فليس بمؤمن بل هو كافر ولذلك ذكر الصحابة أنه لن يقبل منه ولو أنفق مثل أحد لأن الكافر لا يقبل منه عمل كما قال تعالى {وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللّهِ وَبِرَسُولِهِ } (54) سورة التوبة وقال تعالى {مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لاَّ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلاَلُ الْبَعِيدُ} (18) سورة إبراهيم وقال تعالى {وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُورًا} (23) سورة الفرقان فيا لخسارة من أنكر القدر أو اتبع أقوال أهل الضلالة فيه 0

وأما حديث (أول ما خلق الله القلم فقال له أكتب) فليس المراد أنه أول المخلوقات بل المراد أنه وقتما خلقه الله مباشرةً قال له (أكتب) بدليل أن العرش والماء وغيرهما من المخلوقات كانت قبله قال صلى الله عليه وسلم (كان الله ولم يكن شيء قبله وكان عرشه على الماء ثم خلق السماوات والأرض وكتب في الذكر كل شيء) رواه البخاري وقيل المراد بقوله (أول ما خلق الله القلم) يعني أول مخلوقات العالم السفلي ، والأول أقرب فإنك تقول أول ما اشتريت كتاب التوحيد قرأته وليس معناه أنك لم تشتر كتاباً قبله وإنما معناه أنك مباشرة حين اشتريته قرأته والعلم عند الله 0

((باب ما جاء في المصورين))

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (قال الله تعالى : ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي ، فليخلقوا ذرة ، أو ليخلقوا حبة ، أو ليخلقوا شعيرة) أخرجاه 0 ولهما عن عائشة رضي الله عنها ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (أشد الناس عذاباً يوم القيامة الذين يضاهئون بخلق الله) ولهما عن ابن عباس : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (كل مصور في النار يجعل له بكل صورة صورها نفس يعذب بها في جهنم) ولهما عنه مرفوعاً (من صوّر صورة في الدنيا كلّف أن ينفخ فيها الروح ، وليس بنافخ) ولمسلم عن أبي الهياج قال : قال لي عليّ : ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ ألا تدع صورة إلا طمستها ، ولا قبراً مشرفاً إلا سويته) .

التصوير وسيلة من وسائل الشرك وما وقع قوم نوح في الشرك إلا بعد أن صوروا صالحيهم ثم عبدوهم مع مرور الأجيال كما قال ذلك بن عباس وغيره ، ولذلك حرِم التصوير سداً لذريعة الشرك وأيضاً لما فيه من مضاهاة خلق الله ، ولذلك فالمصور يكفر إذا صور صورة وادعى أنها مثل أو أحسن من خلق الله وينطبق عليه قول النبي صلى الله عليه وسلم (أشد الناس عذاباً يوم القيامة الذين يضاهون بخلق الله) متفق عليه ويكفر أيضاً إذا صور صورة لأجل أن تعبد أو يصور ما هو معبود أصلاً كأن يصور بوذا للبوذيين أو يصور المسيح أو الصليب للصليبيين أو يصور علياً أو الحسين للرافضة 0

ويكون مرتكباً كبيرة دون الكفر إذا صور لأجل الذكرى سواء كان تصويره منحوتاً كالمجسمات والتماثيل أو مرسوماً بالإجماع أو بآلات التصوير الحديثة عند أكثر أهل العلم وقال بعض أهل العلم التصوير بآلات التصوير الحديثة ككاميرات الفيديو والكاميرات الفورية غير المحمضة لا تدخل في التصوير المحرم لأنه إنما ألتقط الصورة التي خلقها الله بالآلة فحكم آلة التصوير كالمرآة التي تعكس الصورة التي خلقها الله ورجحه العثيمين (القول المفيد 439/2) ورجح الشيخ بن باز والألباني والشيخ محمد بن إبراهيم وغيرهم عدم الجواز (نقل ذلك عنهم الشيخ وليد السعيدان في كتابه حكم الصور الفوتوغرافية) وقالوا إنها داخلة في التصوير المحرم وذلك لأن ألفاظ الشرع عامة ولا مخصص لها

وقولهم إن الآلة إنما تعكس الصورة التي خلقها الله فنقول وكذلك الرسام والنحات فإنه يرسم وينحت على وفق الصورة التي خلق الله فلا فرق ثم إن العلل التي لأجلها حرمت الصور كالغلو والشرك موجودة في التصوير بالآلات بل هو أشد لأنها أوضح وأقرب ولو قيل لك إن فلاناً الذي يعظمه الناس قد وجدت له صورة مرسومة ثم قيل لك لقد وجدت له صورة مصورة بآلة لبحثت عن الصورة المصورة بالآلة أشد من بحثك عن الصورة المرسومة باليد فدل على أن التعلق بها أشد والخطر بها أعظم والمراد بالصور المحرمة هي صور ذوات الأرواح وأما ما لا روح فيه فيجوز تصويره كالشجر والجبال والبيوت والسيارات وغيرها في قول عامة أهل العلم وقال مجاهد لا يجوز واستدل بالحديث الأول (فليخلقوا حبة أو ليخلقوا شعيرة) والحبة والشعيرة ليست من ذوات الأرواح 0 وأجاب العلماء بأن المراد في هذا الحديث التحدي فتحداهم الرب جل وعلا بأقل شيءٍ من خلقه وهو الحبة والشعيرة والمراد في إنفلاقها ونباتها وإلا فإن الناس يستطيعون أن يصنعوا حبوباً ونحوها من الحديد أو الذهب أو الفضة وربما صنعوه من طعام وأمكن أكله كما قيل إن هناك أرزٌ صناعي ولكنه لا يمكن أن ينبت منه شيء وهذا هو المتحدى به أن يصنعوا حبة كالحبة التي صنعها الله فأخرج من الحبة شجراً يخرج حبوباً كثيرة وثماراً فأنت ترمي نواة التمر مثلاً فتنبت فتكون نخلة لها ساق وجريد وتخرج البلح والرطب والتمر وهكذا في الحبوب كما قال تعالى {مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ وَاللّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاء وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} (261) سورة البقرة فتبين أن المراد بالحديث التحدي وليس النهي عن تصوير الحبة وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم (من صور صورة في الدنيا كلف أن ينفخ فيها الروح يوم القيامة وليس بنافخ) متفق عليه ومعلومٌ أن الحبة لا روح فيها 0 وعن سعيد بن أبي الحسن رضي الله عنه قال جاء رجل إلى ابن عباس رضي الله عنهما فقال له إني رجل أصور هذه الصور فأفتني فيها فقال ادن مني فدنا ثم قال ادن مني فدنا حتى وضع يده على رأسه وقال أنبئك بما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (كل مصور في النار يجعل له بكل صورة صورها نفسا فيعذبه في جهنم) قال ابن عباس فإن كنت لا بد فاعلاً فاصنع الشجر وما لا نفس له 0 رواه البخاري ومسلم وفي رواية للبخاري قال كنت عند ابن عباس إذ جاءه رجل فقال يا ابن عباس إني رجل إنما معيشتي من صنعة يدي وإني أصنع هذه التصاوير فقال ابن عباس لا أحدثك إلا ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم سمعته يقول (من صور صورة فإن الله معذبه حتى ينفخ فيها الروح وليس بنافخ فيها أبداً) فربا الرجل ربوةً شديدة فقال : ويحك إن أبيت إلا أن تصنع فعليك بهذا الشجر وكل شيء ليس فيه روح 0 وقال جبريل عليه السلام للنبي صلى الله عليه وسلم (فمر برأس التمثال الذي في البيت فليقطع فيصير كهيئة الشجرة) رواه أحمد وأبو داود والترمذي

وصححه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم (68) فدلَّ على أن الشجرة وما كان على هيئتها مما لا روح فيه جائز تصويره 0 وذهب بعض أهل العلم إلى أن صور ذوات الأرواح إذا كانت مهانة فلا حرج لأن عائشة رضي الله عنها لما هتك النبي صلى الله عليه وسلم الستر الذي فيه التصاوير جعلت منه وسادتين فلم ينكر عليها النبي صلى الله عليه وسلم فدل على جوازه ويدل له أيضاً حديث جبرائيل وفيه فقال (ومر بالستر فليقطع فليجعل منه وسادتين منبوذتين توطئان) تقدم تخريجه قريباً وقال بعض أهل العلم إن مثله ما يكون في الجرائد والمجلات من الصور وحكم المصوَر كحكم المصوِر في ذلك كله 0

أدلة القائلين بجواز التصوير الفوتوغرافي والرد عليها مختصراً من كلام الشيخ وليد السعيدان في رسالته حكم التصوير الفوتوغرافي :

الدليل الأول / قالوا ليس هو نفس التصوير الذي جاءت الأدلة بالنهي عنه لأن التصوير الذي جاءت الأدلة بالنهي عنه يقتضي فعلاً في نفس الصورة فإن ألفاظ النصوص (صوَّر ومصوِّر) بالتشديد فدل على أن لهم فعلاً في نفس الصورة إما بنحتٍ أو رسم أو غير ذلك وأما نقل الصورة بالآلة فلا يقتضي عملاً وإنما هو تسليطٌ للآلة فتنطبع الصورة التي صنع الله 0

والجواب /

1-أننا لا نسلم أن المصور بالآلة لم يصنع شيئاً بل يحتاج أن يتعلم طريقة التصوير بتلك الآلة ثم أنه يعمل خلال التصوير فيوجه الآلة ثم يضغط زر التصوير ثم يتابعها إن كان التصوير متحركاً كالفيديو أو يضعها في سائل التحميض إن كانت الصورة تحتاج إلى ذلك أو يخضخضها في الهواء إن كانت الصورة فورية إلى غير ذلك من الأعمال التي نشاهد المصورين بالآلة يقومون بها 0

2-أن الحكم الشرعي قد تعلق بالصورة دون نظر هل كان في إيجادها عمل أو لا فمتى وجدت الصورة أو التصوير وجد الحكم ويدل له حديث أبي الهياج الأسدي حين قال له علي : ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم (أن لا تدع صورة إلا طمستها) ولم يقل إسأل عنها فإن كانت بعمل فاطمسها وإلا فلا تطمسها فالتفريق بين ما كانت تحتاج إلى عمل وما لا تحتاج إلى عمل تفريق بلا دليل 0

الدليل الثاني / قالوا إن العلة التي حرِّم من أجلها التصوير وهي مضاهاة خلق الله منتفية في التصوير الفوتوغرافي 0

والجواب / إن كانت انتفت علة المضاهاة فإن علة كونه من وسائل الشرك غير منتفية وهي كافية في تحريم التصوير فإن الشرك من أعظم الذنوب والوسائل لها حكم الغايات ، وهكذا بقية العلل كمنع دخول الملائكة وككون فيها تشبهاً بالكافرين والمشركين وكون فيها إضاعة للمال والوقت وغير ذلك من العلل الموجودة في التصوير الفوتوغرافي 0

الدليل الثالث / قالوا : إن التصوير الفوتوغرافي يقاس على الوقوف أمام المرآة فكما أن المرآة تعكس الظل وهو خلق الله فكذلك التصوير بالآلة إنما هو عكسٌ للظل وإخراجٌ للصورة التي خلق الله 0

والجواب / أن هذا قياسٌ مع الفارق لأن الصورة في المرآة غير مستقرة فإذا قابل المرآة ظهرت الصورة وإذا ذهبت المقابلة ذهبت الصورة بخلاف الصور الفوتوغرافية فإنها مستقرةٌ ثابتة وقد تقرر في الأصول أن القياس يفتقر إلى الاتفاق في العلة حتى يتفق مع المقيس عليه في الحكم وأن القياس مع الفارق باطل ، ثم إن المصور بالآلة قد أُطلق عليه مصور لغةً وعرفاً بخلاف الواقف أمام المرآة فلا يقال إنه مصور لغة ولا عرفاً وهذا فارقٌ آخر يبطل القياس 0

الدليل الرابع / أن الأصل في اشياء الإباحة حتى يرد دليل المنع ولم يرد دليل على منع التصوير الفوتوغرافي 0

والجواب / أن أدلة تحريم التصوير تشمل التصوير الفوتوغرافي وغيره ومن خصَّ التصوير الفوتوغرافي بالإباحة فعليه الدليل 0

تنبيه : من قواعد الشريعة أن الضرورات تبيح المحظورات فإذا اضطرت الحكومة أو غيرها على التصوير لضبط أفرادها بإخراج بطاقات تحمل صوراً كبطاقات الأحوال والرخص والشهادات وغيرها حتى لا يقع تلاعبٌ أو إفساد جاز حينئذٍ التصوير لهذه العلة ، وهكذا تصوير المجرمين للتعرف عليهم لقبضهم والأمن من خطرهم ، فهنا يجوز التصوير للضرورة ، ولكن إذا كان الأمر للحاجة التي دون الضرورة مثل خروج بعض العلماء في القنوات لنشر وتعليم الناس الدين الصحيح والأخلاق الفاضلة وتحذيرهم من العقائد المنحرفة والأخلاق الرديئة ولصرفهم عن قنوات الإفساد فقد وجدت فتوى لسماحة الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله يجيز فيها الخروج في التلفاز لمن كانت هذه نيته ولئلا ينفرد أهل الباطل به 0 وهذا إذا وجد وسائل غيره لتحقيق هذه الأهداف لكنها أقل انتشاراً أو نحو ذلك وأما إذا لم يوجد إلا هو فهنا يصبح من قسم الضروريات لا الحاجيات لأن

سلامة الدين والعقيدة والأخلاق أهم من الأمن ومن الطعام والشراب لأنه إذا فقد الطعام والشراب والأمن فسيخسر الدنيا وأما إذا فقد الدين فالخسارة في الأخرى ولا شك أن خسارة الآخرة أعظم 0

والحديثين الأولين التي ذكرهما المصنف في الباب فيهما تحريم المضاهاة وبقية الأحاديث عامة في كل مصور وصورة ولو بغير قصد المضاهاة وإن كان في المضاهاة أشد فالمحرمات تتفاوت شدة وخفة وقد ذكرنا متى يكفر المصور ومتى لا يكفر في أول الشرح ، ولا تعارض بين حديث (ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي) وبين قوله تعالى {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا } (114) سورة البقرة وقوله {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللهِ } (140) سورة البقرة وقوله {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوْحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنَزلَ اللهُ } (93) سورة الأنعام وقوله {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءهُ } (68) سورة العنكبوت فالمراد لا أحد أظلم في نوع هذا العمل فالمضاهي أظلم المصورين وأشدهم جرماً والمانع لأن يذكر اسم الله في المساجد أعظم من المانع لهم في أي مكان وهكذا في البقية وقيل المراد أن هذه الأشياء قمة الظلم والمعنى واحد 0 وقوله (فليخلقوا ذرة ...الخ) للتحدي كقوله تعالى {إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ} (73) سورة الحج فإن قيل فإن الناس قد صنعوا ذباباً آلياً يطير وصنعوا رجلاً آلياً وصنعوا أرزاً وغير ذلك مما ورد فيها التحدي فنقول : وهل هي كصنع الله في حركاتها وسكناتها وتوالدها ونماءها وقدراتها ؟ لا سواء يكفيك أن هذه الأجهزة تحتاج إلى كهرباء بموصلٍ أو بطارية وتحتاج إلى تشغيل وتطفئة وتحريك إلى الاتجاهات المختلفة بينما خلق الله لا يحتاج إلى هذا كله فهذا غيضٌ من فيض من الفروقات التي لا تحصى بين هذه الأجهزة وبين خلق الله 0

فائدة / العلماء يسمون النحت وبناء المجسمات تصوير ما له ظل ، ويسمون الرسم على الورق والجدران ونحوهما تصوير ما لا ظل له ، وكله محرم 0

فائدة / يجوز للأطفال اللعب بالمجسمات والتماثيل ولو كانت صوراً لذوات الأرواح لكونهم يمتهنونها وقد قدمنا أن بعض العلماء يجيز ما يمتهن من الصور ، ويجوز للأطفال خاصة لما ورد عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت : قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة تبوك أو خيبر وفي سهوتها ستر فهبت ريح فكشفت ناحية الستر عن بنات لعائشة لعب فقال ما هذا يا عائشة قالت بناتي ورأى بينهن فرساً له جناحان من رقاع

فقال ما هذا الذي أرى وسطهن قالت فرس قال وما هذا الذي عليه قالت جناحان قال فرس له جناحان قالت أما سمعت أن لسليمان خيلاً لها أجنحة قالت فضحك حتى رأيت نواجذه 0 رواه أبو داود وصححه الألباني

((باب ما جاء في كثرة الحلف))

وقول الله تعالى ﴿ وَاحْفَظُواْ أَيْمَانَكُمْ ﴾ [المائدة : 89] عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (الحلف منفقة للسلعة ، ممحقة للكسب) أخرجاه وعن سلمان أن رسول الله صلى عليه وسلم قال (ثلاثة لا يكلمهم الله ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم : أشيمط زان ، وعائل مستكبر ، ورجل جعل الله بضاعته ، لا يشتري إلا بيمينه ، ولا يبيع إلا بيمينه) رواه الطبراني بسند صحيح وفي الصحيح عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (خير أمتي قرني ، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم – قال عمران : فلا أدري أذكر بعد قرنه مرتين أو ثلاثاً ؟ – ثم إن بعدكم قوماً يشهدون ولا يستشهدون ، ويخونون ولا يؤتمنون ، وينذرون ولا يوفون ، ويظهر فيهم السمن) وفيه عن ابن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم قال (خير الناس قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه ، ويمينه شهادته) قال إبراهيم : كانوا يضربوننا على الشهادة والعهد ونحن صغار .

قوله (باب ما جاء في كثرة الحلف) يعني من الكراهة والمقصود الحلف صدقاً وأما الحلف كذباً فهو كبيرةٌ من كبائر الذنوب ، لكن المراد بهذا الباب كثرة الحلف بالله صادقاً ووجه كون ذلك مكروهاً لأنه يدل على قلة تعظيم الحالف لربه جل وعلا إذ لو كان معظماً ربه حق التعظيم لما حلف به إلا في أمرٍ عظيم يستدعي الحلف وأما الحلف به في كل صغيرةٍ وكبيرة تدل على قلة تعظيم الرب جل وعلا في نفس هذا الحالف وربما في نفوس السامعين إذا كثر الحالفون وخشي من بعضهم الكذب ، فينبغي للمؤمن ألا يحلف بالله إلا على أمرٍ عظيم كأن يريد أن يؤكد أمراً مهماً أو ينفي عن نفسه تهمةً أو نحو ذلك قال تعالى { وَاحْفَظُواْ أَيْمَانَكُمْ } (89) سورة المائدة أي لا تكثروا الحلف كما يقال : أحفظ دراهمك 0 أي لا تكثر إخراجها ، أو لا تخرجها إلا لأمرٍ ضروري 0 وقيل المعنى : أي لا تحنثوا إذا حلفتم فتأتون بضد ما حلفتم به 0 وقيل : أي لا تتركوا الكفارة إذا حنثتم 0 وكلها معاني صحيحة 0 قال العثيمين : يجوز الحلف على غلبة الظن فلو قلت : والله ليقدمن زيد غداً 0 بناءً على ظنك فلم يقدم ، فالصحيح أن لا كفارة عليك ، لأنك حلفت على ما في قلبك وهو حاصل 0 وذكر أن الدليل على ذلك قول المجامع في نهار رمضان لرسول صلى الله عليه وسلم (والله ما بين لا بتيها أهل بيتٍ

أفقر منا) (القول المفيد 455/2) قلت : لا بد أن يعلق الأمور المستقبلية بالمشيئة لقوله تعالى {وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (23) إِلَّا أَن يَشَاء اللَّهُ } (24) سورة الكهف

فائدة : إذا حلف المؤمن على أمرٍ فرأى غيره خيراً منه فليكفر عن يمينه وليأت الذي هو خير كمن حلف ألا يزور فلاناً أبداً 0 فهنا يكفر عن يمينه ويزوره ، لأنه لا يحل هجر المسلم فوق ثلاث 0 وهكذا لو حلف أن يعين شخصاً على منكر أو غير ذلك فيكفر عن يمينه ولا يفعل هذا المنكر وهكذا لو كان على أمرٍ مباح وغيره خيراً منه فيكفر ويفعل الأفضل لما جاء عن أبي موسى رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إني والله إن شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا كفرت عن يميني وأتيت الذي هو خير) متفق عليه والكفارة ذكرها الله تعالى بقوله {لاَ يُؤَاخِذُكُمُ اللّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُواْ أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} (89) سورة المائدة فالإطعام والكسوة والتحرير على التخيير والصيام على الترتيب فلا يصوم إلا إذا لم يجد ما يكسو أو يطعم به المساكين ولم يجد ما يحرر به رقبة من الرق ، ولذلك من الخطأ الكبير الذي نسمعه كثيراً من الناس البداءة بالصيام فكلما حنث شخص قالوا له وجب عليك الصيام دون أن ينظروا هل يقدر على الإطعام والكسوة والتحرير أو لا يقدر ويظنون أن ذلك على التخيير 0

ولغو اليمين هو الذي يجري على اللسان دون قصد الحلف فهذا لا كفارة عليه 0

ثم ذكر المصنف حديث أبي هريرة مرفوعاً (الحلف منفقة للسلعة ممحقة للكسب) أخرجاه أي في الصحيحين فقد أخرجه البخاري في البيوع باب يمحق الله الربا ومسلم في المساقاة باب النهي عن الحلف في البيع وقد صرح أبو هريرة رضي الله عنه في هذا الحديث بالسماع وهو أعلى مراتب الرواية عند المحدثين 0 وقد أطلق النبي صلى الله عليه وسلم الحلف ولم يقيده بالكذب وقال بعض العلماء يحمل على الحلف الكاذب لأن الحلف صدقاً لا إثم فيه وحينئذٍ لا يعاقب صاحبه بمحق البركة قال العثيمين : المراد الحلف الكاذب كما بينته رواية أحمد (اليمين الكاذبة) أما الصادقة فليس فيها عقوبة 0 (القول المفيد 457/2) وقال عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ : المعنى أنه إذا حلف على سلعته أنه أُعطي فيها كذا وكذا أو أنه اشتراها بكذا وكذا وقد يظنه المشتري صادقاً فيما حلف عليه فيأخذها بزيادةٍ على قيمتها والبائع كذاب 0 (فتح المجيد 555) قلت : أما الحلف كاذباً لاقتطاع مال امرئٍ مسلم بغير حق فذلك هو اليمين الغموس ، ومنه الحلف على البيع لأن المشتري يصدقه لحلفه فيعطيه فوق قيمة السلعة فيكون قد اقتطع ما زاد عن قيمة السلعة من مال المسلم بالحلف الكاذب

فيدخل في اليمين الغموس والعلم عند الله 0 وأما هذا الحديث فهو مطلق ولم يقيد بالكذب ، وسبب محق البركة أنه خالف الأمر بحفظ الإيمان وأكثر من الحلف وترك ما يجب من كمال تعظيم الله لأجل الدنيا فعاقبه الله بمحق بركة ما تحصَّل عليه من الدنيا حتى يعود إلى تعظيم الرب جل وعلا ويكف عن كثرة الحلف 0

قوله صلى الله عليه وسلم (ثلاثة لا يكلمهم الله ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم أشيمط زان وعائل مستكبر ورجل جعل الله بضاعته لا يشتري إلا بيمينه ولا يبيع إلا بيمنه) وفي رواية (ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة) رواه الطبراني والبيهقي وصححه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم (3072)

قوله (لا يكلمهم الله) وعيد شديد فمقاطعة الكلام بين البشر شديدة رغم غنا بعضهم عن بعض فكيف بمقاطعة الرب جل وعلا مع شدة حاجة الناس وفقرهم إليه فلا شك أنه عذابٌ عظيم ولكن يا للعجب من قومٍ نفوا صفة الكلام للرب جل وعلا مع تواتر النصوص والأدلة على ذلك فيا ليت شعري أي نعيمٍ يوازي محادثة الرب جل وعلا ولقد كان موسى كليم الرحمن يكثر المسائل والكلام إذا تكلم مع الرب جل وعلا ليتلذذ بسماع كلام الرب جل وعلا فإن موسى أسهب في الكلام عن عصاه وعن خطر فرعون عليه وعن حاجته لأخيه وغير ذلك ليتمتع بسماع رد الرب جل وعلا عليه ثم يأتي المعطلة والمحرفة والمؤولة لينكروا كلام الرب مطلقاً أو يؤولوه إلى معان أخر أو ينكروا الحرف والصوت أو غير ذلك مما تجرؤا به على الرب جل وعلا وأنه والله ليخشى أن يعاقبهم الرب جل وعلا فلا يكلمهم يوم القيامة لما أنكروا من كلامه وتجرؤا على صفاته 0

قوله (ولا يزكيهم) لا يشهد لهم بالإيمان ولا يعدلهم ولا يوثقهم يوم القيامة أو لا يطهر نفوسهم في الدنيا ولا يعصمهم من المعاصي والموبقات 0

قوله (ولا ينظر إليهم) نظر شفقة ورحمة بل يعرض عنهم ولا أشد من ذلك بين الناس فكيف إذا أعرض عنك الخالق العظيم 0

قوله (ولهم عذاب أليم) أي موجع إما في الدنيا وإما في الأخرى وإما فيهما جميعاً 0

قوله (إشيمط زان) هو الذي اختلط سواد شعره بالبياض لكبر سنه وكون عقوبته أشد من عقوبة الشاب لأنه قد بردت حدة الشهود عنده وبلغ سن الحكمة وأدرك المصالح والمفاسد فكان زناه عن فجورٍ وإجرام لا عن غلبة شهوةٍ كالشاب 0

قوله (وعائل مستكبر) العائل الفقير قال تعالى {وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى} (8) سورة الضحى أي فقيراً والفقير يكون داعي الكبر عنده ضعيفاً إذ من دواعي الكبر الجاه والغنى كما قال تعالى { إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى (6) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى} (7) سورة العلق فدلَّ على أن الكبر عنده ناتجٌ عن مرضٍ في قلبه وبعدٍ عن ربه فكانت عقوبته أشد من عقوبة الغني المستكبر 0

قوله (ورجل جعل الله بضاعته لا يشتري إلا بيمينه ولا يبيع إلا بيمينه) أي جعل حلفه بالله وسيلة لترويج بضاعته وهذا يدل على استخفافه بحق الرب جل وعلا وما يجب من تعظيمه ومخالفته لأمر الله جل وعلا بحفظ الأيمان فكان جزاءه ما ذكر إن كان صادقاً فيما يحلف عليه وأما إن كان كاذباً فجرمه أشد وتلك اليمين الغموس التي تغمس صاحبها في الإثم ثم في النار 0

قوله : وفي الصحيح أي في الكتب الصحيحة فقد رواه البخاري في الشهادات باب لا يشهد على شهادة جور ومسلم في فضائل الصحابة باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم عن عمران بن حصين رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (خير أمتي قرني) فجعل التفاضل خاص بهذه الأمة لكن قد ورد ما يدل على أن الخيرية عامة وأنهم خير القرون مطلقاً فقال (خير الناس قرني) وهذه الرواية في الصحيحين وروى البخاري في المناقب باب صفة النبي صلى الله عليه وسلم (بعثت من خير قرون بني آدم) وقد قال تعالى {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ} (110) سورة آل عمران والقرن مأخوذٌ من الاقتران والمراد الطائفة المقترنة مع بعضها بشيء كملةٍ أو سن فقرن النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه فقط وهذا حسابٌ للقرن بالملة ويمكن أن يكون من آمن به في زمنه من قرنه وإن لم يكن له صحبة ولا يدخل الكفار في ذلك مطلقاً وإن كانوا في زمنه والذين يلونهم التابعين ولو تفاوت زمانهم فليس من رأى الصحابة في زمن النبي صلى الله عليه وسلم في سن من رأى آخر من مات من الصحابة وإن كان الجميع من التابعين فهذا حسابٌ بالملة أيضاً ، وأما الحساب بالزمن فاختلف فيه فقيل مائة سنة وقيل مائة وعشرون وقيل ثمانون وقيل غير ذلك واختلافهم في ذلك بناءً على اختلاف أعمار الناس فمنهم من يصل إلى الثمانين ومنهم من يتجاوز إلى المائة وإلى المائة والأربعون ومنهم من يموت صغيراً ولكن حسابهم على أكبر عمرٍ يمكن أن يصل إليه كثير من أهل الجيل الواحد 0

فهذه القرون الثلاثة المشهود لها بالفضل ينبغي اتباع منهجهم في العقائد والعبادات فقد كانوا أبعد الناس عن البدعة وأشدهم تمسكاً بالحق وأقرب الناس إلى معرفته وإنما انتشرت البدع بعدهم 0 ولذا قال مالك وغيره : لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها 0 وهكذا سائر أهل الفضل والعلم يحثون على التمسك بمنهج السلف والبعد عن مبتدعات الخلف 0

قوله (ثم إن بعدكم قوماً يشهدون ولا يستشهدون) أي يستخفون بأمر الشهادة فيتعجلون فيها دون تحري وربما كذب بعضهم في شهادته دون خوفٍ ولا وجل وهذا يدل على قلة إيمانهم وضعف يقينهم ، وليس المراد المنع من الشهادة بلا طلبٍ مطلقاً بل من علم لأخيه حقاً جهله صاحبه أو نسيه وجب عليه إخباره لقوله تعالى { وَلاَ تَكْتُمُواْ الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ} (283) سورة البقرة وقال صلى الله

عليه وسلم (ألا أخبركم بخير الشهداء ؟ الذي يأتي بشهادته قبل أن يسألها) رواه مسلم وذلك لتمام أمانته وحفظه لحق أخيه ويكون الذم في الحديث الأول على الذين يشهدون زوراً أو لا يتحرون في صدق شهاداتهم ويتساهلون فيها طمعاً في مالٍ أو جاهٍ أو منصب أو غير ذلك من أمور الدنيا ، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الآخر (ثم يجيء قومٌ تسبق شهادة أحدهم يمينه ويمينه شهادته) فدلَّ على استعجالٍ شديد في الحلف والشهادة يدل على طمع مراد واستخفافٍ بأمر الحلف والشهادة والعلم عند الله 0

قوله (ويخونون ولا يؤتمنون) لظهور خيانتهم فلا أحد يأتمنهم 0

قوله (وينذرون ولا يوفون) النذر في أصله مكروه وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أنه لا يأتي بخير وإنما يستخرج به من البخيل 0 فلا يصوم إلا بنذر ولا يتصدق إلا بنذر فهذا بخيلٌ استخرجت أعماله بالنذور 0 وإذا نذر العبد وجب عليه الوفاء بالنذر ، ولكن هؤلاء القوم لقلة دينهم وعلمهم وضعف عقيدتهم يكثرون النذور ثم لا يوفون بها 0 وهذا منكرٌ عظيم وقد توعد الله المخلفين بالنذور والعهود بوعيد شديد فقال تعالى {وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (75) فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُواْ بِهِ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ (76) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُواْ اللّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ} (77) سورة التوبة

قوله (ويظهر فيهم السمن) لكون أغلى مقاصدهم تحصيل شهواتهم وتلبية رغباتهم فيأكلون أشهى المأكولات ويشربون أحلى المشروبات دون نظر هل كان من حلالٍ أو حرام ودون تفكر في أمر الآخرة أو عمل لها ، وهذا نراه في زماننا كثيراً فنرى أغلب همم الناس ما هو الغداء اليوم وما هو العشاء الليلة وأين نتمشى وماذا نشاهد ....الخ ومن وجد في جدوله المحافظة على الصلوات فهو غاية الصلاح وأما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الله وطلب العلم ونحوها فيندر أن تجد من يدرجها في جدوله فالله المستعان ثم ذكر المصنف الحديث الثاني وليس فيه ذكر القرن الرابع الذي شك فيه عمران فدل على أن القرون الفاضلة ثلاثة ولا شك أن القرن الرابع خير ممن بعده وفيه كثير من أئمة الدين وعلماء الملة 0

قوله (ثم يجيء قوم ..) هذا يدل على أنه ليس كل الناس الذين يأتون بعد القرون الفاضلة تكون هذه أخلاقهم وإنما قوم منهم 0

قال إبراهيم : كانوا يضربوننا على الشهادة والعهد 0 رواه البخاري فدل على حرص السلف على تعظيم أمر الشهادة والعهود في نفوس أبناءهم لما يعلمون من خطر التساهل والتسرع فيها 0

وفيه دليل على جواز ضرب الصغار للتعليم والتربية لا للتشفي وأن يبين له سبب ضربه حتى يترك ما ضرب لأجله ولذلك لما كبر إبراهيم النخعي صار إماماً عالماً عابداً لما كان يربى بالضرب في صغره ، لكن قال العثيمين : يشترط لجواز ضرب الصغار شروطاً منها

1-أن يكون الصغير قابلاً للتأديب فلا يضرب من لا يعرف المراد بالضرب 0

2-أن يكون التأديب ممن له ولاية عليه 0

3-أن لا يسرف في الضرب كماً ولا كيفاً 0

4-أن يقع من الصغير ما يستحق التأديب والضرب عليه 0

5-أن يقصد تأديبه لا الانتقام لنفسه 0 (القول المفيد 473/2)

((باب ما جاء في ذمة الله وذمة نبيه))

وقول الله تعالى ﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلاَ تَنقُضُواْ الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾ الآية [النحل : 91] عن بريدة قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أمَّر أميراً على جيش أو سرية أوصاه بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً ، فقال (اغزوا بسم الله ، في سبيل الله ، قاتلوا من كفر بالله ، اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا وليداً ، وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال – أو خلال – فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم ، ثم ادعهم إلى الإسلام فإن هم أجابوك فاقبل منهم ، ثم ادعوهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين ، وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين ، وعليهم ما على المهاجرين ، فإن أبوا أن يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين ، يجري عليهم حكم الله تعالى ، ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين ، فإن هم أبوا فاسألهم الجزية ، فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم ، فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم . وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه ، فلا تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه ، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك ، فإنكم إن تخفروا ذممكم وذمة أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة نبيه . وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله ، فلا تنزلهم على حكم الله ، ولكن أنزلهم على حكمك . فإنك لا تدري ، أتصيب فيهم حكم الله أم لا) رواه مسلم

الذمة / هي العهد سمي بذلك لأنه يلتزم به كما يلتزم صاحب الدين بدينه في ذمته (القول المفيد 475/2)

وقول الله تعالى ((وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم)) عهد الله علينا أن نلتزم بشرائع الدين وأعظمها التوحيد ، وعهد العباد على الله ألا يعذب من التزم بشرائع دينه وخاصة التوحيد ، فتبينت علاقة الباب بكتاب التوحيد ، وأما علاقته بالباب الذي قبله فتتبين من قوله تعالى ((ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها)) وهو الحلف على العهد والمواثيق فلا يجوز نقضها لغير سبب ظاهر من خيانة من الطرف الآخر أو نحو ذلك ، وهذا هو العهد الذي بيننا البعض

والعهد الذي علينا للنبي صلى الله عليه وسلم أن نتبعه ولا نبتدع وأن نطيعه فيما استطعنا وألا نعصاه ، والعهد الذي لنا عليه أن يبلغنا دين ربنا ولا يكتمنا منه شيئاً وقد أوفى بما لنا فيجب أن نوفي بما له علينا وإلا كنا ناقضين للعهد 0

وفي الآية حثٌ على الوفاء بالعهود والوفاء إعطاء الشيء تاماً ومنه إيفاء الكيل والميزان ، وقوله ((إذا عاهدتم)) أي صدر منكم العهد أو صدر من عدوكم وقبلتموه والتزمتم به ، وأما إن صدر من عدوكم فلا يلزمكم قبوله فإن قبلتموه لمصلحة لكم فلا يجوز نقض العهد من قبلكم حتى يخونوا أو يهموا بالخيانة والغدر 0

وقوله ((ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها)) أي إذا ثبتم العهد باليمين فلا تنقضوه وإن كان لا يجوز النقض بلا يمين لكنه باليمين أشد 0

قوله ((وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً)) بقولكم أعاهدكم الله أو عهد الله لكم ونحو ذلك فقد جعلتم الله كفيلاً بصدقكم على هذا العهد فكيف تغدرون بعدئذٍ ، والناس لو جعلوا رئيساً لهم كفيلاً على وفاءهم بأمر لسارعوا إلى الوفاء رغبة ورهبة من الرئيس فكيف وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً فيجب أن تستحيوا من الله وتخافوا منه أكثر ولذلك قال ((إن الله يعلم ما تفعلون)) فيجازيكم بالوفاء أجراً وبالنقض عقاباً 0

(وعن بريدة بن الحصيب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا أمَّر أميراً على جيشٍ أو سرية) يعني للجهاد ونحوه (أوصاه بتقوى الله) وذلك لأن أغلب الناس تبع لأميرهم ويقتدون به فإن كان متقياً كانوا متقين وإن كان فاسداً كانوا فاسدين ، ثم إنه إذا كان متقياً ألزم الناس بالتقوى فأمر بالمعروف ونهى عن المنكر ومنعهم من المعاصي لكونه صاحب سلطة وولاية عليهم وإن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقران (ومن معه من المسلمين خيراً) يوصيه أن يرفق بهم كما في قوله صلى الله عليه وسلم (اللهم من ولي من أمر أمتي شيئاً فشق عليهم فاشقق عليه ومن ولي من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم فارفق به) رواه مسلم ويوصيه أن يسعى في الأصلح لهم وكفايتهم من الشر ما استطاع 0 (فقال) أي النبي صلى الله عليه وسلم للأمير والجند الذين يسمعون هذه الوصية المباركة التي يجب أن يعلمها كل قائد وكل جندي فهي شرعٌ ودين وفيها صلاح الدنيا والآخرة (اغزوا بسم الله) أي مستعينين بالله وحده متبركين باسمه متوكلين عليه فأراد أن تفتتح الغزوة بذكر اسم الله جل وعلا وذلك لأن كل أمر عظيم ينبغي أن يفتتح باسم الله استعانة وتبركاً وتوكلاً عليه جل وعلا كما تفتتح سور القران وكما كان النبي صلى الله عليه وسلم يفتتح رسائله وكتبه بالبسملة وروي مرفوعاً (كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه باسم الله فهو أبتر) أي مقطوع (في سبيل الله) أي لا تكون غزوتكم لأمر دنيوي كرياءٍ وسمعة أو لأجل الغنيمة ونحو ذلك بل اجعلوها خالصة لله فإنما يقبل الله من الأعمال ما كان خالصاً لوجهه موافقاً لسنة نبيه صلى الله عليه وسلم (قاتلوا من كفر بالله) فلا يكن قتالكم عصبية لقبيلة أو قومية للغة كالذين يقاتلون للعروبة أو وطنية لبلد إنما يكون القتال للعقيدة والدين فإن كان بلدك بلاد توحيد وإيمان فإنك تدافع عنه وتقاتل مع أهله لكونه بلد توحيد وأهله

أهل توحيد بخلاف ما لو كان مقيماً في بلاد الكفار فلا يجوز له أن يعين أهل بلده على المسلمين سواء كان أهل بلده هاجمين أو مهجومين من قبل المسلمين ، ولكن إن كان قد أعطاهم العهد ألا يقاتلهم فلا يقاتلهم وفاء بعهدهم 0 وأما إذا حاربوا كفاراً مثلهم فينظر لمصلحة المسلمين فإن كان الكفار المحارَبينَ أشد عداوة للمسلمين من الكفار المحاربِين حارب معهم وإلا لم يحارب ، وإن حوصر أهل بلده الكفار من جيش المسلمين لم يدافع عنه ولكن لا يغدر بهم إن كان بينه وبينهم ميثاق وقد قال أهل العلم إن الإقامات وتأشيرات الدخول ونحو ذلك تعتبر بمثابة العهد بين الشخص وبين الدولة التي سمحت له بالإقامة والدخول بالتأشيره فيلتزم بقوانينها التي لا تخالف الإسلام ولا يغدر بهم

قوله (اغزوا ولا تغلوا) الغلول الأخذ من الغنيمة قبل قسمتها بلا إذن قال تعالى {وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ} (161) سورة آل عمران وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى خيبر ففتح الله علينا فلم نغنم ذهباً ولا ورقاً غنمنا المتاع والطعام والثياب ثم انطلقنا إلى الوادي يعني وادي القرى ومع رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد له وهبه له رجل من جذام يدعى رفاعة بن يزيد من بني الضبيب فلما نزلنا الوادي قام عبد رسول الله صلى الله عليه وسلم يحل رحله فرمي بسهم فكان فيه حتفه فقلنا هنيئاً له الشهادة يا رسول الله قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (كلا والذي نفس محمدٍ بيده إن الشملة لتلتهب عليه ناراً أخذها من الغنائم لم تصبها المقاسم) قال ففزع الناس فجاء رجلٌ بشراك أو شراكين فقال أصبت يوم خيبر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم شراكٌ من نار أو شراكان من نار) متفق عليه وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال كان على ثقل النبي صلى الله عليه وسلم رجلٌ يقال له كركرة فمات فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (هو في النار) فذهبوا ينظرون فوجدوا عباءة قد غلها . رواه البخاري
قوله (ولا تغدروا) أي لا تنقضوا العهود فتلك خيانة ، وأما الخديعة في الحرب التي ليس فيها نقضٌ للعهد فهي جائزة لقوله صلى الله عليه وسلم (الحرب خدعة) متفق عليه ورخص في الكذب فيها لمصلحة المسلمين وليخادع العدو وقد جاء في السيرة ما يدل على جواز المخادعة كقصة قتل بن الأشرف وبن الحقيق والسفياني وغير ذلك 0

وقوله (ولا تمثلوا) من المثلة والتمثيل التشويه بقطع بعض الأعضاء كالأنف والأذن واللسان ونحوها قال العثيمين : فإن مثلوا بنا جاز لنا أن نمثل بهم لقوله تعالى {فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ} (194) سورة البقرة وإن لم نمثل بهم كما مثلوا بنا فقد يعتبرون ذلك ضعفاً بخلاف ما لو مثلنا بهم فسيعلمون أن عندنا قوة

فيتركون التمثيل بنا 0 (القول المفيد 481/2) قلت : الراجح عدم الجواز وذلك لأن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه لم يكونوا يمثلون بالمشركين على كثرة ما كان المشركين يمثلون بالمسلمين كتمثيلهم بحمزة عم النبي صلى الله عليه وسلم وغيره من أبطال المسلمين ولو كانت جائزة أو فيها عزٌ للإسلام والمسلمين لكانوا سباقين لها والخير في اتباعهم ، وأما الآية فعامة مخصوصة بالحديث 0 قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن : لا خلاف في تحريم الغلول والغدر وفي كراهية المثلة 0 (فتح المجيد 562)

قوله (ولا تقتلوا وليداً) قد ورد في أحاديث أخر النهي عن قتل الصبيان والنساء والشيوخ والرهبان ونحوهم ممن لم يشارك في القتال وليس من أهله ، فإن شاركوا ببدن أو رأيٍ أو نحو ذلك فإنهم يعاملون معاملة المقاتلين فيجوز قتلهم كما قتل دريد بن الصمة يوم حنين وكان شيخاً فانياً أعمى لما كان له من رأيٍ في الحرب ، وأما في البيات والقصف من بعيد فمن قتل ممن ليس من أهل الحرب فدمه هدر وحكمه حكم أهل القتال فعن الصعب بن جثامة رضي الله عنه قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أهل الدار يبيتون من المشركين فيصاب من نسائهم وذراريهم قال (هم منهم) متفق عليه

قوله (وإذا لقيت عدوك) أي قابلته (من المشركين) الشرك والكفر وجهان لعملةٍ واحدة فإذا افترقا اجتمعا فكان معناهما واحد ، وإذا اجتمعا افترقا فكان الشرك عبادة ما سوى الله وتسوية غيره به ، والكفر ما سوى ذلك مما يخلد صاحبه في النار 0 (فادعهم إلى ثلاث خصال أو خلال) الشك من أحد الرواة ولا فرق بينهما في المعنى غير أنه أراد أن يذكر النص بلفظه وهذا من حرص الرواة على ضبط ألفاظ النبي صلى الله عليه وسلم وإلا فإن أهل العلم يجيزون رواية الحديث بالمعنى (فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم) فدل على أن إجابتهم لإحدى هذه الثلاث تحرم قتالهم (ثم ادعهم إلى الإسلام) ثم زائدة ويحتمل أنها من كلام الراوي أي (ثم قال ادعهم إلى الإسلام) (فإن هم أجابوك فاقبل منهم ، ثم ادعوهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين ، وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين ، وعليهم ما على المهاجرين ، فإن أبوا أن يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين ، يجري عليهم حكم الله تعالى ، ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين) ذكر هنا الفرق بين الأعراب وبين المهاجرين فإن الأعراب لا يكون لهم من الغنيمة والفيء شيء لأنهم لم يكونوا حراساً للإسلام ولا ناشرين له كالمهاجرين والمراد بالمهاجرين المستوطنين في المدن والقرى وإنما حكم لهم بالغنيمة والفيء دون الأعراب لأن العدو إذا قدم بلاد المسلمين فإنه يقصد المدن والقرى ويحاصر المهاجرين أهل البلد لأنهم حصن الإسلام ودعاته وليس من العدل أن يكون الذي هو عرضة للعدو فيحمي الدين ويذب عنه ينشره كمن هو بعيد عن ذلك من الأعراب ولذلك يطلب من الأعراب الهجرة إن أرادوا الأخذ من

الغنيمة والفيء وإن أبوا فليس لهم شيء إلا أن يجاهدوا فيأخذون من الغنيمة دون الفيء 0 وقال أحمد لهم حقٌ في الفيء مطلقاً وفي الغنيمة إن جاهدوا (القول المفيد 485/2) قلت والحديث صريحٌ في أنهم ليس لهم في الغنيمة ولا الفيء شيء إلا أن يجاهدوا 0

(فإن هم أبوا فاسألهم الجزية) الجزية مالٌ يؤخذ من الكفار على وجه الصغار عوضاً عن قتلهم أو إخراجهم فإن دفعوها عصموا دماءهم وأموالهم وأعراضهم ولذلك قال (فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم ، فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم) وكان دمهم ومالهم وأعراضهم حلال 0

(وإذا حاصرت أهل حصن) أي طوقتهم وضيقت عليهم (فأرادوك) أي طلبوا منك (أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه) أي قالوا ننزل على أن تعاهدنا بالله ورسوله على ما نتفق عليه (فلا تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه ، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك ، فإنكم إن تخفروا ذممكم وذمم أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة نبيه) فالذمة العهد والخفر النقض ثم ذكر في الحكم نحوه فقال (وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله ، فلا تنزلهم على حكم الله ، ولكن أنزلهم على حكمك . فإنك لا تدري ، أتصيب فيهم حكم الله أم لا) غير أن الحكم جعله للأمير دون أصحابه وذلك أن الأمير في السابق يكون أعلم أصحابه بالشرع فيحكم به وهو لا يتجزأ فشرع الله واحد ، بخلاف الذمم فإن لكل مسلم حق في الأمان لكن بحسبه فالجندي يحق له أن يؤمن رجلاً أو رجلين وقائد الجيش يؤمن حصناً أو حصنين وإمام المسلمين يجوز له عقد الأمان مع جميع الكفار على خلافٍ في بعض التفاصيل كمدة الأمان ونحو ذلك 0

والحديث يدل على جواز الاجتهاد وأن المراد بالاجتهاد هو طلب حكم الله في المسائل التي لا نص فيها على شروطٍ معروفةٍ عند أهل العلم ليس هذا موضع بحثها ، وكونه ينزلهم على حكمه ولا ينزلهم على حكم الله مع أن أصل حكمه راجعٌ إلى ما فهمه من حكم الله ، لكونه غير متأكدٍ بالقطع أنه أصاب حكم الله فكونه يقول أنزلكم على حكم الله ثم قد يجتهد فيخطئ فيكون قد أنزلهم على حكمٍ ليس هو حكم الله فمن باب تحري الصدق في التعامل مع الناس فينبغي أن يقول : أنزلكم على حكمي 0 لكن قال العثيمين : إن أنزلهم على حكم الله فيصح ولكن يحترز فيقول : ننزلكم على ما نفهم من حكم الله 0 ثم قال : واخترنا هذه العبارة لأن الاجتهاد قد يتغير فيأتي أميرٌ آخر فيحارب هؤلاء أو غيرهم ثم يغير الحكم بناءً على اجتهاده ويقول إن هذا حكم الله فيقول الكفار إن أحكام المسلمين متناقضة 0 (القول المفيد 489/2، 490) والحديث يدل على عدم جواز الإغارة على العدو إلا بعد أن يخيره في هذه الثلاث وأما إغارة النبي صلى الله عليه وسلم على بني المصطلق فلكونهم قد بلغتهم دعوة الإسلام 0

ويدل الحديث على جواز أخذ الجزية من جميع الكفار وهو قول مالك والأوزاعي وقال أبو حنيفة لا تؤخذ إلا من مشركي ومجوس العرب ، وقال الشافعي لا تؤخذ إلا من أهل الكتاب وأضاف أحمد المجوس لحديث (سنوا بهم سنة أهل الكتاب) (فتح المجيد 564) ورجح العثيمين مذهب مالك والأوزاعي (القول المفيد 490/2) وقد بسطت الكلام على هذه المسائل في كتابي (الكامل في أحكام الجهاد) فراجعه إن شئت 0

((باب ما جاء في الإقسام على الله))

عن جندب بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (قال رجل : والله لا يغفر الله لفلان ، فقال الله عز وجل : من ذا الذي يتألى عليّ أن لا اغفر لفلان؟ إني قد غفرت له وأحبطت عملك) رواه مسلم وفي حديث أبي هريرة أن القائل رجل عابد ، قال أبو هريرة : تكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته .

الإقسام على الله هو أن تحلف أن يفعل الله كذا أو لا يفعل كذا 0 وهو ثلاثة أقسام :

القسم الأول / الإخبار بما ثبت في الكتاب والسنة كأن يقول : والله لا يغفر الله لمشرك 0 فهذا جائز 0

القسم الثاني / أن يقسم على الله لحسن ظنه بالله وقوة رجائه له فهذا جائز لحديث (رب أشعث مدفوعٍ بالأبواب لو أقسم على الله لأبره) رواه مسلم

القسم الثالث / أن يقسم على الله معجباً بنفسه أو مسيئاً الظن بربه أو متحجراً فضله ورحمته أو نحو ذلك فهذا لا يجوز 0 وهذا القسم هو المتعلق بهذا الباب الذي أورده المؤلف وإنما ذكره في كتاب التوحيد لأنه ينبغي أن يعظم الرب جل وعلا فلا يتألى عليه فهو الفعال لما يريد وينبغي أيضاً أن يحسن الظن بربه ويرجوا فضله ورحمته وهذا من كمال التوحيد 0

هذا الحديث رواه مسلم عن جندب بهذا اللفظ ورواه أبو داود عن أبي هريرة بلفظ آخر ونصه : قال أبو هريرة رضي الله عنه سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (كان رجلان في بني إسرائيل متواخيين فكان أحدهما يذنب والآخر مجتهد في العبادة فكان لا يزال المجتهد يرى الأخر على الذنب فيقول أقصر فوجده يوماً على ذنب فقال له أقصر فقال خلني وربي أبعثت علي رقيباً فقال والله لا يغفر الله لك أو لا يدخلك الله الجنة فقبض أرواحهما فاجتمعا عند رب العالمين فقال لهذا المجتهد كنت بي عالماً أو كنت على ما في يدي قادراً وقال للمذنب اذهب فادخل الجنة برحمتي وقال للآخر اذهبوا به إلى النار) قال أبو هريرة : والذي نفسي بيده لتكلم بكلمة أو بقت دنياه وأخرته 0 صححه الألباني وقد يكون الرجل نفسه ولكن اختصر الحديث جندب أو يكون غيره والعلم عند الله والمقصود أن خطر اللسان عظيم وأنه حريٌّ بالحبس إلا مما تأكد نفعه وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت) متفق عليه وقال لمعاذ (وهل يكب الناس في النار على وجوههم أو قال على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم) رواه أحمد والترمذي وبن ماجة وغيرهم وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب حديث رقم (2866) وقال (وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت فيكتب الله عليه بها سخطه إلى يوم القيامة) رواه أحمد والترمذي وبن ماجة وغيرهم وصححه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم (1619)

ولذا قال أبو هريرة : تكلم بكلمة أوبقت أي أهلكت دنياه فلم ينتفع من عباداته وآخرته فدخل النار فاحذروا كل الحذر يا عباد الله من خطر اللسان والتألي على العلي المنان فإن الأمر خطير جداً 0

((باب لا يستشفع بالله على خلقه))

عن جبير بن مطعم قال : جاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله : نهكت الأنفس ، وجاع العيال ، وهلكت الأموال ، فاستسق لنا ربك ، فإنا نستشفع بالله عليك وبك على الله ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم (سبحان الله ! سبحان الله !) فما زال يسبح حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه ؛ ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم (ويحك ، أتدري ما الله ؟ إن شأن الله أعظم من ذلك ، إنه لا يستشفع بالله على أحد من خلقه) وذكر الحديث رواه أبو داود .

الشافع في الغالب يكون أقل درجة ممن يشفع عنده ولو كان أعلى منه لأمره مباشرة ولذا كان الاستشفاع بالله على خلقه تنقصٌ له جل وعلا فالله جل وعلا هو مالك الملك لا مانع لما أعطى ولما معطي لما منع هو الفعال لما يريد والخلق كلهم عبيده تحت تصرفه وقدرته فلا يحتاج أن يشفع عند أحدٍ منهم ولذلك أنكر النبي صلى الله عليه وسلم هذا القول غاية الإنكار كما سيأتي تحذيراً من الوقوع في مثل هذه الأقوال وتعظيماً لجناب الرب جل وعلا 0

والشفاعة هي التوسط للغير بجلب خيرٍ أو دفع ضرٍ عنه وهي مستحبة بين المخلوقين وتسمى الشفاعة الحسنة ما لم يكن فيها ظلم وهضم لحق أحد فإن كان فيها ظلم لآخر كانت شفاعة سيئة وغالب ما يستخدم في زماننا الشفاعة السيئة فيتوسط لغير الكفء في الوظائف الحكومية ونحوها ويحرم منها الكفء وهذا جرمٌ عظيمٌ في حق البلد وفي حق الإسلام والمسلمين فكيف يمنعون الأكفاء الذين تقوم بهم البلاد وينتفع بهم العباد ويقام مكانهم من هو أقل منهم لأجل أن عنده واسطة فهذه شفاعة سيئة لا تجوز فيجب التحذير منها والكف عنها 0

وأما الاستشفاع بالمخلوق عند الخالق جل وعلا فيجوز بالحي القادر الصالح الحاضر والمراد بدعائه أي تسأله أن يدعوا لك أن يغفر الله لك ونحو ذلك فتلك شفاعته ، وقد تقبل وقد لا تقبل ، ويدل على أن هذا هو المقصود بالشفاعة حديث الأعمى الذي رواه الترمذي والنسائي وبن ماجة وصححه الألباني عن عثمان بن حنيف رضي الله عنه أن رجلاً ضرير البصر أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : ادع الله لي أن يعافيني فقال (إن شئت أخرت لك وهو خير وإن شئت دعوت 0 فقال ادعه 0 فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه ويصلي ركعتين ويدعو بهذا الدعاء اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بمحمد نبي الرحمة يا محمد إني قد توجهت بك إلى ربي في حاجتي هذه لتقضى اللهم فشفعه في) أي فاقبل دعائه فيَّ 0

وقولنا (بالحي) احترازاً من الميت فلا يجوز الاستشفاع به مطلقاً ، وأما شبهة أهل البدع أن الأنبياء والشهداء أحياء في قبورهم ، فتلك حجة داحضة لأن حياتهم في البرزخ تختلف عن الحياة الدنيا فلا يستطيعون الكلام مع أحدٍ من أهل الدنيا ولا الدعاء له ولا ينفعون أحداً ولا يضرونه بل ولا يدرون عن حال أحدٍ من أهل الدنيا ولو كان على شفير القبر إلا ما ورد النص به كسمع الميت قرع نعال أهله إذا انصرفوا من عنده وكتبليغ الملائكة للنبي صلى الله عليه وسلم سلام أمته وما دون ذلك فهم غافلون عن أهل الدنيا لا يدرون عنهم ولذلك قال تعالى {وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ (28) فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ} (29) سورة يونس وقال تعالى {وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ (5) وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ

أَعْدَاء وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ} (6) سورة الأحقاف ولم يكن الصحابة الكرام يستشفعون بالنبي صلى الله عليه وسلم بعد موته مع قربهم من قبر النبي صلى الله عليه وسلم وقرب زمنه منهم ولما كان عام الرمادة استشفع عمر والمسلمون بالعباس عم النبي صلى الله عليه وسلم فقال عمر : اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا اللهم فإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا 0 رواه البخاري وقد روى الزبير بن بكار في (الأنساب) أن العباس لما استسقى به عمر قال: اللهم إنه لم ينزل بلاء إلا بذنب، ولم يكشف إلا بتوبة، وقد توجّه القوم بي إليك لمكاني من نبيك، وهذا أيدينا إليك بالذنوب، ونواصينا إليك بالتوبة، فاسقنا الغيث 0 قال: فأرخت السماء مثل الجبال حتى أخصبت الأرض، وعاش الناس 0

قال الألباني في الإرواء : روى الحافظ ابن عساكر في تاريخه بسند صحيح عن التابعي الجليل سليم ابن عامر الخبائري : أن السماء قحطت فخرج معاوية بن أبي سفيان وأهل دمشق يستسقون فلما قعد معاوية على المنبر قال : أين يزيد بن الأسود الجرشي ؟ فناداه الناس فأقبل يتخطى الناس فأمره معاوية فصعد على المنبر فقعد عند رجليه فقال معاوية : اللهم إنا نستشفع إليك اليوم بخيرنا وأفضلنا اللهم إنا نستشفع إليك اليوم بيزيد بن الأسود الجرشي يا يزيد ارفع يديك إلى الله فرفع يديه ورفع الناس أيديهم فما كان أوشك أن ثارت سحابة في الغرب كأنها ترس وهبت لها ريح فسقتنا حتى كاد الناس أن لا يبلغوا منازلهم . وروى ابن عساكر أيضا بسند صحيح أن الضحاك بن قيس خرج يستسقي بالناس فقال ليزيد بن الأسود أيضا : قم يا بكاء 0 زاد في رواية : فما دعا إلا ثلاثاً حتى أمطروا مطرا كادوا يغرقون منه . فلو جاز الاستشفاع بالميت لما عدلوا عن النبي صلى الله عليه وسلم إلى غيره ، فتبين أن الاستشفاع بالميت والتوسل به لا يجوز وتبين أن المراد بالتوسل والاستشفاع بالمخلوقين أي بدعائهم والميت لا يستطيع الدعاء لأحد ، فلا يجوز الاستشفاع به ، وحينئذٍ يكون الاستشفاع بالميت هو من جنس استشفاع المشركين بآلهتهم فإن أغلب الآلهة المعبودة إن لم يكن كلها أناس صالحون كعيسى وعزير واللات وود وسواع ويغوث ويعوق ونسرا وغيرهم لما ماتوا عبدوهم وصاروا يستشفعون بهم ولذلك أخبر الله عنهم بقوله {وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللّهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} (18) سورة يونس فهذا هو الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله كما قال تعالى {إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا } (48) سورة النساء

عن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال : جاء أعرابيٌ إلى النبي صلى الله عليه وسلم 0 لم يذكر جبير اسم الأعرابي ستراً عليه وهكذا ينبغي للمسلم أن يستر ما يراه من زلات أخيه لحديث (ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا

والآخرة) رواه مسلم ومن أسماء الله (الستير) فهو الذي يستر على عباده رغم معصيتهم له وهذا من تمام رحمته وكمال عفوه ومنته ، ولا مانع من التحذير من المنكر الذي وقع فيه بل هو واجب ولكن لا يذكر اسم الواقع فيه إلا إذا عظم خطره وخيف من ضرره فيذكر اسمه للتحذير منه ليأمن المسلمون في دينهم وأنفسهم وأموالهم وأعراضهم 0

(فقال : يا رسول الله ، نهكت الأنفس) أصابها الضعف يقال نهكته الحمى، إذا أجهدته وأضنته (وجاع العيال وهلكت الأموال) هكذا نقله المصنف والذي وجدناه في أبي داود عن جبير قال : أتى رسول الله صلى الله عليه و سلم أعرابي فقال يا رسول الله جهدت الأنفس وضاعت العيال ونهكت الأموال وهلكت الأنعام فاستسق الله لنا فإنا نستشفع بك على الله ونستشفع بالله عليك قال رسول الله صلى الله عليه و سلم ويحك أتدري ما تقول وسبح رسول الله صلى الله عليه و سلم فما زال يسبح حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه ثم قال ويحك إنه لا يستشفع بالله على أحد من خلقه شأن الله أعظم من ذلك ويحك أتدري ما الله إن عرشه على سمواته لهكذا وقال بأصابعه مثل القبة عليه وإنه ليئط به أطيط الرحل بالراكب) رواه أبو داود وضعفه الألباني في مشكاة المصابيح حديث رقم (5727) والجهد والنهك بمعنىً واحد وابتداء الأعرابي بهذه المقدمة ليبين للنبي صلى الله عليه وسلم الحالة التي وصلوا إليها بسبب انقطاع المطر ثم أعقب ذلك بالطلب فقال (فاستسق الله لنا) فهذا الأعرابي على قصور علمه وقلة فقهه إلا أنه متيقنٌ أن المطر والغيث والسقيا من عند الله وحده وأن النبي صلى الله عليه وسلم لا يستطيع إنزال الغيث ولا شفاء المرضى ولا غير ذلك مما هو من خصائص الله جل وعلا فلا يقدر على ذلك إلا الله فالله جل وعلا هو الذي ينزل الغيث وهو الذي يشافي المرضى وهو الذي يقضي الحوائج ويفرج الكروب فلا يدعى إلى الله ولا يستغاث إلا به 0

ثم قال الأعرابي (فإنا نستشفع بك على الله ونستشفع بالله عليك) أي نجعلك شفيعاً لنا عند الله ونجعل الله شفيعاً لنا عندك 0 قال رسول الله صلى الله عليه و سلم (ويحك أتدري ما تقول وسبح رسول الله صلى الله عليه و سلم فما زال يسبح حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه) استفظع النبي صلى الله عليه وسلم هذا القول وأنكره وأخذ ينزه ربه جل وعلا ويقول (سبحان الله ، سبحان الله ، سبحان الله) يكرر ذلك والتسبيح هو تنزيه الرب جل وعلا عما لا يليق بجلاله وعظمته فما زال يكرر التسبيح حتى تأثر الصحابة رضي الله عنهم وعرفوا أن الرجل قد ارتكب منكراً عظيماً وقال النبي صلى الله عليه وسلم (ويحك) وهي كلمة تحذير ثم بين له المصطفى صلى الله عليه وسلم فداحة قوله فقال (إنه لا يستشفع بالله على أحد من خلقه) أي لا يطلب

من الله أن يكون شفيعاً عند أحدٍ من خلقه (شأن الله أعظم من ذلك ويحك أتدري ما الله ؟ إن عرشه على سمواته لهكذا وقال بأصابعه مثل القبة عليه وإنه ليئط به أطيط الرحل بالراكب)

تنبيه / هذا الحديث لا يعارض حديث (من سأل بالله فأعطوه) وحديث (أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن) ونحوها من الأحاديث التي يسأل فيها المخلوق بالله وهذا لا يقتضي أن تكون مرتبة المسئول به أقل من مرتبة المسئول بل هي أعظم فكأنه يقول : أسألك بمن تعظمه 0 بخلاف الاستشفاع فإنه لا يمكن أن يقال فيه مثل هذا بل يرى المشفوع عنده أنه أعلى مرتبة من الشافع ولذا لا يجوز الاستشفاع بالله على أحدٍ من خلقه

وفي الحديث إثبات علو الله على خلقه وأن عرشه فوق سمواته وفيه تفسير الاستواء بالعلو كما فسره الصحابة والتابعون والأئمة خلافاً للمعطلة ومن نحا نحوهم من أهل التأويل والتحريف ، وقد فصلنا هذه المسائل وبينا الأدلة والرد على المبتدعة في كتابنا (طريق الناجين) فراجعه إن شئت 0

((باب ما جاء في حماية النبي حمى التوحيد ، وسده طرق الشرك))

عن عبد الله بن الشخير قال : انطلقت في وفد بني عامر إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقلنا : أنت سيدنا ، فقال (السيد الله تبارك وتعالى) قلنا : وأفضلنا فضلاً ، وأعظمنا طولاً . فقال (قولوا بقولكم ، أو بعض قولكم ، ولا يستجرينكم الشيطان) رواه أبو داود بسند جيد . وعن أنس رضي الله عنه أن ناساً قالوا : يا رسول الله : يا خيرنا وابن خيرنا ، وسيدنا وابن سيدنا ، فقال : « يا أيها الناس ، قولوا بقولكم ، ولا يستهوينكم الشيطان ، أنا محمد ، عبد الله ورسوله ، ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله عز وجل) رواه النسائي بسند جيد .

بعد أن ذكر المصنف حقيقة التوحيد وكثيراً من الأبواب المتعلقة به وذكر ما يضاده أو ينقصه جاء بهذا الباب في آخر الكتاب إذ ليس بعده إلا باب فكأنه يقول لطالب العلم والحق : بعد أن عرفت التوحيد والشرك يجب عليك أن تسعى لحماية التوحيد والذب عنه وتبدأ بنفسك فتعمل بالتوحيد وتبتعد عن كل الطرق المقربة من الشرك ولتكون أبعد الناس عنه ثم تدعوا الناس إلى ذلك 0

باب ما جاء في حماية النبي صلى الله عليه وسلم حمى التوحيد وسده طرق الشرك 0 جعل المصنف للتوحيد حمىً كقوله صلى الله عليه وسلم (الحلال بين والحرام بين وبينهما مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه ألا وإن لكل ملك حمى ألا وإن حمى الله محارمه) متفق عليه فكذلك التوحيد له حمىً لا ينبغي القرب منها والمراد تحريف النصوص الدالة على التوحيد أو تأويلها أو نسفها بالتعطيل كما فعل المبتدعة فالتوحيد موقوف على الكتاب والسنة وإجماع الأمة ويحظر إدخال ما ليس منه فيه بأي طريقةٍ كانت ، ولذلك حمى النبي صلى الله عليه وسلم حمى التوحيد وسد كل الطرق التي تؤدي إلى ما يضاده وهو الشرك وكذا ما ينقصه من البدع والمعاصي 0

عن عبد الله بن الشخير رضي الله عنه قال : انطلقت في وفد بني عامر أي كان مع وفد قبيلته إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليعلنوا إسلامهم وولائهم ونصرتهم للنبي صلى الله عليه وسلم ولعل ذلك كان في السنة التاسعة من الهجرة لأنها السنة التي كثر فيها الوفود حتى سمي بعام الوفود فقلنا : أنت سيدنا أي لك السؤدد والشرف والسمو والعظمة علينا ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم مبيناً لهم من هو الذي له السيادة المطلقة (السيد هو الله تبارك وتعالى) أي هو صاحب العظمة المطلقة والعلو المطلق والكمال المطلق ولذلك لا يطلق السيد بأل التعريف التي يراد منها العموم إلا على الله جل وعلا ولكن يطلق على المخلوق مضافاً فيقال :

سيد بني فلان ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم للأوس (قوموا إلى سيدكم) يريد سعد بن معاذ وقال صلى الله عليه وسلم (أنا سيد ولد آدم ولا فخر) وقال في الرقيق (وليقل سيدي ومولاي) فهذا يدل على جواز إطلاقها مضافة وأما مطلقة فلا يجوز إلا لله تعالى ، وكذلك إن خشي على المخلوق إذا قيل له ذلك أن يتعاظم أو يتكبر فلا تقال له ، وكذا إن خشي على القائل الغلو فينكر عليه كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم مع هذا الوفد خشي أن يغلوا فيه ، ولا يقال لمن لا يستحق السيادة على المؤمنين كالمنافق والزنديق لقول النبي صلى الله عليه وسلم (لا تقولوا للمنافق سيد فإنه إن يك سيداً فقد أسخطتم ربكم) رواه أبو داود وصححه الألباني في مشكاة المصابيح حديث رقم (4780) قال : قلنا : وأفضلنا فضلاً أي أن فضلك تجاوز فضلنا حتى صار لك الفضل علينا وأعظمنا طولاً أي شرفاً وغنى قال تعالى {وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مِّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ } (25) سورة النساء أي لم يكن عنده من الغنى ما يستطيع به نكاح الحرائر فلينكح الإماء المؤمنات وقال تعالى {غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ} (3) سورة غافر أي ذي العظمة والغنى وليس طول الله كطول المخلوق فطول الله مشتملٌ على كل معان العظمة والكبرياء والغنى المطلق بخلاف طول المخلوق فإن طوله بقدر ضعفه وحاجته ، ولذلك لم ينكر النبي صلى الله عليه وسلم وصفهم له بهذه الأوصاف إذ هو أحق من وصف بها من المخلوقين لكن خشي النبي صلى الله عليه وسلم أن يغلوا فيه فقال (قولوا بقولكم أو بعض قولكم) أي أنا لا أمنعكم من قولكم هذا سواءً كله أو بعضه ولكني أخشي أن يكون هذا القول فيه مدخلٌ للشيطان عليكم أو على غيركم ولذلك قال (ولا يستجرينكم الشيطان) أي يجعلكم تجرون في طريقه دون أن تشعروا فتبالغون بالمدح ثم يزداد الأمر فيفضي بكم إلى الغلو فاحذروا من الشيطان فإنه يجري من ابن آدم مجرى الدم 0 قال العثيمين : أي لا يستمليكم الشيطان ويجذبكم إلى أن تقولوا قولاً منكراً 0 (القول المفيد 519/2) وهو قريب من معنى (ولا يستهوينكم الشيطان) في الحديث الآخر أي يجعلكم تتبعونه وتهوون طريقه حتى تبلغوا الغلو ، والحديث الآخر فيه زيادة توضيح ولذلك ذكره المصنف ونصه :

عن أنس أن أناساً قالوا يا رسول الله صلى الله عليه وسلم يا خيرنا وابن خيرنا وسيدنا وابن سيدنا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (يا أيها الناس قولوا بقولكم ولا يستهوينكم الشيطان أنا محمد بن عبد الله ورسوله ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي الذي أنزلني الله عز وجل) ولعل النبي صلى الله عليه وسلم أنكر على هؤلاء لكونهم حدثاء عهد بجاهلية ولم يسلموا إلى قريباً فلم يتشربوا العلم والإيمان فخشي عليهم من مكايد الشيطان وأن يغلوا فيه ، وأما الفقيه العالم فلا يخشى عليه ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم في محضرٍ من الصحابة

أهل العلم (أنا سيد ولد آدم) لأنه يعلم أنهم يعلمون معنى السيادة هنا والفرق بينها وبين سيادة رب العالمين فلا يخشى عليهم من الغلو بخلاف هؤلاء فقد أنكر عليهم لقلة علمهم بالله وما يجب له فخشي عليهم من الغلو فيه والتفريط في جانب الله فسد هذا الطريق عليهم ، وهكذا ينبغي على الداعية أن يعرف حال المدعوين ليلقي على كل فريقٍ ما يناسب حالهم 0

وقوله (أنا محمد عبد الله ورسوله) يرد على طائفتين أهل الغلو وأهل التفريط فقوله (عبد الله) يرد على أهل الغلو الذين جعلوه في منزلة الله وصرفوا له مما هو من محض حق الله جل وعلا حتى قال قائلهم :

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به سواك عند حصول الحادث العمم

إن لم تكن آخذاً يوم المعاد يدي كـرماً فـقـل يا زلـة القـدم

فـإن من جودك الدنيا وضرتها ومن علومك علم اللوح والقـلم

فجعل الملاذ من الكرب له وجعل النجاة في الأخرى بيده وجعل الدنيا والآخرة من عطاءه فماذا ترك لله ؟ سبحانك هذا بهتانٌ عظيم 0

وفي قوله (ورسوله) ردٌ على أهل التفريط الذين أنقصوا قدره ووصفوه بأنه ساحر وشاعر وكاهن وكذاب وغير ذلك من الألقاب التي افتروها ليلبسوا على الناس 0 وكلا الطائفتين ضالة منحرفة والواجب عدم التقصير في حقه وعدم الغلو فيه بل نحبه ونعظمه ونثني عليه ونشهد أنه رسول الله صدقاً وحقاً وأنه بلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح للأمة، ولكن لا نغلوا فيه فنجعل له شيئاً من خصائص الله جل وعلا فهو عبدٌ مربوبٌ لربه جل وعلا ومقام العبودية من أشرف المقامات ولذا وصفه الله بذلك في أعظم المقامات فوصفه بذلك في مقام إنزال القران الذي هو أعظم الكتب فقال تعالى {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا } (1) سورة الفرقان ووصفه بذلك في مقام الإسراء فقال تعالى {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ} (1) سورة الإسراء وفي مقام المعراج {فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى} (10) سورة النجم وفي مقام الدفاع عنه {وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم مِّن دُونِ اللّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} (23) سورة البقرة فمقام العبودية لله جل وعلا من أشرف المقامات ولذلك قال الشاعر :

ومما زادني شرفاً وفخراً وكدت بأخمصي أطأ الثريا

دخولي تحت قولك يا عبادي وأن صيرت أحمد لي نبيا

وقوله (ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله عز وجل) وهي منزلة النبوة فلا يرفع إلى منزلة الرب جل وعلا ، وإنما أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يسد كل طريق يوصل إلى الشرك والكفر بالله جل وعلا

0

باب ما جاء في قول الله تعالى (وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا محمد! إنا نجد أن الله يجعل السماوات على إصبع ، والأرضين على إصبع ، والماء على إصبع ، والشجر على إصبع ، والثرى على إصبع ، وسائر الخلق على إصبع ، فيقول : أنا الملك . فضحك النبي صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه ، تصديقاً لقول الحبر ، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم (وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)الآية [الزمر : 67] . أخرجاه وفي رواية لمسلم : والجبال والشجر على إصبع ، ثم يهزهن فيقول : أنا الملك ، أنا الله . وفي رواية للبخاري : يجعل السماوات على إصبع ، والماء والثرى على إصبع ، وسائر الخلق على إصبع 0أخرجاه . ولمسلم عن ابن عمر مرفوعاً : « يطوي الله السماوات يوم القيامة ، ثم يأخذهن بيده اليمنى ، ثم يقول : أنا الملك ، أين الجبارون ؟ أين المتكبرون ؟ ثم يطوي الأرضين السبع ثم يأخذهن بشماله ، ثم يقول : أنا الملك ، أين الجبارون ؟ أين المتكبرون » ورُوي عن ابن عباس ، قال : « ما السماوات السبع والأرضون السبع في كف الرحمن إلا كخردلة في يد أحدكم » .

وقال ابن جرير : حدثني يونس ، أنبأنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد : حدثني أبي ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ما السماوات السبع في الكرسي إلا كدراهم سبعة ألقيت في ترس) قال : وقال أبو ذر : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد ألقيت بين ظهري فلاةٍ من الأرض) وعن ابن مسعود قال : بين السماء الدنيا والتي تليها خمسمائة عام ، وبين كل سماء وسماء خمسمائة عام

، وبين السماء السابعة والكرسي خمسمائة عام ، وبين الكرسي والماء خمسمائة عام ، والعرش فوق الماء ، والله فوق العرش ، لا يخفى عليه شيء من أعمالكم » . أخرجه ابن مهدي عن حماد بن سلمه عن عاصم عن زر عن عبد الله . ورواه بنحوه عن المسعودي عن عاصم ، عن أبي وائل ، عن عبد الله . قاله الحافظ الذهبي رحمه الله تعالى ، قال : وله طرق وعن العباس بن عبد المطلب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (هل تدرون كم بين السماء والأرض ؟) قلنا : الله ورسوله أعلم . قال (بينهما مسيرة خمسمائة سنة ، ومن كل سماء إلى سماء مسيرة خمسمائة سنة وكثف كل سماء مسيرة خمسمائة سنة ، وبين السماء السابعة والعرش بحر بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض ، والله فوق ذلك ، وليس يخفى عليه شيء من أعمال بني آدم) أخرجه أبو داود وغيره .

باب عظيم جليل ختم به المصنف كتابه وبدأ بآية عظيمة تتكلم عن قومٍ لم يقدروا الله حق قدره ولذلك أشركوا معه غيره ظناً منهم أن الله جل وعلا لا يستطيع بمفرده أن يمنعهم من كل بلاءٍ وضير ولا أن يجلب لهم كل نفعٍ وخير ، أو ظنوا أن الله لا يطلع على كل أعمالهم وأنه يخفى عليه شيءٌ من أمورهم ولذلك ورد عن بن مسعودٍ رضي الله عنه أنه سمع رجلين أو ثلاثة يقول بعضهم لبعض أتظنون أن الله يسمعنا فقالوا : إن رفعنا أصواتنا سمعنا وإن خفضنا وأسررنا لم يسمعنا تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً سبحانه يسمع دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء ويرى عروقها ، لا يخفى عليه شيء مهما تناهي في الخفاء والصغر هو القادر على كل شيء والعليم بكل شيء والمالك لكل شيء والمدبر لكل شيء فأنى يعجزه شيء أو يخفى عليه شيء 0 فهؤلاء القوم لم يعظموا الله حق التعظيم فصرفوا لغيره مما هو من محض حقه جل وعلا من إخلاص العبودية فأشركوا معه غيره ، وهذا لا يخص المشركين وحدهم بل يشمل طوائف الكفار والمنافقين بل وحتى عصاة المسلمين فلو قدروا الله حق قدره ما تجرؤا على معصيته ولكن لما قلَّ علمهم به قلَّ خوفهم منه ولذا قيل : من كان بربه أعرف كان منه أخوف 0 قال تعالى { إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ} (28) سورة فاطر أي إنما يخاف من الله حق الخوف الذين يعرفونه حق المعرفة وهم العلماء ، ولذلك ساق المؤلف هذه الآية وجعلها عنواناً لهذا الباب ويمكن أن يسمى هذا الباب (باب وجوب تعظيم الله ومعرفة قدره) أو (باب وجوب معرفة الله وتقديره حق قدره) ثم ساق الأحاديث التي تفسر بعضاً من مدلولات الآية وأعظم ما فسر به كتاب الله بعد كتاب الله سنة النبي صلى الله عليه وسلم فالسنة شارحة للكتاب ومبينة لمجمله وموضحة لمعانيه وكلاهما وحيٌ من الله كما قال تعالى {وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى (3) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى} (4) سورة النجم (عن بن مسعودٍ رضي الله عنه قال : جاء حبرٌ من الأحبار) وهم علماء اليهود (إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا محمد) وهذا من سوء أدبهم وقلة علمهم ومن تكبرهم وعنادهم فهم يعلمون أنه رسول

الله كما يعرف أحدهم أبناءه ولكن منعهم من اتباعه الكبر وأخذتهم العزة بالاثم والمؤدب منهم من يقول : يا أبا القاسم 0 وأما المؤمنون فينادونه بالنبوة والرسالة تأدباً معه وتعظيماً له واستجابةً لقول الله تعالى {لَا تَجْعَلُوا دُعَاء الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاء بَعْضِكُم بَعْضًا} (63) سورة النور وتكريم الرسول واحترامه وتعظيمه تعظيم لمن أرسله وهو الرب جل وعلا (قال : يا محمد إنا نجد) أي في التوراة ولا شك أن التوراة محرفة ولكن كان يوجد فيها أشياء مما لم يحرف كرجم الزاني وكهذا الخبر ونحو ذلك وإن كان بعد ذلك زادوا في التحريف فلربما لا نجد هذا الكلام موجوداً الآن ولقد ذكر العلماء أن شيخ الإسلام بن تيمية قد نقل كلاماً من الأناجيل في زمانه لم يجدوه في الأناجيل في الزمن الحاضر وليس بيننا وبين شيخ الإسلام إلا سبعة قرون فكيف وبيننا وبين النبي صلى الله عليه وسلم أربعة عشر قرناً فلا شك أنهم حرفوه كله 0 وعندنا قاعدة في التعامل مع ما يحكيه بني إسرائيل عن التوراة فما وافق ما عندنا عملنا به ، وما خالف ما عندنا لم نقبله ، وما سوى ذلك فلا نصدقه ولا نكذبه ولكن لا نعمل به حتى يوافق شرعنا 0 (قال : إنا نجد أن الله يجعل السماوات على إصبع ، والأرضين على إصبع ، والشجر على إصبع ، والماء على إصبع ، والثرى على إصبع ، وسائر الخلق على إصبع ، ثم يقول : أنا الملك 0 فضحك النبي صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه تصديقاً لقول الحبر ثم قرأ ((وما قدروا الله حق قدره ...)) الآية النواجذ أقصى الأضراس وضحك النبي صلى الله عليه وسلم وقراءته للآية بعد ذلك يدل على تصديقه لقول الحبر وهذا الذي جعله يضحك فرحاً لما جاء الخبر من عند غير المسلمين بما يصدق ما عندهم 0 وقوله تعالى ((وما قدروا الله حق قدره)) أي ما عظموه حق تعظيمه وما عرفوه حق معرفته وإلا لما تجرؤا على الإشراك به وتكذيب رسوله ثم بين تعالى بعضاً من قدرته فقال ((والأرض جميعاً) أي جميع الأراضين السبع بما فيهن وما على ظهرهن من البحار والجبال والأشجار وغير ذلك مما تتعاظمونه ويكبر في صدوركم فإن ذلك جميعاً سيكون في قبضة الرب جل وعلا يوم القيامة والحديث متفق عليه قال المؤلف وفي رواية لمسلم (والجبال والشجر على إصبع ثم يهزهن فيقول : أنا الملك ، أنا الله) وهذا يدل على أن عظمة الله ليس لها حدود وأنه صاحب الملك الحق وهو المعبود بحق فأين في ذلك اليوم ذو السلطان والجاه وأين المعبودات التي كانت تعبد من دونه أصبحت هباء منبثاً ، وأصبح أصحابها في حالٍ من الذل والهلع واتضح الحق فسبحان الله وبحمده وسبحان الله العظيم 0

وفي رواية للبخاري (يجعل السماوات على إصبع والماء والثرى على إصبع وسائر الخلق على إصبع) فجمع بين الماء والثرى وقد كان مفصولاً بينهما في الرواية الأولى قال العثيمين عن رواية البخاري: المراد بها الأرض كلها ا0هـ (القول المفيد 532/2) وخصَّ منها الماء والثرى لأنه أكثر ما فيها وقد يذكر الشيء بأعظم ما فيه ، ولعل

الماء والثرى في الرواية الأولى غير الماء والثرى في الرواية الثانية ففي الثانية ماء وثرى الأرض وفي الرواية الأولى الماء الذي تحت العرش وثرىً لا نعرفه غير الموجود على الأرض وكذلك الشجر ، أو يقال أنها هي هي نفسها ولكن الله جل وعلا يجمع بينهما مرة ويفصل بينهما مرة والله يفعل ما يشاء ، وعلى كلٍ فالواجب الإيمان بها من غير سؤالٍ عن الكيفية فإنا لا نعلم كيفية ذات الله جل وعلا فلا نعلم كيفية صفاته ومنها أصابعه جل وعلا ، ولذلك لا نستطيع الجزم أن الماء والثرى يجتمعان عليها مرة ويفترقان مرة فلربما كان اجتماعهما وافتراقهما في آنٍ واحد ، إذ أن أصابع الرب جل وعلا لا تشابه أصابع المخلوقين قطعاً لقوله تعالى {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ } (11) سورة الشورى فعلى المؤمن أن يؤمن بعظيم قدرة الله دون خوضٍ في صفات الله بغير علم ، وعقيدتنا أهل السنة إثبات ما أثبته الله لنفسه أو أثبته له رسوله من الأسماء الحسنى والصفات العلا من غير تمثيل ولا تكييف ولا تحريفٍ ولا تأويل ولا تعطيل فإثباتنا بريءٌ من التمثيل ونفينا بريءٌ من التعطيل ولا تلازم بين الإثبات والتمثيل فنحن نثبت للنملة يد وليس معنى ذلك أننا نمثلها بيد الفيل فلكلٍ ما يليق به فإذا كان هذا الاختلاف بين المخلوقات فكيف بين الخالق والمخلوق لا شك أنه لا تماثل البتة 0

ثم ذكر المصنف حديث بن عمر (يطوي الله السماوات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمنى) قال تعالى {يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاء كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ } (104) سورة الأنبياء وقال تعالى {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} (67) سورة الزمر (ثم يقول : أنا الملك أين الجبارون أين المتكبرون ، ثم يطوي الأرضين السبع ثم يأخذهن بشماله ثم يقول : أنا الملك أين الجبارون أين المتكبرون ؟)رواه مسلم وهذا الحديث يدل على كمال الله وقدرته وأن هذا العالم ليس بشيءٍ أمام قدرة الله وعظمته ، وفي الحديث إثبات أن لله يدين اثنتين تليقان بجلاله وعظمته ولا تعارض بين هذا الحديث وبين حديث (المقسطون على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين) رواه مسلم فالمراد باليمين هنا اليمن وهو الخير والبركة ويؤيد ذلك حديث (اخترت يمين ربي وكلتا يديه يمين مباركة) رواه الترمذي والحاكم وصححه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم (5209) وإنما ذكر النبي صلى الله عليه وسلم ذلك لئلا يتوهم متوهمٌ أن ذكر الشمال نقص فبيَّن أنها ليست كذلك بل هي كاليمين في الخير والبركة والقوة والعطاء وسائر الصفات 0 وقوله تعالى في الحديث (أنا الملك)أي المتفرد بالملك وكونه ذكر تفرده بالملك في ذلك اليوم مع أن ملك الدنيا والآخرة له فلكون الدنيا يكون فيها ملوك ورؤساء وأما الآخرة فلا يوجد فيها ذلك 0

وقوله (أين الجبارون ؟ أين المتكبرون ؟) للتحدي أي أين الذين تجبروا وطغوا وأفسدوا في الأرض ونسوا أن الله أقدر منهم ذهب ملكهم وانقطع ذكرهم وبقي الحي الذي لا يموت الذي له الجبروت والكبرياء والعظمة

الحقة ثم جزاءً لتكبرهم في الدنيا يحشرون أمثال الذر في الآخرة يطؤهم الناس لا يروهم احتقاراً لهم وجزاءً على تعديهم على ما هو من محض حق الله تعالى ، والحديث يدل على أن الأراضين سبع وقد قال تعالى {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ } (12) سورة الطلاق وقيل إن هذه الأراضين متداخلة بعضها في بطن بعض واستدلوا بحديث (من ظلم قيد شبر طوقه من سبع أراضين) والله لا يظلم أحداً فتبين أنه حين اغتصب الأعلى عوقب بالإتيان به يوم القيامة وبما تحته من الأراضين إلى الأرض السابعة والعلم عند الله تعالى 0

قال (وروي عن بن عباس قال : ما السماوات السبع والأرضون السبع في كف الرحمن إلا كخردلةٍ في يد أحدكم) قال العثيمين : الخردلة هي حبة نباتٍ صغيرة جداً يضرب بها المثل في الصغر والقلة (القول المفيد 535/2) والحديث رواه بن جرير وفيه عمرو بن مالك قال بن حجر : وثقه بن حبان ويعتبر حديثه من غير رواية ابنه 0 وقال الشيخ سليمان بن عبد الله في إبطال التنديد ص170: هذا الإسناد في نقدي صحيح 0(انظر حاشية القول المفيد 535/2) ومثل هذا الحديث لا يقال بالرأي فله حكم الرفع ، وهو دالٌ على عظمة الله فهذا العالم على عظمه وكبره بالنسبة لنا وسيأتي ما يدل على أنه أعظم مما نتصور ومع ذلك فهو كأصغر حبة نباتٍ وجدت على وجه الأرض بالنسبة لكف الرحمن فلك أن تتخيل مقدار سعة كف الرحمن جل في علاه من غير تكييفٍ ولا تمثيل فهذه كفه فكيف بذاته جل وعلا فتبارك الله رب العالمين {لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} (103) سورة الأنعام وفي حديث زيد مرفوعاً(ما السماوات السبع في الكرسي إلا كدراهم سبع ألقيت في ترس) الدراهم نقد من الفضة وهي صغيرة الحجم بالنسبة للترس وفي حديث أبي ذر مرفوعاً (ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد ألقيت بين ظهري فلاة من الأرض) والكرسي قيل هو موضع قدمي الرب جل وعلا كما فسره بذلك بن عباس ، والعرش هو المخلوق العظيم الهائل الذي استوى عليه الرحمن ولا يقدر قدره إلا هو فكما أن السماوات والأرض صغيرة بالنسبة للكرسي فكذلك الكرسي صغير بالنسبة للعرش فقوله (كحلقة) هي قطعة حديد دائرية وتكون في الدروع غالباً (ملقاة) أي مطروحة (في أرضٍ فلاة) أي في صحراء واسعة ، ولا شك أن هذه الحلقة لا تكاد ترى ولا يعثر عليها إلا صدفة لصغرها في هذه الصحراء الواسعة فكذلك هو الكرسي بالنسبة للعرش والله جل وعلا قد استوى على عرشه استواءً يليق بجلاله وعظمته وقد فسر السلف الاستواء بأربع تفسيرات قالوا هو (الاستقرار والعلو والصعود والارتفاع) ولذا قال بن القيم :

ولهم عبارات عليها أربع ... قد حصلت للفارس الطعان

وهي استقر وقد علا وقد ... ارتفع الذي ما فيه من نكران

وكذاك قد صعد الذي هو ... رابع وأبو عبيدة صاحب الشيبان

يختار هـذا القول في تفسيره أدرى من الجهـمي بالقـران

والأشعري يقول تفسير استوى بحقيقة استولى على الأكـوان

والاستواء في لغة العرب يرد مطلقاً ومقيداً فإذا أطلق كان معناه النضج والكمال كقوله تعالى {وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ} (14) سورة القصص وإذا ورد الاستواء مقيداً فإما أن يكون مقيداً بإلى فيكون معناه القصد بإرادةٍ تامةٍ كقوله تعالى {ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ} (11) سورة فصلت وإما أن يكون مقيداً بعلى فيكون معناه العلو والارتفاع والاعتدال بإجماع أهل اللغة قال تعالى عن سفينة نوح { وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ } (44) سورة هود أي علت واستقرت معتدلة عليه وقال تعالى {لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ} (13) سورة الزخرف أي إذا علوتم واستقريتم معتدلين عليها 0 فالاستواء يحمل معنى العلو والفوقية والارتفاع ويحمل معنى الصعود والاستقرار في لغة العرب وقد نزل القران بلغة العرب والله جل وعلا يخاطب العرب بما يفهمونه من لغتهم فمن صرف كلام الله عن مقتضى اللغة فعليه الدليل فإن جاءنا بدليلٍ من الشرع قبلناه أوجاءنا بدليل من اللغة ولا يخالف الشرع نظرنا فيه وجمعنا بين النصوص ، وإن كان مجرد اتباع هوى وأدلة مدحوضة لا حجة فيها رمينا بها عرض الحائط ، ولا دليل مقبول على تفسير الاستواء بغير ما ذكره السلف كتفسير الأشعرية له بالاستيلاء واستدلالهم على ذلك ببيتٍ ينسب للأخطل النصراني يقول فيه :

قد استوى بشرٌ على العراق من غير سيفٍ أو دمٍ مهراق

وما أكثر ما يستدلون بشعر الأخطل النصراني على أمور العقيدة الإسلامية كاستدلالهم على أن كلام الرب معنىً قائم في النفس بقول الأخطل :

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما جعل الكلام على الفؤاد دليل

وقد ردَّ عليهم شيخ الاسلام بن تيمية رحمه الله بقوله :

سحقاً لمن نبذ الكتاب وراءه وإذا استدل يقول قال الأخطل

فسبحان من أعمى بصائرهم عن اتباع الحق والهدى إلى اتباع نصرانيٍ لا يدين دين الحق وهكذا سائر طوائف الضلالة فإن الشيعة يتبعون لأقوال عبد الله بن سبأ اليهودي والجهمية يتبعون لأقوال لبيد بن الأعصم اليهودي وسوسن النصراني وأهل الكلام يتبعون لأقوال فلاسفة اليونان الوثنيين وأما أهل السنة فيتبعون كلام الرب جل وعلا وكلام نبيه صلى الله عليه وسلم وما عليه سلف الأمة من حسن الاعتقاد 0

حديث زيد وأبي ذر رضي الله عنهما ضعيف لضعف عبد الرحمن بن زيد وقد روي من طرق متعددة لكنها لا تسلم من ضعف لكن صحح الألباني حديث أبي ذر في تخريجه للطحاوية ويشهد القران لحديث زيد قال تعالى { وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ } (255 سورة البقرة ولحديث أبي ذر بكثرة ما وصف الله به عرشه بأنه عظيم ومجيد وكون الرب جل وعلا مستوٍ عليه شاهد على أنه عظيمٌ جداً 0

حديث بن مسعود جود إسناده الألباني في مختصر العلو وقال عنه الهيثمي رجاله رجال الصحيح قال المؤلف : قال الذهبي له طرق أي أن له طرقاً صحيحة إذ لو كانت ضعيفة لبينها الذهبي وما سكت عنها 0 وقال في (حاشية القول المفيد 540/2) : أخرجه الدارمي في الرد على الجهمية ص26 وفي النقض على المريسي ص90،105،273 وبن خزيمة في التوحيد 105،106،376،377 والطبراني في الكبير 8987 والبيهقي في الأسماء ص401 والخطيب في الموضح47/2 وصححه بن القيم في اجتماع الجيوش الإسلامية ص100 والذهبي في العلو ص64 وقال الهيثمي رجاله رجال الصحيح ا0هـ

والحديث يدل على علو الله تعالى على خلقه علو ذات وعلو قدر وعلو قهر وأنه جل وعلا لا منتهى لعلمه وقدرته وسمعه وبصره وكمال صفاته فسبحانه من إلهٍ ما أعظمه وما أجله 0 والحديث يدل على كبر هذا الكون بالنسبة إلينا وتقدم أنه كالخردلة في كف الرحمن 0

حديث العباس رضي الله عنه وهو ما يسمى بحديث الأوعال وقد حذف المصنف ذكر الأوعال في الحديث ونصه قال النبي صلى الله عليه وسلم (هل تدرون كم بين السماء والأرض ؟) قالوا : الله ورسوله أعلم 0 قال (بينهما مسيرة خمسمائة سنة ومن كل سماء إلى سماء مسيرة خمسمائة سنة وكثف كل سماء خمسمائة سنة وفوق السماء السابعة بحر بين أعلاه وأسفله كما بين السماء والأرض ثم فوق ذلك ثمانية أوعال بين ركبهن وأظلافهن كما بين السماء والأرض ثم فوق ذلك العرش بين أعلاه وأسفله كما بين السماء والأرض والله سبحانه وتعالى فوق ذلك وليس يخفى عليه من أعمال بني آدم شيء) رواه أحمد والترمذي والحاكم وغيرهم وضعفه الألباني في ضعيف الجامع حديث رقم (6093) ورواه أبو داود وفيه الوليد بن أبي ثور لا يحتج بحديثه لكن قال بن القيم في تهذيب سنن أبي داود : أما رد الحديث بالوليد بن أبي ثور ففاسد فإن الوليد لم ينفرد به بل تابعه عليه إبراهيم بن طهمان كلاهما عن سماك ومن طريقه رواه الترمذي عن عبد الله بن حميد (يريد عبد بن حميد) أخبرنا عبد الرحمن بن سعد عن عمرو بن أبي قيس ورواه بن ماجة من حديث الوليد عن سماك وأي ذنبٍ للوليد في هذا وأي تعلق عليه وإنما ذنبه روايته ما يخالف قول الجهمية وهي علته المؤثرة عند القوم 0ا0هـ (نقله في حاشية فتح المجيد ص586) وقال بن العربي في عارضته : إن خبر الأوعال متلقفٌ

من الإسرائيليات 0 (حاشية القول المفيد544/2) وسواءً صح الحديث أو لم يصح فلا شك أن سعة الكون عظيمة كما ثبت في الأحاديث الصحاح فالمقصود معرفة عظم هذه المخلوقات بالنسبة إلينا ثم معرفة حقارتها وصغرها بالنسبة للرب جل وعلا ليتبين لك أنه لا حدود لعظمة الله وكبريائه وقوته وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال (أذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله من حملة العرش إن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام) رواه أبو داود وصححه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم (854) فانظر إلى هذا الحجم الهائل لأحد المخلوقات فكيف بالخالق العظيم

وقد ختم المصنف كتاب التوحيد بهذا الباب ليعلم الناس عظمة الرب جل وعلا فيخافوه ويخشوه ويعظموه ويوحدوه ويعبدوه وحده دون من سواه فمن تحققت فيه هذه الصفات فاز وربح فنسأل الله بأسمائه الحسنى وصفاته العلا أن يجعلنا وإياكم من الفائزين وأن يغفر لنا ولكم الخلل والتقصير وأن يتجاوز عنا بمنه ورحمته وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

كان الفراغ من هذا الشرح يوم السبت الموافق (25 / 6 / 1432هـ) جعله الله مباركاً ونفع به عباده المؤمنين 0

((أهم المراجع))

1-فتح المجيد للشيخ عبد الرحمن بن حسن ال الشيخ طبعة دار السلام السادسة

2-القول المفيد للشيخ محمد بن صالح العثيمين طبعة دار بن الجوزي الثانية

3- حاشية كتاب التوحيد لعبد الرحمن بن قاسم الطبعة الخامسة ولم تذكر دار الطباعة وأظنها دار بن القاسم لأحفاد الشيخ رحمه الله 0

4-المصباح المنير في تهذيب تفسير بن كثير إعدَّ بإشراف الشيخ صفي الرحمن المباركفوري طبعة دار السلام الأولى

5-أضواء البيان لمحمد الأمين الشنقيطي طبعة دار إحياء التراث العربي الطبعة الأولى

6- مختصر تفسير البغوي للدكتور عبد الله بن أحمد الزيد طبعة خاصة بجهاز الإرشاد والتوجيه بالحرس الوطني 1421هـ

7-برنامج المكتبة الشاملة

8-برنامج مكتبة الألباني

((فهرس الموضوعات))